أ. الدكتور عبد المالك مرتاض

أدبُ المقاومةِ الوطنيّةِ في الجزائرِ

1830-1962

رصد لصور المقاومة في النثر الفنّي

الجزء الثانيّ





سلسلة منشورات المركز الوطني للدّراسات والبحث
في الحركة الوطنيّة وثورة أوّل نوفمبر 1954

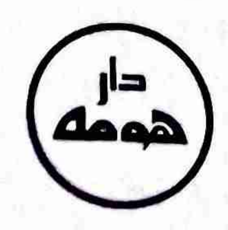
الأستاذ الدكتور عبد الملك مرتاض

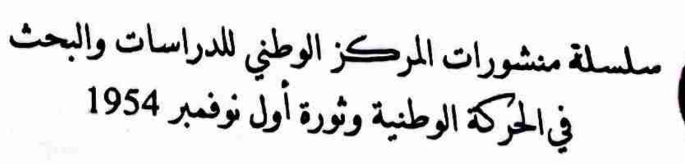
أدب المقاومة الوطنية في الجزائر

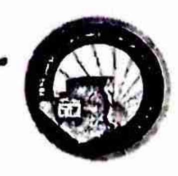
(1830-1962)

- رصد لصور المقاومة في النثر الفني-

الجزء الثاني




سلسلة منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث
في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954



صنف : 4/040
– الإيداع القانوني : 5602/2009
– ردمك : 1-366-65-9961-978

www.editionshouma.com
email : Info@editionshouma.com

مقدّمة الجزء الثاني

لقد ظلّ النثر الفنّيّ، في فترة ما من تاريخ الأدب العربيّ الطّويل، وخصوصاً في عصور ما قبل الإسلام، دون الشّعر مكانةً، وأهونَ في التّلقّي شأناً؛ إلى أن جاء اللّه بالإسلام، ونزل القرآن العظيم الذي هو ليس شعراً، ولكنّه ليس نثراً تقليديّاً أيضاً خالصاً؛ ففتّح عيون العرب الفصحاء على بلاغة جديدة لم يألفوها من ذي قبل، وواجه فصحاءهم بنُسُوج من العربيّة عِجَاب، تحدّاهم بأن يأتوا بسورة من مثلها، في مثله، فبُهِتوا وأذعنوا؛ لأنّهم لم يكونوا عرفوا لها أشباهاً ولا نظائرَ فيما كانوا يعرفون، من قبل، من زُخرف القول، وهم الفصحاءُ الأبْيِناء.

ثمّ واكب ذلك بداية العهد الذّهبيّ لجنس الخطابة[1] فبدأ شأن الشّعر يتقلّص قليلاً قليلاً، وإن ظلّ، أثناء ذلك، هو الجنسَ الأدبيّ العربيّ الأوّل -خصوصاً في مجالات المدح والهجاء والوصف- وذلك على الرّغم من أنّ المقامة الفنّيّة التي ظهرت في النّصف الثاني من القرن

[1] نطلق على الخطابة مصطلح «جنس أدبيّ» لأنّ هذا الشّكل من الأدب ليس قصيدة، ولا مقامة، ولا قصّة، ولا رواية، ولا مسرحيّة؛ ولكنّه خطبة تنهض على مقدّمة، وتناولِ غرض، وخاتمة. وقد ازدهرت، كما هو معروف، ازدهاراً عظيماً في العهدين الإسلاميّ والأموي خصوصا؛ فبرز خطباء مفوّهون أمثال علي بن أبي طالب، وسحبان وائل، وزيّاد بن أبيه، والحجّاج بن يوسف، وقطري بن المفاجأة بعد أن كان اشتهر بالتّفوّق الخطابيّ قسّ بن ساعدة الإيادي قبل ظهور الإسلام. غير أنّ شيوع الكتابة، وانتشار العُجْمة حالا دون تطوّر فنّ الخطابة أكثر من ذلك، أو الذهاب إلى أبعد من ذلك في الفنّ والزّمان.

الرّابع للهجرة على يد بديع الزّمان الهمذانيّ استطاعت أن تُسْــهم في تقليص دَور القصيدة ووظيفتها الجماليّة لدى المتلقّين.

ولعلّ من أجل ذلك ظلّ دور النّثر الفنّيّ، إلى الأزمنة المتــأخرة، محدود المكانة الأدبيّة، قاصرَ الوظيفة التبليغيّة، إلى أن شاعت الكتابـات الرّوائيّة والسّرديّة بشكل عامّ في الآداب الغربيّة في القــرون الثلاثـة الأخيرة خصوصاً، بعد عصور الدّراما والملحمة الشّـعريّة، ولم تكونـا تُكتَبان إلاّ شعراً؛ فانتقلت تلك العدوى الأدبيّــة الجميلـة إلى الأدب العربيّ فبدأ هذا الشّعر، أخيراً، يَنزِل عن عرشه العظيم للنّــثر الفنّــيّ، مضطرّاً لا مختاراً؛ فأمسى النّاس يقرءون الكتاباتِ السّرديّةَ أكثر ممّـا يقرءون الشّعر. بل لعلّ كثيراً منهم أمسى يودّ لو يجتزئ بالإِســتماع إليه في الْمَآقط تلقّياً، لا أن يتكلّف قراءته بين دفّتيْ كتاب.

ونحن حين جئنا نتناول صورة المقاومة الوطنيّة في الأدب الجزائريّ الحديث (1830–1962) لم نكد نجد في المرحلة الأولى من عهد الإِسـتعمار الفرنسيّ أيّ دور يذكر للنّثر الفنّيّ منه؛ فيما عدا بعــضَ الرّســائل المتفرّقة المحدودة العَدد، هنا وهناك. وكان يجب أن ننتظر إلى أن تضع الحربُ العالميّة الأولى أوزارَها لتبدأَ الكتاباتُ النّثريّة الجادّة مثل المقالـة الصّحفيّة، والمحاولات القصصيّة، وبعض الخُطَب التي كانت تُلقَــى في الْمَواقف العامّة وخصوصاً لدى عبد الحميد بن باديس وآخرين مــن

أعضاء جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين مثل ما وقع في مؤتمر الجمعيّة في نادي التّرقّي بمدينة الجزائر عام 1935.

وهنالك بدأ الكتّاب يُفْلتون من قيود الشّعر فأنشأنا نقرأ المذكّرات المتعلّقة بالرّحلات الدّاخليّة والخارجيّة. ومن الذين عالجوا هذه الأشكال الأدبيّة النّثريّة على عهد الحركة الوطنيّة عبد الحميد بن باديس الذي تحدّث عن رحلته إلى الغرب الجزائري (وقد نُشرت في مجلّة الشّهاب: 1931)[2]، ومحمّد الغسيري الذي تحدّث عن رحلته الطّويلة إلى المشرق العربيّ (وقد نشرت في جريدة البصائر: 1953)[3]، ومحمود بوزوزو الذي كتب انطباعاته عن البرلمان الفرنسيّ وقد زاره في رحلته إلى باريس (وقد نشرها في البصائر عام 1947)[4]، وحمزة بوكوشة الذي زار المغرب الأقصى فمكث فيه أربعين يوماً فلخّص أطوار زيارته كتابةً (وقد نشرها في البصائر عام 1948)[5].

وممّن كتب في السّيرة الذاتيّة في الأعوام الثمانية التي سبقت اندلاع ثورة التّحرير محمد البشِير الإبراهيمي، وأبو مدين الشّافعيّ، وإسماعيل العربيّ، وعثمان سعدي.[6]

---

2 الشّهاب، قسنطِينة، ج.11، م.7 نوفمبر 1931؛ ثم ج.8.، م.8، 1932.

3 نشرها مسلسلة في هذه الجريدة ابتداء من تاريخ 25 سبتمبر 1953. انظر البصائر، ع. 241 وما بعده.

4 نشرها في ثلاث حلقات، انظر البصائر: ع.11 الصادر في 20 10. 47، ص.2-3؛ ع.13، الصّادر في 10. 11. 47، ص.3و6؛ ع.15، الصادر في 1. 12. 47، ص.3و6.

5 نشرها في حلقة واحدة في العدد الحادي والثلاثين الصّادر في 12. 4. 1948، ص. 3.

6 ينظر عبد الملك مرتاض، فنون النّثر الأدبيّ في الجزائر، ص.300-322.

وكذلك توسّعت مجالات الكتابات النّثريّة وتعدّدت وظائفها، فانتقل المجتمع الثقافيّ من سلطة الشّعر إلى سلطة الكتابة بعامّة؛ فبدأ الكتّاب الجزائريّون (بل كانوا قبل ذلك حاولوا أن يأتوا شيئاً من ذلك حين كتب حمدان خوجة، وأحمد الباي، وأحمد بوضربة مذكّراتهم لدى بداية الاِحتلال الفرنسيّ لأرض الوطن؛ وذلك على الرّغم من أنّ هؤلاء ساسة ومؤرّخين قبل كلّ شيء، ولم يكونوا أدباءَ في شيء)[7] يكتبون المقالة الأدبيّة المتألّقة، والقصّة الجميلة الهادفة، والمقالة الصّحفيّة الممتعة؛ فاستحالت الوظيفة الأدبيّة التّعبيريّة التي كانت مقصورةً على الشّعر إلى النّثر الفنّيّ؛ فألفينا محمّداً السّعيد الزّاهري يكتب أوّل محاولة قصصيّة في تاريخ الأدب الجزائريّ الحديث ينشرها بجريدة الجزائر علم 1925 تحت عنوان: «فرانسوا والرّشيد» يتناول فيها مسألة المساواة السّياسيّة بين الجزائريّ والأوربيّ في الجزائر. وهو المبدأ الذي كانت فرنسا لا تزال تُعْنتُ نفسها في أنّها ترسّخه في الجزائر بحيث لا ينبغي أن يكون أيّ فرق، في سلّم القيم الإنسانيّة النّبيلة، بين جزائريّ مسلم، وفرنسيّ أو إسبانيّ من أبناء الاِستعمار في الجزائر.

لكنّ النّصّ السّرديّ الذي كتبه محمّد سعيد الزّاهري يعاكس هذه المزاعم الفرنسيّة ويفنّدها تفنيداً؛ ذلك بأنّ الرشيد الذي وُلدَ في يوم

[7] الحقّ أنّ مذكّرات خوجة والباي تشكّل عقبة فنّيّة في سبيل النّاقد الذي يريد تصنيفها أدبيّاً؛ وذلك بحكم أنّ النّصّين الأصليّين اللذين كُتبا باللّغة العربيّة ضاعا، أو لمّا العثور عليهما؛ والتعويل على التّرجمة من الفرنسيّة إلى العربيّة لا يعني من الوجهة النّسجيّة شيئا. غير أنّنا حين سنعرض لهذين العملين فلن يكون سبيلنا إلاّ على المضمون الذي هو، في الحقيقة، أساس دراستنا هذه بالقياس إلى عامّة النّصوص، ليس إلاّ...

واحد، وحيّ واحد، مع صديقه فرانسوا الذي كان يلاعبــه في عــهد الطفولة بحكم الجوار، لم يلبث أن أصيب بالصّدمة القاضيَة على الرّغـم ممّا كان المدرّسون الفرنسيّون يلقّنونه للأطفال الجزائريّين في المــدارس؛ فكانوا لا يزالون يلقّنونهم باطلاً أنّ الفرنسيّين، وكلّ من يعيش تحــت سلطانهم، هم سواسيَةٌ كأسنان المشط... ذلك بأنّ الرّشيد حين التحق بالخدمة العسكريّة الإجباريّة لم يلبث أن استكشف رُقيّ فرانسوا الــذي أمسى ضابطاً يستمتع بامتيازات كثيرة وكبيرة -على الرّغم من أنّــهما كانا يحملان شهادة علميّة متساوية- من حيث بقِيَ الرّشيد، الجزائــويّ المسكين، مجرّد جنديّ في الدّرجة المتدنّيَة في سلّم التّرتيب العسكريّ...

وهنالك اقتنع الفتى بأنّه كان مخدوعاً، وأنّ ما لُقِّنَــه في المدرســة الفرنسيّة لم يكن إلاّ زَعْماً باطلاً، ووهما زائلاً؛ فأراد أن يقوم بثورة على الاستعمار الفرنسيّ بالجزائر فيصعد إلى الجبل؛ لكنّه لم يجد الظّـــروف مواتية لذلك فأصيب باليأس والكمَد حتّى قضى نحبه حزناً وتألّماً علــى الوطن العزيز...

ولعلّ هذه الكتابة أن تكون أوّل نموذج للنّــثر الفنّــيّ المقــاوم للاستعمار الفرنسيّ. وقد خصّصنا لهذا العمل فصلاً مستقلاًّ في هـــذا الجزء، ضمن فصوله السّبعة.

كما توقّفنا في فصلين من هذا الكتاب عند أدب المذكّرات المقاوِمة فحلّلنا مذكّرات حمدان خوجة، وأحمد الباي. وعلى أنّنا عرضنا لمذكّرات أحمد بوضربة التي تمجّد، في حقيقة الأمر، الاحتلال الفرنسيّ للجزائر -فهي من الكتابات المبكّرة الخائنة- من باب نقيض القصد؛ أي ليس من قبيل فضْح مُنْكَراتِ الاِستعمار الفرنسيّ وما كان يقتل ويشرّد، وما كان يسلب من أموال، ويستولي عليه من أرَضين للجزائريّين؛ ولكن من حيث هي مذكّرات تؤسّس لنظام الإدارة الفرنسيّة. فكانت كتابة ضدّ المقاومة الوطنيّة، فألحقناها بها لإثبات أنّ الذي يخون وطنه، ويتنكّر لبني جلدته؛ يكون أسوأ من العدوّ نفسه...

ثمّ جئنا إلى المقالة السّياسيّة فتوقّفنا لدى بعض ما كتبه عبد الحميد بن باديس، ومحمّد البشير الإبراهيميّ -وهذان الكاتبان قد يكونان أفحل فحول كتّاب المقالة الصّحفيّة بأنواعها في الجزائر على عهد الاِستعمار الفرنسيّ- فتوقّفنا لدى بعض ما كتبا، وحلّلناه في فصل قائم بنفسه.

ولعلّ من أجمل ما كتب ابن باديس في المقالة السّياسيّة المقاوِمة تلك المقالة التي ردّ فيها على فرحات عبّاس ومجموعة النّوّاب الجزائريّين الذين كانوا مفتونين بفرنسا حتّى أعماهم حبُّها عن أن يَرَوُا الجزائر العظيمة فأنكروا وجودها؛ وكان يتزعّم تلك الفكرة الشّقيّة فرحات عبّاس الذي رجع عنها فيما بعد على كلّ حال. فقد خاطبهم ابن

باديس في مقالة سياسيّة مقاومة عجيبة نشرها في مجلّة «الشّهاب» بعنوان: «كلمة صريحة». ويقول الشّيخ في بعضها مخاطباً أولئك النّوّاب؛ بعد أن كان فرحات عبّاس زعم أنّه بحث عن الجزائر في التّاريخ فلم يجدها، وبحث عنها في كلّ مكان فلم يظفر لها على أثر:

«إنّنا نحن فتّشنا في صحف التّاريخ، وفتّشنا في الحالة الحاضرة، فوجدنا الأمّة الجزائريّة المسلمة متكوّنةً موجودةً، كما تكوّنتْ ووُجِدت كلّ أمم الدّنيا. ولهذه الأمّة تاريخُها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدّينيّة واللّغويّة. ولها ثقافتها الخاصّة وعوائدها وأخلاقها، بما فيها من حسَن وقبيح، شأن كلّ أمّة في الدّنيا.

ثمّ إنّ هذه الأمّة الجزائريّة الإسلاميّة ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت. بل هي أمّة بعيدة عن فرنسا، كلّ البعد، في لغتها، وفي أخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها. لا تريد أن تندمج. ولها وطن محدود، معيّن، هو الوطن الجزائريّ بحدوده الحالية المعروفة...»[8].

لقد حاولنا أن نشبع هذه المقالة الإستثنائيّة الأهمّيّة تحليلاً في الفصل الرابع من هذا الجزء، من هذا الكتاب. كما عرضنا لنماذج أُخَرَ من هذه المقالات المقاومة، لكتّاب آخرين، في هذا الفصل نفسه.

---

[8] ابن باديس، كلمة صريحة، في الشهاب، ج.1، م.12، أبريل، 1936. وينظر آثار ابن باديس، 3. 307-309.

كما لاحظنا بسعادة غامرة أنّ مجازر ثامن مايو 1945 كُتب من حولها النّثر المقاليّ أكثر من القصيدة الشّعريّة، وقد ظفِرنا بما كتب محمّد البشير الإبراهيمي، ومحمود بوزوزو حول هذه المجازر الرّهيبة فلم نعدَم لِمَا كَتبا تحليلاً. بل إنّا وجدنا الكتابات النّثريّة حول هذه المجازر الرّهيبة أسبق من الكتابات الشّعريّة التي لم نكد نجدها إلاّ لدى الرّبيع بوشامة وعبد الكريم العقون، كما رأينا في الفصل السّادس من الجزء الأوّل.

ولَمّا بلغ بنا المسار إلى الفصلين السّادس والسّابع خصّصناهما لصورة المقاومة الوطنيّة، السّياسيّة، في الكتابات الإعلاميّة حيث إنّ عدداً ضخما من الصّحف الأسبوعيّة والدّوريات الشّهريّة والفصليّة أنشأها كتّاب وشعراء وإعلاميّون، وهيئات وجمعيّات وأحزاب سياسيّة أيضاً، من أجل التّعبير عن الرّأي، وكانت في معظمها تناضل بالكلمة والرّأي والموقف ضدّ استمرار وجود الاِحتلال الفرنسيّ في الجزائر. غير أنّنا لاحظنا أنّ الاستعمار الفرنسيّ في الجزائر لم يكن يتورّع في قمع الرّأي في هذه الصّحف حيث كان يعمد إلى تعطيلها ومقاضاة القائمين عليها، تحت نظام استعماريّ كان يزعم أنّه جاء لتلقين الجزائريّين حرّيّة التّعبير، وحرّيّة الرّأي، والقبول بالديمقراطيّة!

لقد ألف النّاس أن يلتمسوا صور المقاومة السّياسيّة في الشّعر وحده؛ ولكنّنا رأينا أنّ الكتّاب الجزائريّين، عبّروا عن رفضهم للاستعمار الفرنسيّ ومقاومته بالكلمة، مثلهم مثل زملائهم الشّعراء.

ونرجو أنّنا ببعض ذلك أن نكون قد وُفّقنا إلى إثارة الْمُساءلةِ من حول ما نهض به الأدب النّثريّ، في الجزائر، أثناء عهد الإِستعمار الفرنسيّ حيث حاول أن يقاوم هذا الاستعمار جنباً لجنب مع صنوه الشّعر الذي حلّق في ذلك تحليقاً بعيداً. ولعلّ ببعض ذلك أن تكون صورة المقاومة السّياسيّة للاستعمار الفرنسيّ في الجزائر قد اتّضحتْ معالمها من خلال ما رصدناه في هذا الكتاب بجزأيه الأوّل والآخِر.

والله وليّ التّوفيق.

وهران، في 15 يونيو 2003.

عبد الملك مرتاض

الفصل الأوّل

صورة المقاومة الوطنيّة

-في كتاب «المرآة» لحمدان خوجة-

شخصيّة حمدان خوجة

لقد دار الزّمن دورته، وفقدت البحريّة الوطنيّة كثيراً من فعاليتها الحربيّة، بل لقد كان انتهى عهد ازدهارها وعنفوانها فلم يبقَ منها إلاّ آثار بالية؛ وكثرت، أثناء ذلك، خيرات الجزائر، فنفَقتْ تجارتها، واخصَوْصَبت زراعتها؛ فأمسى القمح الجزائريّ يصدّر إلى أوربا. ونشطت شركة أسرة بكري اليهوديّة (الأب والأبناء)، وشركة بوزناك اليهوديّة أيضاً[1] فضاعفتا من تصدير قُمُوحهما إلى فرنسا دون أن يقع الاِتّفاق على كيفيّة الدّفع، ومن باب أولى الدّفع العجِل. ولم تزالا تصدّران إلى أن ارتفعت المبالغ المستحقّة على الفرنسيّين؛ وحينئذ شرع اليهود في الضّغط على الدّاي ليتدخّل لدى الحكومة الفرنسيّة لتفي بالدّفع؛ لكنّها لم تفعل... بل تجاهلت ذلك وأعارته عينا عمياء، وأذنا صمّاء... وازداد ضغط الشّركتين اليهوديّتين على الدّاي الذي أصبح محرَجاً، خصوصاً بعد أن أمسى الدّائنون في داخل البلاد يطالبون بكري بالدّفع فيتذرّع لهم بعدم تسوية المعاملات التّجاريّة معهم على أساس أنّ الخزينة العموميّة عاجزة عن تسديد مستحقّاته إزاء ما صدّر من قمح إلى أوربا...

إنّنا لم نرَ، فيما قرأناه من كتابات تاريخيّة على كلّ حال، أحداً نبّهَ إلى أنّ في مسألة مستحقّات بكري اليهودي شكّاً قويّاً في أنّه لم يكن مخلصاً في تصرّفاته المريبة في تجارته؛ وأنّه، ربما، كما سنرى في بعض هذا الفصل، كان اتّفق مع القنصل الفرنسيّ بالجزائر سرّاً على أن تتراخى الحكومة الفرنسيّة فلا تدفع، ويشتدّ هو في المطالبة بحقّه، عن طريق الدّاي، فيُلحّ ولا يتوقّف حتّى تنشأ أزمة سياسيّة سيفيد منها بكري وأولاده وأصحابه أعظم الفائدة... حتّى إنّ بكري صاحب شركة القمح أمسى ملازماً مستخذِياً لسيّده بورمون؛ فكان بمثابة الخادم المطيع له، فيما يذكر حمدان خوجة...

---

[1] كارل بروكامان، تاريخ الشّعوب الإسلاميّة، ص.620.

وعلى الرّغم من مجيء قائد السّفينة «لابروفانس» إلى الجزائر 1829 للتّفاوض حول كيفيّة دفع الدّيون المستحقّة على فرنسا؛ إلاّ أنّه، فيما يبدو، لم يكن جاداً في مفاوضته. ولعلّه جاء ليتجسّس على مداخل مدينة الجزائر ومخارجها أكثر ممّا جاء للتّفاوض حول دفع الدّيون. وعلى المرء أن يكون من السذاجة بمكان ليصدّق هذه الأحداث الظّاهرة دون تأويل خلفيّاتها الحقيقيّة. وحتّى حادث إطلاق النّار على باخرة «لابروفانس» من إحدى القلاع بالجزائر ربّما كان مدبّراً!

ذلك، وإنّ حمدان خوجة شخصيّة وطنيّة سياسيّة كبيرة؛ لكنّها ككلّ الشّخصيّات الكبيرة تظلّ إشكاليّة في سلوكها بحيث يعرُوها شيء كثير أو قليل من الغموض، ويثور من حولها قليل أو كثير من التّساؤل؛ وإلاّ فإنّ الشّخصيّات البسيطة الصّغيرة، المنعدمة التّأثير، هي التي لا يختلف النّاس من حولها. فحمدان خوجة جزائريّ من أصل تركيّ؛ ولكن لا أحدَ يشكّك في وطنيّته وحبّه الجزائر التي دافع عنها، وعن أهاليها في كثير من المواقف والْمَواطن في الثلاثِ السّنواتِ التي تلت الاِحتلال الفرنسيّ، في الجزائر وفي باريس؛ كما أنّه لم يألُ جهداً في الدّفاع المعنويّ الفوضويّ عن مدينة الجزائر حين هاجمها الجيش الفرنسيّ، على كلّ حال، مع بعض الذين دافعوا، وكانوا، بكلّ أسفٍ، قليلاً...

وكان حمدان بن عثمان خوجة مثقّفاً ثقافة عربيّة جيّدة؛ كما كان يعرف لغته الأصليّة: التّركيّة؛ في حين كانت لغته الفرنسيّة، فيما يذكر هو نفسُه في بعض كتاباته، ضعيفة. ولكن يبدو أنّه كان يتكلّمها بشيء من الطّلاقة، ولكنّه لم يكن يستطيع الكتابة بها؛ مثلها في ذلك مثل الإنجليزيّة أيضاً.[2] ولقد ترك حمدان خوجة جملة من الكتب لعلّ أهمّها إطلاقاً كتاب «المرآة» الذي نعرض له بشيء من التّحليل

[2] ينظر محمّد العربيّ الزّبيري، كتاب المرآة، المقدّمة، ص.14. نشر المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1982 (الطّبعة الثانية).

في هذا الفصل؛ وذلك على أساس أنّه كتابةٌ تنتمي إلى كتابات المقاومة الوطنيّة في ، كما حاولنا تعليل ذلك في مقدّمة الجزء الثاني من هذا الكتاب.

ولعلّنا أن نستطيع تصنيف كتاب «المرآة» في جنس أدب المذكّرات في أطراف منه، وفي الاقتصاد والسّياسة في أطراف، وفي التّاريخ والفكر في أطراف أخراة. وهو في كلّ الأحوال يعالج أطواراً من المقاومة السّياسيّة التي نهض بها أعيان مدينة الجزائر ضدّ الفرنسيّين في الأيّام الأولى من الاِحتلال، ومنهم حمدان خوجة.

ومن عجبٍ أنّ حمدان خوجة لم يكن متفرّغاً للكتابة ومُدارَسة العلم وحدَهما، على تبحّره فيهما؛ ولكنّه كان تاجراً كبيراً، وثريّاً ثراءً عريضاً؛ فقد كان يمتلك آلاف الهكتارات من الأراضي الخصيبة الصّالحة للزّراعة في سهول متيجة؛ فكان يزرع سنويّاً زهاء مائة وستين حِمْلَ بعيرٍ من القمح، وزهاء مائة وعشرين حِمْلَ بعيرٍ من الشّعير؛ وهو ما يعادل، تقريباً لا تحقيقاً، زهاء خمسمائة وستين قنطاراً من مزروع القمح والشّعير. ويزعم في تقرير قدّمه حمدان خوجة إلى الملك الفرنسيّ، لويس فيليب، أنّه كان يمتلك في مزارعه بمتيجة: «عشرة آلاف رأس غنم، وستّمائة رأس بقر؛ وأربعمائة ثور للحراثة، وستّين جملاً، ومائتين ما بين فحول وفرسان[3]، وستين بغلاً، وعددا آخرَ من الحيوانات».[4]

ولم يكن حمدان خوجة يستثمر في الزّراعة فحسب؛ ولكنّه كان تاجراً كبيراً يستورد من إنجلترا وفرنسا موادّ تجاريّة وصناعيّة كالأقمشة القطنيّة وبعض الأدوات المستعملة في الصّناعة والزّراعة، وأسلحة، بمساعدة بعض اليهود الذين كانوا يهيمنون هيمنة كبرى، كدأبهم حيث يوجَدون، على التّجارة الجزائريّة: الدّاخليّة

---

[3] لعلّ المراد: «أفراس»، أو «جياد».

[4] عبد الجليل التّميمي، بحوث ووثائق في التّاريخ المغربيّ، (1816–1871)، ص.190، الدّار التّونسيّة للنّشر، مار 1972. وانظر أيضاً العربي الزّبيريّ، م.م.س.، ص.17–18. وقد يكون حمدان خوجة بالغ على نحو ما في تقدير ثرواته لأنّه كان في موقف المُحْصي لمَا أخذه منه المغتصبون الفرنسيّون. ولكن الأقلّ ممّا ذكر يجب أن يُعَدّ، في الحقيقة، ثروة عظيمة.

والخارجيّة. كما كـان يصدّر مقادير ضخمـة «مـن الحبـوب، والصّـوف، والجلـود، والشّموع، والمرجان».[5]

فنحن، إذن، أمام شخصيّة متفرّدة؛ لأنّ العادات جرت علـى أنّ المثقّفين لا يكونون، في الغالب، إلاّ فقـراء؛ وأنّ الأغنيـاء لا يكونـون، في الغـالب، إلاّ جـهلاء؛ على حين أنّ حمدان خوجة جمع إلى العلم الثراء، وإلى الثراء الوجاهة والمكانة اللّتين مكّنتاه من أن يلعب دوراً خطيراً في علاقته مع الفرنسيّين، وفي محاولته التّخفيف من آلام الأهالي حين الاِحتلال...

ولقد ألّف هذا الكتاب باللّغة العربيّة غير أنّ أصلـه العربـيّ ضـاع، كمـا ضـاع الأصل العربيّ لمذكّرات أحمد الباي، نسجلّ ذلك بكلّ حـزن. ونريـد أن ننـوّه، مـرّة أخراة، بعمل الدّكتور محمد العربي الزبيريّ المتميّز والغيور الماثل في ترجمة مذكّـرات أحمد الباي، والمرآة لجمدان خوجة؛ إذ لا ندري كيف كان يمكن أن يقـع الحديـث عن تاريخ المقاومة الوطنيّـة في العقديـن الرّابـع والخـامس مـن القـرن التّاسـع عشـر، وخصوصاً السّنوات الثلاث التي تلـت الاحتـلال الفرنسـيّ، وعـن الظّـروف الغامضـة المهينة التي وقع فيها، لا نقول «احتلال الجزائر»، ولكـنْ علينـا أن نكـون شـجعاناً لقول كلمة الحقّ في أنفسنا فنقول: «تسليم الجزائر»: دون الْمَعَاجِ علـى كتـاب عظيـم الأهمّيّة التّاريخيّة والسّياسيّة والإقتصاديّة مثـل كتـاب «المـرآة»، وخصوصـاً إذا كـان المؤرّخ لا يعرف الفرنسيّة؟

لقد سلّم الجزائرَ الحبيبة العظيمةَ البايات‌ُ المتخاذلون، (ونستثني منهم أحمـد الباي الذي نخصّص لمقاومتـه الباسلة فصلاً في هـذا الكتـاب، في هـذا الجـزء)، إلى الفرنسيّين وتركوا الأهالي الأصليّـين يتخبّطـون في مقاومـة المحتلّـين الفرنسـيّين، هنـا وهنـاك مـن أرض الوطـن، وعلـى امتـداد فـترات متعاقبـة ظلّـت المقاومـة الوطنيّـة،

[5] الزّبيري، م.س.، ص.19.

المسلّحة، فيها مضطرمة إلى أثناء الحرب العالميّة الأولى، قبل أن تستأنف نشاطها في أشكال مختلفة انطلاقاً من نهاية الحرب العالميّة الثانية.

ويبدو أنّ المؤرّخين الفرنسيّين، الذين كتبوا عن حمدان خوجة، جهّدوا جَهْدَهم في تقديمه، كما يذهب إلى ذلك محمّد العربيّ الزّبيريّ، «مشوّهاً للقرّاء ليحرمونا من شخصيّة أخرى من ألمع وجوه المقاومة السّياسيّة في بلادنا. ونحن إذا كنّا لا نلوم هؤلاء المؤرّخين على مثل تلك التّصرّفات اللاّعلميّة لأنّنا ندرك أنّها تخدم مصالح وطنهم (...)؛ ولكنّنا نرثي لحال بعض «الجزائريّين» الذين مازالوا، بعد عشر سنواتٍ من الاستقلال،[6] لم يحاولوا خطّ طريقهم بأيديهم، وكتابة تاريخهم وفْقاً للواقع، لا كما يصوّره لنا غيرُنا.

«إنّ الشّخصيّات المنسيّة في تاريخنا كثيرة، والمظلومة أكثر. وعلينا نحن، أبناء هذا الجيل، أن نتخلّص من القيود: فنعيد تأهيل كلّ مشوّه، وننفض الغبار عن كلّ منسيّ؛ حتّى تسلّط الأضواء على الماضي...».[7]

ويَنقِم الزّبيريّ من المؤرّخين الفرنسيّين أنّ بعضهم قال: «إنّ حمدان خوجة شخصيّة غامضة».[8] ونحن كنّا استعجلنا الحكم، في مطلع هذا الفصل، فقلنا قبل أن نطّلع على رأي جورج إيفار، إنّ شخصيّة حمدان خوجة غامضة فعلاً وحقّاً. وليس ذلك فيها عيباً ولا غمْزاً، ولا همْزاً ولا لَمْزاً؛ بل عظمة وإشراقاً. فالغموض في الشّخصيّة السّياسيّة، أو الفكريّة، الكبيرة قوّة لا ضعف، وثراء لا ضَحْلٌ...بل لقد اتّهم جورج إيفار حمدان خوجة بأنّه أسهم «في التّعجيل بالاحتلال مدّعياً بأنّه قد يكون ساعد على تأزّم الوضع بين الجزائر وفرنسا سنة 1827؛ وبأنّه رفض الإنضمامَ إلى المفتي الحنفيّ الذي كلّفه الدّاي بتجنيد الأهالي للدّفاع عن مدينة الجزائر؛ وبأنّه

---

[6] واضح أنّ هذا النّصّ كتب زهاء عام 1972.
[7] م.س.، ص.29.
[8] جورج إيفار، حمدان خوجة، المجلّة الإفريقيّة، 1913، ص.124.

هو الذي دعا إلى اجتماع الأعيان الذين طلبوا من حسين أن يتفاوض مع الفرنسيّين».[9]

وقد دافع الدّكتور محمد العربي الزّبيريّ دفاعاً مستميتاً عن طهارة شخصيّة حمدان خوجة وبراءتها من كلّ التّهم التي وجّهها إليها المؤرّخون الفرنسيّون؛ مُبرهِنا على بطلان هذه التّهم التي ألصقها به إيفار بَرْهَنةً بالعقل والنّقل.

غير أنّنا نحن لا نتحمّس كثيراً لتبرئة الرّجال الكبار، والنّساء الكبيرات أيضاً، من الخطأ؛ وأنّ الذي لا يعمل هو فقط الذي لا يخطئ؛ وأنّه على المؤرّخ أن يوازن بين المحاسن والمساوئ في أعمال الكبار؛ وحسْبُه في ذلك أن تكون المحاسن أكثر من المساوئ؛ وجلّ مَن لا يُخطئ ولا يسهو! ذلك بأنّ احتلال مدينة الجزائر أوّلاً، (ثمّ احتلال الوطن كلّه تدريجيّاً فيما بعد)؛ كان امتحاناً مَهُولاً لكلّ المسؤولين الذين كانوا على صِلة بالدّاي حسين؛ وأنّ الكارثة كانت بالحجم الذي جعل أطرافاً كثيرة أو قليلة تتورّط، بشكل مباشر أو غير مباشر، في التّهاون والتّخاذل، والجبن والتّقصير؛ ولكنّنا على الرّغم من كلّ ذلك لا نُسِفّ إلى الذهاب إلى حدّ التّبنّي لموقف المؤرّخين الفرنسيّين المبالَغِ فيه حتماً، والمدسوسة أحكامه في حيادٍ مشكوك فيه، ومن ذلك غضّ الطّرْف عن دسائس اليهود في التّعجيل باحتلال الجزائر وتيسير أمره على الفرنسيّين، واتّهام حمدان خوجة...

ونؤثر أن نتناول شخصيّة حمدان خوجة، باعتباره أحد الشّخصيّات الوطنيّة التي قاومت الاحتلال الفرنسيّ بالكتابة والفكر والرّأي، من خلال النّصوص الصّحيحة التي وصلتنا عنه، وخصوصاً كتابه «المرآة». ولا نتقبّل من هذه النّصوص

---

[9] م.س.، ص.31. وأصل هذه التّهم الموجّهة إلى حمدان خوجة للمؤرّخ الفرنسيّ جورج إيفار الوارد في المجلّة الإفريقيّة الآنفة الذكر. ونحن هنا نعترض على ما قال جورج إيفار وما اتّهم به حمدان خوجة متغاضياً عن دسائس اليهود التي كانت وراء احتلال الجزائر، وخصوصاً آل بكري كما كنّا أومأنا في صلب البحث.

للحكم له أو عليه إلاّ ما كتب. فتلك هي وحدَها التي نتّخذها حكَماً تُرضَى حكومتُه فيما نقول. ونحن نتناول ذلك خصوصاً من:

1. مذكّرته إلى اللّجنة الإفريقيّة الفرنسيّة التي جاءت من باريس لتحقّق في جرائم الحرب التي ارتكبها الجيش الفرنسيّ ضدّ حقوق الإنسان، ولم تكن هذه المذكّرة بكلّ أسف، كما سنرى، مشرّفة لحمدان خوجة.

2. كتاب «المرآة» الغنيّ بالمعلومات والوثائق والمواقف الواضحة والنّبيلة أيضاً.

إنّنا نرى أنّ حمدان خوجة من الشّخصيّات الوطنيّة الكبيرة التي يمكن أن نصفها بالاِعتدال، بكل ما يتولّد عن ذلك الاعتدال من نتائجَ وأحكام؛ فكان الفرنسيّون راضِين عنه إلى حدّ بعيد، ويبدو أنّ أعيان الجزائر وتجّارها كانوا، هم أيضاً، عنه من الرّاضين. فحمدان خوجة لم يحمل السّلاح ضدّ الفرنسيّين، بل كان يدعو فقط إلى أن ينال الأهالي -كما كان يطلق عليهم- شيئاً من الحقوق السّياسيّة، وأن لا يقعَ الاعتداء على أعراضهم وديانتهم وممتلكاتهم، كما تنصّ على ذلك وثيقة الاستسلام التي وقّعها حسين باشا والمارشال الفرنسيّ بورمون؛ فحمدان خوجة، بناء على بعض ما كتب في مذكّرته، كان معترفاً، في الحقيقة، بشرعيّة الاحتلال الفرنسيّ اعترافاً صريحاً، وأبديّته أيضاً. ولا نعتقد أنّ هناك نصوصاً تاريخيّة موثوقة تكذب هذا. ونحن سننزل عن هذا الحكم بمجرّد أن يتبيّن ما يعارضه من النّصوص الصّحيحة، وخصوصاً ممّا كتبه حمدان خوجة نفسه، ونعتذر ممّا قلنا، هنا عنه، سلَفا.

بل ما ذا يدافع المدافع عنه والرّجل كان يَعُدّ الوطنيّة التي كانت تُلْهب عواطف الجزائريّين الذين كانوا يدافعون عن أنفسهم وأهليهم وتراب وطنهم

«تعصّباً»![10] بل كان لا يتردّد في وصف الأفكار الثوريّـة للوطنيّـين، ويبـدو أنّـه كـان يقصد بها أساساً أفكار الأمير عبد القادر وأحمد الباي، «الغالطة والتّعصّبيّة»![11]

كان حمدان خوجة، فيما يبدو لنا، يحاول أن يوفّـق بـين الدّعـوة إلى الحِفـاظ على الأهالي وعدم ظلمهم واضطهادهم من المحتلّين الفرنسيّين، ولكنّه كـان في الوقـت نفسِه لا يتردّد في الاعتراف بشرعيّة الاحتلال الفرنسيّ وأبديّتـه في الجزائـر. ولَكـأنّي به وهو ينصَح للفرنسيّين أن لا يُثيروا الأهالي مـن أجـل مصلحتـهم قبـل كـلّ شـيء، وذلك حتّى يعيشوا في أمْن وسلام مع الجزائريّين. فكأنّ مصلحة فرنسا، بالقيـاس إلى الرّجل، كانت أسمى من مصلحة الوطن الذي كان الرّجل سلّم بأبديّة احتلاله!

حقّاً إنّ حمدان خوجة فضح جرائـم الجيـش الفرنسـيّ حـين ذكـر في مذكّرتـه الموجَّهةِ إلى ما يسمّيه المؤرّخون، خطأً، «اللّجنة الإفريقيّـة» الـتي شـكّلتها الحكومـة الباريسيّة لتَقصّي الحقائق في جرائم المحتلّين بالجزائر[12]؛ وذلك حين يقول: «حـدث أكثر مـن مـرّة أن ذُبح الرُّضّعُ علـى صدور أمهاتـهم، وأحرِقـت المسـاكن، وسُلبت المواشي، وامتلأت أسواقنا بالأمتعة المنهوبة! ولقد شوهِدت في هذه الأسواق أسـاورُ مـا تزال على أزندتها الدّامية، وقرط[13] مخضّبة بدمـاء الآذان الـتي انـتزعت منـها(...)! ويقال أيضا: إنّ بعض النّساء تمّ بيعُهنّ كما تباع الحيوانات»![14]

ولا يسعنا إلاّ أن نسجّل مثل هـذا الموقـف النّضـاليّ النّبيـل الصّريـح، لحمدان خوجة، بكلّ التّقدير الذي هو أهل له؛

---

[10] مذكّرة حمدان خوجة للّجنة الإفريقيّة، في مذكّرات أحمد باي...، ص.148-149.

[11] م.س.، ص.148.

[12] نحن نتساءل كيف يمكن أن تحقّق لجنة في جرائم حرب الجيش الفرنسيّ؟ وهل كانت هذه اللّجنة منزّهة فلا تنحاز، ومعصومة فلا تخطئ؟ إنّ تشكيل هذه اللجنة، بمطالبة ساذجة من بعض الأعيان الجزائريّين ومنهم حمدان خوجة، لأنّ حسن النّيّة مرفوض في العلاقات السّياسيّة، فنعتذر للذين طالبوا الحكومة الفرنسيّة بإرسالها إلى الجزائر. بل إنّ بعض الذين طالبوا بهذه اللّجنة كانوا يريدون نصح الفرنسيّين وتوجيهـهم إلى مواطن ضعف الجزائريّين المقاومين ليستتبّ الأمن للفرنسيّين في الفردوس الجديد، ومنهم أحمد بوضربة في مذكرته القذرة...

[13] كذا، وهو جمع لا يوجد في العربيّة، وإنّما يجمع القُرْط على أقراط، وقِراط، وقُروط، وقِرطة.

[14] م.س.، ص.149.

غير أنّنا ننقم من حمدان خوجة أنّه ربما كان يصطنع، أثناء ذلك، التّقيّة، أو كان من طبعه الاعتدال والتّسامح حتّى فيما لا تسامُحَ فيه، وهو المصلحة العليا للوطن؛ ولذلك يستدرك أنّ مثل تلك الأفعال الشّنيعة التي ارتكبها الفرنسيّون هي التي تجرّ عليهم الطّوائل، وتسبّب لهم في الجزائر الويلات والكوارث لو كانوا يعقلون! فهو كأنّه كان يُشفق على الفرنسيّين، ويرأف بهم؛ ويتمنّى أن لا يقع لهم أيّ مكروه (والمكروه هنا هو المقاومة الوطنيّة التي كانت اضطرمت نارها في غربيّ البلاد وشرقيّها تحت قيادتي الأمير عبد القادر وأحمد الباي) ينهض به الوطنيّون، فيقول: «وإنّ طرُق العُنْف هذه لا تؤدّي سوى إلى شلّ أفكار هؤلاء الأهالي ودفْعِهم إلى الحرب، وجعْلهم يتشبّثون بآرائهم التّعصّبيّة. ولقد صار من المتداوَل بينهم أنّ الفرنسيّين ليس لهم هدفٌ غير إبادة العرب، وتجريدهم من أملاكهم الإرثيّة».[15]

فما يصنع الدّارس والمؤرّخ، ومحلّل لغة الكتابة، حين يقرأ مثل هذا النّص الذي لا يأتي الشّكّ إلى صحّته من بين يديه ولا من خلفه؟ وهل يمرّ به مرَّ الكرام فلا يعلّق عليه، ولا يتوقّف لديه؟ أم يتساءل ويعلّق ويحلّل بموضوعيّة؟ إنّا اخترنا المسعى الأخير.

إنّا لا نشكّ حقّاً في وطنيّة حمدان خوجة، ولا في حبّه الصّادق للجزائر؛ ونتابع في ذلك بعض المؤرّخين الجزائريّين[16] ولا حرج. كما نتّخذ هذا الحكم من قوله الكبير أيضا، في كتابه «المرآة»: «إنّ مصائبَ بلدي تُقْلقني باستمرار. ولقد كنت في كثير من الأحيان، وأنا أسجّل تلك المصائب، أجبَرُ على التّوقّف عن الكتابة لأترك المجال لدموعي فتنساب...».[17]

---

15 م.س.، ص.149.

16 ينظر محمّد العربيّ الزّبيري، مذكّرات أحمد باي...، ص.137–138؛ محمّد بن عبد الكريم، مقدّمة إتحاف المنصفين والأدباء، في الاحتراس عن الوباء، لحمدان خوجة، ص.7–8.

17 حمدان خوجة، المرآة، ص.47 ترجمة العربي الزّبيريّ.
هذا وقد أورد محمّد بن عبد الكريم محقق كتاب «إتحاف المنصفين والأدباء، في الاحتراس عن الوباء»، ص.9 هذه العبارات المؤثرة نفسَها؛ غير أنّها، ونظراً إلى أنّها ترجمة لنّص فرنسيّ، قدّمت بصياغة أخرى، وهي: «إنّ

غير أنّ الموقف المزدوج الذي كان يقفه حمدان خوجة من بعض القضايا الوطنيّة، انطلاقاً، خصوصاً، من نصّ مذكّرته الموجّهة إلى اللّجنة الإفريقيّة، (وكان ذلك على كلّ حال في بداية الاحتلال الفرنسيّ) يحيّرنا في سيرة هذا الرّجل الكبير؛ فنضِلّ السّبيلَ إلى الجواب الذي نريد. فهو، من وجهة، يفضح جرائم الجيش الفرنسيّ فضْحاً، ويصوّرها للّجنة الإفريقيّة تصويراً صريحاً؛ ولكنّنا، من وجهة أخراة، نجده ينصح للفرنسيّين بأن يعتدلوا في سلوكهم، ويعدلوا في معاملة الجزائريّين فلا يقسُوا عليهم؛ ليس حبّاً للجزائريّين وحقنا لدمائهم -وهنا الحَيرة- ولكنْ إشفاقاً على الفرنسيّين من أن تندلع في وجوههم ثورة هوجاء، فلا تُبقي ولا تذر! فهو يقول:

1.«إنّ الفرنسيّين لم يقوموا أبداً بما يصدّ هؤلاء الأهالي عن أفكارهم الغالطة والتّعصّبيّة»[18]؛

2.«وإنّ طُرُق العنف هذه لا تؤدّي سوى إلى شلّ أفكار هؤلاء الأهالي ودفْعِهم إلى الحرب، وجعْلهم يتشبّثون بآرائهم التّعصّبيّة»؛[19]

3.«ولقد صار من المتداوَل بينهم [بين الأهالي] أنّ الفرنسيّين ليس لهم هدفٌ غير إبادةِ العرب، وتجريدهم من أملاكهم الإرثيّة».[20]

تعاسة وطني قد تسبّبت في قلقي المستمرّ؛ وكثيراً ما كنت، أثناء تحبيري لهذه التّعاسة، مكرَهاً عن إيقاف قلمي لأترك دموعي تسيل». ونحن مع الأسف لا نمتلك النّصّ الفرنسيّ لنحكم أيّ التّرجمتين أدقّ عبارة. ولكن تبدو ترجمة الزّبيريّ أقرب إلى الدّقّة من ترجمة الأستاذ ابن عبد الكريم... غير أنّنا وقد عرضنا لهذين النّصّين عرَضاً لا بدّ من إبداء ملاحظتنا حول نصّ ابن عبد الكريم لعدم رضانا عنه؛ ذلك بأنّ لفظ «التّعاسة» الذي اصطنعه ابن عبد الكريم (ربما استعمله مقابلاً للفظ الفرنسيّ «Misère») لا وجود له في العربيّة؛ وإنّما هو التّعْسُ والتّعَس، وهو الهلاك. وفي الحالين لا يجوز اصطناعه مقابلاً لهذا اللّفظ الفرنسيّ. ولو قيل «بؤس» لكان أقرب إلى أداء المعنى. كما لا يقال: أكرِهَ فلانٌ عن الشّيء؛ ولكن يقال: أكره عليه، إذا أرغم وأجبر على التّخلّي عنه. ثمّ هل هو الوطن، أو البلد؟

18 م.س.، ص.148.

19 م.س.، ص.149.

20 م.س.

4.«ما ذا يصنع هؤلاء الفرنسيّون تجاهَ شعبٍ دائم العداء والتّعصّب والعناد»؟(!)[21]

فهل كان حمدان خوجة، هنا، مع الجزائريّين أم مع الفرنسيّين؟ وهل هو، هنا، ينصَحُ للفرنسيّين كيف يتعاملون مع الجزائريّين حتّى يطيبَ لهم، بينهم، المقام، ويهنأ لهم، في ديارهم، العيش، أم يَدينهم حقّاً على أفعالهم الشّنيعة؟ وما بالُه استعمل عبارة «أفكارهم الغالطة والتّعصّبيّة»؟ وهل الذي يدافع عن وطنه يُعَدّ مخطئا ومتعصّباً في الأعراف الدّوليّة منذ فجر التّاريخ، بل منذ ما قبل التّاريخ نفسه؟ أو لا يعني بعض ذلك إلاّ إدانةَ المقاومة الوطنيّة التي كانت مشتعلة في الشّرق والغرب والجنوب؟ ثمّ ما بالُه يصطنع عبارة أخراةً في حقّ الأهالي أسوأ من أختها، وهي: «شعب دائم العداء والتّعصّب والعناد»؟ وما له يصطنع عبارة «التّعصّب» مرّتين اثنتين في نصّ قصير؟ وما له لم يجتزئ بلفظ «العَدَاء» الذي هو حقّ طبيعيّ لكلّ شعب مقهور محتلّ أن يعاديَ الجيوش الغازيَة التي قهَرته واضطهدته بقوّة الحديد والنّار؛ فأضاف وصْفين سيّئين آخرين في حقّ الذين كانوا يقاومون، أي في حقّ الشّعب الجزائريّ في واقع الأمر، وهما: «التّعصّب والعِناد»؟ فكأنّ كلّ مقاومٍ متعصّب، وكأنّ كلّ ثائر عنود، في رأي حمدان خوجة في مذكّرته إلى اللّجنة الإفريقيّة؟ وكأنّ كُلاًّ منهما مفتقرٌ إلى التّرويض والتّهذيب حتّى يغتديَ ذا قابليّة لقبول الاستعمار على أرضه، فينظر ولا يصنع شيئاً، ويهان وكأنّه لم يُهَنْ، ويُضطهَد وكأنّه لا اضطُهِدَ ولا ظُلِمَ!

وهل قرأ القارئون الذين كتبوا عن حمدان خوجة هذه العبارات فعلّقوا عليها، أم تغاضَوا فسكتوا عنها؟ وما منعهم أن يتوقّفوا حولها لفهْم شخصيّة هذا الرّجل

[21] م.س.، ص.148.

الكبير، ومعرفة مواقفه المتذبذبة؟ أم هل يمكن أن يكون للرّجل الواحد موقفان اثنان: أحدُهما مع قومه، وأحدُهما الآخَرُ مع الأعداء، ويرضَى عنه، مع ذلك، الرّاضون؟

إنّنا لا نفهم ما ذا كان يريد حمدان خوجة أن يصل إليه من وراء تدبيج هذا الكلام في مذكّرته إلى «اللّجنة الإفريقيّة»، الفرنسيّة التّركيبة؟ وما منع المؤرّخين من التّوقّف لدى مثل هذه العبارات المفاتيح للتّعليق عليها، (نتساءل عن ذلك مرّة أخرى) ومحاولة استخلاص النّتائج منها؟ إنّه لا حَكَمَ بيننا إلاّ اللّغة؛ لأنّ الحقائق كلّها تتوارَى وراءها؛ وكثيرا ما يسهو الكتّاب عن التّوقّف لدى تفاصيلَ فيضيع منهم ما لا ينبغي أن يضيع.

إنّ حمدان خوجة كأنّه يضرب الفرنسيّين بالعمْد إلى وصْف فظائع جيشهم، ويرفض في الوقت ذاته ما ينهض به المقاومون الوطنيّون. وإنّا لا نفهم شيئاً غير هذا من وراء ما كتب في مذكّرته العجيبة. والعبارات التي استشهدنا بها من نصّه شاهدة على ما نزعم.

ولعلّ ثقة الفرنسيّين فيه المطلقة، وأنّه كان أقرب إليهم ممّا كان أقرب إلى المقاومين الجزائريّين، فيما يبدو، هي التي جعلت الحاكم الفرنسيّ في الجزائر، الدّوك دورفيكو، أن يُرسله مبعوثاً خاصّاً له إلى الحاج أحمد باي قسنطينة، مرّتين اثنتين، ليطالبَه بالاستسلام، ويحمل إليه رسالة قذرة مضمونها صليبيّ استعماريّ: «استسلموا لفرنسا التي وهبها الإله سلطانَ إفريقيا (...). تدفعون ثلاثة ملايين من الفرنكات كتعويضات للحرب، وللحملات التي تتسبّبون فيها يوميّاً. (...) فتفاهموا في كلّ شيء مع رسولي، سي حمدان. إنّني وكلت إليه التّفاوض معكم وفقاً لتعليماتي».[22]

---

[22] م.س.، ص.33-34.

فهل كان يمكن لدورفيكو أن يكون رسولُه رسولاً يحمل بين جوانحه مثقال ذرّة من حبّ الوطن، وتمجيد المقاومة، والقبول بمبدأ الجهاد لدحْر المحتلّين الفرنسيّين؟ وهل كان يمكن وضْعُ الثقة العظمى، ليفاوض باسم فرنسا، في شخصٍ يخون الفرنسيّين؟ إنّ سيرة حمدان خوجة، بالقياس إلينا، محيّرة وغامضة فعلاً، إذا أردنا أن نفهم التّاريخ كما هو، لا كما كان يجب أن يكون...

ولو كُلّف سي حمدان مرّة واحدة بالسّفارة للوالي العامّ الفرنسيّ بالجزائر لدى باي قسنطينة لكنّا أوّلنا ما يمكن أن يؤوَّلَ في مثل هذه المواقف لصالحه، ولَكُنّا اعتذرنا له؛ ولكنّ إرساله تارة أخراةً سفيراً ومفاوضاً لمقاومٍ وطنيّ باسم الدّولة الفرنسيّة لم يُبْقِ أيّ باب للتّأويل، ولم يذرْ أيّ وجه لالتماسِ المعاذر للرّجل...

بل إنّ حمدان خوجة خاطب الباي حين أراد هذا أن يتشدّد في إجابة الحاكم الفرنسيّ، أثناء المرّة الثانية: «من الخطأ أن تواجهوا الفرنسيّين بهذا الرّفض المطلق. فزوّدوني بعبارات ألطف، وأعطوني خمسة، أو ستة آلاف دورو. وسأذهب إلى باريس وهناك أقوم بمساعي لصالحكم. وسوف أتمكّن من تسوية قضيّتكم بحيث يتركونكم في أمان...».[23]

بل حتّى هذا المبلغ الذي نَقده الباي إيّاه لم يحقّق له به شيئاً، ولم يُرجعْه إليه حين كاتبَه وقد كان عاد إلى القسطنطينيّة. وحتّى لا نظلم الرّجل نورد نصّاً لأحمد الباي حول المبلغ الذي أعطاه إيّاه دون أن يحقّق له به شيئاً، ودون أن يُعيده

---

[23] م.س.، ص.36. ونصادف، على عهدنا هذا الرّديء، أنّ هناك بعض الرّؤساء العرب «الكبار» لا يتردّدون في تقديم النّصائح المخلصة إلى رؤساء غير عرب؛ من أجل إلحاق الضّرر بدول عربيّة وإسلاميّة ولا يستحُون! وإلا فما معنى أن يتبجّح أحدهم دون خجل وهو يقول للأمريكيّين: لا تضربوا العراق الآن! ألا يشبه هذا السّلوك سلوك حمدان خوجة في تقديم النّصائح للفرنسيّين حتّى لا يثور عليهم الجزائريّون، من حيث لم يقدّم أيّ نصائح تذكر للجزائريّين لكي يستطيعوا التّخلص من الاحتلال الأجنبيّ؟ فهذا الزّعيم العربيّ يرجو، من وجهة، أن لا يُضرب العراق، ولكن إلى حين. فهو كأنّه مع العراق! وهو من وجهة أخراةٍ يرجو –ذاك ما يفهم من عبارته: «لا تضربوا العراق الآن»– أن يُضربَ فيما بعد، فهو مع الأمريكيّين! وببعض ذلك كأنّه مع الأمريكيّين والعراقيّين جميعاً في الوقت ذاته. أو قل: لا هو مع الأمريكيّين، ولا هو مع العراق، ولكن مع نفسه!

إليه أيضاً؛ يقول الباي حول هذا الموضوع بعد أن كان حمدان خوجة طلب إلى أحمد الباي أن يسلّمه خمسة أو ستّة آلاف دورو: «وكانت إجابتي:

–يا سي حمدان، يشهد اللّه، لو كنت أعلم أنّي أحصل على هذه النتيجة بواسطتكم لدفعت عشرين من أضعاف ما تطلبون؛ ولكنّني لا أعتقد أنّكم تنجحون.

ألحّ سي حمدان على إمكانيّة تنفيذ هذه الخطّة وأكّد بأنّ المبلغ الذي يطلبه منّي يزيد عن الكفاية.

عندئذ أحضرت خزنداري، فنقَده المبلغ أمامي وتوجّه إلى عنّابة، ومنها إلى مدينة الجزائر. وبعد ذلك علمت أنّه ذهب إلى فرنسا، ثمّ إلى القسطنطينيّة. وعندما رأيت وعوده لم تتحقّق كتبت له، فأجابني بأن لا خوف عليّ ولا على دراهمي. ولكنّني، في الحقيقة، تعرّضت للمصائب، وفقدت دراهمي إلى الأبد»[24].

فالسّؤال المحيّر هو لِمَ كان سي حمدان يراود أحمد الباي، وهو في موقف ضعيف، على أن يمنحه ذلك المبلغ، مقابل دفاع عنه أمام الفرنسيّين حتّى لا ينكّلوا به إذا عبست له الأيّام؟ فهل لأنّه كان يريد أن يرشوَ به بعض المسؤولين الفرنسيّين، أم أخذه مقابلاً للخدمة التي يقدّمها لصديقه أحمد الباي، ثم لم يخدمه فتيلاً؟ إنّ أمر شخصيّة حمدان لَمحيّر حقّاً. ونحن لا نستخلص هذه الأحكامَ إلاّ من هذه النّصوص التّاريخيّة الموثوقة. أم كان الرّجل يريد أن يجنيَ فوائدَ من تعادي الفرنسيّين والجزائريّين، على ذلك العهد، لصالحه الشّخصيّ؟

وأكثر من ذلك فقد أرسله الجنرال الفرنسيّ كلوزال يفاوض لهم بومزراق باي التّيطري؛ وقد ذكر محمد العربي الزّبيريّ بأنّ خوجة «قام بمهامّ كثيرة كلّفه بها رجالات فرنسا؛ ومن جملتها التّفاوضُ مع بومزراق باي التطري بأمر من الجنرال كلوزال»[25].

---

[24] أحمد باي، مذكّرات، ص.36–37.
[25] محمد العربي الزبيريّ، حمدان خوجة، في مذكّرات أحمد باي، ص.137.

بيد أنّ الزّبيري يعلّق على كلّ ذلك فيقرّر أنّ المهامّ التي كلّفه بها الفرنسيّون «لم تقضِ على شعوره الوطنيّ».[26]

إنّا، واللّه، لا نريد أن نسيء إلى سمعة رجل مثقّف، وجزائريّ كبير مثل حمدان خوجة؛ ولكنّا نريد فقط أن نبدّد الحَيرة، ونحاول فهم شخصيّته الغامضة، ومواقفه الملتوية؛ فنفهمَ شيئاً من حقائق التّاريخ؛ ذلك بأنّ الكتابات التي قرأنا عن حمدان خوجة، ممّا كتبه الجزائريّون في عهد الاستقلال، كلّها لصالح هذه الشّخصيّة، ولم نرَ أحداً، فيما اطّلعنا عليه من كتابات تاريخيّة على الأقلّ، توقّف لدى مثل هذه المواقف التي وقفها إبّان احتلال الفرنسيّين لمدينة الجزائر خصوصاً؛ والتي تقترب من الشُّبهة؛ بل ألفيناهم يعاملونه كما يعاملون أيّ بطلٍ من أبطال ثورة التّحرير العظماء. وإنّا بناء على هذه النّصوص التي كتبها الرّجل نفسه (وخصوصاً مذكّرته إلى «اللّجنة الإفريقيّة»)، والشّهادة التي كتبها أحمد باي، والسّفارة للفرنسيّين لدى بعض البايات الذين رفضوا الاستسلامَ للفرنسيّين ليحرّضهم على ذلك ويزيّنه لهم في أنفسهم؛ لا نستطيع أن نوافقهم على ما ذهبوا إليه، ونتمسّك برأينا فيه إلى أن يظهر ما يخالفه...

ولكأنّنا بالمؤرّخين الجزائريّين وقد بهرهم كتابه «المرآة»، الذي كتبه بعد خروجه من الجزائر فاستحوذ عليهم، وقد كان فيه وطنيّاً حقّاً؛ فتغاضَوا له عن هذه العبارات السّيّئة التي تدين الشّعب الجزائريّ كلّه ومقاومتَه فتصفهما بالتّعصّب والعِناد!... كما تغاضَوْا عن قبوله أن يكون سفيراً للفرنسيّين لدى بني جلدته. وقد يدافع عنه المدافعون، فيما يعود إلى السِّفارة للفرنسيّين لدى الجزائريّين، أنّ اعتداله وحسن علاقاته مع أولئك وأولئك كانا ممّا هيّأه أن يكون كذلك... غير أنّنا نراها كبيرة وقد كان أحمد الباي يقاوم الفرنسيّين ويسْعَون هم إلى تدميره تدميراً...

---

[26] م.س.

وربما من حقّ المؤرّخين أن يقفوا ذلك الموقف؛ ولكن ما ليس من حقّهم أن لا يعترضوا علينا وقد توقّفنا نحن لدى هذه العبارات المفاتيح، ولدى سفارته للفرنسيّين، وهما أمران مسيئان أشدّ الإساءة للشّعب الجزائريّ ولمقاومته الوطنيّة لنعلّق عليها، ولِنُحاولَ مَوْقَعَةَ هذا الرّجل في التّاريخ من خلالها؛ فهي التي حدّدت موقفه السّياسيّ، في رأينا، من حركة المقاومة الوطنيّة التي كانت مضطرمة على المحتلّين.

ولعلّ حمدان خوجة كان يريد أن يتّخذ موقفاً معتدلاً إزاء الفرنسيّين، دون التّفريط في ذات الأهالي، وفي الوطن الذي منحه المجد والعزّ والمال العريض؛ وذلك حتّى لا يقعَ فيما وقع فيه مُعاصره أحمد بوضربة الذي كشف عن ممالأته المُخزْيَة للمحتلّين الفرنسيّين؛ ذاهباً إلى حدّ اعتبار الاِنتماء إلى فرنسا العظيمةِ، كما يقول، نعمةً من الله عزّ وجل عليه، وعلى مَن يكون مثله من غير الوطنيّين !

ولعلّ الذي يشفع لوطنيّة حمدان خوجة أنّه تعرّض للنّفي من الجزائر إلى باريس، بعد ضغط المعمّرين على الحاكم الفرنسيّ؛ ثمّ من باريس إلى القسطنطينيّة؛ ممّا كان يدلّ على أنّه أصبح يزعج، ولو على هون ما، المسؤولين الفرنسيّين وذلك بعد مطالبته إيّاهم بعدم المساس بالأوقاف، وبعدم استبدال المساجد بالكنائس[27].

ويرى محمّد العربي الزّبيريّ، بعد أن كان دافع عنه كثيراً، في مقدّمة كتاب «المرآة»، أنّه «فشل في سياسته الدّاعية إلى التّآخي مع الفرنسيّين، ثمّ أدرك بأنّ دعوته لم تكن سوى نوعٍ من المثاليّة الفلسفيّة؛ فغيّر طريقته في الكفاح. ولكن عدم انحيازه إلى المقاومة المسلّحة من البداية لم يسمح له بجلْب أنصار كثيرين حوله. غير

[27] لم يُرد أحمد باي أن يعترف بأنّه نُفيَ من الجزائر إلى باريس، أو أنّه نُفِيَ من بارِيس إلى تركيا، وذلك حين يقول: «(...) وبعد ذلك علمت أنّه ذهب إلى فرنسا، ثم إلى القسطنطينيّة...»، مذكرات أحمد باي، ص 36-37. فالأمر بالقياس إلى أحمد الباي مجرّد ذهاب وتنقّل من بلد إلى بلد آخر، لا نفي! ولعلّه أراد بذلك أن ينكأ فيه حين لم يُعِدْ له نقوده!...

أنّ هذا لا يمنعنا من القول بأنّه كان وطنيّاً مناضلاً يحبّ الخير لبني قومه، وبأنّه عمِل كلّ ما في وسعه لاسترجاع سيادة بلاده».[28]

لكن أيّ طريقة هذه التي غيّرها في الكفاح؟ ثمّ أين كان هو من استرجاع سيادة الوطن، وقد كان على علم، حتماً، بسرائر الفرنسيّين ونواياهم !؟ وكيف كان يمكن لشخص واحدٍ لا يملك قوّة، ولا يجرّ وراءه قوّة العصبيّة خصوصاً، بمصطلح ابن خلدون، أن يؤثّر في الفرنسيّين فيحملَهم على الخروج من الجزائر طوْعاً؟ وما منعه من أن ينضمّ إلى أحمد الباي، مثلاً، وقد ذهب إليه مرّتين سفيراً للفرنسيّين؟ وما الذي حال دونه والانضمام إلى بومزراق حين ذهب إليه سفيراً لينظّم معه مقاومة ثالثة بالهضاب لتنضاف إلى مقاومة الشّرق والغرب؟... ولو جاء شيئاً من ذلك لأصبح حقّاً من عظماء التّاريخ الوطنيّ... ولكنْ كلّ امرئٍ ميسَّرٌ لِمَا خُلق له!

إنّا لم نعثر على نصٍّ واحد لحمدان خوجة يُثبت فيه أنّه كان يرفض احتلال الفرنسيّين للجزائر، بلْهَ العملَ على طرْدهم منها؛ وكلّ ما في الأمر أنّه كان يلتمس منهم أن لا يلِجُّوا في اقتراف المظالم الفظيعة، وأن لا يثيروا حميّة الجزائريّين وغضبهم؛ وذلك كي لا يتعرّض الفرنسيّون لمقاومة المتعصّبين العنيدين منهم!

وأيّاً ما يكن الشّأن، فإنّ الفضلَ كلّ الفضل لحمدان خوجة في تأليفه كتاب «المرآة» الذي يجب أن يكون الوثيقة الأولى للجزائر: تاريخيّاً، واقتصاديّاً، وسياسيّاً، وعسكريّاً في النّصف الأوّل من القرن التّاسع عشر، وخصوصاً بالقياس إلى السّنين الأولى من الاحتلال الفرنسيّ المقيت. فهو بهذا الكتاب نَعدّه مقاوماً حقّاً؛ وذلك لأنّه فضح فيه بعض منكَرات الفرنسيّين حين احتلّوا الجزائر؛ فلولا هذا الكتاب لضاع على تاريخ الجزائر الحديث معلوماتٌ لا يمكن أن توجد في كتابات الفرنسيّين التّاريخيّة المتحيّزة في معظم أطوارها. إنّ كتاب «المرآة» عظيم القيمة

---

[28] م.س.، ص.139.

بالمعلومات الدّسمة بحيث يمكن أن يغتديَ كلّ فصلٍ من هذا الكتاب موضوعاً كافياً لتأليف كتاب ضخْم في أحد المجالات الأربعةِ التي ذكرْنا آنفاً.

ولمّا كان كتاب «المرآة» يفضح سلوك المحتلّين الفرنسيّين، وقتْلهم النّفوس بغير حقّ، واستيلائهم على أموال النّاس وممتلكاتهم غصْباً وقسراً؛ يستوي في ذلك الجنديّ البسيط والضابط الكبير؛ وما ارتكبوه من شنائع وفظائع؛ فإنّنا نودّ أن نجتزئ في هذا الفصل، من هذا الكتاب، بالتّوقّف لدى فصلين اِثنين فقط من الجزء الثاني من كتاب «المرآة» لحمدان بن عثمان خوجة؛ وذلك حتّى لا يخرج هذا الفصل عن طوره المقدّر له سلفاً في خطّة الكتاب.

أوّلاً: صورة احتلال الجزائر في «المرآة»

بل ما ذا نقول؟ وهل يجوز لمؤرّخ أن يتحدّث عن تأهّب حقيقيّ للتّصدّي الفرنسيّين يوم النّزول؟ وما ذا فعل الباشا وصهره الآغا إبراهيم، قائد الجيش الجديد، ليس لتجنّب الكارثة؛ ولكن على الأقلّ لتقديم تضحيات جادّة تليق بكرامة شعب، وسيادة وطن، وعظمة عاصمة؟

لم يكن هناك أيّ شأن لتجنيب الوطن الاِحتلال الفرنسيّ غير شيءٍ واحدٍ وهو تسريح السّادة البايات، كما سرّح المصريّون فاروق عام 1952، وتدبّروا أمرهم بأنفسهم؛ وتولّي الدّفاع عن الوطن من أمثال الذين قادوا المقاومة الوطنيّة؛ لأنّ أيّاً من أولئك البايات الأثرياء كان قادراً على التّعارك مع ذبابة، فكيف مع الجيش الفرنسيّ الذي أغراه بالجزائر حبّ الفرنسيّين في التّوسّع، وإدراكهم أنّ الجزائر، فعلاً، هي البوّابة الكبرى لإفريقيا، وأنّ فيها من الخيرات والثروات ما سيهدّل بؤس

فرنسا وفقرها (عجْزها عن دفع سعر القمح الجزائريّ إلى اليوم!) ثراءً وازدهاراً، وضعْفها قوّة ومهابة.

لكنّ تسريح البايات كان يتطلّب حركة سياسيّة منظّمة على المستوى الوطنيّ وذلك ما كان غائباً؛ فلمّا جاءت المقاومة الوطنيّة تقاوم الفرنسيّين كانوا أصبحوا مستقرّين في أجمل مناطق البلاد وأخصبها وأغناها؛ فلم يكن ذلك ميسوراً. إنّ من الأفضل قتل الثعبان قبل دخوله البيت، إمّا إذا دخل واختبأ فيه فإنّه يعسر القضاء عليه إلاّ بجهد خاصّ...

لقد كنّا تحدّثنا بإيماء مقتضب عن الكارثة الوطنيّة التي أفضت إلى احتلال مدينة الجزائر، ثمّ إلى احتلال أرجاء الوطن كلّه شيئاً فشيئاً؛ وذلك على الرّغم من التّضحيات الجِسام التي قدّمها الجزائريّون من أجل الحيلولة دون ذلك. ولو كانت الإحصاءات دقيقةً لعُدّ الشّهداءُ الذين ظلّوا يقاومون المحتلّين الفرنسيّين، وقبلهم المحتلّين الأسبان في الغرب، إلى خامس يوليو 1962 بالملايين حتماً؛ ولكن كم كان عدد هذه الملايين؟. ذلك بأنّ عدوان الفرنسيّين لم يكن يميّز بين من يحمل السّلاح، وبين من يحمل الورد؛ وبين عُتاة الرّجال، وبين ربّات الحِجال! ولعلّ إشارة حمدان خوجة، ولو بالاحتشام والاعتدال المعهودين في كتابته وشخصيّته، إلى بعض ذلك، دليل قاطع على ما نزعم؛ فقد ذكر سي حمدان أنّه صار من المتداوَل بين الأهالي: «أنّ الفرنسيّين ليس لهم هدف غير إبادة العرب[29] وتجريدهم من أملاكهم الإرثيّة».[30] ذلك بأنّ تداوُل أنّ الفرنسيّين لم يكن لهم من هدف في الجزائر إلاّ متابعة الجزائريّين -العرب حسب كلام خوجة- تحت كلّ كوكب، والإعمال فيهم إبادة وغصباً، كان له حتماً أساس من الواقع المرير.

---

[29] لنلاحظْ أنّ حمدان خوجة يصطنع هنا، وهو يتحدّث عن إبادة الجزائريّين عنِ العرب خصوصاً، لا عن غيرهم! وهذه مسألة أخراةٌ غامضة في التّاريخ ندعو إلى التّوقّف لديها وبحثها من كل جوانبها. فليس حمدان خوجة ممن يرسل الكلامِ على عواهنه دون معنى!

[30] حمدان خوجة، مذكّرته إلى اللجنة الإفريقيّة، ص.149 في مذكّرات أحمد باي.

وإذا كـان مـن حقّنـا التّوقّـفُ لـدى عبـارات حمـدان خوجـة لتحليـل بعـض المعطيات اللّغويّة فيها، ولا أحد يستطيع أن يجرّدنا من هذا الحقّ، ما دامت كتابة حمدان خوجة أصبحت مِلكاً للتّاريخ، وجزءاً من التّراث؛ فإنّنا لاحظ:

1. أنّ حمدان خوجـة يصطنـع إثنيّـة «العـرب»، بـاللّفظ، مـن بـين الإثنيّـات الأخرى التي كانت تكوّن سكّان الجزائر. وإنّا لا ندري لمَ كان هذا التّخصيـص؟ فلم يكن للفرنسيّين، حسَب تعبير خوجة، في الجزائر من «هدف غير إبادة العرب»!

2. إنّ الكاتب يصطنع لفظ «إبـادة» خصيصـاً؛ ولم يصطنـع لفظـاً آخـر أخـفَّ دلالة، أو أقلّ إجراماً؛ مثل القتل؛ ممّا يدلّ، كما قضَينا نحن بذلك منذ حين، علـى أنّ الفرنسيّين فعلاً، وانطلاقـاً مـن هـذا النّـصّ الـذي كـان قدّمـه حمـدان خوجـة إلى لجنتهم الإفريقيّة، كانوا يُبيدون الجزائريّين إبادة عمياء؛ ولم يكونـوا غـالبينَ كِرامـاً في التّعامل مع من وقعوا تحت غلَبهم؛ فكانوا لا يتورّعون في اقتراف المجازر البشعة بالدّم البارد. ولعلّ مجازر ثامن مايو 1945، التي سنتوقّف لديها في الجزء الثاني مـن هذا الكتاب، وقد وقعت بعد نهاية الحرب العالميّـة الثانيـة (أي بعـد يقظـة الضّمير العالميّ واهتمامه بحقوق الإنسان، وتقدّم الثقافة الإعلاميّة)؛ يضـع بـين يـدي المؤرّخ فكرة عن تعامل الفرنسيّين مـع الأبريـاء الجزائريّـين: وقـد كـان ذلـك في ظلام مـن الزّمن، وفي غفلة من التّاريخ، وفي تعتيم من الإعلام الذي كان بدائيّاً في فرنسا نفسِها.

حقّاً إنّ عامّة الجيوش حين تحتـلّ أمّـة مـن الأمـم، أو قطـراً مـن الأقطـار، ترتكب تجاوزات كثيرة أو قليلة في مجال حقـوق الإنسـان؛ لكـنْ أن يصـل الأمـر إلى إبادة النّاس إبادة عمياء، وقتْلـهم تحـت تأثـير نزعـة العـداوة والبغضـاء؛ ليـس ممّـا يشرّف أيّ جيش يتورّط في ذلك.

3.لم يقتصر التّجاوز الفظيع في ارتكاب المنكَرات في الجزائر على إبادة الأهالي من الفقراء والمساكين وحدَهم، ولكنّه كان يمتدّ إلى الثروات فيقع نهْبُها والاستيلاء عليها بغير حقّ: «(...) غير إبادة العرب، وتجريدهم من أملاكهم الإرثيّة».

4.كان حمدان خوجة أكّد حُكْمه هذا في بداية الفقرة حين قال: «وإنّ طرُق العنف هذه لا تؤدّي سوى إلى شلّ أفكار هؤلاء الأهالي، ودفْعهم إلى الحرب وجعْلهم يتشبثون بآرائهم التّعصّبيّة».[31] فطُرق العنف التي كان الجيش الفرنسيّ، كما كان حمدان خوجة ذكر أيضاً من قبل ذلك بأنّ هذا الجيش «لم يحاشِ حتّى النّساءَ والشّيوخ والأطفال»[32] كانت إذن أمراً متّبعاً، وتقليداً جارياً، في التّعامل مع كافّة الشّرائح الوطنيّة في الجزائر دون تمييز؛ فإذا كان «الجيش الفرنسيّ لم يُحَاشِ حتّى النّساء والشّيوخ والأطفال» فأيّ شريحة من بعد ذلك كان يمكن لها أن تُفلت من الإبادة؟

ونعود إلى احتلال مدينة الجزائر الذي لم يكن ما ذكرنا منه أطرافاً إلاّ جزءاً من مأساة هذا الاِحتلال؛ فإنّا لا نعتقد أنّ أحداً يمكن أن يكتب عنه بالدّقّة التّاريخيّة المطلوبة، ولا بالاعتدال الذي كثيراً ما يطلب توافرُه في المؤرّخ في مثل هذه المواقف التي تستأثر العاطفة الوطنيّة بالكاتب، كمثل حمدان خوجة. فقلد كان بمثابة المستشار لحسين داي؛ وكان من أثرى عباد اللّه في الجزائر إن لم يكن أثراهم، بعد اليهود. وقد كان إلى كلّ ذلك عاقلاً مفكّراً، ومعتدلاً متسامحاً، ومتعلّماً مثقّفاً.

فهو يؤكّد في مطلع الفصل الثاني، من الجزء الثاني، ما كتبه أحمد باي قسنطينة في مذكّراته من أنّ حسين باشا كان أخبر مجلس حربه، قُبيل نزول الجيش الفرنسيّ في سيدي فرج بأيّام قليلة، أنّه كان على علْمٍ بما كان يدبّر الفرنسيّون

---

31 م.س.

32 م.س.

للجزائر[33]. بل إنّ حمدان خوجة يذكر معلومة لم يذكرها أحمد باي، في إطار الإعداد لمقاومة الفرنسيّين، وهي أنّ حسين باشا كتب «إلى القبائل والعرب يخبرهم بالنّوايا العدوانيّة التي [كان] يضمرها لهم الفرنسيّون، ويأمرهم بأن يستعدّوا ويكونوا رهن الإشارة. فأجابوه بأنّهم مستعدّون، وبأنّهم لا ينتظرون سوى أوامر الباشا ليسارعوا إلى نصرته. كما أنّ حسين باشا كتب إلى باي وهران[34] وأوصاه بتحصين مدينته وباليقظة. وأمر باي قسنطينة بتحصين مدينة عنّابة».[35]

ولعلّ نموذج الشّخصيّة السّياسيّة لباي وهران تعطينا فكرة واضحة عن مواصفات الرّجال الأتراك الذين كانوا يحكمون الإيالة الجزائريّة ؛ ولذلك انتهى حكم البايات في عهد قصير، وكثيراً ما كان يقع تسليم مدينة بكاملها دون مقاومة مثل ما حدث لمدينة وهران، التي كانت قاومت الأسبان طَوالَ ثلاثة قرون. ومثل ما حدث أيضاً لمدينة الجزائر التي أوكلت قيادة فرق المقاومة لقائد، هو الآغا باشا، لم يكن يفهم في الإستراتيجيّة العسكريّة، ولا في يسمّى في الإسلام «الخدعة» الحربيّة، شيئاً.

لقد كانت الظّروف التّاريخيّة والعسكريّة مهيّأةً بامتياز ليحتلّ الفرنسيّون الجزائر دون عَناء؛ وإنّما المعاناة جاءتهم متأخّرة حين فرّ البايات فتفرّقوا شذر مذر في أقطار من المشرق، فاختفوا من الوجود غير مأسوفٍ عليهم، فانبرى الجزائريّون يدافعون عن وطنهم. ولولا تفرُّقُ كلمتهم، وعدم تنسيق المقاومة فيما بينهم، لكان الفرنسيّون آبوا من حيث أتَوْا بعد سنوات قِلاَل. ولكنّ ذلك لم يكن، لأنّ الآغا إبراهيم، صهر حسين باشا، الذي عُيّن قائداً للجيش، مكان الآغا يحيى «لم يكن

---

33 أحمد باي، مذكّرات، ص.11.

34 يذكر المؤرّخو ا، باي وهران، وهو حسن باي، كان ثريّاً عريض الثراء، وشيخاً طاعناً في الشّيخوخة (ومنعتهم مروءتهم أن يقولوا: إنّه لم يكن شجاعاً)، فسلّم المدينة إلى الفرنسيّين دون أيّ مقاومة فجازوه بأن تركوه باياً على وهران لسبعة شهور. ثمّ لم يلبثوا أن اضطهدوه ففرّ إلى الإسكندريّة، قبل أن يوافي مكّة التي بها قضى نحبه.

35 خوجة، المرآة، ص.187.

يعرف الشّيء الكثير من التّكتيك العسكري».[36] فكان ذلك من أهمّ العوامل المركزيّة في حدوث الطّامّة الكبرى.

وإذا كان حمدان خوجة يصرّ، في كتابه «المرآة»، على أنّه لو كان الآغا يحيى هو الذي كان يقود الجيش الجزائـريّ، القليـل العـدد، الضّعيـف العُـدد، علـى كـلّ حال، لكانت الأمور سارت علـى يـرام[37]؛ فـإنّ القـائد الجديـد، الغِـرّ، «لم يُعدّ أيّ شيء، ولم يتّخذ أيّ نوع من التّدابير، ولم يعط أيّ أمر؛ بل كان يزعم أنّه عندما لأ أقدام الفرنسيّين الأرض، سيطوّقهم بالقبائل الذين لم يكونوا تحت تصرّفه؛ لأنّه كـان يجب أن يعطيَ الأوامر مسبقاً؛ لكي يتسنّى لهم أن ينتقلوا إلى الأماكن المعلومة بـدون تعب، ولكي يتمكّنوا من صدّ الأعداء...».

إنّنا نَعُدّ كتابة حمدان خوجة من أدبيّات المقاومة الوطنيّة باعتبـار الضّدّ؛ أي باعتبار غياب المقاومة الوطنيّة الحقيقيّة المدروسة والمخطّـط لخُدَعـها الحربيّـة سلفاً؛ وخصوصا أنّ الباشا كان على اطّلاع تامّ بكـلّ التّفـاصيل المتعلّقـة بمكوّنـات الجيـش الفرنسيّ الذي سينزل بسيدي فرج مـن حيـث عَـدده وعُـدده. وقـد قُدّمـت كـلّ تلك المعلومات إلى القائد الجديد الذي يبـدو أنّـه كـان يفكّـر في كـلّ شـيء؛ إلاّ في كيفيّـة تحمّل مسؤوليّته الثقيلة الذي كان أجدر بـه أن لا يتحمّلـها مـا دام كـان يعـرف، في قرارة نفسه، أنّه ليس أهلاً لها. ويبدو أنّ مصيبـة الجزائـر في تاريخـها الحديـث أنّ المسؤوليّات الكبرى كثيراً ما توضع في غير أهلها فتضيع كثير من مصالح الوطن جـرّاءَ ذلك.

---

[36] م.س.، ص.188.
[37] م.س.،ص.189.

والآغا إبراهيم لم يهيّئ شيئاً يقاوم به الأعـداء النّـازلين في سيدي فرج؛ فلم «تحضّر المدفعيّة، ولم تحفر الخنادق، ولم يكن هناك سـوى اثـني عشر مدفعاً كـان الآغا السّابق[38] قد نصبها في بداية إعلان الحرب.

وفي اليوم الذي نزل فيه المارشال دوبرمون مع جيشه لم يكن تحت تصرّف الآغا سوى ثلاثمائة فارس (...). ولقد سمعت أنّ نزول المارشال دوبرمون كان صِدفة؛ وأنّه كان معرّضاً لأخطار جِسام لأنّه أنزل الرّجالَ قبل المُؤن والمدفعيّة. وظلّت الأمـور على هذه الحال ثلاثة أيّام بسبب الرّياح المعاكسة التي كانت تُبعد سفن النّقل. وما من شكٍّ أنّ الجيش الفرنسيّ كان يمكن أن يهزم لو وقع نوع من التّحضير لصدّ هذا النّزول».[39]

ويمكن أن نستخلص مـن هـذا النّـصّ التّـاريخيّ الـذي يتحـدّث فيـه حمدان خوجة عن الإعدادات، أو قـل عـن انعدام الإعـدادات، الـتي وقعـت لمقاومـة نـزول الفرنسيّين بسيدي فرج نتائجَ مذهلة، لعلّ أهمّها:

1.أنّ الآغا إبراهيم لم يفعل شيئاً في سيدي فرج؛ واجتزأ بالمدافع الاثني عشر التي كان ابتدأ في نصْبها القائد العسكريّ المحنّك المقتول. وكـأنّ الآغـا إبراهيـم كـان يستكثرها فلم يُضف إليها شيئاً. بل ربما كان يفكّر في سحْبها من هناك وإخفائـها في بعض الأدغال حتّى لا يزعج وجودها الفرنسيّين النّازلين؛ وكأنّـهم ضيوف كرام، لا محتلّون لئام! ولو لم ينصب تلك المدافعَ الآغا المقتـول لَما كـان أحـدٌ فكّر في نصبـها هناك قطّ. وهي على كـلّ حـال لم تُغْـنِ شيئاً؛ لأنّ الأهـمّ ليس دائماً في مواصفات السّلاح، ولكن في مستعمِل السّلاح!

وإلاّ فلماذا لم تُحفر الخنادق على شاطئ سـيّدي فـرج والأرض رمليّـة سـهلة؛ بحيث كان يمكن حفْرها في أيّام قليلة، بجهد قليل؟ ولماذا لم تضف مدافـع أخـرى،

[38] الآغا يحيى الذي قتله حسين باشا بأيّام قبل احتلال الجزائر.
[39] خوجة، م.م.س.، ص.190-191.

في خطّ دفاعيّ ثانٍ، وخطّ دفاعيّ ثالث، لمقاومة المحتلّين في حال ما إذا اخترقوا خطّ الدّفاع الأوّل؟

2.والأسوأ من الاِستنتاج الأوّل أنّه لم يكن تحت إمرة الآغا إبراهيم إلاّ زهاء ثلاثمائة رجل (مقابل ثلاثين ألف مقاتل فرنسيّ جاءوا من الشّمال في «ستّمائة سفينة شراعيّة، وسبع بواخر صغيرة».[40] تُقلّهم مع وزير دفاعهم دو بورمون شخصيّاً) هي التي كان يعتدّ بها لصدّ هجوم جيش عصريّ كبير؛ وذلك لأنّه لم يصدر الأوامر لأرجاء الجزائر لتأتيَه الجيوش والحال أنّه كان على علم، فيما يقول حمدان خوجة،[41] بتاريخ نزول الفرنسيّين... لكنّ باي التّيطري الذي كان وعد حسين باشا بأنّ له جيشاً قوامه عشرون ألف رجل، لم يصحب معه إلى سطاولي يوم النّزال إلاّ ألف رجل[42] .

وبغضّ الطّرْف عن سذاجة القائد الآغا إبراهيم الذي رفض الخطّة الدّفاعيّة التي وضعها أحمد باي قسنطينة[43]، الذي كان متواجداً بالجزائر في تلك الأثناء، فإنّ عدد المقاتلين كان قليلاً جداً إلى حدّ أنّ الوطنيّ الغيور يخجل من ذكْر هذه الفضيحة الماثلة في أنّ الحدّ الأقصى للمقاتلين يوم الكارثة لم يكن يجاوز ألفيْ رجلٍ على أقصى تقدير، لأمّة تَعدادُ سكّانها، يومئذ، عشرةُ ملايين نسمة. وكلّ ذلك لا يدلّ فقط على سذاجة تقدير الموقف، وإلاّ فنحن أيضا سنُصبح سُذجاً إن صدّقنا هذا وقبلنا به على أنّه أمرٌ مسلّم لا يحقّ لأحدٍ فيه الجدال؛ ولكنْ على أنّ هناك سرّاً آخرَ كان وراء ذلك التّهاون الذي أفضى إلى التّخاذل... وللمؤرّخين الجزائريّين أن يعيدوا النّبْش في تلك السّاعات السّوداء من تاريخنا الوطنيّ ليحدّدوا المسؤوليّات بكلّ موضوعيّة وصرامة. فكفى مِن لَفِّ الأحداث القذرة، من تاريخنا الكبير، في أثواب من حرير! فالأهالي لم

---

[40] كارل بروكلمان، م.م.س.، ص.621.
[41] م.س.، ص.189.
[42] م.س.، ص.191.
[43] م.س.، ص.192؛ مذكّرات أحمد باي، ص.12-17.

يقصّروا، ولم يألوا جهداً حين وجدوا من بعدُ زعماء وطنيّين شجعاناً مخلصين قادوهم للمقاومة المشرّفة.

3.وهذا التّهاون الذي وقع في صفوف البايات الذين كانوا يحكمون الجزائر والجزائريّين؛ قابله خطأ عسكريّ فادح ارتكبه المارشال الفرنسيّ دوبرمون الذي تسرّع فأنزل الرّجالَ قبل المؤن والمدفعيّة؛ فقد حالت بينه وبينه ذلك عواصف هوجاء ضربت شاطئ الجزائر. لكنّ أحداً من الطّرَف الجزائريّ لم يتفطّن إلى ذلك، ولم يُفد من هذا الخطأ لدى العدوّ؛ وظلّ الآغا إبراهيم ينتظر أن تسكن العاصفة، ويستجمّ الجنود الفرنسيّون، ويسترجعوا قواهم ليتقدّموا في نزهتهم الجميلة إلى نحو قصور القصبة ليتخفّى هو في إحدى الدّور الرّيفيّة مع مجموعة قليلة من خدَمه[44] ليتّخذ كلّ ضابط منهم قصراً بديعاً له بما فيه من تحف ونفائس وذخائر وكنوز!...

ولا يشبه هذا السّلوك الغريبُ إلاّ سلوكَ صاحبِ بيتٍ اقتحم عليه سارقٌ بيتَه وهو ينظر؛ ولكنّ السّارق اضطرب في اقتحام البيت وأصيب بذعر وهلع وانبهار؛ على حين أنّ صاحب البيت ظلّ يتفرّج عليه؛ وينتظره إلى أن يسترجع أنفاسه ويذهب عنه الفزعُ، ويستعيد قوّته ليهجم على مَن في البيت... وهنالك يحاول أن يتدخّل!...

ونجد حمدان خوجة يفصّل في أخبار الطّامّة العظمى: احتلال مدينة الجزائر بسبب قائد جيشٍ ليس له من الدّهاء العسكريّ مثقال ذرّة؛ فقد وزّع على كلّ جنديّ من رجاله عشر خرتوشات؛ ولم يتوقّع توزيع العلف على خيل الفرسان، ولم يُعِدّ أيّ ذخيرة[45]، ولم ينظّم جيشه على النّحو الأدنى من التّنظيم على الأقلّ. وكان يعتقد أنّ توزيع عشر خرتوشات على كلّ جنديّ كافية لقتل نصف الجيش الفرنسيّ![46] فقد

---

[44] حمدان خوجة، م.م.س.، ص.196-197.
[45] م.س.، ص.196.
[46] حمدان خوجة، م.م.س.،ص.193.

عجب حمدان خوجة من سذاجته إلى حدّ أنّه قال: «لم أدر ما أقول عند ما رأيت هذا الآغا يهذي بهذه الكيفيّة».[47]

ومن غريب الأمر الذي لا غرابة فيه في الحقيقة، أنّ الباشا كان سلّم أموالاً ضخمة للآغا ليوزّعها على المقاتلين في شكل مكافآت؛ ولكنّه لم يمنحهم فلساً واحداً! ويقول سي حمدان حول هذه المسألة: «لقد سلّم حسين باشا لهذا الآغا [إبراهيم] مبالغ كبيرةً من الدّراهم لتوزَّعَ على المحاربين لكي يسرعوا في الأعمال وتشجيعاً للجنود. غير أنّ هذا الآغا لم يُعطِ شيئاً لِمَن وجّه الدّايُ إليهم تلك المبالغ!».[48]

ولَمّا رصد الدّاي خمسمائة فرنك لكلّ جنديّ يحمل رأس أحد الأعداء؛ «وكُلّف الآغا بحساب هذا المبلغ، وجمع الإيصالات من أصحابها بعد تقديم الأدلّة المقنعة. وبدلاً من أن ينفّذ إرادة سيّده ويدفع المكافأة الموعودة؛ فإنّه كان يردّ الجنود طالباً منهم أن يعودوا بعد المعركة لتقاضي ما لهم. ولا أدري ما ذا كان مصير المبالغ الهائلة التي كانت في حوزة الآغا؟!».[49]

ويعلّق حمدان خوجة على سلوك هذا القائد الغِرّ حين كان بمراكز الحراسة، بسيدي فرج، عددٌ قليل من الجنود ولم تكن معهم، مع ذلك، أسلحة، ولا أيّ وسيلة دفاعيّة: «حينئذ اقتنعت بنفسي أنّ قيادة الجيش أسندت لرجل لا يعرف الفنّ العسكريّ، واعتبرت الإيالة قد ضاعت. ثمّ رجعت حزيناً إلى الجزائر».[50]

والحقّ أنّ حمدان خوجة فصّل في تقصير هذا الرّجل وعدم خبرته العسكريّة؛ فوجّه أصابع الاِتّهام للآغا إبراهيم الذي وصفه في بعض كتابته بأنّه لم يكن «إلاّ شبه رجل!»[51] على كلّ الهزائم التي لحقت بالجزائريّين لدى احتلال مدينة الجزائر. فهو الذي يتحمّل المسؤوليّة التّاريخيّة عن احتلال الوطن. غير أنّ الباشا حسين

47 م.س.
48 م.س.، ص.194.
49 م.س.
50 م.س.
51 م.س.، ص.199.

الذي يتحمّل المسؤوليّة التّاريخيّة عن احتلال الوطن. غير أنّ الباشا حسين يتحمّل القسط الأكبر من هذه المسؤوليّة لأنّه هو الذي كان الرّجل الأوّل في البلاد؛ وكان يجب أن لا تأخذه عاطفة ولا ذاتيّة لدى إيكال قيادة الجيش لرجلٍ كان يجب عليه أن يتحرّى في أمره غاية التّحرّي. فإبراهيم لم يكن غرّاً ساذجاً في مجال العسكريّات فحسب؛ ولكنّه، وانطلاقاً من كتابة سي حمدان المفصّلة حوله، كانت تنقصه الاِستقامة والنّزاهة؛ حيث استولى على مكافآت الجنود والمشجّعات المادّيّة التي رصدها لهم الدّاي. غير أنّ سي حمدان الذي كان مقرّباً جدّاً من الدّاي لم يذكر لنا لماذا لم يفكّر في طلب مقابلة المسؤول الأوّل وإخباره بما يجري؛ فهل كان يخشى أن ينتقم منه إبراهيم؟ أم ماذا؟ هذا سؤال آخر يطرح للتّاريخ الأخرس[52]!...

لقد ظلّ حمدان خوجة يحنّ إلى قيادة الآغا يحيى المحنّك؛ ويذكر أنّ النّاس جميعاً في الجزائر تنبّؤوا بنهاية الدّولة الجزائريّة يوم قُتل يحيى: «وعندما فقدت الإيالة آغا يحيى تنبّأ كلّ عاقل بانهيار الجزائر؛ ولم يوافق أحد على الحادث وحتّى لو كان مذنباً؛ فإنّه ما كان ينبغي أن يستبدل بإبراهيم آغا. إنّها غلطة فادحة لا تُغتفر (...).

وهكذا، إذن، كان إبراهيم آغا يريد محاربة الفرنسيّين بدون جيش منظّم، ولا ذخيرة حربيّة ولا مُؤن، ولا شعير للخيل. وبدون أن تكون له المقدرة الضّروريّة للقيام بالحرب».[53]

غير أنّ الباشا حسين لم يلبث تحت إلحاح حمدان خوجة أن عزل الآغا إبراهيم بعد حدوث الطّامّة، وعيّن مكانه باي التيطري. ولكنّ خوجة يعترف بأنّ هذا

---

[52] الحقّ أنّ حمدان كلّم الدّاي بعد انهزام إبراهيم في سطاولي؛ ولكنّ الدّاي أمره بأن يذهب إلى إبراهيم ويشجعه، وأن لا تكون الهزيمة الأولى سبباً للهزائم الأخرى... (انظر المرآة، 196-197).

[53] م.س.

التّعيين جاء متأخّراً؛ وأنّ باي التّيطري لم يكن ليغيّر مـن الأمـر شيئاً بعد أن اهتزّ الوطن من أقصاه إلى أقصاه، وتحت الصّدمة الكبرى.[54]

وكذلك يتبيّن من خلال هذه الشّهادة المتكرّرة لحمدان خوجة الذي عاصر كـلّ الظّروف الغامضة التي تمّ فيها احتلال مدينة الجزائر، أنّ الرّجل الأوّل المسؤول عن الكارثة هو قائد الجيش الجديد الذي عيّنه الدّاي لأنّه كـان صهراً لـه؛ وليس لأنّـه كان عبقريّاً في التخطيط الحربيّ. ولو أنّ إبراهيم آغا لم يجمع إلى انعدام التّجربة سوء النّيّة لكنّا عذرناه؛ ولكن أن يستولي على مرتّبات الجنود، وأن لا يفيَ لهم بالعـهود؛ فإنّ هذا الرّجل جمع بين كلّ المساوئ واللّه المستعان. فلا قائد محنّـك يقود البلاد، ولا عدد كافٍ من المقاتلين يدافعون، ولا ذخـيرة كافيـة للجنـود، ولا تشجيع ملائـم للمنخرطين في سـلك المدافعـين عـن المدينـة... كـلّ الظّروف السّيّئة، وكـلّ المساعي المقصّرة، اجتمعت لتهيّئ لبورمون الجوّ الملائم ليتقدّم نحو مدينة الجزائر وهو مطمئـنّ إلى أنّه لن يصاب وجيشه بأذىً يذكر!

إنّنا لا نريد أن نُعيدَها جَذَعَة، كما تقول العرب؛ فنتحدّث بالتّفاصيل الدّقيقة التي أفاض فيها المؤرّخون الجزائريّون والفرنسيّون عن الظّروف التي أفضت إلى تيسير احتلال الجزائر؛ ولكنّنا نلاحظ فقط أنّ الدّاي حسين، لو لم يكـن هـو نفسـه، لكـان قَرَع للأمر ظُنْبوبَه؛ هذه حقيقة تاريخيّة يجب أن تقال. كان البايات يحكمـون باسم القسطنطينيّة التي كانت غائبة السّلطة؛ فكـانوا مـن وجهـة يحكمـون باسمـها وهـي منعدمة؛ وكانوا، مـن وجهـة أخـراة، لا يستطيعون الاستقلال بـالقرارات والتّنظيم والتّعمير إلاّ بتوجيه من السلطان العثمانيّ... ولذلك وقع اضطراب شديد حين هُـدّدت الجزائر بالاحتلال الفرنسيّ الذي لو طاول القسطنطينيّةَ لكان سـلوك العثمـانيّين غـير سلوكهم حين انعدمت مُبالاتهم باحتلال الجزائر.

---

[54] م.س.، ص.199.

ثانيا: تخريب مدينة الجزائر وشيوع الفوضى

لقد وقع ما وقع. لقد وقعت الكارثة. لقد احتُلّت الجزائر. كان سكّان القصبة في كثير منهم من الأثرياء والوجهاء فخشُوا على ثرواتهم من النّهْب، وعلى أموالهم من الضّياع؛ فتجانفُوا عن الحرب إلى السّلم[55]، وآثروا الإستعباد والذلّ على الحريّة والعزّ؛ فكان ما كان. ويا حسرة على العباد والبلاد!

فما هو إلاّ أن وقع توقيع معاهدة تسليم الجزائر ومفاتيحها وثرواتها وخيراتها وأهاليها إلى السّفّاح كونت بورمون في خامس يوليو 1830؛ وإذا المقاتلون الذين لم يقاتلوا شيئاً في الحقيقة؛ والذين كانوا بمدينة الجزائر يعمِدون إلى نهْب كلّ شيءٍ؛ فأخذوا «كلّ ما يمكن حملُه: المواشي، الخيل، البغال... وأشعلوا النّيران في المخازن، وكسروا جرار الزّيت والزّبدة، ثمّ اصطحبوا معهم كلّ ما قدروا على نقله حتّى لا يتركوا شيئاً للفرنسيّين».[56]

ولقد كان البدوُ مُحقّين فيما اعتقدوا؛ ذلك بأنّ الجنود الفرنسيّين لم يكادوا يدخلون مدينة الجزائر حتّى عمدوا، هم أيضاً، إلى «اقتلاع سياجات الحديد، وتهديم الحمّامات، وحملوا إلى الأسواق ما تبقّى من أشياءَ فباعوها أمام أعيننا. وبذلك يكون الفرنسيّون قد اتّبعوا طريقة البرابرة. بل إنّهم كانوا أكثر فساداً؛ لأنّهم هدموا ما كان مبنيّاً، وخرّبوا ما كان موجوداً».[57]

إنّا لا نريد أن نحاكم الفرنسيّين على الهمجيّة التي تصرّف بها الجيش الفرنسيّ حين احتلّ مدينة الجزائر؛ فلقد يكون التّاريخ فعل ذلك؛ وإن لم يفعلْه فلا

---

[55] م.س.، ص.202.
[56] م.س.، ص.204.
[57] م.س.

كـان تاريخـاً! ولكنّنـا نريـد فقـط أن ننبّـه إلى ضـرورة الاتّعـاظ بـهذه المأسـاة الوطنيّـة الرّهيبة، والدّعوة إلى التّركيز عليها في تدريس التّاريخ لأطفالنا ليعرفوا حقيقة همجيّـة المحتلّين الفرنسيّين الذين يريد كثير من الجزائريّين اليوم أن يعودوا بلغتهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم السّيّئة ليزدادَ الجزائريّون تمزّقاً وضعفاً وضياعاً.

إنّ تخريب مدينة الجزائر لا يليق بأمّة متحضّـرة؛ فقـد احتـلّ ضـابط فرنسـيّ دارا فاخرة لاستجمام القنصل السّويديّ. وعلـى الرّغـم مـن أنّ الأعـراف الدبلوماسـيّة تأبى ذلك فإنّ الفرنسيّين أخـذوا مـن قصـره «كـلّ شـيء، وقطعـت الأشجار، ووقـع تخريب لا مثيل له في جناحه...».[58]

وإذا كانت مقـرّات السّـفراء ودُورهـم لم تنـجُ مـن السّـلْب والنّـهب، والتّـهديم والتّخريب؛ فما القولُ في بقيّة الدُّور والقصـور الـتي كـان أصحابُـها مجـرّد أثريـاء أو أعيان. فلقد وقع، مثلاً، نهْب بضاعــة ثمينـة لحمـدان خوجـة. ولكنّـه لـمّا تقـدّم إلى السّفّاح بورمون لم يعره أيّ اهتمام، ولم يتواضع لأن يجيبه على شكواه.[59]

بل إنّ بعض الرّوايات تزعم أنّ قائد الجيش الفرنسيّ بورمون، حسب كتابات حمدان خوجة، لم يستطع التّعفّف عن بعض الكنوز التي كـانت تزدَخِـر بـها مدينـة الجزائر؛ فقد قيل إنّ «رئيس الجيش هذا لم ينجُ من بعض الأطماع، وكذلك كثيرٌ مـن ضبّاطه المقرّبين».[60]

والأسوأ من ذلك كلّه أنّه وقع تخريب «دار العملة»، ونُهبت منها كلّ الودائع الضّخمة التي كانت مدّخرةً بها من ذهب وفضّة. واعترف القادة الفرنسيّون بأنّ ذلـك من عمل الجنود[61]؛ ولكنّهم لم يسترجعوا الأمانات إلى أهلـها؛ فطُبّـق قـانون الغـاب؛ وتغاضى كبار الضّبّاط الفرنسيّون ليذروا الجنود يعيثون في المنشآت العموميّـة للعاصمة

---

58 م.س.، ص.208.
59 م.س.، ص.209-210.
60 م.س.، ص.210.
61 م.س.، ص.213.

فساداً. بل إنّ المحتلّين اختاروا أجمل القصور، وأفخر الدّور، وأكثرها أناقةً فاتّخذوها لهم مغانيَ يقطنونها؛ فكان من بين الدّور التي احتُلّت عنوةً دار الآغا إبراهيم، ودار أحمد باي قسنطينة. وإذا كان الضّابط التي قطن دار إبراهيم كان متحضراً وأميناً وراقيا، حسب بعض أوصاف حمدان، فإنّ الذي قطن دار أحمد الباي لم يترك فيها شيئاً من الأثاث والأواني الفاخرة إلاّ باعه بعشر ثمنه أو أقلّ تحت إغراء بعض اليهود.

ويزعم حمدان خوجة أنّ اليهود، وعلى رأسهم المشؤوم بكري الذي كان السّبب الأوّل في احتلال الجزائر بسبب قمحه الذي لم تؤدّ الحكومة الفرنسيّة سعره للدّاي... بل لعلّ ذلك كان بتدبير من أسرة بكري اليهوديّة التي كانت تتحكّم في التّجارة الخارجيّة للجزائر؛ وباتّفاق مع الفرنسيّين ليؤجّلوا الدّفع، والبدء في ذلك باستفزاز قنصلهم للدّاي بقصر القصبة لتقع حادثة المروحة... إنّ كلّ تلك الأحداث تبدو غير منطقيّة ولا طبيعيّة... وعلى المؤرّخين أن يربطوا الأحداث الخفيّة بالأحداث الظّاهرة لاستخلاص النّتائج... ولذلك كان بكري «بمثابة خادم لذلك القائد»[62]، فيما يقول حمدان... لقد أمكنت اليهود الفرصة التي طالما انتظروها؛ فكانوا يترصّدون القصور التي يقطنها الضّبّاط الفرنسيّون استيلاءً وغصْباً، ليساوموهم على أثاثها؛ فكان الضباط، لعلْمهم أنّهم ربما ينقلون أو يعودون إلى فرنسا، يبيعونهم إيّاه بأبخس الأثمان؛ فقد ذكر حمدان خوجة أنّ قيمة المقتنيات والأثاث والملابس التي كانت بدار أحمد باي بالجزائر كانت تزيد على مليون فرنك؛ في حين أنّ الضّابط الذي احتلّ داره باعها لليهوديّ ابن درّان بمبلغ ألفين ومائتي فرنك[63].

إنّ كتاب «المرآة» ليس أدباً خالصاً يقوم على الخيال والابتكار والتّصوير؛ ولكنّه ليس أيضاً تاريخاً خالصاً؛ فهو بين المذكّرات والتّاريخ. ولقد جعلناه ضمن

---

[62] م.س.، ص.212. والقائد هنا هو وزير الدّفاع الفرنسيّ الجنرال بورمون.

[63] م.س.، ص.216.

أدبيّات المقاومة لأنّ حمدان خوخة كان مقاوماً حقّاً في هذا الكتاب؛ فإنّا لا ندري كيف كنّا نستطيع معرفة هذه الفظائع التي ارتكبها المحتلّون الفرنسيّون في مدينة الجزائر لولا وجودُ هذه الكتابةِ الحيّة المليئة بالمعلومات والحقائق التّاريخيّة.

إنّنا لا نظفَر، حقّاً، في هذا الكتاب بأيّ مقاومة تشرّف أولئك الأعيان والأثرياء الذين كانوا يقطنون مدينة الجزائر؛ كما لا نجد جهداً حقيقيّاً نهض به البايات ودايُهم للدّفاع عن الوطن الذي سلّموه إلى الفرنسيّين بدم بارد، وسذاجة تاريخيّة منقطعة النّظير...

ونحن نحمد الله، أثناء ذلك، على أنّنا ظفِرْنا بشخصيّة نزيهة وصريحة وشجاعة سجّلت كلّ ما كانت تراه أو تسمعه أو تعلَمه من الأحداث التي أحاطت بظروف الاحتلال. وإذا كان أحدٌ يعترض علينا بأنّ كتاب «المرآة» قد لا ينبغي له أن يصنّف في أدب المقاومة الوطنيّة؛ فإنّنا نلقي سؤالاً على مثل هذا المعترِض المفترَض: هل يَعُدُّ، مثل هذا المعترض، مجرّد قصيدة قالها شاعر منعزلة عن كلّ الأسْيقة التّاريخيّة من أدب المقاومة الوطنيّة، ولا يعدّ مثل هذا الكتاب العظيم الذي فضح فيه صاحبه المحتلّين الفرنسيّين، كما فضح مواقف بعض الأهالي من الأغنياء والأعيان والتّجّار الذين رأوا السّلامة والحكمة والتّدبير في أن يستسلموا للفرنسيّين من أجل أن لا يعرّضوا تجارتهم وأموالهم وممتلكاتهم للأخطار؛ فكانوا من جملة الذين ضغطوا على الدّاي ليوقّع وثيقة الاِستسلام[64] الفارغة من كلّ محتوىً مقبول.

فيا ضيعةَ الوطن حين يُصبح بين أيدي مَن يُؤْثرون المال والولد عليه! ويا غدْرَ الزّمان حين أمست الجزائر العزيزة العظيمة فريسة للطّامعين والمتهمّجين من الأوربيّين واليهود !

---

[64] م.س.، ص.202.

الفصل الثاني

صورة المقاومة في أدب المذكّرات

أوّلا: صورة المقاومة في «مذكّرات أحمد باي»[1]

أيكون من الحقّ لنا، أو الواجب علينا، أن نتحدّث عن المذكّرات التي يكتبها السّاسة المثقّفون، والقادة الكاتبون؟

ثمّ نتساءل من بعد ذلك: هل كتابة المذكّرات ممّا ينتمي إلى جنس الأدب فنعاملَها على أنّها إبداع خالص، فيكون تناولُها وتحليلُها من حيث هذه الصّفة؟ أم كتابة المذكّرات ممّا ينتمي إلى التّاريخ فنعُدُّها كتابة تاريخيّة؛ فتكون معالجتها، والإحالة عليها، على هذا الأساس، ثمّ لا نَسأل عن ذلك، ولا نُسْأل؟

والحقّ أنّ الأمر، فيما يبدو لنا، ليس بهذا اليسر بحيث نعمد إلى تصنيف كتابة «المذكّرات» في إحدى الخانتين ونستريح؛ فربما كان كاتبها أديباً يتحدّث عن ذكرياته وعلاقاته بالآخرين؛ فتكون أدباً يكتسي علاقة ضعيفة بالتّاريخ، وعلاقة قويّة بالكتابة الفنّيّة. وأمّا إن كان كاتبُها مؤرّخا، مشهوداً له بهذه الصّفة الثقافيّة العلميّة، أو كان عسكريّاً قائدَ جيوشٍ، أو مسؤولاً أوّلَ عن دولة، فإنّها تتّخذ لها

---

[1] من المؤكّد أنّ أحمد باي كتب نصّ مذكّراته باللّغة العربيّة بعد أن استسلم للضّابط الفرنسيّ سان جرمان، وأرسِلَ إلى مدينة الجزائر سنة 1848. وأغلب الظّنّ أنّه كتب هذه المذكّرات بمدينة الجزائر قبل أن يتوفّى بالكمَد والحزن والخيبة سنة 1850؛ فلم يكن لديه الوقت الكافي للكتابة أثناء مقاومته. ثمّ إنّ أمتعته ووثائقه وأوراقه، فيما يقول هو شخصياً، كانت تعرّضت للنّهب أو الإهمال أثناء تنقلاته الكثيرة من وجهة، وأثناء تعرّضه لأمراض بالغة، في أزمنة مختلفة، من وجهة أخرى. غير أنّ النّصّ العربيّ ضاع، فيما يبدو، إلى الأبد. ونحمد الله على أنّ مذكراته كانت ترجمت إلى الفرنسيّة، ترجمتين مختلفتين. ونحن بالمناسبة ننوّه بجهد الدّكتور محمّد العربيّ الزّبيريّ الذي أعاد هذه المذكّرات إلى نصّها العربيّ، التّقريبيّ على كل حال، بترجمتها من الفرنسيّة إلى العربيّة. وقد صدرت بالجزائر، عن الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، في عام 1973. بيد أنّ الأمر الذي نحزن له حقّاً خلوّ آخر هذه المذكرات من أيّ تاريخ؛ غير أنّ التّنويه بفرنسا، وأنّها قوّة عظيمة، وأنّ الله أعزّها (وذلك حين يتحدّث في آخر عباراتها حين قُدِّم إلى الوالي العامّ الفرنسيّ الذي أسمعه «باسم فرنسا، عبارات في مستوى هذه الأمّة العظيمة التي أعزها الله، لأنّها تستحقّ ذلك»، مذكرات، ص.102) يدل على أنه كتبها وهو تحت الأسْر بمدينة الجزائر في أواخر أيّامه من وجهة، وأنّه كان لا يزال ينتظر، كما يقول، إنجاز الوعود التي عاهدته بها فرنسا فلم تفِ بها إلى الأبد. كما أنّ إعطاء إشارات تسيء أحيانا إلى مقاومته في عزمه الخفيّ على الاستسلام تدل أيضاً على أنّه كتب المذكرات وهو تحت الفرنسيّين...

لَبوسَ الكتابـة السّياسـيّة العسـكريّة التّاريخيّـة جميعـاً؛ فيكـون تصنيفـها مركّبـاً لا بسيطاً؛ وتلك هي الصّفة التي نعتقد أنّها تتّصف بها مذكّـرات أحمـد بـاي قسنطينة التي نحن بصدد الحديث عنها في بعض هذا الفصل.

وهذه المذكّـرات وإن كـانت، يضـاف إليـها مذكّرتـا حمـدان خوجـة، وأحمـد بوضربة -كما سنرى- ليست كتابة أدبيّة فتنضويَ تحت تصنيف الإبداع الذي تغنّـى بالمقاومة الوطنيّة ضدّ المحتلّين الفرنسيّين؛ إلاّ أنّ انعدام النّصوص التي تمجّد مقاومـة أحمد الباي، باي قسـنطينة، السياسـيّ الدّاهيـة، (وذلـك علـى الأقـلّ في حـدود مـا حصل لنا نحن من وثائق ومصادر ونصوص) حملتنـا علـى الفزَع إلى نـصّ مذكّـرات الباي أحمد لتحليل أطراف منها ابتغاء استكمال الصّورة العامّة للمقاومة الوطنيّة التي نودّ أن تكون عليها مادّة هذا الكتاب في جزئه الثاني...

وأمر آخر يجب أن لا نمضيَ حتّى نثيرَه للقارئ حتّـى نكـون علـى بينـة ممّا يمكن أن يتّخذ من موقف ممّا نكتب؛ وهو أنّ هذا النّصّ الذي نتعامل معه ليس، مع الأسف الشّديد، أصلياً؛ ولكنّه مترجَم من الفرنسيّة إلى العربيّة مثله مثل نصّ «المرآة» لحمدان خوجة. والذي حملَنا على ذلك هو أمران: أهمّيّة هذين النّصّين مـن الوجهـة التّاريخيّة، ثمّ انعدامهما، في الوقت الرّاهن على الأقلّ، باللّغة العربيّة. ثـمّ إنّ الـذي أغرانا بذلك أنّا لا نتعامل في الحقيقة مـع نسج النّـصّ ولكنّنـا نتعـامل مـع مضمونـه أساساً؛ فقلّت أهمّيّة الأصل.

وأيّاً ما يكن الشّأن، فإنّ في مذكّرات البطلِ أحمد باي لتجربةً أدبيّـةً تاريخيّـة سياسيّة نضاليّة معاً، فريدةً من نوعها، ووحيدةً جنسِها، في تـاريخ المقاومـة الوطنيّـة أثناء القرن التّاسع عشر خصوصاً؛ ذلك بأنّنا لا نعرف مثيلاً لهـا في تاريخنـا الوطنيّ الحديث. فقد كنّا نودّ لو أنّ الأمير عبد القادر، مثـلاً، وهـو الأديـب الشّاعر، كتب مذكّراته بنفسه إمّا في فرنسا حين كان تحت الأسر، وإمّا في الشّام حـين أمسى حرّاً

طليقاً... فقد حرمَنا الأمير، رحمه الله، من أدبِ مقاومةٍ كان يمكن أن يكون، لو وقع، عظيماً. وما كتبه ابنُه محمّد ليس صغيراً ولا قليلاً، ولكنّه كان «ماءً ولا كصَدّآ»![2] كما يقول المثل العربيّ القديم. ولعلّ الأمير عبد القادر اجتزأ بالقصائد التي كان يكتبها حول المعارك الحامية التي كان يخوضها ضدّ المحتلّين الفرنسيّين... ولا يقال إلاّ مثلُ ذلك في سيرة بقيّة المقاومين الجزائريّين الآخرين الأبطال الذين لم يكتبوا شيئاً عن سيرتهم الجهاديّة، وإن لم كثير منهم من الكاتبين؛ فضاع علينا كثير من الحقائق التّاريخيّة كان يمكن أن لا تضيع...

فلعلّ أحمد الباي أن يكون هو المقاوم الجزائريّ الوحيد[3]، إذن، من هذا الاِعتبار، الذي عمَد إلى كتابة مذكّراتِه بنفسه، فسرد في يوميّاته العصيبةِ التّجاربَ المرّة، والمحنَ المُدْلَهِمّة؛ فوصف بتفاصيلَ دقيقةٍ المعاركَ الشّرسة التي خاضها ضدّ الفرنسيّين، أو ضدّ القبائل الثائرة، أو الجماعات الغادرة؛ كما صوّر فيها الخطوب السُّودَ التي وقعت له وهو آيبٌ من الجزائر إلى قسنطينة قبل أن يبايَع باياً لقسنطينة ويعلنَ المقاومة ضدّ المحتلّين الفرنسيّين؛ ثمّ تلك التي وقع فيها حين اضطُرّ إلى الفرار من قسنطينة ميمِّماً أطراف الصّحراء: ببساطة تبدو على لغته، وسهولة تعتور سرْده للأحداث؛ وصدْقٍ تبدو نبراتُه ماثلةً في ثنايا العبارات؛ ولكنّ الباي ضمّنها أيضاً شيئاً من الدّهاء السّياسيّ. فقد تكالبت على الرّجل الفِتنُ الهوجاء، واضطرمت في

---

[2] صدآ (ويُخطِئُ من يقول: «صَدّاء») عين كانت العرب تؤثر ماءها؛ فكان كلّ ماء يقع للنّاس في بلاد العرب إذا كان عذباً زلالاً يستحسنونه؛ ولكنّه لا يبلغ في نظرهم ماء عين صدآ، فضربوا بهذا المثل؛ فأصبح المثل يضرب للشيء الجيّد، ويوجد مثله أجود منه. ويقولون أيضا: «فتىً وَلا كمالكٍ»! وكانوا يقصدون به مالك بن نويرة التّميمي الذي قتله خالد بن الوليد في حروب الرِّدَة، وهو أخو الشّاعر متمّم بن نويرة الذي رثى أخاه، وقرأ القصيدة، في مسجد النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام، قلّ لها، في جنسها، المثيل. كما للعرب مثل ثالث حول المعنى نفسه، وهو: «مرعىً ولاّ كالسَّعْدان!». وهو نبْت كانت تؤثر رعْيَه إبلهم فتسحن أحوالها عليه...

[3] قد ضاع علينا تاريخ كثير، وحقائق دامغة حول حركات المقاومة بفعل عدم كتابة تلك اليوميّات العسكريّة، كما ضاع علينا، حتّى في ثورة التّحرير العظيمة، حقائق كثيرة لفقدان الكتابة الموضوعيّة...
وأمّا الكتابات التي كتبها بعض المجاهدين بعد أن أمسوا وزراء، أو رؤساء دولةٍ، فقيمتها التّاريخيّة ضعيفة... لأنّ الأمر كان يختلف اختلافاً بعيداً لو سجّلت اليوميّات على دفاتر بسيطة، وطبعت فيما بعد بكل بساطتها وصدقها وحرارة ميدانها.

وجهه الثّوْرَاتُ الرّعناء، وحِيكتْ ضدّه المؤامراتُ الدّنيئة، الدّاخليّة والخارجيّـة، إلى درجة تدفعنا إلى العجَب من هذا البطل كيف استطاع أن يَثبُـت لها قائماً شامخاً، وكيف قاوم كلّ تلك المقاومةِ الشّرسة بعزم لا يلين، وكيف ثبت لها بحزم لا يضعف، وكيف واجهها بإرادة لا تخور؟ وكيف ناور الجنرالات الفرنسيّين كلّ تلك المناورات الدّالة على عُمق في التّجربة السّياسيّة[4]، ودهاء بادٍ في توخّي التّعامل الملائم مع المواقف السّياسيّة والعسكريّة والأمنيّة الْماثلة، تبعاً للظّروف والأحوال؟ وكيف رفض أن يُخْرِجَ النّاسُ من مدينة قسنطينة أغلى ما كان في بيوتهم من نفائسَ وذخائر حتّى لا تقعَ المدينةُ فريسة سهلة للأعداء، حين قصدها الفرنسيّون ليحتلّوها بجيش عرمْرم؛ فيدافع القسنطينيّون دفاعاً مستميتاً عن أهليهم وأموالهم ومدينتهم جميعاً؛ فبدأ هو بما كان لديه من ثروات عريضة فأبقاه في قصره[5]؛ فكان أحمد البايُ، ببعض ما بلغنا من معلومات شحيحة، معظمها استقيناه من مذكّراته، عن شخصيّته القويّة؛ بحيث كان قادراً على أن يتّخذ لكلّ حالٍ لَبوسَها، ويرتديَ لكلّ محنةٍ حُلُوسَها.

لقد كابد في علاقاته مع باي تونس الذي كان لا يزال يَكيد له لدى السّلطان محمود بالقسطنطينيّة كيداً عظيماً، ومع الجنرال الفرنسيّ الحاكم في الجزائر الذي كان لا يزال يهدّده طوراً، ويُغريه طوراً آخرَ، بالرّسائل والوفود. كما كان يعاني انتفاض بعض القبائل الغاضبة منه، أو الطّامعة في وعود الفرنسيّين. بل ربما كانت جهةٌ بأسرها تثور عليه في مناطق الجنوب من الشّرق الجزائريّ بتشجيع أطراف معيّنة، ومنها الحاكم الفرنسيّ بالجزائر. كما عانى كثيراً في علاقته مع السّلطان محمود حيث كان باي تونس وشى به إليه، فزعم له أنّه أعلن الاِنفصال عن الإمبراطوريّة العثمانيّة حين ضرَب العملة باسمه في قسنطينة... ممّا جعل السّلطان

---

[4] يعترف له خصمه أحمد بوضربة بالحنكة السّياسيّة، والتّجربة الطّويلة في حقل التّعامل السّياسيّ الذي يقوم، أوّلاً وقبل كل شيء، على الخبث والدّهاء. انظر م.س.، صز117.

[5] تباهى أحمد الباي بهذا الرّأي في مذكّراته؛ غير أنّ هذا التّدبير سيفٌ ذو حدّين، ففي حالة سقوط المدينة يغنم الأعداءُ نفائس وذخائر وأموالاً نفيسة، من حيث يخسرها أهلوها الشّرعيّون.

يتردّد كثيراً في مساعدة الباي أحمد، فظلّ في كلّ مراسلاته معه، أو من خلال الوفود المتبادلة بينهما، يحمله على الصّبر والإنتظار، ويَعِده بما لم يحقّقه لـه قـطّ، وينصح له بتدبُّر أموره بنفسه إلى حين اتّضاح المواقف[6]، وانتظار ما لا يأتي منه أبداً!...

وكيف أصيب الرّجل بالخيانة والغدر فغدر به العربي مرابط بعد الذي أحسـن إليه، وبوعزيز بن قانة الذي كانت تربطه به صلة صُهُورة، أو خُؤولـة، فيمـا يبـدو، فاسـتدرجه إلى الصّحـراء ليستولِيَ علـى جميـع أموالـه ونفائسـه؛ بالإضافـة إلى أنّ اعتراضه على الخطّة العسكريّة التي وضعها الباي بعـد احتـلال قسنطينة مـن أجـل مقاومة الفرنسيّين في الشّمال[7]، ومقاومتـهم في عنّابـة بـالذات، أفضـى إلى ضعـف أمـر الباي؛ فكان ذلك بدايـةً لنهايـة المقاومـة النّظاميّـة في الشّـرق الجزائـريّ، والبـدء في المقاومة الشّعبيّة التي لا تنهض على المواجهة المباشرة للجيوش الفرنسيّة، ولكن على الكرّ والفرّ، والضّرْب والهَرْب...

غير أنّ ذلك كلّه ما كان ليجعلَنا نتغاضى عن بعض الأمور في سيرته السّياسيّة التي كنّا نأمل أن لا تكون، والتي أوقعته في طوائلَ كـان في غنـىً عـن الوقـوع فيـها؛ فمن ذلك، في رأينا، تعويلُه التّامّ على ما كـان لا يـزال يـراه شـرعيّة السّـلطة؛ علـى الرّغم من سقوط الجزائر بين مخالب الفرنسيّين واستسلام حسين باشا؛ فكان يسـتمدّ هذه الشّرعيّة من السّلطان محمود الذي كان مشغولاً، في الحقيقة، بأيّ شيء، وبأتفه التّوافه، إلاّ أن يكون معنيّاً بهموم أحمد باي قسنطينة ومقاومته الفرنسيّين المحتلّـين! فقد كان أولى لأحمـد البـاي أن يستمدّ شـرعيّته مـن أهـل قسـنطينة ومـا والاهـا مـن الأهالي، بعد أن بايعوه ونصروه، ويتوكّـل علـى اللّـه، ويشـرع في مقاومـة الفرنسـيّين الغازين انطلاقاً من هذا الاِعتبار وحـده. فقـد كـان السّـلطان محمـود أضعـف مـن أن

---

[6] يصرّح أحمد باي في أكثر من موطن في مطلع مذكّراته.

[7] م.س.، ص.76.

يرسل إليه جيشاً ليحارب به الفرنسيّين في الجزائريّين، كما كان زاهداً في أن يرسل إليه جيشاً يؤدّبه به جزاء له على إعلان الانفصال الذي كان واقعاً بالفعل والقوّة. لكنّ ذلك كلّه لم يحدث... فهو من وجهة ظلّ يقاوم بالأهالي، وبالقبائل التي كانت طوراً تنضمّ إليه فتكون معه على أعدائه، وطوراً آخر تتنكّر له فتكون لأعدائه عليه؛ وهو من وجهة أخراةٍ كان لا يزال يصرّ على استشارة السّلطان التّركيّ محمود في الصّغائر والكبائر؛ فكانت الاستشارات تحتاج للإجابة عنها إلى بضعة شهور من الزّمان لبدائيّة المواصلات على ذلك العهد؛ وكان أثناء ذلك الإنتظار تقع طوائلُ مَهُولَةٌ في الشّرق الجزائريّ كان أحمد الباي يُضطرّ إلى اتّخاذ القرار بشأنها بعد استشارة الأعيان، في أغلب الأطوار.

ومن عجب أنّ الباي أحمد، كما يؤكّد ذلك غريمُه أحمد بوضربة، بايعه سكّان قسنطينة، حيث خرج جميع أعيان المدينة وعلمائِها، على رأس عامّة النّاس «فبايعوا الحاج أحمد داياً، وأوفدوا له جماعة تخبره بذلك، وقالوا له بأنّهم إذا [كانوا] تأخّروا في اتّخاذ القرار، فلأنّه اصطحب معه الأتراك. أما وقد تخلّى عنه هؤلاء الأتراكُ وخانوه، ووضع نفسَه تحت حماية أهالي قسنطينة، فإنّهم يساندونه ويؤكّدون له نيّتهم في السّير ضدّ ابن شاكر والأتراك أعوانه».[8]

---

[8] أحمد بوضربة، في مذكّرات أحمد باي، وحمدان خوجة وبوضربة، ص.121. ونلاحظ أنّ كتابة أحمد بوضربة عن أحمد الباي كانت سيّئة جدّاً؛ فقد صوّرته غادراً لئيماً، لا يرعى عهداً ولا إلاّ. وأعتقد أنّها كتابة مغرضة عن شخصيّة تاريخيّة كان لها دور عظيم في قيادة المقاومة الوطنيّة الوطنيّة بشرقيّ الجزائر، وجنوب شرقيّها. وإذا كان يعتقد أنّ رجل دولة لا يخطئ في تعامله، ولا سيّما إذا كان يرى أنّ أمره مهدّد بالزّوال، فهو الذي يكون مخطئاً. فالقتل كان شمة تلك العصور، وهذا العصر أيضا، حيث إنّ أعظم دولة تزعم أنّها ترعى حقوق الإنسان قتلت زهاء خمسين ألف شخص في لحظة واحدة بهيروشيما، ولا تزال ترسل طائراتها العملاقة لتقنبل المدنيّين من أعالي الجوّ بحجّة أنّ الإرهابيّين يختبئون بينهم !... فكأنّ أمر الدّول، منذ كانت في الأزمنة الغابرة، يقوم على القتل قبل كل شيء! والله فعّال لِما يريد... ذلك بأنّنا لم نجد أحمد بوضربة قال كلمة واحدة طيّبة في أحمد الباي، وصوّره كالمجرم الدّنيء ! فأحمد الباي، هو أيضا يذكر كثيراً عن خيانات أشخاص أحسن إليهم فغدروا به غدراً شنيعاً منهم العربي مرابط (مذكّرات، ص.58 وما بعدها)، وبوعزيز بن قانة (مذكّرات، ص.77 وما بعدها).

وعلى أنّ أحمد بوضربة مشكوك في وطنيّته، وهو الذي كان يمجّد المحتلّين الفرنسيّين، ويدلّهم على الخطط الشّيطانيّة للتحكم في الأهالي واضطهادهم. والذي يطّلع على مذكرته الشّرّيرة إلى اللجنة الإفريقيّة يقتنع بذلك. ولذلك لا نرى لكتابته الموضوعيّة التّاريخيّة ذات الحدّ الأدنى لكي يقع عليها التّعويل في الحكم على الباي.

لقد كنّا نودّ أن يكون التّنسيق مطلقاً في المقاومة الوطنيّة بين أحمد الباي في الشّرق، والأمير عبد القادر في الغرب؛ لكن ذلك لم يحدث أيضاً، بل حدث، بكلّ حزن، عكسُه!...

لكنّ المشكلة القانونيّة والوطنيّة التي لا أدري أفكّر فيها المؤرّخون الجزائريّون أم لم يفكّروا؛ هي: كيف يمكن أن تضطرم مقاومتان نظاميّتان اثنتان عظيمتان، وذلك بناءً على بيعتين شرعيّتين من السّكّان، في قسنطينة للباي، وفي غريس للأمير، وفي وطن واحدٍ دون أن يعترف لا هذا بذلك، ولا ذلك بهذا، واللّه المستعان على فساد الزّمان؟ لقد كانت الجزائر في العشرِ السّنواتِ الأولى من الاحتلال الفرنسيّ تحت ثلاثِ سُلَطٍ: سلطةِ الأمير عبد القادر التي كانت تشمل معظم مناطق الوطن شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وتحت سلطة أحمد باي بقسنطينة ومناطق من الجنوب الشّرقيّ. على حين كانت عنابة والجزائر وضواحيها تابعة للفرنسيّين.

ولا ينبغي أن ينتهي إلى ذهن من لا يريد أن يعتبر من أحداث التّاريخ، أنّنا نريد أن ندين أولئك المقاومين العظماء الذين شرّفوا الوطن بما قاوموا، وأزعجوا العدوّ بما سبّبوه له من خسائر وقلق وخوف؛ ولكنّنا، ونحن نقرأ صفحات من تاريخ المقاومة الوطنيّة، لا بدّ من أن نثير بعض المساءلات، ولو من باب تمنّي وجود شيءٍ لم يوجَدْ قطّ، وهو افتراض وجود التّنسيق فيما بين المقاومتين بشرقيّ الوطن وغربيّه.

لقد أتيح لأحمد الباي أن يكون حاضراً في مدينة الجزائر فيُسْهم في الدّفاع عن العاصمة التي سقطت بسرعة مذهلة، وقد كان معه ألفا فارسٍ فيما يزعم أحمد بوضربة[9]، وأربعمائة فارس فيما يذكر أحمد الباي[10]، و«عدد قليل جداً [غير محدّد

ونؤثر التّعامل مع مذكّرات أحمد باي، على ما فيها من ذاتيّة، أفضل من التّعامل مع كتابة متحاملة. راجع نصّ مذكرة بوضربة، في م.س.، ص.169 وما بعدها.

[9] أحمد بوضربة، م.س.، ص.119.

[10] مذكّرات أحمد باي، ص.11.

بالألاقام] من الأجناد» فيما يذكر حمدان خوجة[11]، ولَمّا رأى أحمد الباي أنْ لا خيرَ فيمن كانوا في العاصمة من القادة، قرّر أن يَخِفَّ آيباً إلى قسنطينة لا يلوي على شيء، لكي ينظّمَ مقاومة تحت قيادته انطلاقاً من عاصمة الشّرق الجزائريّ، حيث كان باياً لها. وعلى الرّغم من المؤامرات والطّوائل الكثيرة التي حاولتْ إبعاده قبل أن يصل إلى قسنطينة، فإنّه وُفّقَ إلى إطفاء نار الفتن التي كانت تسعى إلى مُطاوَلَتِه، والقضاء عليها قبل أن يعود إلى مدينة أحلامه وآماله وهي مدينة قسنطينة. ولقد استطاع أن يقود مقاومة شجاعة ومستميتة ستظلّ مفخرة لنضال الجزائريّين من أجل تحرير وطنهم من رجس الاحتلال...

فبعد أن أسهم في الدّفاع عن مدينة الجزائر مع القادة الآخرين، إذن، وإن كان دافع معهم على شيء كثير من الْمَضاضة، فيما يبدو؛ لأنّه لم يكن موافقاً على الخطّة العسكريّة السّاذجة التي اتّبعها صهر حسين باشا الآغا إبراهيم ومَن كان معه من الرّجالات فكان موقِناً بفشلها سلَفاً؛ ولو اتّبعوا الخطّة العسكريّة التي اقترحها أحمد باي لكانت أزعجت، حتماً، المحتلّين الفرنسيّين، وعسّرت من مهمّتهم العسكريّة التي كانت لا تختلف كثيراً عن النهوض بنزهة من سيدي فرج إلى القصبة[12]: «انسحب مع الهاربين إلى ما بعد قنطرة الحرّاش حيث علم أنّ المدينة استسلمت»[13] وعاد أدراجه باتّجاه الشّرق نحو قسنطينة.

ومن المؤكّد أنّ أحمد الباي لو استسلم للجنرال بورمون حين كاتبَه وهو عائد في طريقه من الجزائر إلى قسنطينة، في أولاد زيتون، قائلاً له: «إنّ الفرنسيين قد خلفوا حسين باشا في الحكم، وإنّني، يقول أحمد الباي، أحتفظ بمرتبة باي قسنطينة إذا رضيتُ أن أدفع لفرنسا «اللاّزمة»[14] التي كنت أدفعها للدّاي»[15]: لكان ربما نال

---

[11] المرآة، ص.190.

[12] ينظر أحمد باي، مذكّرات، ترجمة محمّد العربي الزّبيري، ص.12 وما بعدها.

[13] أحمد بوضربة، حياة الحاج أحمد باي قسنطينة، في مذكرات أحمد باي، ص.119.

[14] يراد بها، كما واضح، دفع ضريبة سنويّة للخزينة.

حِظْوَةً لدى بورمون، ولكان أغدق عليه الأموال، ولكان عاش عيشة البذخ والرّخاء، ولكن بذُلٍّ واستخذاء، في القصور... لكنّ أحمد الباي كان وطنيّاً عظيماً، وسياسيّاً طموحاً؛ فرفض، كما سيرفض بوعمامة وسَواؤُهُ من المقاومين الجزائريّين العظماء من بعد، كلّ المُغريَات المادّيّة، وآثر المقاومة من أجل تحرير الوطن...

والحقّ أنّنا نحزن أشدّ الحزن، وقد خطّ التّاريخ ما شاء له هواه أن يخطّ، أن تذهب تلك العبقريّة العظيمة سُدىً فتنتهي إلى العدَم، وتلقَى ذلك المصير المؤلم...

فما ذا كان يمنع، ولنكرِّرْ ذلك هنا، تارة أخرى، وسنظلّ نكرّره، لا من باب الإدانة؛ فقد وقع ما وقع وانتهى الأمر؛ ولكن من باب التّذكير لتتّعظ الأجيال اللاّحقة بأخطاء التّاريخ: لو أنّ الحاج عبد القادر، كما يسمّيه أحمد الباي،[16] وقد ذكره بخير في مذكّراته على كلّ حال، وأحمد الباي اتّحدا: فقاوم الباي في الجهة الشّرقيّة، وقاوم الأمير عبد القادر في الجهة الغربيّة، لكانا أوقعا المحتلّين في كمّاشة توشك أن تُمْسك بهم فتُنهي أمرهم من مدينة الجزائر؛ ومن ثَمّ من الوطن كلّه، غالباً؟ وكيف لم يتفطّن هذان القائدان العسكريّان العظيمان إلى فوائد الاتّحاد فيعملاَ به، ويُفيدا منه؟ وكيف أضاعا على التّاريخ الوطنيّ الحديث انتصاراتٍ كان يمكن أن تغيّر مسار التّاريخ في المغرب العربيّ كلّه، وربما إفريقيا أيضاً، حيث الجزائر بوّابتها؟... ثمّ لِمَ صمَت السّلطان محمود وتغاضى فلم يرسلْ جنديّاً واحداً، ولو على سبيل الفعل الرّمزيّ، إلى قسنطينة حين استنجد به الباي أحمد، وبعد أن لم يحرّك ساكناً حين احتلّت عاصمة البلاد على علْم منه؟

فلقد أجاب السّلطان التّركيّ أحمد الباي، بعد أن احتُلّت عنابة إجابة تبلغ درجة السّخف، ولا تنمّ عن مستوى خطاب رئيس إمبراطوريّة إسلامية مترامية الأطراف؛ فقد قال للباي ما لم يكن يجب قولُه له من عبارات الاستخذاء والمهانة

---

15 م.س.، ص. 17.

16 م.س.، ص. 29.

واليأس: «إنّ سلوككم إزاء الفرنسيّين والإجابة التي تفضلتم بها على اقتراحاتهم ليتّفقان، في نظري، كلّ الاتّفاق مع العدالة. فاثبتوا على هذه السّيرة. إنّها الوحيدة التي يمكن أن تساهم في خير الإسلام والمسلمين. وممّا لا شكّ فيه أنّني أريد نجدتكم. وفي هذه الظّروف، إنّني في حالة سلم مع عنّابة...».[17]

إنّ في إجابة السّلطان تخلّياً بادياً عن أراضٍ إسلاميّة محتلّة، وتخاذلاً مخجلاً يجيب به الأمبراطور عن بايهِ وهو يستنجد به ولا يُنجده، ويستغيثُه ولا يُغيثه. وما ذا كان يقول محمود لو استنجدتْ به امرأة من عنّابة المحتلّة؟ أكان يخِفّ إليها كما خفّ المأمون العظيم إلى تلك المرأة المسلمة التي استصرختْه في عمّوريّة، فمضى لنجدتها عَجِلاً؟ وهل كان يجوز لامرأة عنّابيّة، أو غير عنّابيّة في الجزائر، أن تستصرخَ وتستغيث: وامحمُوداه! ؟ كلاّ، ثمّ كلاّ، ووا أسفاه! فلقد كان ذلك غيرَ واردٍ على الرّغم من تشابُه الأحوال، وتماثل الأطوار، بين عموريّة وعنّابة... لأنّ الرّجال أمسوْا غير الرّجال!

ويبدو أنّ التّخاذل الذي بدا على أحوال المسلمين وأفضى بهم إلى الذلّ والهوان إلى يومنا هذا، حين ذهب القادة الشّهام الكِرام، كان بدأ مع تخاذل الإمبراطوريّة العثمانيّة المتهرّئة الأوصال.

والحقّ أنّ الباي حين صكّ العملة باسمه في قسنطينة كان مُحِقّاً؛ وحين دافع عن قسنطينةَ وسُكّانها كان مُحقاً؛ وحين همّ بالدّفاع، بما كان يمتلك من وسائل عسكريّة محدودة، عن مدينة عنّابة، المنْفَذِ الوحيد لربع الدّولة الجزائريّة التي اتّخذت من قسنطينة عاصمة لها كان محقّاً... ولكنّه لم يكُ مُحقّاً حين استنجد بخلافة منهارة، ودولة غير مسؤولة عن أهاليها فلا تكترث بأمرهم ولا تحميهم!

---

[17] م.س.، ص.29.

ولذلك نجده يخاطب السّلطان محموداً، بعد فوات الأوان، بلهجة شديدة يائسة معاً: «انظروا! إنّني رفضت التّفاوض مع الفرنسيّين، وظلِلت أنتظر النّجدات التي وعدتموني بها. إنّني لم أفعل شيئاً دون استشارتكم والعمل بنصائحكم. وهاأنا الآن طُردت من قسنطينة وأصبحت أتجوّل بين الأعراب!...».[18]

ولو كانت «لو» تُجدي نفعاً، مثلها مثلُ «ليت»، فلم تكن من الشّيطان؛ لكنّا قلنا: «لو» أنّ أحمد الباي ركّز عنايته كلّها على تنظيم المقاومة الوطنيّة انطلاقاً من الإمكانات الذاتيّة لأهل الشّرق الجزائريّ، لكان أمره غيرَ ما انتهى إليه من الاستسلام للأعداء... لكن ما ذا كان عساه أن يفعل وقد تكالبت عليه الظّروف السّيّئة، والخطوب المدْلَهِمّة، من كلّ جانب؟...

وحتّى الاتّحاد الذي تحدّثنا عنه غيرَ مرّة، في هذا الفصل، بين الأمير عبد القادر وأحمد الباي، ما كان ليَتمّ بينهما، في الحقيقة، والخونةُ والوُشاةُ والمفسدون يملؤون ما بين السّماء والأرض! ولو تمّ ذلك لكان ربما انتهى إلى حربٍ أهليّة... لأنّ شياطين الإنس والجنّ، من المحتلّين الفرنسيّين، ومن خونة الجزائريّين، ومن بعض الجيران، ومن بعض الأباعد أيضاً، كانوا ربما جهدوا جهدهم، وكادوا كيدهم، حتّى لا يتمّ توحيد المقاومة الوطنيّة ضدّ المحتلّين الفرنسيّين... فقد كان يمكن أن يمشيَ بينهما الوشاة فيزعموا لهما: أنّ أحدَهما يَكيد للآخر، وأنّه يريد به السّوء؛ فيتغيّر مسار السّهام؛ فعوض أن تصوَّب إلى صدور الأعداء، تصوَّب، لا سامح اللّه، نحو الإخوة الذي يُصبحون بفعل الدّسائس والمؤامرات العاتية، أعداءً ألِدّاء!...

ولذلك نجد أحمد الباي يعترف بأنّه هجم على أحمد بن الحاج، خليفة الأمير عبد القادر في مدينة بسّكرة، وقتل من أهل المدينة أربعين رجلاً صالحين![19]... وكأنّه لم يكن من مشاكل البطل أحمد الباي إلاّ مدينة بسكرة يهجم عليها، فيقتل

---

[18] م.س.، ص.82.
[19] م.س.، ص.91.

بعض الجنود الجزائريّين الذين كانوا يحمونها، وقد كـان آويـاً إلى جبال الأوراس في تلك الأثناء...!

نحـن واللّـه لنحـزَن حزنـاً يقطّـع نيـاط القلـوب حـين نقـرأ هـذا في تاريخنـا الحديث، وأنّ الجزائريّين يجرُءون على قتْل الجزائريّين الآخريـن، ويعـترفون بذلـك ولا يستحُون: وبهذا التّساهل والتّجاوز، وتحت ذرائـع واهيَـة غاويَـة... فـهل كُتب على الجزائريّين أن يظلّوا عُرضةً للقتْل والقتال إلى أبـد الآبديـن؟! إنّـا كنّـا نرجـو أن ينضمّ أحمـد البـاي إلى الأمـير، ولـو في تلـك الظّـروف العصيبـة، فيكـونَ بجانبـه، ويحتضنه الأمير، بالمقابل، فيَعُدّه أخاً كريماً... فيتضافرا على محاربة العـدوّ وحـدَه... وبعد ذلك كان يمكن حلّ مشكلة تقاسم السّلطة باستشـارة حكمـاء الأمّـة وعلمائـها... لكن ذلك ما كان، أو قل: لكنّ ذلك ما لم يكن؛ وعلينا أن نتقبّله بحزن ومَضَض كما هو!...

وكأنّ كُلاًّ من أحمد الباي، والأمير عبد القادر، في مبتدأ الأمر ومنتهاه، كـان يدعو ربّه آناءَ اللّيل وأطـرافَ النّـهار، بالدّعـاء النّبـويّ المـأثور: «اللّـهم إليـك أشكو ضعفَ قوّتي، وقلّة حيلـتي، وهوانـي علـى النّـاس...».[20] فقـد ضعُفـت قـوّة القـائدين الجزائريّين الهُمامين، الأمير والباي، وهانَا على النّاس في نهايـة المطـاف، فاستسلم كلّ منهما إلى الأعداء، وفرّط فيهما الدّاني والقـاصي، الواحـد بعـد الآخـر علـى كـلّ حال، ولكن في تاريخين متقاربين جدّاً، وفي ظرفين متشـابهين جـدّاً! وإنّ الجزائـريّ الوطنيّ لو مـات حسرةً علـى كـلّ تلـك الثـورات العظيمـة، وكـلّ تلـك الانتفاضات الشّجاعة، التي كانت تنتهي كلّها إلى الفشـل، لكـان جديـراً بذلـك ولا حـرج عليه!

[20] ورد هذا الدّعاء مفصّلاً في ابن هشام، السّيرة النّبويّة، 1. 420. على حين أنّه ورد بصياغة قريبة من هـذه في مجمع الزّوائد، ج.6، ص.35. وانظر بقيّة نصّه هناك.

خطّة الباي للدفاع عن مدينة الجزائر قبل الاحتلال

لا بدّ من التوقّف، ولو قليلاً، لدى قضيّة احتلال العاصمة[21]، فقد عرض لذلك حمدان خوجة في كتابه «المرآة» بتفصيل دقيق لا يمكن الظّفر به في سواه، كما عرض لذلك أحمد الباي في مذكّراته بشيء من الاقتضاب، فقد تجنّب الرّجل تفصيل الأحداث، المتعلّقة باحتلال عاصمة الوطن، ولا ندري لمَ كان ذلك؟ وفعل مثله أحمد بوضربة حين تحدّث عن حياة أحمد باي في تحامل شديد، وحقد دفين. ولكنّ أحمد بوضربة لم يعرض للخطّة الدّفاعيّة السّاذجة التي اتّبعها الآغا إبراهيم في ملاقاة الفرنسيّين، فقد كانت أشبه ما تكون بمراسيم استقبال احتفاءً بجيش من الضّيوف الأصدقاء! وعلى أنّ أحمد الباي كان يفصّل كثيراً حول بعض الأحداث والأشخاص، والأمكنة والأزمنة (وإن كنّا نلاحظ أنّ الباي ربما تغافل عن كثير من تواريخ الأحداث التي كان يذكرها... ونفهم من ذلك، كما افترضنا من قبل، أنّه كتب مذكّراته بعد أن استسلم إلى الفرنسيّين، فنسيَ بعض التّواريخ الصّغيرة التي هي مفيدة جدّاً للمؤرّخ)، في مذكّراته البالغة الأهمّيّة، والقليلة النّظير، حول ظروف المقاومة الوطنيّة في العشرين سنة التي تلت الاحتلال الفرنسيّ للجزائر؛ فإنّه لا بدّ من الوقوف على قضيّة سقوط العاصمة بين أيدي الفرنسيّين بسهولة قلّ لها المثيل في سقوط العواصم، في التّاريخ القديم والحديث!؟ وأعتقد أنّ مذكّرات أحمد باي تُعَدّ مصدراً مركزيّاً في الكتابات التّاريخيّة التي كتبت عن احتلال مدينة الجزائر؛ ذلك بأنّه جاء بتفاصيل على الرّغم من أنّها ناقصة، إلاّ أنّها مثيرة، ودقيقة إلى حدّ ما، حول جميع الخطط العسكريّة

---

[21] كنّا تحدّثنا عن ذلك في الفصل الذي كتبناه عن كتاب «المرآة»، كما سنتحدّث عن بعض الظّروف الغامضة التي تمّ فيها هذا الاحتلال في الفصل الخامس الذي نحلّل فيه قصيدة عبد القادر الوهراني...

التي تناقش حولها هو شخصياً، وقادة آخرون، وخصوصاً مع الآغا إبراهيم صهر حسين باشا الذي كان نافذاً، مسموع الكلمة في قصر القصبة؛ ممّا جعل خطّته المرتجلة، المضحكة، هي التي تُتّبع في الدّفاع عن العاصمة، من حيث تُرفض الخطّة التّكتيكيّة التي اقترحها أحمد الباي. كما أفادتنا هذه المذكّرات أنّ حسين باشا كان على علْم بنوايا الفرنسيّين لغزو الجزائر عن طريق جواسيسه بمالطة وجبل طارق.[22]

ونحن نتساءل كيف يكون الباشا على علْم بما سيحلّ بمدينته، بل عاصمة سلطانه، ولم يتّخذ لتلك الحالِ لَبوسها، ولا هيّأ لها ما هي أهلٌ له من الدّفاع عن أمّ المدائن الجزائريّة؟ أم كان بيّت في نفسه التّخاذل والاستسلام سلفاً ليترْكَ الجزائريّين وقدَرَهم يفعل بهم ما يشاء، وقد كان بالغ القساوة؟ إنّه لا بدّ من المُساءلة عن مسألة علْم الباشا مسبقاً بتجهيز الحملة الفرنسيّة على الجزائر، كما ورد ذلك على لسانه، وبتسجيل أحمد باي، وحمدان خوجة... فإمّا أنّ الباشا لم يكن على علم بتفاصيل الحملة ولا تاريخها، ولا مكان إنزال الجيش الفرنسيّ، وحينئذ يمكن عَذرُه... وإمّا أنّ الباشا كان على علْمٍ تامّ، بناء على ما كتب أحمد الباي، وحمدان خوجة، وهما صادقان؛ وحينئذ لا يجوز لأحدٍ من الجزائريّين أن يلتمس له عذراً!...

لقد تصادف وجود أحمد الباي بالجزائر مع عدد من خيرة جنوده، في إطار زيارة بروتوكوليّة كان يؤدّيها بايات الجزائر للباشا، كلّ ثلاثِ سنواتٍ، كانوا يدفعون له فيها «الدّنوش»؛ واتّفق ذلك مع وشكان الحملة الفرنسيّة على الجزائر؛ فانقلبت الزّيارة البروتوكوليّة إلى مجلس حرب حيث جمع الباشا البايات وقال لهم: «ليس لديكم أكثر من الوقت الكافي للخروج إلى الفرنسيّين الذين سينزلون بسيدي فرج. إنّني أعرف مكان النّزول من الرّسائل التي تصلني من بلادهم، ومن كتاب طُبع في فرنسا، وأرسله لي جواسيسي من مالطة وجبل طارق».[23]

---

[22] م.س.، ص.11.
[23] م.س.

وهنا بدأت المناقشات حول أيّ خطّة تتّبع في صدّ الجيش الفرنسيّ بما كان لدى الباشا من جيش نظاميّ، لكنّه موزّع في أقاليم الإيالة، ولم يكن في الجزائر، فيما يبدو، إلاّ بضع مئات من الجنود غير المحترفين ولا المدرّبين تدريباً عسكريّاً عالياً؛ فاختلفت الآراء حول ذلك اختلافاً كثيراً... ألم يكن من الأولى للباشا أن يَقْرَعَ للأمر ظُنْبُوبَه؟![24] وما دام كان يزعم أنّه كان على علم بكلّ ما له صلة بالجيش الفرنسيّ الذي سيهجم على الجزائر ليحتلّها بالقوّة، فقد كان يعلم، نتيجة لذلك، أنّ قوام ذلك الجيش كان ثلاثين ألف مقاتل يقودهم وزير الدّفاع شخصيّاً...وإذن، فما منعه من الاستعداد الكافي، في الوقت الملائم، من أجل الدّفاع عن مدينة الجزائر، ما دام كان عالماً بالزّمان والمكان اللّذين ينزل فيهما الفرنسيّون بأرض الوطن؟ وكيف يجوز لمهاجم من البحر، انطلاقاً من بواخر متقادمة، أن يهزم جيشاً مرتكزاً ورابضاً في أرضه، ومتحصّناً في قواعده، والحال أنّ المدافع التي كانت لدى الجزائريّين كانت فعاليتها القتاليّة، حسب مذكّرات الباي، تقترب من فعاليّات المدافع الفرنسيّة وكان القائد العسكريّ الجزائريّ المغتال، الآغا يحيى، نصَبَ منها زهاء اثني عشر في سيدي فرج؟... وإذن، فما ذا وقع تحديداً...؟ وأين كان التّهاون والتّخاذل؟ وفيمَ يكمن التّقصير وسوءُ التّدبير؟ ولِمَ كانت تلك الهزيمة بتلك السّرعة المذهلة؟ ولِمَ سارع الباشا حسين إلى تسليم مفاتيح العاصمة دون قتال يذكر، وهو مرتاح البال، منعّم الضّمير؟ وبأيّ كتاب أم بأيّة سُنّة فعل ذلك، وقد كان قتل القائد المحنّك العظيم، الآغا يحيى، وأحلّ محلّه صهره السّاذج الغِرّ الآغا إبراهيم؟ إنّه لا بدّ للمؤرّخين الجزائريّين أن يتوقّفوا لدى هذه المسألة لمعرفة خلفياتها التي تبدو غير منطقيّة، ولا مقنعة... فلا يعقل أن يسلّم قائدٌ وطناً كان عدد سكّانه عشرة ملايين، وعدد قوّاته

---

[24] تقول العرب: قرع للأمر ظُنبوبه إذا تأهّب له واستعدّ. وهو من أجمل التّعابير القديمة.

تقترب من مائة ألف جنديّ موزّعـة في أنحـاء الجزائـر، إلى الأعـداء دون قتـال، ثـمّ يسكت التّاريخ عنه فلا يكاد يحاسبه على شيء!

ويبدو أنّ الخطأ الأعظم وقع حين تسرّع الباشا حسين في قتل القائد العسكريّ المحنّك يحيى آغا الذي مكث في منصبه العسكريّ اثني عشر عاماً بوشاية دنيئة مـن حسّاده، في الوقت الذي كان الوطن أحوج ما يكون إليه. ولعلّ ذلك كـان بتأثير مـن الخزناجي الذي دسّ عليه وثائق مزيّفة، وشهودَ زور... لكـنّ إبراهيـم، صـهر الباشا الذي حلّ محلّه « لم يكن قائداً ممتـازاً في يـوم مـن الأيّـام؛ ولم يكـن يعـرف الشّـيء الكثير من التّكتيك العسكريّ».[25] ولو أنّ يحيى آغا «ظلّ في هـذا المنصـب مـدّة أطول لاستفادت الجزائر منه أشياء كثيرة على ما أعتقد (...). لو كـان يحيـى، أثنـاء هـذه الحـرب الأخـيرة، علـى رأس الجيـوش الجزائريّـة لكـان سـيّر الأمـورَ أحسـن؛ لأنّ التّجربة التي حصل عليها في البرّ والبحر، وشجاعته في جميع الحالات، كلّـها كـان يمكن أن تشكّل ضماناً بالنّسبة للجنديّ الذي يحارب تحت إمرته».[26]

وعلى الرّغم من أنّ أحمد الباي، بناءً على ما كتـب في مذكّراتـه علـى الأقـلّ، اقترح خطّة عسكريّة تنمّ عن دهاء حربيّ بادٍ، إلاّ أنّ القادة الآخرين عارضوا خطّته، وخصوصاً الآغا إبراهيم صهر الباشا حسين الذي اعترض على خطّتـه الـتي سنثبتها بعد حين، فأجابه: «بحميّة جاهليّة، وثقة مزهوّة، في نجـاح الخطّـة (الـتي وضعـها صهر الباشا)؛ بأنّ عدم مجابهة العدوّ ليس من عمل الرّجـال الشّـهَام، وأنّ اللّـه لـن يغفل عن مساعدة من سيهاجمون الكفَرة عند نزولهم، وهم به واثقون».[27]

وخلاصة خطّة أحمد باي، كما وردت في مذكّراته، من أجل إبعاد الفرنسـيّين عن مدينة الجزائر، والحيلولة بينهم وبين احتلالها ولو إلى حين، أنّـه خـاطب قـادة

---

[25] حمدان خوجة، المرآة، ص.188
[26] م.س.، ص.188-189.
[27] أحمد باي، م.م.س.، ص.14.

الجيش الجزائريّ قائلاً: «نتّجه إلى وادي مازافران، وعندها يقع أحد أمرين: إمّا أن يهاجم الفرنسيّون مدينة الجزائر وإمّا أن يسيروا نحونا. ففي الحالة الأولى ننقضّ على مؤخّرتهم فنأخذ مؤونتهم، ونهاجم قوافلهم فنقتل المتخلّفين، ونعمل على قطع الاِتّصال بينهم وبين مراكبهم. وهذه النّقطة الأخيرة سهلة جدّاً، لأنّ البحر يتغيّر ولا يسمح دائماً بالنّزول. أمّا إذا ساروا نحونا ليشنّوا علينا الحرب، فإنّ واجبنا هو أن نتجنّب المعركة ونجرّ جيوشهم إلى ميدان ملائم وبعيد عن مدينة الجزائر التي هي هدف مشروعهم».[28]

وعلى الرّغم من أنّني لست خبيراً عسكريّاً إلاّ أنّ خطّة القائد أحمد الباي تبدو، فعلاً، جيّدة؛ وفي أسوإ الأحوال كان نفعُها أكثر من ضررها، وفي أسوإ أسْوَاءِ الأحوال كانت تعمل على إتاحة الفرصة للجنود الجزائريّين والأتراك أن يدافعوا عن عاصمتهم بشرف وخطّة عسكريّة محكمة؛ فقد كان أفضل للجزائريّين أن يقاوموا بذكاء، ما دامت القوة غيرَ متكافئةٍ بين الجيشين من وجهة، في انتظار وصول القوات الجزائريّة من الأقاليم؛ ومادام ميدان الحرب كان لصالح الوطنيّين حيث لم يكن للفرنسيّين شبرٌ واحدٌ من الأرض يستقرّون عليه؛ فكان إقدامهم، لو تمّ، على ملاحقة الحامية الجزائريّة المرابطة بمازافران يجعلهم يبتعدون عن بوارجهم الحربيّة الرّاسية بسيدي فرج، في أرض لا يعرفون عنها شيئاً كثيراً، وكان يمكن للحامية الجزائريّة أن تستدرجَهم فتَنْكِيَ فيهم؛ فتضطربَ صفوفُهم غالباً، وتفشَل ريحُهم احتمالاً، ويؤوبوا، إن آبوا، من حيث أتَوْا خائبين!

وأمّا الخطّة الحربيّة الثانية فتبدو ناجعة إلى حدّ بعيد، وفي أسوأ الأحوال كانت تحول بين الفرنسيّين واحتلال مدينة الجزائر بتلك القوّات، وفي تلك الحملة، وبتلك السّهولة. فما ذا كان يمنع الحامية الجزائريّة، لومَا سوءُ الرّأيِ الذي تعانيه

---

[28] م.س.، ص.14.

الجزائرُ، في تاريخها السّياسيّ، منذ عهدٍ بعيد، مـن أن تنقضّ فعلاً على المراكب الفرنسيّة التي يُفترض أنّ الباقين فيها مـن الجنـود لم يكونـوا إلاّ قليلاً؟ أو الهجوم على مؤخّرة الجيش الفرنسيّ الزّاحف إلى نحو مدينة الجزائر، لو عُمِلَ برأي أحمد باي؟...

أمّا أن يقع انتظار الفرنسيّين إلى أن يرتّبوا صفوفهم، ويأخذوا قسطاً من الرّاحة، قبل أن يأتوا إلى مدينة الجزائر ثـمّ مقاومتهم بطلقات مـن مدافع بدائيّة، فكانت تلك خطّة عسكريّة فاشلة سلفاً؛ ولم يكن الفرنسيّون ينتظرون إلاّها ليستولُوا على عاصمة البلاد بأسهلَ ممّا يحدث في الأفلام!...

ولذلك «لاحظ باي قسنطينة على الآغا بأنّ تنظيم الجيش هـذا لا يسمح بأيّ أمل في النّجاح.(...) كما أشار كذلك، إلى أنّه ليس مـن السّياسة في شيء أن تجمع قواتنا في نقطة واحدة، وأنّ من الواجب توزيعها بحيث يحمل جـزء منـها إلى غربيّ سيّدي فرج. ومعنى ذلك أنّ الفرنسيّين إذا لاحقونا فإنّهم سيبتعدون عن هدفهم الذي هو مدينة الجزائر؛ وسيكون ذلك لصالحنا، إذ نستطيع أن نبدأهم بالهجوم.

وإذا قصد الفرنسيّون الجزائر دون أن يهاجمونا، فإنّنا عندها سنكون أقوى وأقدر على الدّفاع عن أنفسنا والانتصار عليهم.

واقترح [الباي] أيضا أن يتولّى كلّ قائد الاعتناء بجزء من الجيش. وكان مقر القيادة الذي وقع عليه اختيارنا هو الدار البيضاء التي تفصلها عن سطاولي مسيرة أربع ساعات.

وعن كلّ هذه الملاحظات كانت إجابة الآغا كالآتي: «إنّكم لا تعرفون التّكتيك الأوربي؛ إنّه يتعارض كلّ المعارضة مع تكتيك العرب»! ورأى باي قسنطينة في هذه

الإجابة البليدة إهانةً له ؛ لذلك التزم الصّمت ولم يسمح لنفسه بإبداء أيّ ملاحظة أخرى».[29]

ومضى الآغا إبراهيم يعبث بمستقبل أمّة ، وشرف وطن ؛ فسلّم مفاتيح الجزائر للأعداء ، من حيث كان يقصد أو من حيث لم يكن يقصد. ولو كان رجلاً عاقلاً حكيماً ذكيّاً لبقاً لكان عمل برأي الحكماء في المجلس الحربيّ...

ويضاف إلى ذلك أنّه استهتر وتهاون فلم « يتّخذ أيّ نوع من التّدابير. ولم يعط أيّ أمرٍ ؛ بل كان يزعم أنّه عندما تطأ أقدام الفرنسيّين الأرض ، سيطوّقهم بالقبائل الذين لم يكونوا تحت تصرّفه ؛ لأنّه كان يجب أن يعطيَ الأوامر مسبقاً ؛ لكي يتسنّى لهم أ ، ينتقلوا إلى الأماكن المعلومة بدون تعب ؛ ولكي يتمكّنوا من صدّ الأعداء...».[30] بل «إنّ الجيش الذي كان يحيط بهذا الآغا [إبراهيم] لم يكن مكوّناً إلاّ من سكّان متيجة الذين لا يعرفون سوى بيع الحليب... وفي سيدي فرج لم تحضر المدفعيّة ، ولم تحفر الخنادق ، ولم يكن هناك سوى اثني عشر مدفعاً كان الآغا السّابق قد نصبها في بداية إعلان الحرب... وفي اليوم الذي نزل فيه المارشال دوبرمون مع جيشة لم يكن تحت تصرّف الآغا [إبراهيم] سوى ثلاثمائة فارس!».[31]

وكذلك أضاع الباشا حسين ، وصهره الآغا إبراهيم ، مدينة الجزائر العزيزة ، فأضاعا الوطن كلّه ؛ وذلك على الرّغم من أنّ عدد الجيش الجزائريّ الذي كان موجوداً في الأقاليم كان يعدّ بعشرات الآلاف ؛ فقد كان مع باي التّيطري وحدَه مثلاً عشرون ألف جنديّ نصفهم كانوا من حمَلة الرّماح[32] ؛ بالإضافة إلى أنّ جيش وهران ، فيما يلاحظ حمدان خوجة الذي لم يكن بعيداً كثيراً عن منطقة سيّدي فرج... لكنّ

---

[29] م.س. ، ص. 192.
[30] م.س. ، ص. 189.
[31] م.س. ، ص. 190.
[32] م.س. ، ص. 191.

كلّ هذه الإمكانات البشريّة واللوجيستيّة لم يُفِدْ منها أحدٌ فـأهدرتْ؛ وكـأنّ الجزائـر كانت وطناً يتيماً بلا قائد ولا أب ولا أمّ ولا شعب أيضا!

بل إنّ الطّبيعة أرادت أن تيسّر للجزائريّين ما كان يبدو عليهم عسيراً حيث إنّ عاصفة هوجاء ضربت ميناء سيدي فرج لمدّة ثلاثة أيّام متتابعة فلم تستطع المراكب الفرنسيّة أن ترسو؛ ذلك بأنّ الماريشال دوبرمون كان أخطأ خطأ فادحاً بإنزاله الرّجال قبل المؤن والمدفعيّة[33]. لكنّ كلّ تلك المعطَيات الطّبيعيّة لم يُفد منها أحدٌ في غياب قائد عسكريّ محنّك مثل الآغا يحيى الذي كان باشا الجزائر استعجل قتله ليسهّل للفرنسيّين احتلال الجزائر! لا تفسير لنا لهذه السّيرة إلاّ هذا؛ وإلاّ فكيف يجرؤ رجل دولة، لو كان محنّكاً، على عزل قائد جيشه، مع ما كان يعلم من كفاءته العليا، وشجاعته المشهود له بها؛ قبيل نزول الفرنسيّين بأيّام؛ ثمّ يعيّن مكانه شخصاً ضعيفاً غِرّاً لم يكن في العير ولا في النّفير، لو كان الأمر غير ذلك؟ وما كان يمنعه من التّحقيق في أمره، بواسطة لجنة سرّيّة محايدة، قبل أن يقدم على عزله، ثمّ قتْله؟ ولِمَ لَمْ يعمَلْ بسيرة الخليفة العادل الحكيم أبي بكرٍ الصّدّيق رضي اللّه تعالى عنه حين نصحَ له عمر بن الخطّاب رضي اللّه تعالى عنه بعزْله بعد حادثة الزّواج من امرأة مالك بن نويرة بعد قتْله؛ فأجابه الصّدّيق: «كيف أغمد سيفاً سلّه اللّه؟!». فانظروا كيف كان تفكير عظماء القادة المسلمين، وكيف كانوا يتحسّسون المصلحة العليا للإسلام، وكيف يسير اليومَ المسؤولون الكبار في تضييع عظماء الرّجال؟ فلمجرّد وشاية، أو اعتراض برأي يبدّل الأكفاء بالسّذج فيقع ما يقع، مثلما وقع للجزائر التي احتُلّت أساساً (مع اعترافنا بوجود عوامل أخرى) بتضييع قائد عسكريّ عظيم وتنصيب رجل غِرّ من الأقارب في منصبه...

---

[33] م.س.

فإمّا أنّ ذلك كان أمراً مدبّراً فكان من أمر اسـتقبال الفرنسيّين في القصبة بما يشبه الورود، وإمّا أنّ تصرّف الباشا، لم يكن متعمّدا حقّاً -ولا بأس أن نتسلّح بحسن النيّة- ولكنّه كان تصرّفاً غير لائق برئيس دولة؛ وفي الحالين وقعت الصّاعقة على الجزائر... حيث لا نزال إلى اليوم نكابد من عقابيل ذلك الاحتلال اللّعين... فقد خرج الإستعمار الفرنسيّ من النّافذة، ولم يلبث أن عاد من الباب العريض ليعيث فساداً فينا بلغته المتخلّفة، وثقافته المسمومة، وعاداته الحضاريّة السّيّئة... واللّه المستعان، على فساد الزّمان!

الصّراع غير المعلن بين الباي والأمير

وعلى الرّغم من أنّنا لا ينبغي أن نزيد الكَلْمَ نكْأً فإنّنا نلاحظ، ولنكرّرْ ذلك، أنّ أحمد الباي حين أعلن المقاومة من قسنطينة مع مقاومة أسرة محي الدّين من معسكر، في وقت واحد تقريباً؛ لم يحاول أيّ منهما بالطّرق السّياسيّة الحكيمة والمتّصفة بالدّهاء الوطنيّ أن ينسّق في مقاومته مع الآخر. بل ربما كان يقع التّصادم بين الجيشين الوطنيّين عوضاً عن استهداف المحتلّين. ولقد تحدّث أحمد الباي عن اختلافه مع الأمير إلى درجة إعلان الحرب على أحد خلفائه حين ذكر مهاجمته خليفة الأمير ببسكرة. وإنّنا نريد أن نذكر ذلك لا إدانة لأحد؛ فأنفُكَ منك ولو كان أذنَ؛ ولكنّنا نذكره، بمضاضة ومرارة، عسى أن يكون ذلك عبرةً للأجيال. ونترك هذه الحادثة لكلّ جزائريّ يقرأ بعض تاريخه ليحكم لذلك أو عليه؛ يقول أحمد الباي في مذكّراته حول هذه الحادثة المؤلمة:

«بقيت في هذا الجبل (الأوراس)؛ وذات يوم جاءني أولاد دراج يطلبون منّي مصاحبتهم إلى الحضنة. فقلت لهم:

-إنّني موافق، ولكن ينبغي أن يتبعني جميع القوم.

وهكذا انضمّوا إليّ واستطعت أن أرغمهم على المسير ضدّ أحمد بن الحاج، خليفة الأمير عبد القادر الذي كان في بسكرة. فهاجمناه وأخذت له، في أثناء المعركة التي دارت بيننا ثلاثين بندقيّة، وقتلت له أربعين من جنوده. والتجأ الباقون إلى داخل المدينة وأحكموا غلْقها[34] بحيث إنّني لم أتمكّن من الدّخول إليها.

وكنت علمت أنّ أحمد بن الحاج كان يريد القيام بحملة ضدّي؛ وذلك بالاِتّفاق مع أولاد درّاج. غير أنّني تصرّفت بمهارة، واستعملت ضدّه أولئك[35] الذين أراد أن يسلّحهم ضدّي».[36]

أيّ كلام يكون أشدّ إيلاما، وأنكأ جرْحاً من هذا الذي نقرأ في مذكّرات أحمد باي؟ فهل كان ينقص خليفة الأمير، أحمد بن الحاج، إن كان ما قال أحمد الباي حقّاً، إلاّ أن يفكّر في مهاجمة رجلٍ ملتحِدٍ في الأحراش وقِمم الجبال بين الأعراب البادين، بعد الملك السّعيد والعزّ المكين؟ وفي كلّ الأطوار ما دام أحمد الباي استطاع أن يجعل أولاد درّاج إلى جانبه فلِمَ لمْ يَضربْ بهم طابوراً من الأعداء المحتلّين؟ ولمِ ذهب يطلب خليفة الأمير في مدينة بسكرة؟ وما المصلحة التي توخّاها الباي من وراء مهاجمة قوّات جزائريّة؟ وأمّا ما يزعم من أنّ خليفة الأمير كان يهمّ به؛ فإنّنا لا نقرأ في تاريخنا أنّه هاجم الباي؛ والنّيّة لا يمكن أن تبرّر الفعل. فخليفة الأمير نوى، والباي فعل. والحكم للتّاريخ...

إنّنا ننوّه على كلّ حال بصراحة أحمد الباي الذي سجّل هذه الحادثة دون خجل أو وجل؛ فجعلنا ندرك أنّ الشّعب الجزائريّ كأنّه مكتوبٌ عليه هذه المآسي التي لا يزال يعيشها إلى اليوم؛ فقتْلٌ، يقابله قتْل، يقابله قتْلٌ إلى ما لا نهاية !...

---

[34] كذا، والوجه أن يقال: إغلاقها، أو تغليقها.

[35] كتبت في الأصل: «أولائك».

[36] مذكرات أحمد باي، ترجمة العربي الزّبيريّ، ص.91.

غير أنّ أحمد الباي كان لا يزال ينكأ في الفرنسيّين وينكوُون فيه ؛ فظلّ متنقّلاً في جبال الأوراس معتصماً بها، ملتجِداً إليها ؛ مستعيناً ببعض القبائل التي كان فيها نخوة جزائريّة ترفض الاحتلال الأجنبيّ ؛ فكان يمثل بالقياس إليها الرّمز الوطنيّ الذي يجب أن يناصَرَ في معاركه ضدّ المحتلّين. وعن بعض مقاومته المحتلّين الفرنسيّين يقول أحمد الباي مومئا إلى ابن الملك الفرنسيّ حين عُيّن على رأس مقاطعة قسنطينة حيث :

«سيّر ضدّي قبائل الأعراب والتّلّية. وكانت قواتي تتكوّن من سبعمائة فارس وجنديّ، ومن أولاد سلطان. وبعد حين طوّقتنا الجيوش الفرنسيّة والأعرابُ الذي كانوا معها. فتقابلنا مدّة يومين بكلّ شدّة وضراوة حتّى أنّني أستطيع القول بأنّها أدمى معركة حضرتها، حياتي. ويعلم اللّه كم معركة شاهدتها منذ طفولتي. وكان الفرنسيّون شكّلوا ستّة طوابيرَ ليصلوا إلى قمّة الجبل ؛ ولكنّ نشاطنا كان متزايداً بحيث إنّهم عندما وصلوا إلى منتصف المنحدر كرّرنا عليهم بشدّة وعنف ؛ فأرغمناهم على العدول عن خطّتهم، والرّجوع إلى مركزهم».[37]

لعلّ القارئ يدرك مدى المعاناة التي كان أحمد الباي يكابدها في قمم الجبال، وبين الفجاج والأوعار ؛ وكيف كان بعدد قليل من الرّجال يلاقي ستّة طوابير من جيش نظاميّ مدرّب على أعلى مستوىً؟ لكن بفضل الإيمان بالقضيّة، وشدّة الثبات على المبدأ، لم تجدِ الأعداءَ قوّتهم ؛ لولا تعاونُ الجزائريّين معهم ؛ لكانت الأمور سارت سيرة أخراة ؛ لكنّ الخونة كما كانوا أيّام ثورة التّحرير، كانوا أيّامَ كان الأعداء يباشرون احتلال الوطن... لكن من فضل اللّه على هذه الأمّة أن مخلصيها أكثر من متخاذِليها، ووطنيّيها أكثر من خَونتها.

---

[37] م.س.، ص.92-93.

ثانياً: صورة المقاومة في مذكّرة خوجة إلى اللّجنة الإفريقيّة.

يعدّ حمدان خوجة من الشّخصيّات الوطنيّة التي وُصِفت بالاعتدال؛ فكان الفرنسيّون راضين عنه إلى حدّ بعيد. فحمدان خوجة لم يحمل السّلاح ضدّ الفرنسيّين، بل كان يدعو فقط إلى أن ينال الأهالي شيئاً من الحقوق، وأن لا يقعَ الاعتداء على حرماتهم وديانتهم. وقد كان حمدان خوجة يرى الوطنيّة التي كانت تلهب عواطف الجزائريّين ليدافعوا عن أنفسهم وأهليهم وتراب وطنهم «تعصّباً»![38] بل كان لا يتردّد في وصف الأفكار الثوريّة للوطنيّين، وغالباً ما كان يقصد بها أساساً الأمير عبد القادر وأحمد الباي «الغالطة والتّعصّبيّة»![39]

كان حمدان خوجة، فيما يبدو لنا، يحاول أن يوفّق بين الدّعوة إلى الحفاظ على الأهالي وعدم ظلمهم واضطهادهم، وفي الوقت نفسه لا يتردّد في الاعتراف بشرعيّة الاحتلال الفرنسيّ وأبديّته في الجزائر. ولَكأنّي به وهو ينصح للفرنسيّين أن لا يُثيروا السّكّان من أجل مصلحتهم، وحتّى يعيشوا في أمن وسلام قبل كلّ شيء. فكأنّ مصلحة فرنسا، بالقياس إلى الرّجل، أسمى من مصلحة الوطن!

حقّاً إنّ حمدان خوجة فضح جرائم الجيش الفرنسيّ حين ذكر في مذكّرته إلى ما يسمّى «اللّجنة الإفريقيّة» أنّه «حدث أكثر من مرّة أن ذُبح الرّضّعُ على صدور أمهاتهم، وأحرقت المساكن، وسُلبت المواشي، وامتلأت أسواقنا بالأمتعة المنهوبة! ولقد شوهِدت في هذه الأسواق أساورُ ما تزال على أزندتها الدّامية، وقرط[40] مخضّبة بدماء الآذان التي انتزعت منها(...). ويقال أيضا: إنّ بعض النّساء تمّ بيعهنّ كما تباع الحيوانات».[41]

---

[38] مذكّرة حمدان خوجة للّجنة الإفريقيّة، في مذكّرات أحمد باي...، ص.148-149.
[39] م.س.، ص.148.
[40] كذا، وهو جمع لا يوجد في العربيّة، وإنّما يجمع القُرْط على أقراط، وقِراط، وقُروط، وقِرطة.
[41] م.س.، ص.149.

ومثل هذا الكلام الصّريح والنّضاليّ نسجّله بكلّ التّقدير الذي هو أهل له؛

غير أنّ حمدان خوجة كان ربما كان يصطنع التّقيّة، أو كان من طبعه الاعتدال والتّسامح حتّى فيما لا تسامح فيه، وهو المصلحة العليا للوطن؛ ولذلك يستدرك أنّ مثل تلك الأفعال الشّنيعة التي ارتكبها الفرنسيّون هي التي تجرّ عليهم الطّوائل، وتسبّب لهم في الجزائر الويلات لو كانوا يعقلون! فهو كأنّه يُشفق عليهم، ويرأف بهم؛ ويتمنّى أن لا يقع لهم أيّ مكروه (والمكروه هنا المقاومة من أجل تحرير الوطن) ينهض به الوطنيّون، فيقول: «وإنّ طرُق العنُف هذه لا تؤدّي سوى إلى شلّ أفكار هؤلاء الأهالي ودفعِهم إلى الحرب، وجعْلهم يتشبّثون بآرائهم التّعصّبيّة. ولقد صار من المتداوَل بينهم أنّ الفرنسيّين ليس لهم هدفٌ غير إبادة العرب، وتجريدهم من أملاكهم الإرثيّة».[42]

فما يصنع الدّارس والمؤرّخ حين يقرأ مثل هذا الكلام؟ وهل يمرّ به مرَّ الكرام فلا يعلّق عليه، ولا يتوقّف لديه؟ أم يتساءل ويعلّق بموضوعيّة؟ إنّا اخترنا المسعى الأخير.

إنّا لا نشكّ حقّاً في وطنيّة حمدان خوجة، وحبّه للجزائر؛ نتابع في ذلك بعض المؤرّخين الجزائريّين[43]. كما نتّخذ هذا الحكم من قوله الكبير أيضا، في كتابه «المرآة»: «إنّ تعاسة وطني قد تسبّبتْ في قلقي المستمرّ؛ وكثيراً ما كنت أثناء تحبيري لهذه التّعاسة مُكْرَهاً عن إيقاف قلمي لأترك دموعي تسيل».

غير أنّ مثل هذا الموقف المزدوج يحيّرنا في سيرة هذا الرّجل الكبير؛ فنفضلّ السّبيل إلى الجواب الذي نريد. فهو، من وجهة، يفضح جرائم الجيش الفرنسيّ فضْحاً، ويصوّرها للّجنة الإفريقيّة تصويراً صريحاً؛ ولكنّه، من وجهة أخراة، نجده

---

[42] م.س.، ص.149.

[43] ينظر محمّد العربيّ الزّبيري، مذكّرات أحمد باي...، ص.137-138؛ محمّد بن عبد الكريم، **مقدّمة** إتحاف المنصفين والأدباء، في الاحتراس عن الوباء، لحمدان خوجة، ص.7-8.

ينصح للفرنسيّين بأن يعتدلوا في سلوكهم، ويعدلوا في معاملة الجزائريّين فلا يقسوا عليهم؛ ليس حبّاً للجزائريّين -وهنا الحَيرة- ولكنْ إشفاقاً على الفرنسيّين من أن تندلع في وجوههم ثورة هوجاء، فلا تُبقي ولا تذر! فهو يقول:

1.«إنّ الفرنسيّين لم يقوموا أبداً بما يصدّ هؤلاء الأهالي عن أفكارهم الغالطة والتّعصّبيّة»[44]؛

2.«وإنّ طُرُق العنف هذه لا تؤدّي سوى إلى شلّ أفكار هؤلاء الأهالي ودفْعِهم إلى الحرب، وجعْلهم يتشبثون بآرائهم التّعصّبيّة»[45]؛

3.«ولقد صار من المتداوَل بينهم [بين الأهالي] أنّ الفرنسيّين ليس لهم هدفٌ غير إبادةِ العرب، وتجريدهم من أملاكهم الإرثيّة»[46].

4.«ما ذا يصنع هؤلاء الفرنسيّون تجاهَ شعبٍ دائم العداء والتّعصّب والعناد»؟(!)[47]

فهل حمدان خوجة، هنا، مع الجزائريّين أم مع الفرنسيّين؟ وهل هو، هنا، ينصَحُ للفرنسيّين كيف يتعاملون مع الجزائريّين حتّى يطيب لهم المقام، ويهنأ لهم العيش، أم يدينهم حقّاً على أفعالهم؟ وما باله استعمل عبارة «أفكارهم الغالطة والتّعصّبيّة»؟ وهل الذي يدافع عن وطنه يُعَدّ مخطئا ومتعصّباً؟ أو لا يعني بعض ذلك إلاّ إدانة المقاومة الوطنيّة التي كانت مشتعلة في الشّرق والغرب والجنوب؟ ثمّ ما بالُه يصطنع عبارة أخراةً في حقّ الأهالي أسوأ من أختها، وهي: «شعب دائم العداء والتعصّب والعناد»؟ وما له لم يجتزئ بلفظ «العَدَاء» الذي هو حقّ لكلّ شعب مقهور محتلّ أن يعاديَ الجيوش التي قهرته واضطهدته بقوّة الحديد والنّار، فأضاف وصْفين سيّئين جدّاً في حقّ الذين كانوا يقاومون، وهما: «التّعصّب والعناد»؟ فكأنّ

---

44 م.س.، ص.148.
45 م.س.، ص.149.
46 م.س.
47 م.س.، ص.148.

كلّ مقاوم متعصّب، وكأنّ كلّ ثائر عَنود؟ وكأنّ كُلاً منهما مفتقرٌ إلى التّرويض والتّهذيب حتّى يغتديَ ذا قابليّة لقبول الاستعمار على أرضه، فينظر ولا يصنع شيئاً، ويهان وكأنّه لم يُهَنْ، ويضطهد وكأنّه لا اضطُهِدَ ولا ظُلم!

وهل قرأ القارئون الذين كتبوا عن حمدان خوجة هذه العبارات فعلّقوا عليها، أم تغاضَوا فسكتوا عنها؟ وهل يمكن أن يكون للرّجل الواحد موقفان اثنان: أحدُهما مع قومه وأحدُهما الآخرُ مع الأعداء؟

إنّنا لا نفهم ما ذا يريد حمدان خوجة أن يبلغ إليه من وراء تدبيج هذا الكلام في رسالته إلى «اللّجنة الإفريقيّة»؟ وما منع المؤرّخين من التّوقّف لدى مثل هذه العبارات المفاتيح للتّعليق عليها، (نتساءل عن ذلك مرّة أخراة) ومحاولة استخلاص النّتائج منها؟

إنّ حمدان خوجة كأنّه يضرب الفرنسيّين بوصف فظائع جيشهم، ويرفض في الوقت ذاته ما ينهض به المقاومون الوطنيّون. إنّا لا نفهم شيئاً غير هذا من وراء ما كتب في مذكّرته. والعبارات التي استشهدنا بها شاهدة على ما نزعم.

ولعلّ ثقة الفرنسيّين فيه المطلقة، وأنّه كان أقرب إليهم ممّا كان أقرب إلى الجزائريّين، فيما يبدو، هي التي جعلت الحاكم الفرنسيّ في الجزائر، الدّوك دورفيكو، أن يُرسله مبعوثاً خاصّاً له إلى الحاج أحمد باي قسنطينة، مرّتين اثنتين، ليطالبَه بالاستسلام، ويحمل إليه رسالة قذرة مضمونها صليبيّ استعماريّ: «استسلموا لفرنسا التي وهبها الإله سلطانَ إفريقيا (...). تدفعون ثلاثة ملايين من الفرنكات كتعويضات للحرب، وللحملات التي تتسبّبون فيها يوميّاً. (...) فتفاهموا في كلّ شيء مع رسولي، سي حمدان. إنّني وكلت إليه التّفاوض معكم وفقاً لتعليماتي».[48]

---

[48] م.س.، ص.33-34.

فهل كان يمكن لدورفيكو أن يكون رسولُه رسـولاً يحمـل بـين جوانحـه حبّ الوطن، وتمجيد المقاومة، والقبول بمبدأ الجهاد لتحرير الوطن؟ وهل كان يمكن وضْعُ الثقة في شخصٍ يخون الفرنسيّين؟ إنّ سيرة حمدان خوجة، بالقياس إلينا، محـيِّرة، إذا أردنا أن نفهم التّاريخ كما هو، لا كما كان يجب أن يكون...

ولو كُلّف سي حمدان مرّة واحدة بالسّفارة للوالي العامّ الفرنسيّ بالجزائر لـدى باي قسنطينة لكنّا أوّلنا ما يمكن أن يؤوَّلَ في مثل هذه المواقف لصالح شخص، ولكنّـا اعتذرنا له؛ ولكنّ إرساله تارة أخرى ِسفيراً ومفاوضاً باسم الدّولة الفرنسيّة لم يُبْقِ أيّ باب للتّأويل، ولا الْتماسِ المعاذر للرّجل...

بل إنّه خاطب الباي حين أراد أن يتشدّد في إجابـة الحـاكم الفرنسـيّ، أثنـاء المرّة الثانيـة: «مـن الخطـأ أن تواجـهوا الفرنسـيّين بـهذا الرّفـض المطلـق. فزوّدونـي بعبارات ألطف، وأعطوني خمسة، أو ستة آلاف دورو. وسأذهب إلى بـاريس وهنـاك أقوم بمساعي لصالحكم...».[49]

بل حتّى هذا المبلغ الذي نَقَده الباي إيّاه لم يحقّق لـه بـه شيئاً، ولم يُرجعْـه إليه حين كاتبَه وقد كان عاد إلى القسطنطينيّة.[50] ولعلّ هذا السّـلوك يفسّـره إلحاحُـه الشّديد على الباي، في الوفادة الثانية، ليزوّده بمبلغٍ ضخم من المال مقابل توسّطه لـه لدى الفرنسيّين. فهل كان الرّجل يستفيد من تعادي الفرنسـيّين والجزائريّـين، علـى ذلك العهد، لصالحه الشّخصيّ؟

[49] م.س.، ص.36. ونصادف، على عهدنا هذا الرّديء، أنّ هناك بعض الرّؤساء العرب «الكبار» لا يتردّدون في تقديم النّصائح المخلصة إلى رؤساء غير عرب؛ من أجل إلحاق الضّرر بدول عربيّة وإسلاميّة ولا يستحُون! وإلا فما معنى أن يتبجّح أحدهم دون خجل وهو يقول للأمريكيّين: لا تضربوا العراق الآن! ألا يشبه هـذا السّـلوك سـلوك حمدان خوجة في تقديم النّصائح للفرنسيّين حتّى لا يثور عليهم الجزائريّون، من حيث لم يقدّم أيّ نصائح تذكر للجزائريّين لكي يستطيعوا التّخلص من الاحتلال الأجنبيّ؟ فهذا الزّعيم العربيّ يرجو، من وجهة، أن لا يُضرب العراق، ولكن إلى حين. فهو كأنّه مع العراق! وهو من وجهة أخراةٍ يرجو –ذاك ما يفهم من عبارته: «لا تضربوا العراق الآن»– أن يُضربَ فيما بعد، فهو مع الأمريكيّين! وببعض ذلك كأنّه مع الأمريكيّين والعراقيّين جميعـا في الوقت ذاته. أو قل: لا هو مع الأمريكيّين، ولا هو مع العراق، ولكن مع نفسه !

[50] م.س.، ص. 36–37.

إنّا، واللّه، لا نريد أن نسيء إلى سمعة رجل مثقّف، جزائريّ؛ ولكنّا نريد فقط أن نبدّد الحيرة، ونعرف شيئاً من حقائق التّاريخ؛ ذلك بأنّ الكتابات التي قرأنا عن حمدان خوجة، ممّا كتبه الجزائريّون في عهد الاستقلال، كلّها لصالح هذه الشّخصيّة، ولم أر أحداً، فيما اطّلعت عليه على الأقلّ، توقّف لدى مثل هذه المواقف التي تقترب من الشُّبهة للرّجل؛ بل ألفيناهم يعاملونه كما يعاملون أيّ بطلٍ من أبطال ثورة التّحرير العظماء. وإنّا بناء على هذه النّصوص التي استشهدنا بها لا نستطيع أن نوافقهم على ما ذهبوا إليه، ونتمسّك برأينا فيه إلى أن يظهر ما يخالفه...

ولَكأنّي بالمؤرّخين الجزائريّين وقد بهرهم كتابه «المرآة»، فاستحوذ عليهم، وقد كان فيه وطنيّاً حقّاً؛ فتغاضوا عَن هذه العبارات السّيّئة التي تدين الشّعب الجزائريّ كلّه ومقاومته فتصفهما بالتّعصّب والعناد... ربما من حقهم ذلك، ولكن ما ليس من حقّهم أن لا يعترضوا علينا وقد توقّفنا لدى هذه العبارات المفاتيح المُسيئة للشّعب والمقاومة لنعلّق عليها، ولِنُمَوْقع الرّجل من خلالها؛ فهي التي حدّدت موقفه السّياسيّ، في رأينا، من حركة المقاومة الوطنيّة التي كانت مضطرمة على المحتلّين.

ولعلّ حمدان خوجة إنّما كان يريد أن يكون معتدلاً إزاء الفرنسيّين حتّى لا يقعَ فيما وقع فيه أحمد بوضربة الذي كشف عن ممالأته المخزية للمحتلّين الفرنسيّين، عاداً، كما سنرى، الانتماءَ إلى فرنسا العظيمةِ نعمةً من اللّه عزّ وجل عليه، وعلى مَن يكون مثله!

ولعلّ الذي يشفع لوطنيّة حمدان خوجة أنّه تعرّض للنّفي من الجزائر إلى باريس، بعد ضغط المعمّرين على الحاكم الفرنسيّ؛ ثمّ من باريس إلى القسطنطينيّة؛ ممّا كان يدلّ على أنّه أصبح يزعج الفرنسيّين وذلك بعد مطالبته إيّاهم بعدم المساس بالأوقاف، واستبدال المساجد بالكنائس.

ويرى محمّد العربي الزّبيريّ أنّه «فشل في سياسته الدّاعية إلى التّآخي مع الفرنسيّين، ثمّ أدرك بأنّ دعوته لم تكن سوى نوعٍ من المثاليّة الفلسفيّة، فغيّر طريقته في الكفاح. ولكن عدم انحيازه إلى المقاومة المسلّحة من البداية لم يسمح له بجلب أنصار كثيرين حوله. غير أنّ هذا لا يمنعنا من القول بأنّه كان وطنيّاً مناضلاً يحبّ الخير لبني قومه، وبأنّه عمل كلّ ما في وسعه لاسترجاع سيادة بلاده».[51]

لكن أين كان هو من استرجاع سيادة الوطن، وقد كان على علم، حتماً، بسرائر الفرنسيّين ونواياهم!؟ وكيف كان يمكن لشخص واحدٍ لا يملك قوّة، ولا يجرّ وراءه قوّة العصبيّة، بمصطلح ابن خلدون، أن يؤثر في الفرنسيّين فيخرجوا من الجزائر طوعاً؟ وما منعه من أن ينضمّ إلى أحمد الباي وقد ذهب إليه مرّتين سفيراً للفرنسيّين؟ ولو جاء شيئاً من ذلك لأصبح حقّاً من عظماء التّاريخ الوطنيّ... ولكنْ كلٌّ ميسَّرٌ لِمَا خُلق له!

ثالثاً: الكتابة المضادّة للمقاومة

من فضل اللّه على الأمّة الجزائريّة أنّنا لا نعثر على قصائد أو رسائل أدبيّة، تنتمي بشرعيّة إلى بعض هذه الأجناس الأدبيّة، تمجّد الاستعمار الفرنسيّ، وتدين المقاومة الوطنيّة ما عدا ما عثرنا عليه في بعض مذكّرتيْ حمدان خوجة، وأحمد بوضربة. والحقّ أنّ بين الأوّل والآخر بَوناً شاسعاً في دماثة الأخلاق، وسموّ النّفس، والبعد عن النّهوض بأعمال الشّرّ التي تسيء إلى مكانة المقاومة الوطنيّة وأبطالها. غير أنّ عباراتٍ مؤسِفةً وردت في مذكّرة حمدان خوجة، كان لا بدّ من التّوقّف لديها، وإثارة السّؤال من حولها؛ وإلاّ فإنّنا لن نزيد في كتابتنا هذه على مجرّد تكريس

[51] م.س.، ص.139.

الجمود الفكريّ، والتّهرّب من اتّخاذ المواقف فيما ينبغي أن تُتّخذ فيه. وحينئذ تغدو الكتابةُ مجرّدَ عدَم!

وأمّا أحمد بوضربة، فبالإضافة إلى ما يبدو في المذكّرة التي قدّمها إلى هيئة فرنسيّة استعماريّة مشبوهة كانت تسمّى بغير حقّ «اللّجنة الإفريقيّة» من تحامل على مصالح الجزائر العليا، والتّنظير للكيفيّة التي يستطيع المحتلّون أن يتحكّموا بها في رقاب الجزائريّين بعامّة، والوطنيّين والمقاومين بخاصّة، فإنّنا نلفيه يتهجّم على المقاوم الوطنيّ أحمد باي، ويتّهمه بما لا يجوز، ويرميه بكلّ نقيصة، ويقذفه بكلّ قبيحة... كما رأينا في بعض هذا الفصل. ولم يكن سلوكه ذلك التماساً لتسجيل الحقيقة، ولا للكتابة النّزيهة؛ ولكنّه كان حقداً عليه لأنّه كان يزعج المحتلّين؛ وأنّه استطاع أن يتبوّأ لنفسه مكانة في الزّعامة الوطنيّة ظلّ هو لا يحلم بها، ففاته تحقيقُها...

ذلك، وإنّا لَمّا وَقَفنا هذا الفصلَ على أدب المذكّرات من حيث هي يوميّاتُ مقاومةٍ من وجهة، ومن حيث هي وسيلة للمقاومة الفكريّة والسّياسيّة الوطنيّة ضدّ الاحتلال الفرنسيّ من وجهة أخراة؛ ثمّ لَمّا كنّا عرضنا لمذكّرات أحمد الباي التي تعدّ أشرفَ ما كُتب عن التّجربة النّضاليّة القاسية وأنبلَهُ وأعلاهُ من أجل الحيلولة بين الأعداء واحتلال الوطن، ومقاومتهم بحدّ السّلاح نفسه الذي كانوا اصطنعوه لإخضاع الجزائر لاحتلال بشعٍ قلّ له النّظير في قساوته وفظاعته في التّاريخ: أثناء الاحتلال وأثناء الاندحار معاً؛ ثمّ لَمّا كنّا توقّفْنا حول أطراف من مذكّرة حمدان خوجة التي قدّمها إلى ما يعرف، في التّاريخ الجزائريّ الحديث، تحت مصطلح مغلوط، في الحقيقة، (وقع استعماله ترجمة عن مصطلح الفرنسيّين، وكان أولى أن يطلق عليها لو كان النّاس يحمّلون اللّغة دلالتها الحقيقيّة: « لجنة تثبيت الاستعمار في الجزائر»، عوضاً عن قولهم): «اللّجنة الإفريقيّة»، إذ لم تكن إلاّ لجنة تحقيق

فرنسيّة صوريّة، بل استعماريّة، أرسلت من باريس إلى الجزائر، تحت مطالبة بعض الأعيان والمثقّفين منهم حمدان خوجة، لتقديم صورة نهائيّة للكيفيّة التي سيقع بها الأخذُ بتلابيب الوطنيّين الجزائريّين؛ وكيف كان يحاول إمساك العصا من الوسط فيكون طوراً مع الجزائريّين باحتشام، وطوراً مع الفرنسيّين: نتوقّف الآن لدى مذكّرة رجل لا نشكّ، هذه المرّة، في أنّه عميل ممتازٌ للفرنسيّين، وعاقّ صريحٌ لوطنه الجزائر؛ وهو أحمد بوضربة الذي كان يعادي أحمد باي معاداة شديدة، ويقذفه بكلّ التّهم الشّنيعة، كما كنّا رأينا بعض ذلك من قبل.

فقد قدّم هو أيضاً، مثل حمدان خوجة (ويبدو أنّهما كانا يتنافسان تنافساً غير معلن في تبوُّء مكانة عظيمة لدى الفرنسيّين)؛ وذلك في إطار مساعي بعض الممالئين للفرنسيّين بمدينة الجزائر، خصوصاً، في الأعوام الأولى من عهد الاحتلال، مذكّرةً مفصّلة عمّا كان يجب على الفرنسيّين فعلُه لكي يثبّتوا أقدامهم على أرض ليست لهم، ويُمَكّنوا لوجودهم الإستعماريّ في الجزائر، ويفرضوا سلطانهم على شعب ليس شعبَهم. وندرك من السّطور، وممّا بين السّطور أيضاً، من نصّ مذكّرة هذا الرّجل، أنّه كان يفكّر للفرنسيّين، ويَمْحَضُهم النّصحَ، ويتحنَّنُ عليهم، باعتباره أدرى بشِعاب مكّةَ منهم! فقد وضع خبرته لخدمة الأعداء وكان بذلك فخوراً. وناهيك أنّه كان قبل الاحتلال تاجراً بمدينة مرسيليا فغادرها كالفارّ منها تهرّباً من تصفيَة حساباته مع التّجّار، وقد زعم بيليسي فيه أنّه «رجل ذكيّ ومحتال، بعيد كلّ البعد عن مكارم الأخلاق».[52]

لقد ألفيناه يذكر في صدر مذكّرته قائلاً:

«إنّني سوف أجدّد الأسُس الرّئيسيّة آمِلاً أنّها ستُفيد فرنسا، وطني الجديد؛ كما أنّها سترجع بالفائدة على بني جلدتي».[53]

---

52 عن العربيّ الزّبيريّ، م.س.، ص.141، وأصل المصدر: الحوليات الجزائريّة، ج.1، ص.156.
53 مذكّرة بوضربة، في م.س.، ص.175-176.

فبوضربة هنا يفخر بوطنه الجديد، فرنسا؛ ولا يعقل أن يعمل في مذكّرته لفائدة بني جلدته الذين أمسَوْا في المكانة الأخيرة من نفسه، ومن الاقتراحات التّنظيميّة التي قدّمها إلى الفرنسيّين ليسيّروا بها المستعمرة الكبيرة الغنيّة. والآية على ذلك أنّه ذكر بني جلدته في المكانة الأخيرة من الاهتمام. ثمّ هل يُعقل أن يكون رجلٌ من النّاسِ فرنسيّاً وجزائريّاً معاً، وهو يدّعي أنّه عاقل؛ أو يدّعي من يقبَلُ منه ذلك أيضا أنّه عاقل؟! فما جعل اللّه لرجلٍ من قلبين في جوفه! إنّ أحمد بوضربة حين قال: «أجدّد الأسُس الرّئيسيّة آمِلاً أنّها ستُفيد فرنسا، وطني الجديد؛ كما أنّها سترجع بالفائدة على بني جلدتي» أعلن ولاءه المطلَق لوطنه الجديد، فرنسا. وأمّا بنو جلدته فلأنّه لم يستطع أن يتخلّص من سمرته ولغته فظلّ مرتبطاً بهم كما يرتبط المرء بذكرياته البعيدة.

وإذن، فليس ينبغي معاملة مذكّرة أحمد بوضربة إلاّ أنّها مقاومة فكريّة وسياسيّة مضادّة للمقاومة الوطنيّة المسلّحة من وجهة، وللمقاومة الفكريّة الشّاحبة التي كانت تبدو هنا وهناك (وذلك لقمْع المحتلّين لكلّ صوت يصدَع بالحقّ، وكبْحٍ لكلّ شعور ينضَح بالوطنيّة) من وجهة أخراة؛ وإلاّ على أنّها مذكّرةٌ كتبها فرنسيٌّ لأهله الفرنسيّين يقدّم إليهم فيها النّصائح التي تظاهرهم على تثبيت الأقدام، والتّمكّن من الاحتلال، والإمداد لهم في البقاء.

بل إنّنا نُلفيه ينحاز لليهود الذي كانوا اشتهروا في الجزائر بالرّشوة والفساد لدى الفرنسيّين أنفسِهم فيما يلاحظ، فيقول: «إنّ هناك كثيراً من المسؤولين[54] جاؤوا[55] إلى الجزائر وهم متّفقون على عدم قبول اليهود في البلديّة لشيوع الرّشوة والفساد فيهم؛ أمّا أنا فإنّني أعتقد أنّ نزاهة الأعضاء الفرنسيّين والمسلمين[56] ستغيّر

---

[54] يقصد بهم إلى المسؤولين الفرنسيّين، لأنّ الجزائريّين الوطنيّين لم يكن منهم أيّ مسؤول.
[55] كذا في الطبعة التي عوّلنا عليها، والوجه: جاءوا.

فيهم؛ أمّا أنا فـإنّني أعتقـد أنّ نزاهـة الأعضـاء الفرنسيّين والمسلمين[56] ستغيّر هـذه العيوب وتقضي عليها».[57]

فالرّجل هنا ينصح للفرنسيّين أن لا يفرّطوا في اليهود، وقد جـاءوا إلى الجزائـر منـهم حذريـن؛ وحجّتُـه أنّ فسادهم سيستحيل إلى صلاح بفضـل الصّالحين مـن الجزائريّين والفرنسيّين! وقد نسِيَ الرّجـل أنّ الفلاّحـين الجزائريّـين كـانوا لا يزالـون يقولون في أمثالهم الشّعبيّة: «الَحبّة الْمُرّة تفسد كلّ المطمورة»! فالنّفس أمّارة بالسّـوء، وبَدّارةٌ إلى الشّرّ؛ ولذلـك لا يُستبعَد، في مثـل هـذه الأطـوار، أن يتغلّـب الشّـرّ علـى الخير، والفساد على الصّلاح.

ثمّ كيف يقترح على الفرنسيّين أن يكون رئيسُ البلديّة فرنسيّاً؟ ولِـمَ لمْ يقـترح عليهم الاحتكـامَ إلى الاِنتخابـات وهـمِ الذيـن يتبجّحـون بالدّيمقراطيّـة ويتغنَـون بـها تغنّياً؟ وماله إذ أهمل الإشارة إلى الانتخابات البلديّة قضى بالظّلم والعدوان على بـني جلدته فجعل رئيس البلديّة فرنسّياً، مع أنّـه يمثـل أقلّيّـة فقـط، وتلـك الأقلّيّـة، إلى ذلك، غير شرعيّة، ولم يجعله جزائريّاً؟ ثم ماله إذِ اقترح فرنسيّة الرّئيس، لم يقـترح أن يكون نائبه الأوّل جزائريّاً، وذلك أضعـف الإيمـان؛ بـل جعـل للرّئيـس الفرنسـيّ ثلاثة نوّاب يكـون النّـائب الأوّل فرنسـيّاً[58]، ثـمّ مسـلماً، ويـهوديّاً؟ وبعبـارة أخـراة: مسيحيّاً (فرنسيّاً)، ومسلماً (جزائريّاً)، وقد تحاشى ذكْر الجزائري ضَنّاً علـى التّاريخ

---

[56] نلاحظ أنّ إطلاق صفة «المسلمين»؛ وهي صفة دينيّة خالصة ابتدأت منـذ العـهد الأوّل؛ وربّمـا يكـون أحمـد بوضربة هو الذي أشاع هذا المصطلح الذي يجرّد الجزائريّين من جنسيّتهم الوطنيّة السّيادّية، فـلا يُبقـي لهـم إلاّ صفة الدّين، مقابل صفـة «الفرنسـيّين» الـتي هـي صفـة سيادة، لا صفـة ديـن؛ وإلاّ لكـان أطلـق عليـهم مثـلا «المسيحيّين» حتّى يتلاءم الكلام مع الكلام، والمنطق مع المنطق.

[57] م.س.، ص.176.

[58] هو لم يقترح صراحة النّائب الأوّل والثاني والثالث؛ غير أن تسبقته بذكر النّائب الفرنسيّ يفهم منـه أنّـه هـو النّائب الحقيقيّ للرّئيس.

بذكر هذه الكلمة الجميلة العظيمة التي تمثل سيادة الجزائريّ في وطنه!)، ويهودياً.[59]

وحين نتأمّل هذا الاقتراح نقضي بجوْره وتحيّزه وإجحافه؛ فالرّئيس فرنسيّ، ونائبه الأوّل فرنسيّ، فهما اثنان. واليهوديّ واحدٌ يمثّل أقلّيّة قليلة، على حين أنّ الذي يمثّل الأغلبيّة الكبرى للسّكّان، وصاحب السّيادة في أصل الوضع، لا يكون إلاّ واحداً وهو الجزائريّ. إنّها، إذن، قِسمةٌ ضِيزَى! وإنّه لتقسيم يشبه تقسيم الأعرابيّ الضّيف للدّجاج، حين التمس منه ذلك صاحبُ الدّار...!

وحين يتحدّث بوضربة عن المُفْتِين والقضاة يقترح على الفرنسيّين أن يرشّح رئيسُ البلدية خمسة أشخاص، ويقدّم أسماءهم إلى الوالي العامّ ليعيّن واحداً منهم. وهذا هو الأصل في إعطاء الحقّ للفرنسيّين في تعيين الأئمّة والمُفْتين، إلى أن أخرجوا من الجزائر؛ وهي المسألة التي ستدافع عنها جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، وتقدّم بشأنها إلى الفرنسيّين مذكّرة[60] بحيث تقترح أن يكون التّعيين من مجلس إسلاميّ اقترحت تشكيلته.[61] لكنّ أحمد بوضربة غلّق كلّ الأبواب أمام الجزائريّين حتّى في القضايا ذات الصّلة الحميمة بالإسلام فلم يترك لهم شيئاً!

ويأسف أحمد بوضربة على سوء ظنّ الجزائريّين بالفرنسيّين قائلاً: «إنّ الأهالي الذين لم يعرفوا الفرنسيّين إلاّ في الجزائر قد أخذوا فكرة سيّئة عن هذه الأمّة

---

59 اختار العربي الزّبيريّ مصطلح «إسرائيليّ» لترجمة نصّه الذي نعوّل عليه في هذا الفصل، غير أنّنا نحن لا نعتقد أنّ أحداً من النّاس كان يطلق على اليهوديّ في الأعوام الثلاثين من القرن التّاسع عشر «إسرائيليّاً».

60 قدّم مجلس إدارة جمعيّة العلماء، «باسم الأمّة الجزائريّة المسلمة إلى المجلس الجزائريّ» مذكّرة حول «قضيّة فصل الدّين عن الحكومة». وفي هذه المذكّرة تقترح جمعيّة العلماء ما يقرب من خمسين شخصيّة إسلاميّة وثقافيّة ووجاهيّة من العمالات الثلاث: قسنطينة، والجزائر، ووهران ليتكوّنَ «منها المجلس الإسلاميّ الموقّت. وتشتمل هذه القائمة على شخصيّات من جميع الطّبقات التي تتكوّن منها الأمّة بقطع النّظر عن مشاربهم، فمنهم العلماء، والتّجّار، ورؤساء الزّوايا، وأتباعهم، والفلاحون والمحامون والأطبّاء والأعيان والمثقفون...». (مذكرة جمعيّة العلماء إلى المجلس الجزائريّ، ص. 21.). هذا، وتقع هذه المذكرة النّادرة التّداول في ست وعشرين صفحة باللّغة العربيّة (دون ذكر لتاريخ الطّبع). وقد تُرجمت من العربيّة إلى الفرنسيّة في ثماني عشرة صفحة.

61 تناولنا هذه القضيّة في الفصل الذي وقفناه على الصّراع الفكريّ في الجزائر، في الجزء الأوّل.

العظيمة؛ وذلك لأنَ معظم الفرنسيّين الذين جاءوا إلى هذا البلد ليسوا من ذوي الأخلاق، ولا إيمانَ لهم حتّى بوجود اللّه!».[62]

فالرّجل حزين على أنّ الجزائريّين يُسيئون الظّنّ بالْمُحتلّين الفرنسيّين، ولكأنّي به وهو يطلب من الجزائريّين أن يفرشوا للمحتلّين الطّريق بالحرير، ويُهدوهم باقاتِ الورود؛ جزاءً لهم على التّنكيل والاعتداء على سيادة وطنهم، وحرمات نسائهم، وقدسيّة مساجدهم، وأحقيّة أموالهم وممتلكاتهم.

ويختم أحمد بوضربة مذكّرته التي ينصح فيها للفرنسيّين ويفصّل لهم ما ذا كان يجب عليهم أن يفعلوه، وما ذا كان عليهم أن يجتنبوه؛ وذلك ابتغاءَ التّحكّم في رقاب الجزائريّين بقوله: «وإذا أردتم أن تفعلوا غير ذلك، شأن الكثير من الغزاة الذين يريدون تسليط السّيف على الأهالي وإنزال الرّعب فيهم[63]، فإنّني أؤكّد لكم بأنّكم لن تتمكّنوا من الاِستيلاء على البلاد؛ ولن يكون النّجاح حليفكم. ولقد رأينا، بعدُ، ما تولّد عن تلك التّصرّفات من نتائج سيّئة. ومرّة أخرى أقول: بأنّه يجب العدل إزاء الطّيّبين، والقسوة على الخبيثين، ومعاقبة المجرمين، مع المحافظة على الأبرياء».[64]

وحين نتأمّل هذا النّصّ القصير الذي ندرجه فيما نطلق عليه «أدب المقاومة المضادّة» نلاحظ ما يأتي:

1.أنّ أحمد بوضربة يصطنع عبارات تَشي بإشفاقه على الفرنسيّين ورقّتِ لهم: كيف لم يُوفَّقُوا إلى الاِستيلاء على الجزائر بأسر ع ما يكون من الزّمان، وبأقلّ ما يكون من الخسائر والعناء؛ لأنّهم لم يُحسنوا التّصرّف بحكمة وخبث ودهاء جميعاً؛ فيقول معلّقاً على تصرّفاتهم إزاء الجزائريّين: «أؤكّد لكم بأنّكم لن تتمكّنوا

---

[62] بوضربة، م.م.س.، ص.194.
[63] كذا، والوجه أن يقال: بهم.
[64] م.س.، ص.201.

من الاِستيلاء على البلاد». وهو، هنا، يقولها لهم ليس على سبيل التّحذير، ولكن على سبيل الإغراء؛ أي عليهم أن يفعلوا ما نصح لهم به إن شاءوا الاِستيلاء على البلاد، وقد قرّروا الاِستيلاء عليها، بأسرع ما يكون، وبأقلّ التّكاليف.

2.ينصح للمحتلّين الفرنسيّين بأن يكونوا عادلين مع «الطّيّبين»، وقُساة على «الخبيثين». والحقّ أنّ اللّغة هنا تفقد كلّ دلالتها الحقيقيّة فتنحرف وتنزاح؛ فهو يقصد بالطّيّبين إلى كلّ الجزائريّين الذين كانوا يتعاونون مع المحتلّين، أو لا يعترضون على احتلالهم، ويقدّمون إليهم الضّرائب السّخيّة، ويساعدونهم على احتلال ما لَمّا يحتلّ من الأرض بتجسّسهم على حركة المقاومة الوطنيّة. فقد كان حقّاً على المحتلّين أن يعاملوا أمثال هؤلاء بالحسنى والرّضا. ونتيجة لذلك، فهو يقصد بقوله: «الخبيثين» إلى كلّ الجزائريّين الوطنيّين الذين كانوا يعترضون على الاحتلال، ويقاومونه بكلّ ما أتيح لهم من وسائل المقاومة: إمّا بحدّ السّلاح، وإمّا بالرّأي الصُّرَاح. وكان حقّاً على الفرنسيّين أن يقسوا على هؤلاء «الخبيثين»، على حدّ تعبير الرّجل، فيُنزلوا بهم العذاب الغرام، ويسلّطوا عليهم النّكال والعقاب.

فانظروا كيف استطاع هذا الرّجل أن يزيّح دلالة اللّغة فيجعلها تحتمل ما لم يقدَّرْ لها؛ فاستحالت معانيها إلى متناقضات بحيث اغتدى ما كان خيراً شرّاً، وما كان شرّاً خيراً؛ وما كان خبيثاً طيّباً، وما كان طيّباً خبيثاً؛ فاستحال كلّ شيء، في مذكّرة أحمد بوضربة إلى الفرنسيّين، إلى غير شيء!...

الفصل الثالث

صورة المقاومة الوطنيّة

في قصّة فرانسوا والرّشيد للزاهري

مضمون هذه القصّة وأثرها السّياسيّ والثقافيّ

يبدو أنّ هذه المحاولة القصصيّة، الأولى من جنسها، في تاريخ الأدب القصصيّ في الجزائر، هي القصّة الوحيدة التي نصادفها تتناول موضوعاً سياسيّاً يقاوم الاستعمار الفرنسيّ في الجزائر، ويفضح نفاقه وعبثه، على هذا العهد الذي نحاول تغطيته بالدّراسة؛ فقد تناول هذا النّص القصصيّ الذي كتبه محمّد السّعيد الزّاهريّ موضوع المساواة، أو قل على الأصح: انعدام المساواة، بين الجزائريّين والفرنسيّين في الجزائر.

وعلى أنّنا نريد أن نتحلّل، سلَفاً، من إطلاق المصطلح الفنّيّ الجاري الدّقيق في النّقد العربيّ وهو «القصّة» على هذه المحاولة القصصيّة التي لقيَت إعجاباً شديداً لدى المثقّفين الجزائريّين حين ظهرت في جريدة «الجزائر» في يوم الإثنين عاشر غشت عام خمسةٍ وعشرين وتسعمائة وألف.[1] ذلك بأنّ هذا النّصّ من الوجهة الفنّيّة لا ينبغي له أن يرقَى إلى مستوى الكتابة القصصيّة بكلّ ما يحمل اللّفظ من معنى؛ غير أنّ الكاتب استطاع أن يسرد، فعلاً، أحداث شخصيّتين كانتا تبدُوان أوّلَ الأمر على وفاق واتّفاق، وخصوصاً على مساواة تامّة بينهما في الحياة السّياسيّة؛ إلى أن تكشّفت الحقيقة القاصمة، فأفضت إلى موت إحدى الشّخصيّتين كمَداً وحزناً؛ وهي الشّخصيّة الوطنيّة جرّاءَ التّمييز العنصريّ بين الشّابّين الصّديقين: الجزائريّ، والفرنسيّ.

ولقد يجسّد الإعجابَ الذي لقِيَتْه هذه المحاولة القصصيّة التي كتبها الزّاهريّ في أوساط المثقّفين الجزائريّين رصْدُ عبد الحميد بن باديس جائزةً، لم يحدَّد مبلغُها الماليّ، لأيّ شاعر يتفوّق في رثاء شخصيّة رشيد التي ماتت كمَداً جرّاءَ انعدام المساواة

[1] نُشر هذا النّصّ في الجريدة المذكورة في الأعلى في الصّفحتين الأولى والثانية.

بين الجزائريّين والفرنسيّين. وقد أعلن ابن باديس ذلك في جريدة «المنتقد» التي كان يُصدرها بمدينة قسنطينة. غير أنّ «المنتقد» الباديسيّة التي نشرت إعلان الجائزة[2] عُطّلت بعد نشرها إعلانَ تأسيس الجائزة؛ كما عُطِّلت الجريدة التي نشرت المحاولة القصصيّة، وهي جريدة «الجزائر» الزّاهريّة. ويجب أن يكون المرء من السذاجة بمكان مكين لكي يقتنع بأنّ تعطيل الجريدتين الوطنيّتين الاِثنتين كان مجرّد مصادفة عارضة؛ بل إنّنا نرى أنّ عين الاِستعمار الفرنسيّ كانت لا تنام؛ وقد اغتاظ الفرنسيّون اغتياظاً شديداً من الشّعار الوطنيّ المقاوم الذي أعلنتْه جريدة «الجزائر»، وهو: «الجزائر للجزائريّين»؛ بالإضافة إلى العبارة التي كتبت على أعلى صدرها، وهي: «أسِّست «الجزائرُ» لإعلاء الجزائريّين».[3]

وقد ذكر الزّاهريّ في افتتاحيّة العدد الثاني، ويبدو أنّه هو العدد الأخير من هذه الجريدة[4]، أنّ هذا العدد الذي نشرت فيه المحاولة القصصيّة لم يصدر في أوانه؛ «لأنّ الصّديق الذي جعلْنا الاِمتياز باسمه أرسل قبل يوم صدور الجريدةِ بثلاثة أيّام برقيّةً إلى المطبعة الجزائريّة التي تُطبع بها يقول لها: قِفي عن طبع «الجزائر»؛ فما أنا بضامن فيها (...)؛ وأرسل أيضاً وصْلَ الرّخصة إلى وكيل الحقّ العامّ ومعه براءة من الضّمان».[5]

إنّا لم نأتِ بهذا النّصّ لمحمّد سعيد الزّاهريّ من أجل الحديث عن جريدة «الجزائر» التي كنّا تحدّثنا عنها في الفصل المتمحّض لدور الصّحافة الوطنيّة في مقاومة الاِستعمار الفرنسيّ؛ ولكنّا أردنا به إلى التّنبيه إلى أنّ صاحب امتياز الجريدة الذي كان الزّاهريّ اتّخذه له ردْءاً، تبرّأ من العدد الثاني من جريدة «الجزائر»، لدى

---

2 هي أوّل جائزة أدبيّة وطنيّة ترصد للشّعراء الجزائريّين على عهد الاِستعمار الفرنسيّ.
3 تراجع جريدة الجزائر، ع.2، في 10 أوت 1925. (الصّفحة الأولى).
4 يبدو أنّه لم يصدر منها إلاّ عددان، والعدد الثالث مشكوك في صدوره.
5 م.س.

السّلطات القضائيّة الإستعماريّة، حين علِمَ أنّ الزّاهريّ سينشر بها محاولته القصصيّة الحامية بعنوان: «المساواة- فرانسوا والرّشيد» في الصّفحتين الأولى والثانية من الجريدة الوطنيّة الجريئة. وغالباً ما يكون الزّاهريّ نفسُه حدّثه عن نصّ المحاولة القصصيّة، عُجْباً بما كتب. وهي سنيرة كثيراً ما يفعلها الكاتبون فيتحدّثون عن النّصوص التي كتبوها لأصدقائهم وأحبائهم قبل نشرها.

وببعض ذلك يتبيّن أنّ المقاومة الأدبيّة ألفتْ ردّ الفعل السّيّئ لدى السّلطات القضائيّة الإستعماريّة في الجزائر قبل أن يُنشر النّصّ المقاومُ نفسُه، وإلاّ فبمَ نفسّر هذا التّنكّر المفاجئ من صاحب امتياز الجريدة، ودون أن يتكلّف الإتّصالَ بالزّاهريّ فيخبرَه بقراره الذي تنصّل فيه من المسؤوليّة؟ وما ذا عسى أن يكون قد نُشر في هذا العدد الثاني من «الجزائر»، غير المحاولة القصصيّة «المساواة: فرانسوا والرّشيد»، من موادَّ أدبيّةٍ مقاومة للاستعمار الفرنسيّ، ومشهّرة بعنصريّته ونِفاقه وكذبه على النّاس بشأن المساواة والعدالة والحرّيّة التي كان محمّد الهادي السّنوسيّ يراها مبادئ ثلاثةً «لا مسمّى لها»[6] في الجزائر؟

بيد أنّنا قبل أن نعمد إلى تحليل بعض الفقرات من أوّل نصّ قصصيّ مُقاومٍ، في تاريخ الأدب الجزائريّ الحديث على وجه الإطلاق، نودّ أن نعود إلى التّوقّف بشيء من التّفصيل لدى الآثار الطّيّبة التي أحدثها نشر هذه القصّة في الأوساط الثقافيّة والوطنيّة الجزائريّة. ومن ذلك مسارعةُ ابن باديس إلى تأسيس جائزة، كما سبقت الإيماءةُ إلى ذلك، لأفضل قصيدة ترثي شخصيّة رشيد، وهي الشّخصيّة المركزيّة الضّحيّة، في قصّة الزّاهريّ. وإذا كان تعطيل جريدة «المنتقد» التي أعلنت الجائزةَ وشروطَها بعد نشرها مرثيّةَ رشيد لمحمّد العيد آل خليفة؛ ممّا يجعلنا نفترض أنّ ذلك التّعطيل الجائر فوّت علينا قصائدَ كثيرة كان أصحابها قد قرضوها

---

[6] محمّد الهادي النّوسيّ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، 1. 20.

ليتسابقوا بها؛ فإنّ التّاريخ، لم يحتفظ لنا، نتيجة لذلك، وبكلّ أسف، إلاّ بالقصيدة الدّاليّة التي كتبها محمّد العيد آل خليفة: فإنّ جريدة «الجزائر» نفسها تعرّضت للتّعطيل لأنّها نشرت هذا النّصّ السّرديّ المقاوم. وعلى أنّ القصيدة التي كتبها العيد، هي نفسها، يجب أن تدخل معجم الأدب الجزائريّ المقاوم، في عهد مبكّر من تاريخ الحركة الوطنيّة؟

وقد سبق إلى الحديث عن كلّ هذه الملابسات التّاريخيّة والسّياسيّة الشّاعرُ محمّد الهادي السّنوسيّ منذ سنةِ ستٍّ وعشرين وتسعمائة وألفٍ في كتابه «شعراء الجزائر في العصر الحاضر». فهو المصدر الأوّل لهذه المسألة، وإليه يعود الفضلُ في الكشف عن خلفياتها وملابساتها، وتسجيل بعض وقائعها في حِينها.

ومن عجيب الأمر أنّ الذين قاموا على نشر ديوان محمّد العيد، في وزارة التّربية الوطنيّة في بداية عهد الاستقلال، صنّفوا الأبيات العشرة التي قالها محمّد العيد في شخصيّة الرّشيد في «باب المراثي» ! وكأنّ شخصيّة رشيد شخصٌ تاريخيّ فعلاً، مع أنّ تقديم القصيدة يُقرّ بأنّ «شخصيّة رشيد في هذه القصيدة شخصيّة خياليّة لقصّةٍ بطلاها طالبٌ جزائريّ اسمه رشيد، وطالب فرنسيّ اسمُه فرانسوا».[7] مع أنّ المفروض، في رأينا، كان يجب وضْع نصّ هذه القصيدة في «باب الوطنيّات». كما زعم مقدّم القصيدة في ديوان العيد أنّ «موضوع القصّة كان ميدان مسابقة للشّعراء أعلن عنها «الشّهاب» الأسبوعيّ سنة 1925».[8] مع أنّ المصدر الأوّل المعاصر لهذه القضيّة، وهو محمّد الهادي السّنوسيّ ذكر أنّ القصيدة العيديّة نُشرت في جريدة «المنتقد». وها هو النّصّ المتمحّض لذلك نورده حرفيّاً حتّى نُزيل اللّبس التّاريخيّ عن هذه المسألة؛ يقول محمّد الهادي السّنوسيّ: «وقد اقترحتْ جريدة «المنتقد» على

[7] ديوان محمّد العيد، ص.449.
[8] م.س.

الأدباء رثاء رشيد بما لا يتجاوز عشرة أبيات. وجَعلت لذلك جائزة يأخذها المبرّز [منهم] فتبارى الشّعراء لرثائه. ولم تُعلم نتيجة المسابقة حتّى عُطّلت جريدة «المنتقد». وعلى إثرها حجرت جريدة «الجزائر» أيضاً! ومن جملة الرّاثين شاعرنا هذا [محمّد العيد] وقد نُشِرتْ قصيدتُه في «المنتقد».[9]

ونريد أن نقطع دابر الشّكّ لدى المتلقّي، وبتوكيد خطأ ما قرّر مقدّم ديوان محمّد العيد من أنّ قصيدته نشرت في «الشّهاب»، فنقول:

1.إنّ جريدة المنتقد التي أعلنت سنّ جائزة أدبيّة لأحسن رثاء لشخصيّة رشيد: صدرت في ثاني يوليو عام خمسة وعشرين وتسعمائة؛

2.وتعطلت جريدة الجزائر الزاهريّة، غالباً، بعد صدور العدد الثاني منها في عاشر غشت 1925؛ فإن افترضنا أنّه صدر عدد ثالث منها، وأخير، فلا ينبغي أن يجاوز نهاية غشت 1925؛

3.ولم تصدر جريدة «الشّهاب»، خلفاً لجريدة «المنتقد» المعطّلة، بعد أن صدر منها ثمانية عشر عدداً، إلاّ في ثاني عشر نوفمبر عام خمسة وعشرين وتسعمائة وألف.

فكيف يتأخّر ابن باديس، إذن، في سنّ جائزته الأدبيّة فيعلن ذلك في «الشّهاب»، بعد أن مضى على ظهور القصّة قريبٌ من أربعة أشهر، ولا يعلنها في «المنتقد» التي كان صدروها متزامناً مع صدور جريدة الجزائر الزّاهريّة؟

ولمّا كانت هذه القصيدة العيديّة تندرج ضمن الأدب المقاوم المبكّر ندرجها في هذا المجاز لتكتمل لدى القارئ الكريم صورة التأثير الذي أحدثه نصّ قصّة محمّد السّعيد الزّاهريّ، في أوساط الوطنيّين بالإعجاب والتّأثر، وفي أوساط الإستعماريّين بالسّخط والتّشدّد.

---

[9] محمّد الهادي السّنوسيّ، م.م.س.، ص.24.

يقول محمّد العيد حم عليّ، كما كان يسمّي نفسه عام 1925[10] :

1.نعَمْ! لك في العُلاَ عمَلٌ مَجيــــدُ ولكنْ ما جزاؤك يا رشيــــد؟
2.قضيتَ، على الصّبا، أسَفاً وحزناً كذلك ينتج الضّغط الشّديـد
3.علامَ «فرانْسَوَا» يعلوكَ كَعْبـــاً وأنتَ لِمِثْـلِه الكُفْؤُ الوحيـد؟
4.ألم تكُ، يا رشيدُ، له شقيقـــاً زمانَ أبوكُما العِلْمُ المُفيـــد؟
5.وكنتَ بجنبه في الحرب لَمّــا أمَضُّ قُوَاكُما الجهْدُ الجهيد
6.حياتُك كلّها مأساةُ حـــــزنٍ يَشيبُ لهولِ منظرها الوليـد
7.وموتُكَ يا شهيدَ العدلِ ذكْرَى مؤثّـرةٌ يَلين لها الحديــــد
8.وقفتُ عليك أشعاري عِظَاتٍ بما أوْلَى لك الدّهرُ العنيـــد
9.ونُحْتُ عليكَ في ظُلْم الدَّيَاجي وهل يُجْدي نُوَاحِي،أو يُفيد؟
وإنْ تكُ قد قضَيتَ العيشَ بؤساً فعند اللّهِ طالعُكَ السّعيــــدُ[11]

الضّجّة التي أحدثتها قصّة الزّاهريّ

لقد أحدثـت هـذه المحاولـة القصصيّـة، الأولى مـن جنسـها في تـاريخ القصّـة الجزائريّة، ضجّةً كبرى في الأوساط الثّقافيّة الوطنيّة، كما سـبقت الإيمـاءة إلى ذلـك،

---

[10] ينظر محمّد العيد، في شعراء الجزائر في العصر الحاضر، 1. 12.

[11] شعراء الجزائر في العصر الحاضر، 1.23–24. ظهر الكتاب بالجزائر في عام 1926 بعد أن طُبع بتونس؛ ديوان محمّد العيد محمّد علي خليفة، ص. 449–450، نشر وزارة التّربية الوطنيّة، الجزائر، 1967. ويعلّق الهادي السّنوسي على لفظة «السّعيد» التي وردت آخر كلمة في القصيدة فيقول: «إشارة إلى الشّيخ السّعيد الزّاهري مبتكر الرّواية». ولم يكن الأدباء، إلى ذلك العهد، في العالم العربيّ يميّزون بين القصّة والرّواية. وقد وجدنا طه حسين يكتب مقالة، في الأعوام السّتّين من القرن العشرين، في كتابه: «نقد وإصلاح» عن رواية «زقاق المدقّ» لنجيب محفوظ فيقول: « فهذا العنوان [عنوان رواية نجيب محفوظ] يوشك أن يحدّد موضوع القصّة وبيئتها، وقد ذكرت القصّة ومن قبل ذلك ذكرت الكتاب لأنّ لهذا السّفر قيمتين خطيرتين حقّاً: إحداهما أنّه قصّة متقنة رائقة...» (نقد وإصلاح، ص.117). فإذا كان طه حسين لم يكن يميّز، في الأعوام السّتّين، بين مصطلحي القصّة والرّواية، فما القول في محمّد الهادي السّنوسيّ، وقد كتب ما كتب في الأعوام العشرين، من القرن العشرين؟

والأوساط السّياسيّة الإستعماريّة جميعاً؛ ولعلّ ذلك أن يعودَ إلى الأفكار الجريئة التي طرَحتْها في وقت مبكّر من نشأة الحركة الوطنيّة الجزائريّة حيث كان محمّد سعيد الزّاهريّ يطمح، فيما يبدو، إلى أن تتبوّأ جريدته مكانة جريدة «الإقدام» التي كان يصدرها الأمير خالد[12]. وهي الجريدة التي كان الإستعمار الفرنسيّ المشؤوم عطّلها سنة 1923 ونُفِيَ صاحبها الأمير خالد، حفيد الأمير عبد القادر، إلى حيث لا مكان! ومن آثار هذه المحاولة القصصيّة المقاومة:

1.أنّها كانت مدعاة لتأسيس أوّل جائزة أدبيّة من خلال إعلان جريدة «المنتقد» مسابقةً للشّعراء الجزائريّين يتبارَوْن في رثاء شخصيّة رشيد. وهو تقليد لم يعرف الأدب العربيّ في الجزائر مثيلاً له من قبل؛

2.أنّها أفضتْ، فعلاً، إلى كتابة قصائد من أجل التّرشّح بها للجائزة المرصودة؛ لكنّ التّاريخ لم يحفَظ لنا إلاّ نصّ قصيدة محمّد العيد لأنّها استبدّت بالنّشر في جريدة «المنتقد» الباديسيّة، ثم في أشهَر مدوّنة للشّعر الجزائريّ الحديث في النّصف الأوّل من القرن العشرين، وهي كتاب «شعراء الجزائر، في العصر الحاضر»، قبل أن تنشر في ديوانه عام 1967؛

3.أنّها أوجعت الفرنسيّين إيجاعاً شديداً، فيما يبدو، وإلاّ فما بالُهُم عمَدوا إلى تعطيل الجريدة التي نُشرت فيها القصّة وهي «الجزائر»؛ كما لم يتورّعوا، أثناء ذلك، في تعطيل جريدة «المنتقد» لأنّها تجرّأت على تنظيم مسابقة أدبيّة وطنيّة لرثاء شخصيّة رشيد التي تمثل، في القصّة، الرّفض والإباء والمقاومة من وجهة، والوعي السياسيّ والتّطلّع إلى إعلان ثورة على الإستعمار الفرنسيّ في الجزائر من وجهة أخرى؟

---

12 جريدة الجزائر، ، الجزائر، ع.1 في شهر يوليو 1925 وينظر محمّد ناصر، الصّحف العربيّة الجزائريّة: 1847–1939، ص.55.

ولا ينبغي، في هذه الأثناء، الوقوع تحت دائرة السّذاجة لتصديق حيثيّات تقارير المخابرات الفرنسيّة في ذكْر أسباب تعطيل كلّ من جريدتي «المنتقد» و«الجزائر»؛ فهي تقارير غير صادقة غالباً؛ والعلّة الخفيّة الحقيقيّة هي تجرّؤ ابن باديس والزّاهريّ معاً على تحدّي الاستعمار الفرنسيّ الذي كان شديد التّغطرس بالجزائر، وهو يتأهّب للاحتفال بجنازة احتلال الجزائر بقوّة الحديد والنّار. ونحن نَعجب من كلمة الزّاهريّ التي كتبها في مجلّة «الشّهاب» بعد تسعِ سنواتٍ من تعطيل جزائره من أنّ السّبب، حسَب تقرير المخابرات الفرنسيّة، أنّ المترجم أساء ترجمة «كلمة «النّهضة» بكلمة فرنسيّة معناها «الثورة»، وترجم كلمة «فرنسا الظّافرة المنتصرة» بمعناه: «فرنسا الظّالمة الغاصبة».[13]

وما قوله فيما كان كتب، قبل تسع سنوات، من أنّ الرّشيد همّ بإعلان ثورة؛ وأين ثورة القول في المقال، من ثورة الفعل في القصّة؟...

لعلّ محمّداً الهادي السّنوسيّ أن يكون هو أوّلَ مَن تحدّث عنها، وأوّلَ من لخّص أفكارها[14]. ثمّ عمَدنا نحن إلى تلخيص أفكارها في أحد كتبنا منذ أكثر من ربع قرن[15]. وخلاصة فكرة هذه المحاولة القصصيّة أنّها تتناول مسألة المساواة التي كان الفرنسيّون يملؤون بها أشداقهم، ويرفعون بها عقائرهم؛ فكانوا لا يزالون يزعمون للنّاس بعامّة، وللجزائريّين بخاصّة، أنّ فرنسا تُشعّ منها مبادئُ المساواة والحرّية والإخاء.

وكان الفتى رشيد الذي وُلد في يوم واحدٍ مع فرنسوا، صديقاً حميماً للفرنسيّ؛ فكانا لا يكادان يفترقان؛ فكانا يختلفان إلى مدرسة واحدة، ويلهُوان كما يلهو

---

13 الزّاهري، الشّهاب، قسنطينة، ج.9، م.9، 1933.
14 محمّد الهادي السّنوسيّ، م.م.س.، 1. 23-24.
15 ينظر عبد الملك مرتاض، فنون النّثر الأدبيّ في الجزائر، ص. 163-164. ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1983. (وتأخّر النّشر عن أصل تأليف هذا الكتاب زهاء عشر سنوات).

الأطفال معاً، كما كانا يذاكران معاً لتحضير الاختبارات، وذلك بحكم ما كان يجمعهما من ألفة وصداقة، وزمالة وجوار، جميعاً. فنشآ كما ينشأ الأطفال الجيرانُ على اللّعب واللّهو والعِشرة معاً.

إيراد مقتطفات من نصّ المحاولة القصصيّة

يقول محمد سعيد الزاهريّ:

«ولد فرانسوا والرّشيد في أسبوع واحد من عائلتين من عائلتين تسكنان بحارة واحدة. وكان الأوّل إسبانيّاً في الأصل قد تجنّس أبواه بجنس[16] الفرنسيّين، وكان الثاني جزائريّ الأصل والفصل ولم يزل أبواه مؤمنين.

وُلدا معاً بأسبوع[17]، وتربّيا جميعاً يلعبان ألاعيب واحدة، ثمّ أرسلا معاً إلى دار تربية الصّبية فكانا تربيهما أمّ واحدة تناغيهما مناغاة واحدة. ولَمّا بلغا سنّ التّعليم أجبر فرانسوا على أن يتعلّم؛ فلم يستطع أليفُه الرّشيد أن يفارق أخاه. وظهرت عليه سيما الجزَع. وكان الْمواه[18] (طبعا)[19] قد مُلِئا شفقة عليه وحناناً؛ فخشيا أن يُضْنيه وداع قرينه؛ فأرسلا به إلى مكتب فرانسوا قرينه من يوم درج، وقرينه من يوم خُلق.

نشأ هذان الصّاحبان هذه النّشأة جميعاً في حِجْر واحد. وإنّها لغلوة أولى تجاوزاها من غلوات حياتهما وهما لا يشعران بشيء من شؤون الحياة. دخلا في الغلوة الثانية من غلوات العمر يقطعانها قَدماً لِقَدَم، ورجْلاً لرجل؛ لا يعرفان شيئاً غيرَ لذةِ الْمُصافاة والمنادمة على دروسهما يراجعانِها جميعا (...).

---

[16] كذا بالأصل.
[17] كذا بالأصل.
[18] كذا بالأصل، ولعلّ تحريفاً وقع في اللّفظ الذي قد يكون في الأصل: أبواه.
[19] كذا بالأصل كتبت اللفظة بين قوسين.

فكان الفتيان لا يكـادان يفترقـان؛ فكانـا «يخلـوان بأنفسـهما في غـير أوقـات الدّروس على مراجعة خصّصوا[20] لها وقتاً من أوقات الفراغ (...)؛ فكانا في أثنـاء تلك المدّة نديميْ جذيمة الأبرش.

جنَيا في أيّامهما تلك حلواً ومـرّاً، ولم يلبثـا حتّـى توافـق ذوقـهما في التّعليم فنحَيا منحىً واحداً. وكانا كلّما شاركا في امتحان إلاّ وحصلا[21] على أعداد متساوية.

سارا في طريق القراءة يتجاوزانها غلوة غلوة؛ حتّى تخرّجـا في الحربيّـة برتبـة واحدة. وقد تعلّما من سائر المعاهد التي انتقلا فيها أن فرنسـا دولـة المسـاواة، ودولـة الحرّيّة، ودولة العدالة؛ لا ترى فارقاً بين الفرنسـويّ الصّميم، وبـين المتفرنـس؛ ولا بينهما وبين من تحوطه رعايتها.

تُعطي الحرّيّة لكلّ شخصٍ (...)، ومَن تظلّلهم بجناحـها؛ سواسـية عندهـا في المعاملـة بحيـث تحكـم بـين النّـاس بالقسـط، وتعـدل بينـهم في الحكومـة(...)؛ وأنّ المجازاة والمكافأة تكونان علـى حسـب مـا يؤتـاه الإنسـان مـن موهبـة طبيعيّـة؛ وأنّ التّرقّي في الوضائف[22] إنّما يكون بحسب الأعمال؛ وأنّ فرنسا تخفظ[23] جناح الذلّ مـن الرّحمة لكلّ من جاهد في سبيلها، ولو سالت نفسُه على جنبات شرفها الرّفيع:

لا يسلَم الشّرف الرّفيعُ من الأذى حتّى يُراقَ على جوانبه الدّمُ[24]

فلا تعدمه جائزته بحـال؛ فـإن عـاش قلّبتْـه فيمـا هـو أهلـه مـن الوضـائف[25] العالية، وأسبغت عليه من الجَرايات جَرايـة وفيرة، علـى سموّ منزلتـه. وإن مـات

[20] كذا بالأصل، والوجه: «خصّصا».
[21] كذا.
[22] كذا في الأصل، والوجه: «الوظائف».
[23] كذا بالأصل، والوجه: «تخفض» بالضاد، لا بالظّاء.
[24] هذا البيت لأبي الطّيّب المتنبّي، كما هو معروف.
[25] كذا في الأصل بالجريدة، والوجه: «الوظائف».

أحيته بإقامة هيكل يُذكَر به ويبقى بقاء الدّهر مذكوراً. وجازت أهلَه الذين يَعُولهم بخير جسيم.

أجبر الرّشيد، وهذه هي عقيدته(؟)، على أن يتجنّد كما أجبر كذلك أخوه فرانسوا، فكانا برتبة واحدة، واحدة[26] أوّل مرّة في الجنديّة يسكنان بثُكْنة واحدة. ومن هنا أخذ المَيز يمشي بينهما بالتّفرقة. امتاز فرانسوا عن الرّشيد بأكل لحم الخنزير (ولحم الخنزير: كلّ لحم طريّ وكلّ أدْمٍ)[27]؛ لأنّ الرّشيد فتىً مسلمٌ لا يأكل إلاّ أشعث مأكل، وذلك ما أباح له دينه. وامتاز فرانسوا بزائد في الجراية اليوميّة عمّا يتقاضاه الرّشيد يوميّاً. وامتاز فرانسوا عن الرّشيد بنفقات تُجرى على عياله وبنيه كلّ شهر، لا ينال عيال الرّشيد ثلثها؛ وإن كان الرّشيد قد امتاز بقيمة كبش يأخذها عند التّجنّد، ولعلّها هي ثمنهوقع ذلك من الرّشيد موقع الاِستغراب، وجعل يحدّث نفسه بهذا الحديث: أهكذا كنّا نقرؤ؟[28] وهل هذا ما كنّا نتلقّاه عن الأساتذة المعلّمين؟ ألم يقل لنا المعلّم الفلانيّ، والمعلّم الفلانيّ[29]، أنّه متى اتّحد العاملان على صلاح الدّولة في عملهما ورتبتهما إلاّ وكان جزاؤهما متّحداً كذلك؟ وإنّي لا أرى صديقي، مذ كنت صبيّاً، المسيو فرانسوا، قد تعالى عنّي تعالياً بيّناً فأين المساواة؟ وأين ما ملئت به كتب التّعليم الجمهوريّ تفوّق عنّي[30] فيما أرى؛ وسيتفوّق في أمور أخرى ستبديها الأيّام؟

---

26 كذا بالأصل، ولعلّ التّكرار كان سهواً من الطّابع.
27 ما بين قوسين من التّفسير والتّدخّل ليس لنا، ولكنّه ورد في أصل النّصّ هكذا.
28 كذا بالأصل، والوجه: نقرأ.
29 المفروض أن يقال: المعلّم فلان.
30 نلاحظ أنّ الزّاهري يقول: تفوّق عنه، وليس بشيء؛ وإنما يقال: تفوّق عليه. وتدلّ مثل هذه الاعوجاجات التّعبيريّة على أنّ العربيّة في الجزائر على ذلك العهد كانت ربما كابدت هَناتٍ من أصحابها.

وإنّه لكذلك إذ مرّ به خاطر رجا معه أن يكون معلّموه فيما لقّنوه من الصّادقين، وأن يكون فرانسوا قد تفوّق عنه لسبب خاصّ به لا يجاوزه إلى سواه من الفرنسيّين والمتفرنسين.

<><><><><><><>

مشت الأيّام واللّيالي عليهما وفرانسوا كذلك يتسامى في الرّتب، رتبة رتبة، والرّشيد قاعدٌ مكانه لا يعلوه ولو قيد أظفور[31] حتّى ارتقى فرانسوا إلى وضيفة[32] سامية: وضيفة كولونيل جنرال قائد عامّ؛ فأصبح صاحب الأمر والنّهي في الجيش الذي يضمّ الرّشيد بين جناحيه وهو ما زال مطلق جنديّ».[33]

تحليل نصّ هذه المحاولة القصصيّة

لقد شقّ على الرّشيد، بعد أن رأى من أمره ما رأى، أن يظلّ هو مجرّد جنديّ بسيط من حيث ارتقى صاحبه، وصديقه القديم، الحميم: فرانسوا، إلى رتبة جنرال، قائد عامّ في الجيش. وقد تأثر تأثراً عميقاً لهذا الظّلم، ولهذا الميز العنصريّ الذي تعرّض له ممّا «جعل الوهن يتمشّى في عظام الرّشيد، والهزال يمتصّ من دمه، ويأكل من لحمه»؛[34] فهمّ بأن يعلن «ثورة يعبّر بها عن سخطه وغضبه، ولكنّه لم

31 كذا بالأصل، ولا جود لها في العربيّة؛ وإنّما هو الظُّفْر والظُّفُر، والظُّفْر، ويجمع على أظفار، وجمع جمعه أظافير.

32 كذا بالأصل، ويريد هنا بالوظيفة إلى الرّتبة العسكريّة.

33 الزّاهري، م.م.س. ونلاحظ أنّه وقع لدى الكاتب اضطراب بادٍ في تحديد رتبة الضّابط فجمع بين رتبة العقيد والعميد، وهذا لا يكون...

34 م.س.، ص.2.

يستطع إلى ذلك سبيلاً»[35]، فربما قيل له: «إنّما أنت مشوّش، وعدوّ الحكومة! فلم يجد بدّاً من كظْم ما يجده. فلم يزل يُضنيه الكظم ويعنّيه، فلم يبقَ إلاّ خيالاً ماثلاً. ثمّ في يوم من الأيّام أصبح جثة هامدة لا حراك بها».[36] وذلك «بعد أن هاله ما رآه من تفوّق صاحبه عليه؛ وبان له بأنّ الجزائريّ المسلم لا يساوي جناح بعوضة، ولو فعل ما فعل من الأعمال الجليلة؛ وعرف أنّ كلّ ما كان يقرؤه من أنّ فرنسا دولة المساواة ألفاظ ليست لها مسمّيات في الخارج».[37]

إنّ الذي يعنينا، هنا والآن، ليس البناءَ الفنّيَّ للشّخصيّتين المركزيّتين، وهما الرّشيد وفرانسوا، ولا رشاقةَ اللّغة السّرديّة، ولا روعة التّصوير في هذه المحاولة القصصيّة المبكّرة؛ ولكنْ جُرأةَ الطّرح السّياسيّ لموضوع حسّاس كان الفرنسيّون لا يبرحون يتبجّحون بالاستئثار به وحدَهم من دون العالمين؛ وهو موضوع «المساواة بين النّاس»؛ فجاء محمّد سعيد الزّاهريّ، انطلاقاً من واقع الأمر، المرّ، في الجزائر، فسَخِر من الفرنسيّين سخريّة لاذعة، وحاول أن يصوّر نِفاقهم، ويفضح تحيّزهم؛ في التّعامل مع النّاس بمكيالين اثنين لحالة واحدة؛ وذلك من خلال تقديم هاتين الشّخصيّتين على أنّهما نموذجان لِمَا يجري في واقع الأمر بالجزائر: شخصيّة فرنسيّة، إسبانيّة الأصل، تستمتع بكلّ الحقوق مع أداء الواجبات، وشخصيّة جزائريّة مسلمة محرومة من كلّ الحقوق مع أدائها الواجب على أكمل نحوٍ.

ويبدو، كما كنّا لاحظنا ذلك من قبل، أنّ الفرنسيّين في الجزائر انزعجوا أيّما انزعاجٍ من مضمون هذه المحاولة القصصيّة (التي لم يشكّ أحدٌ من المثقّفين الجزائريّين على ذلك العهد في أنّها قصّة يتوافر نصّها على كلّ المواصفات الفنّيّة، لأنّ الذي كان يعنيهم هو ابتكار مضمونها السّياسيّ الجريء من وجهة، وضعف

---

[35] عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبيّ في الجزائر، ص.164.
[36] الزاهري، م.م.س.
[37] م.س.

المستوى النّقديّ في الجزائر يومئذ من وجهة أخراة) وأثرها العميق في المتلقّين، فقد أمست حديثَ النّاس في الجزائر، ولا سيّما بين المثقّفين يومئذ إلى درجة أنّنا ألفينا مفكّراً كابن باديس يرصد جائزة ماليّة لأيّ شاعر جزائريّ يتفوّق في رثاء شخصيّة رشيد الذي قضى نحبه كمَداً بعد أن لم يستطع أن يُعلن ثورة، فيكوّن مقاومة وطنيّة تناضل من أجل تحقيق المساواة بين الجزائريّين والفرنسيّين، في مجتمع كان يبدو قائماً على بركان مدفون تحت الأرض يوشك أن ينفجر فيرمي بالحُمم في أيّ لحظة من الدّهر. ذلك بأنّ الجزائريّ إذا استوى مع الفرنسيّ في الحقوق والواجبات، فقد كان يعني ذلك أنّه يُصبح حرّاً منفصلاً عن فرنسا حتماً... وقل إنّ تلك المقاومة التي فكّر فيها رشيد، الشّخصيّة المركزيّة لقصّة الزاهريّ، كانت ردّ فعل يائس من أنّ الفرنسيّين لا يستطيعون أن يعدلوا في الجزائر ويُسَاوُوا بين الجزائريّين والفرنسيّن ولو حرِصوا، فليس اللّوم عليهم لأنّهم لم يعدلوا ويساووا، ولكنّ اللّوم عليهم لأنّهم غالطوا ونافقوا في أمر لا يستطيعون تحقيقه...

فكان هذا النّص السّرديّ، إذن، مشروعَ مقاومة مبكّر من أجل الاستقلال عن فرنسا، غير أنّ ذلك المشروع، الأدبيّ على كلّ حال، ظلّ مكبوتاً في ضمير الشّخصيّة القصصيّة «رشيد» فلم يتحقّق في واقع الأمر، يومئذ، لانعدام العوامل الموضوعيّة التي كانت تُفضي به إلى النّجاح.

ويبدو أنّ الزّاهريّ لم يبلور بناء تجربته القصصيّة الأولى في تاريخ الأدب الجزائريّ بلورةً دقيقة، وتبدو هذه المحاوَلة وكأنّها مرتجلة، بحيث نلاحظ شيئاً من التّناقض والخلْط في عرْض المضمون، فمن وجهةٍ يذكر الكاتب أنّ الفَتَيَيْنِ، الرّشيد وفرانسوا، كانا قد «سارا في طريق القراءة يتجاوزانِها غلوة غلوة، حتّى تخرّجا في الحربيّة برتبة واحدة»، ولا يعني هذا إلاّ شيئاً واحداً واضحاً بحكم النّصّ، وهو أنّ الشّخصيّتين الاِثنتين كانتا دخلتا مدرسة عسكريّةً فتخرّجتا فيها برتبة عسكريّة

متساوية؛ وإلاّ فما بالُ الكاتب يقول، ولْنكرّرْ ذلك ونحن في معرض الجدال: «حتّى تخرّجا في الحربيّة برتبة واحدة»؛ ومن وجهة أخرى يذكر الكاتب، من بعد ذلك، أنّ الفتيَين أجبرا على الانخراط في الجنديّة، وذلك حين يقول: «أجبر الرّشيدُ، وهذه هي عقيدته، على أن يتجنّد كما أجبرَ كذلك أخوه فرانسوا؛ فكانا برتبة واحدة أوّل مرّة في الجنديّة يسكنان ثكنة واحدة». فلو كان الفَتَيان تخرّجا في المدرسة الحربيّة، حقّا، كما ذكر الكاتب أوّلَ أمرٍ، لَمَا اضْطُرّا إلى أن ينخرطا في الجيش الفرنسيّ وهما على ذلك مُجْبَرَانِ؛ ولكانا دخلاه برتبة ضابطين، أو برتبة ضابطيْ صفّ على الأقلّ، شأنَ جميع الطّلاّب الذين يتخرّجون في المدارس الحربيّة، قبل الاِلتحاق، عمليّاً، بالجيش. وإنّا لا ندري ما الذي أوقع الزّاهريَّ في هذا التّناقض الذي كان في غنىً عن أن يقعَ فيه، ممّا يجعلنا نفترض أنّه كتب عمله القصصيّ مرّة واحدةً وأعجلتْه الظّروف عن مراجعته قبل الإذن بنشره في جريدة «الجزائر»؟...

ولكنّ الذي يعنينا في مضمون هذه التّجربة القصصيّة هو فضْحُه أكاذيبَ المستعمِرين على الشّعوب التي كانوا يستعمرونها فيُذِلّونها ويَقهرونها، من حيث لم يكونوا يُضمرون لها، في أغلب الظّنّ، إلاّ العداوة والبغضاء، والازدراءَ والشّحْناء؛ وإلاّ فما بالُ الفتى رشيد الذي ظلّ يدرُس جنباً لجنب مع الفتى الفرنسيّ فكانا كنَدْمَانَيْ جَذيمةَ الأبرش[38] حقبةً من الدّهر، فرّق بينهما نظام التّمييز العنصريّ الذي كان الاِستعمار الفرنسيّ يسلكه في الجزائر ليس إلاّ...؛ فإذا صديقٌ واحد في وادٍ، وصديق في واد آخر؟!

---

[38] المعروف في كتب الأخبار أنّ جذيمة بن مالكِ الأبرشِ (وسُمّيَ الأبرش، لأنّه كان به برَصٌ فهابت العرب أن تقول أبرص فلقّبته الأبرش...) ملك الحيرة حكّم مالكاً وعقيلا ابني فارح بن كعب منِ بني القين بن جسر بن قضاعة، حين ردّا عليه ابن أخته عمرو بن عديّ، فاختارا منادمتَه فقبل بذلك، فظلا نديميه زمناً، ثمّ غدر بهما فقتلهما. وقد أورد هذا المثلِ العربيّ القديم متمّم بن نويرة في رثاء أخيه مالك، فقال:
وكنّا كندْمائيْ جَذيمةَ حِقبةً   من الدّهر حتّى قيل: لن يتصدّعا!
انظر لسان العرب، برش، وجذم؛ والمفضّل الضّبّي، المفضليات، ص.267، تحقيق الشّيخين: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، 1964، ط.3.

وإذا كانت تلك المساواة واقعاً ملموساً في المجتمع الفرنسيّ بين الفرنسيّين والفرنسيّات، فإنّها، بالقياس إلى الشّعوب المستعمَرة، ومنها الشعب الجزائريّ المبتلَى ببليّة الاستعمار المشؤوم، لا تعدو أن تكون خرافة سائرةً من خرافات أمّ عمرو!

وتبدأ هذه المحاولة القصصيّة السّياسيّة متشاكلة مؤتلفة، بحيث لا يختلف الأمر بالقياس إلى الصّبيّين، ثم الفتَيَيْنِ، ثمّ الجنديّين، ثم الجنديّ والضّابط السّامِي؛ فكانا يلعبان معاً، ثمّ يدرسان معاً، ثمّ يتدرّبان معاً في مبتدأ الأمر؛ بالإضافة إلى أنّهما كانا جارَين يقطنان حيّاً واحداً؛ فلم يكن أحد منهما يعتقد أنّه سيأتي يوم يفرّق الدّهر بينهما على ذلك النّحو البشع الذي تولّد، نتيجة حتميّة، عن وجود الاِستعمار الذي كان قصاراه التّعامل مع الشّعوب المستعمَرة تعاملاً قائماً على الاِضطهاد والميز، وفي أحسن الأحوال على الكذب والنّفاق.

ويبدأ التّباين، أو الاِختلاف في سيرتَي الشّخصيّتين، انطلاقاً من الانخراط في الجنديّة الإجباريّة؛ فهنا وقع التّحوّل الهائل في مسار العلاقة بين الشّخصيّتين الاِثنتين حيث إنّ فرانسوا، الفرنسيّ، بدأ يرقَى ويتعالى، من حيث ظلّ الرّشيد، الجزائريّ، في أحطّ رتبة في الجيش، وهي رتبة الجنديّ البسيط؛ فلم يفكّر فيه أحد من الضّبّاط الفرنسيّين فيرقّيه ولو إلى رتبة متدنّية في سلّم الرّتب العسكريّة. كما أنّه لم تَشفعْ له لا سيرته الحسنة، ولا ثقافته وعلمه، في ذلك فتيلاً؛ فظلّ مجرّد جنديّ بسيط لا يحلم بأيّة رتبة عسكريّة كزملائه الفرنسيّين...

فكّر رشيد في هذا الأمر مليّاً؛ فلم يُلْفِ سبباً لهذا الميْز المُمِضّ أيّ ذنب اقترفه، ولا أيّة جريمة ارتكبها، سوى أنّه كان جزائريّاً. وقد حمله ذلك على الاِقتناع بأنّ الجزائريّ، في الحقيقة، هو غير الفرنسيّ؛ كما أنّ الفرنسيّ هو غير الجزائريّ؛ فكلٌّ ميسّرٌ لِما خُلق له في هذا العالم. فالجزائريّ له انتماء حضاريّ وجغرافيّ غيرُ الاِنتماء الحضاريّ والجغرافيّ للفرنسيّ. وأنّ كلّ ما قرأه الرّشيد أو

تعلّمه، أو سمِعه مـن أفـواه الأسـاتذة والمحـاضرين في المـدارس الفرنسـيّة لم يكـن إلاّ باطلاً من الأباطيل، وكذباً في الأكاذيب.

لقد انتهى الرّشيد إلى هذه النّتيجة من تلقاء نفسه، ودون أن يحاور أحـداً، أو يحاوره أحـدٌ، مـن زملائـه، ممّـن كـانوا مـن المبتّلين بخدمـة العلّـم الفرنسـيّ قسْراً وإجباراً، وذلـك بعـد الصّدمـة العنصريّـة الـتي تعرّض لهـا حـين التحـق بالجنديّـة الفرنسيّة التي فُرِضت عليه كالقدر المقدّر، والأمر المدبَّر؛ ففكّر، من تلقاء نفسـه أيضـاً ودون أن يحاور أحداً، في إعلان ثورة عارمة على الاحتلال الفرنسيّ في الجزائر؛ غير أنّ أوانَ تلك الثورة لم يكن أنَى؛ ولذلك خشِيَ الرّشـيد أن يقـالَ لـه: إنّـك مشـوّش، ومشاغب ضدّ الحكومة!

ولقد يعني طَرْحُ مثل هذه الأفكار في هذا العمل السّـرديّ أنّ زمـن الثـورة علـى الِاستعمار الفرنسيّ في الجزائر لَمّا يكنْ أوانُه أظلّ الجزائريّين؛ وإلاّ فلمَ اكترث رشـيد بأن يقول الِاستعماريّون فيه ما يقولون إن كان مقتنعاً حقّاً بمبـدأ المقاومـة النّبيـل مـن أجل تحرير الوطن من الِاحتلال الفرنسيّ المشؤوم؟ أم هل كان بقيَ له من برهان بعـد الذي رأى وسمِع وعلِم من سيرة التّعامل معه في الجيش الفرنسيّ؟ ألم يعامَل علـى أنّ قيمته أن لا قيمة له؛ وأنّ وجوده لا يساوي أكثر من رقم في الأرقام؟ ألم تُهْمَل مكانته العلميّة فلم يلتفت أحد إلى شهاداته الـتي منحتـها إيّـاهُ مؤسّسـات التّعليـم الفرنسـيّة نفسُها، بناءً علـى نـصّ المحاولـة القصصيّـة؟ ألم يكـن ذلـك إلاّ مظهـراً مـن مظاهر العنصريّة غير المعلنة في التّعامل مع الجزائريّـين في وطنـهم، وتحـت شمسـهم، وهـم يسمعون ويُبصرون؟...

وهنا يقع الرّشيد في همّ لم يكن يعتقد قطّ أنّه سيقع فيه؛ وهـو: مـا ذا عسـاه أن يصنع، وقد أفضى به الهمّ الوطنيّ إلى ما أفضى؟ إنّه لا بدّ من أن يأتيَ شـيئاً مـا. ولو شيئاً ما لِلفْت الأنظار، وجلْب الِانتباه. لكنْ، أيرقَى بـه ذلـك إلى مستوى الثـورة

على هذا الاستعمار العاتي الجاثم على الجزائر وحدَه؟ وهل ذلك ممّا كان ممكناً في الزّمان والمكان؟ إنّه بعد التّفكير اقتنع بأنّه لا يستطيع أن يأتيَ ذلك وحده. وإذن، أيصبر على الضّيم والظّلم والميز ويستريح؟ لكنْ أيّ صبر؟... وإذن... لقد أمست كلّ الأبواب موصَدَةً في وجهه... ولا سبيل إلى فعل أيّ شيء...

وأمام انْسداد جميع الأبواب، قرّر الفتى أن يستسلم لقدَره؛ ولكنّ الوهن جعل يدبّ «في عظام الرّشيد، والهزال يمتصّ من دمه، ويأكل من لحمه (...) فلم يزل يُضْنيه الكظم ويُعَنّيه، فلم يبقَ إلاّ خيالاً ماثلاً. ثمّ في يوم من الأيّام أصبح جثّةً هامدةً لا حراك بها».

لقد قرّر الفتى أن يستشهد على طريقته الخاصّة، من أجل الوطن، بعد أن ضعفت قوّته، وقلّتْ حيلتُه... لقد أزمع على أن يستشهد بالحزن على مصير الوطن، وما كابد من ظلم الإستعمار الفرنسيّ الغاصب. فكان له ذلك؛ ولم يكن له غير ذلك. لقد بدا لرشيد أنّ «الجزائريّ المسلم لا يساوي جناح بعوضة ولو فعل ما فعل من الأعمال الجليلة؛ وعرف أنّ كلّ ما كان يقرؤه من أنّ فرنسا دولة المساواة ألفاظ ليست لها مسمّيات في الخارج».[39]

1.بنية اللّغة السّرديّة:

يصطنع هذا النّصّ لغة سرديّة فصحى؛ لكنّها بسيطة تليق بأدنى المستويات للمتلقّين في عامّتها؛ وربما اصطنع بعض الألفاظ المشرقيّة كقوله: «في أسبوع واحد من عائلتين تسكنان بحارة واحدة»؛ فإطلاق لفظ «الحارة» على الحيّ ليس من اللّغة الجزائريّة في شيء. ويبدو أنّ الكاتب وقع هنا في تناقضٍ حيث من وجهة نجده

[39] محمّد سعيد الزاهري، م.م.س.، ص.2.

يفضح الميز بين الجزائريّين والفرنسيّين في كلّ شيء؛ ومن وجهة أخراة يجعل العائلة الفرنسيّة والعائلة الجزائريّة تقطنان بحيّ واحد دون تمييز؛ مع أنّ الواقع التّاريخيّ يثبت أنّ عامّة الجزائريّين كانوا يسكنون أحياء غير الأحياء التي كان الفرنسيّون يقطنونها. ولو كانت المساواة موفورة على مستوى السّكن لكانت وُفّرت على مستوى نيل الرّتب العسكريّة في الجيش الفرنسيّ.

على حين أنّنا ألفيناه الكاتب يصطنع كلمات غير شائعة في الإستعمال العربيّ الفصيح مثل تكراره للفظ «غلوة» الذي يبدو أنّه كان يقصد به طوراً المرحلة والفترة، وطوراً آخر معانيَ أخرى. ويبدو أنّ النّاصّ لم يتابع نصّه فلم يصحّحه قبل أن ينشر؛ من أجل ذلك نجد فيه، على القِصَر، هَنَات إملائيّة ونحويّة أومأنا إلى بعضها لدى إثبات نصّ هذه المحاولة.

وقد يلاحظ القارئ كيف كانت العربيّة تشمُس أمام قلم الزّاهريّ (ويبدو أنّ العربيّة بوجه عامّ على ذلك العهد لم تكن توصّلت إلى إيجاد مسمّيات ومعانٍ حضاريّة جديدة كما استقرّ الاستعمال على عهدنا هذا)؛ فكان ربما اصطنع عبارات لمعانٍ لا نرتضيها نحن اليوم مثل قوله: « متى اتّحد العاملان على صلاح الدّولة في عملهما ورتبتهما إلاّ وكان جزاؤهما متّحداً كذلك». وإنّا لا ندري ما منع الزّاهري أن يصطنع «متساوياً» عوض «متّحداً»، وقد كان في معرض الحديث عن المساواة؟... كما نجده يُطلق على مدرسة الحضانة «دار تربية الصّبية»، ويُطلق على المدرسة التي التحق بها فرانسوا «مكتباً». في حين نجده يردّد لفظ أخٍ فيُطلقه على فرانسوا بالقياس إلى رشيد، ولعلّه كان يريد به إلى الزّميل: «فلم يستطع أليفُه الرّشيد أن يفارق أخاه». وكرّر ذلك في النّصّ تارة أخرى.

ولم يَفت القاصّ أن يتناصّ مع نصوص عربيّة قديمة (ولعلّ ذلك أن يعود إلى كثرة محفوظه من النّصوص، وإلمامه بها): بعضها دينيّ (القرآن الكريم)، وبعضها

شعريّ، وبعضها الآخر أمثال عربيّة قديمة. فعلى مستوى التّناصّ مع القرآن العظيم نلفي الكاتب يستند في بعض تعبيراته إلى النّصّ القرآنيّ فيقول: «فرنسا تخفظ[40] جناح الذلّ من الرّحمة لكلّ من جاهد في سبيلها، ولو سالت نفسُه على جنبات شرفها الرّفيع»؛ فهنا تناصّ من وجهة مع قوله تعالى: « واخفِضْ لهما جناح الذلّ من الرّحمة...»[41]. وأصل المعنى في القرآن حثُّ الأبناء على البرّ بالوالدين والتّذلّل لهما من الرّفق بهما، والإشفاق عليهما. على حين أنّ النّصّ السّرديّ اصطنعه للحاكِمة الاِستعماريّة في الجزائر: فرنسا التي كانت أعقّ للجزائريّين من أيّ عاقّ، وأقسى عليهم من أيّ قاسٍ على الأرض.

ونلاحظ أنّ القاصّ اصطنع لفظ الجهاد للدّفاع عن فرنسا؛ على حين أنّ هذا المصطلح اصطنعه القرآن الكريم لنشر الإسلام، أو للدّفاع عنه، ثم وقع شيء من التّجاوز في استعماله فأطلق على كلّ من يقاتل في سبيل تحرير وطنه من الاِحتلال الأجنبيّ. وفي كلّ الأطوار لا يجوز امتهان هذا اللّفظ العظيم باستعماله في الدّفاع عن الدّولة الفرنسيّة التي كانت تحتلّ الجزائر وتضطهد الجزائريّين.

ومن التّناصّات التي لاحظناها في هذا النّصّ القصصيّ مع القرآن الكريم قوله في معرض الحديث عن فرنسا: «(...) بحيث تحكم بين النّاس بالقسط، وتعدل بينهم في الحكومة»؛ فقد وقع التّناصّ هنا مع قوله تعالى: «وإن حكمتَ فاحكُم بينهم بالقِسْطِ؛ إنّ اللّهَ يُحبّ المقسطين».[42]

ومن وجهة أخرى يوجد تناصّ مع بيت أبي الطّيّب المتنبّي الشّهير؛ وذلك من خلال قوله: « ولو سالتْ نفسه على جنبات/ شرفها الرّفيع». وكان يمكن النّصّ أن يستغنيَ عن الاستشهاد بالبيت؛ لأنّ التّمهيد للفكرة بقوله: «شرفها الرّفيع»

---

[40] كذا بالأصل، وهو خطأ مطبعيّ. والوجه: «تخفض» بالضاد، لا بالظّاء.
[41] سورة الإسراء، من الآية24.
[42] سورة المائدة، من الآية42. وبالقسط: بالعدل.

يحيل القارئ المستنير حتماً على مصدرهـا ؛ لكـنّ النَّصّ بعـد التّنـاصّ ذكـر النّـص، فجمع بينهما ؛ وذلك حين قال: «ولو سالت نفسه على جنبات شرفها الرّفيع:

لا يسلم الشّرف الرّفيع من الأذى   حتّى يُراقَ على جوانبه الدّمُ

ونسجّل تناصّاً آخر مع طرفة بن العبد حين يعبّر النّصّ السّـرديّ: «وسيتفوّق في أمور أخرى ستبديها الأيّام» ؛ فالعبارة الأخيرة تتناصّ مع بيت طرفة الشّهير:

ستُبدي لك الأيّام ما كنت جاهلاً   ويأتيك بالأخبار مَن لم تزوِّدِ

كما عمد النّصّ إلى اصطناع مثل عربيّ قديم وهـو قولـه : «فكانـا في أثنـاء تلـك المدّة نديميْ جذيمة الأبرش». وقد سبق لنا الحديث عن هذا المثل الذي كانت العـرب تضربه في دوام العشرة وطيبها بين اثنين.

2.بناء الحدث:

ولعـلّ الـذي يمكـن أن يُلاحـظ أنّ الحـدث يبـدأ وكأنّـه لا حـدث، في هـذه المحاولة القصصيّة ؛ فكلّ التّفاصيل التي ذكِرت حول صداقة الفتيَـين، ودراسـاتهما، وارتباط بعضِهما ببعض؛ كانت تبدو أول أمرٍ تفصيلاً زائداً ؛ غير أنّ الزّاهري أفلـح في توظيف تلك المعلومات التي كانت تبدو خالية من أيّـة أهمّيّـة توظيفـاً فنّيّـاً في القسم الأخير من عمله السّرديّ:

1.لم تُجْدِ الرّشيدَ صداقةُ فرانسوا حين أمسى ضابطاً سامياً في الجيش الفرنسيّ ولا صُحبتُه طوال عهدِ الصِّبا ؛ فالعادة جرت بين النّاس أنّ الصّديـق يفكّـر في صديقـه في مثل هذه الأطوار. لكنّ «الصّديق» فرانسـوا الفرنسـيّ، حـين جـدّ الجِـدّ ودخـل في الحياة العمليّة ، قرّر أن يقطع كلّ علاقـة مـع الرّشيد الجزائـريّ المسلم؛ وكأنّـه هـو نفسه كان مجرّد ممثل يمثل معه دور الصّداقة المزيّفة طوال تلك الفَترة من العمـر! وإذا

كانت القصّة لم تذكر ذلك نصّاً، فإنّها ذكرته سكوتاً، أي أنّ النّص لا يومئ، لا من قريب ولا من بعيد، إلى إمكان اتّصال فرانسوا بالرّشيد، وذلك يثبت ما زعمناه، فقد أرادت القصّة أن تذرَه ليُقرَأ ما بين السّطور.

2.يستكشف الرّشيد فجأة أنّ مبادئ الحرّية والمساواة والعدل وما إلى هذه الشّعارات ممّا كان الأساتذة يَحْشُون به ذهنه أثناء متابعته الدّراسة في المدارس الفرنسيّة لم يكن إلاّ مَيناً وباطلاً. فتلك المبادئ ربما تعني الفرنسيّين فيما بينهم، أمّا مع غيرهم فلا!

3.يستكشف الرّشيد أنّ تعلُّمَه في المدارس الفرنسيّة لم تكن له أيّة قيمة تذكر، بعد أن لم ينفعه ذلك العلم في أوّل احتكاك له بالحياة العمليّة اليوميّة وهو الانخراط الإجباريّ في الجيش الفرنسيّ. فقد ظلّ جنديّاً بسيطاً كأيّ جنديّ من الجاهلين. فما قيمة هدْر عهدٍ من العمر يقترب من عشرين عاماً، في مجتمع تنعدم فيه المساواة، وتفقد الحرّيّة أدنى محتواها؟

وأمّا من الوجهة التّقنية فإنّ النّصّ اصطنع طريقة السّرد التّقليديّة باستعمال ضمير الغائب المرد فابتدأ النّص وانتهى على بعض هذا النحو: «ولد فرانسوا والرّشيد في أسبوع واحد...».

ولم يعمد القاصّ إلى اصطناع ضمير المتكلّم، ومن ثمّ إلى المناجاة[43] بما هي تقنيةً سرديّةً إلاّ لدى نهاية القصّة، وذلك حين استكشف الخديعة الإستعماريّة: « وجعل

---

43 المُناجاة، أو «المونولوج الدّاخليّ» (Monologue intérieur)، خطاب مضمَّنٌ داخل خطاب آخر يتّسم حتماً بالطبيعة السّرديّة: الخطاب الأوّل جوّانيّ، والآخر برّانيّ، ولكنّهما يندمجان معاً إندماجاً تامّاً فيذوب الأوّل في الآخِر، والآخِر في الأوّل لإضافة بُعْد حدثيّ، أو سرديّ، أو نفسيّ، إلى الخطاب الرّوائيّ...
وبحكم صدور المناجاة عن النّفس الباطنة، فإنّها تُصاغ بضمير المتكلّم. أمّا إذا كان النّصّ الرّوائيّ مصوغاً بضمير المتكلّم أصلاً، فإنّه، ومن أجل التّمييز بين النّصّين الدّاخليّ والخارجيّ يجب وضعُ النّص المناجاتيّ بين مزدوجتين: « »، وذلك لتِبيان هذا الإدماج النّصّيّ، أو أيّ علامة أخرى مميِّزة. ولعل من الأمثل أن تُترك، هنا، حريّة المبادرَة للرّوائيّ نفسه الذي هو وحده الجديرُ باختيار هذه العلامة الفاصلة بين المُناجاة والخطاب الآخر في نصّه.

يحدث نفسه بهذا الحديث: أهكذا كنّا نقرؤ[44]؟ وهل هذا ما كنّا نتلقّاه عـن الأسـاتذة المعلّمين؟ ألم يقل لنا المعلّم الفلانيّ، والمعلّم الفلانيّ...». فهنا فقط تسترجع الشّخصيّة وعيَها الحضاريّ والوطنيّ من خلال محاورة النّفس، ومراجعة الذات، وتعرية الآخر. فأخيراً تتكشّف القيم المزيّفة لرشيد فيكفر بها؛ ولكـن بعـد فـوات الأوان؛ فقـد كـان انتهى، بالقياس إليه، كلّ شيء...

3.بناء ملامح الشّخصيّات:

إنّ مـن المؤسـف حقّـاً أنّ شـخصيّتي القصّـة المركزيّتـين لا تتصارعـان ولا تتنافسـان؛ ولا يعـرف فرانسـوا الألمَ الـذي كـان يُمِضّ صديقَـه القديـم، الرّشـيد؛ فشخصيّة فرانسوا شخصيّة سلبيّة لا تؤثّـر ولا تتأثّـر؛ على حين أن شخصيّة الرّشـيد إيجابيّة من حيث إنّها تتأثر وتتألّم للواقع الموجِع الذي تتعرّض له؛ لكنّها تخيب في تغييره على نحو يجعلها تفشل في نقْل بركان الغضـب الدّفـين الـذي كـان كامنـاً في أعماق نفسها إلى الواقع الخارجيّ، فتكوّن فرقـة تمثّـل بدايـة المقاومـة الوطنيّـة ضدّ انعدام المساواة، أي ضدّ الميز والظّلم والاِضطهاد؛ أي ضدّ الاِحتلال الأجنبيّ. وكلّ ما في الأمر أنّها أحسّت بالألم، وأدركت خرافة المساواة التي كـان الفرنسيّون لا يزالـون

وتُعدّ المناجاة تقنيّة متطوّرة من تقنيات السّرد الرّوائيّ في القرن العشرين. ومـن النّـاس مـن يعـود بـهذه التقنيّـة السـرديّة إلى الكـاتب الفرنسـيّ إدوار دي جـردان (Edouard Dujardin, 1881-1949) في روايتـه: «الرّنْدات قد قُطِعتْ» (Les lauriers sont coupés) التي ظهرت عام 1887 حيث اصطنـع لأوّل مـرّة، فيما يزعم مؤرّخو الأدب الفرنسيّ، هذه التّقنيّة التي تنتمي، من وجهة أخرى، إلى حقل علـم النّفـس لارتباطـها بتيّار الوعي. وقد أولِع بها، فيما بعد، جيمس جويس إلى حدّ الهوس.
ومصطلح المناجاة من اقتراحنا؛ وقد جئنا بها من قولهم ناجَى يناجي مناجاة؛ وهو معنىً يدلّ على الحديـث إلى النّفس، والمُسارّة بين إثنين، ولكن في صـــوت مهموس كمناجاة العبد لربّه وهو يصلي؛ فـإنّ صوتـه يكـون بـين الهمس الخافت، والجهر الظاهر. ونحن ندعو، بهذه المناسبة، إلى استعمال مصطلح المناجاة عوضا عـن المصطلح الأجنبيّ الهجين، وهو «المونولوج»؛ إذ لا مبرّر لاستعماله مع وجود المصطلح العربيّ القحّ.
[44] كذا.

يرفعون عقائرهم بها في كلّ نادٍ، ويروّجون الكلام عنـها في كـلّ وادٍ؛ فـإذا هـي تملأ أشعارهم وآدابهم، كما كانت تملأ نصوصهم القانونيّة والسّياسيّة.

وكذلك تبدو الشّخصيّات غائبة عن مسـرح الأحـداث؛ فـهي لم تظهر ظـهوراً مباشراً؛ لأنّ رسْمها كان من الخارج، لا من الدّاخل. أرأيت أنّـه لا يوجـد بينـها أيّ حوار يلمسه المتلقّي؛ وإنّما كـلّ مـا في الأمـر أن الكـاتب هـو الـذي ينـوب عـن هذه الشّخصيّات في التّعبير عن أهوائها، ومواقفها؛ فشخصيّة فرانسـوا كأنّـها سـافرتْ إلى عالَم بعيد ولم تعد؛ فقد غبرت في الجنديّة الفرنسيّة ولم نعد نرى لها أثراً إلاّ ما كـان من الأخبار التي تتحدّث عن أنّها رقيت من مجرّد جنديّ بسيط، إلى أعلى الدّرجات في السّلّم العسكريّ.

على حين أنّ رشيداً لم نستطع تمثّـل ملامحـه الـتي ظلّـت شـاحبة لا تكـاد تبين. فعلى الرّغم من المبادئ الوطنيّـة والإنسانيّة العظيمـة الـتي كـانت تلتعج بـين جوانحه، إلاّ أنّه ظلّ هـو أيضـاً غائبـاً، أو شـبه غـائب. وإذا كـان الكـاتب أفلح في تصويره الدّاخليّ بواسطة بعض المناجـاة (المونولـوج الدّاخلـيّ)[45]، فـإنّ ذلـك لم يكـن كافياً لكي تنضُر شخصيّته، وتبدو أمام المتلقّي واضحة المعالم، مشرقة الملامح...

---

[45] المُناجاة، أو «المونولوج الدّاخليّ» (Monologue intérieur)، خطاب مضمَّنٌ داخِل خطـاب آخـر يتّسم حتماً بالطبيعة السّرديّة: الخطاب الأوّل جوّانيّ، والآخَر برّانيّ؛ ولكنّـهما يندمجـان معـاً إندماجـاً تامّـاً فيـذوب الأوّل في الآخِر، والآخِر في الأوّل لإضافة بُعْد حدثيّ، أو سرديّ، أو نفسيّ، إلى الخطاب الروائيّ...

وبحكِم صدوِر المناجاة عن النّفس الباطنة، فإنّها تُصاغ بضمير المتكلّم. أمّا إذا كان النّصّ الرّوائـيّ مصوغـاً بضمير المتكلّم أصلا؛ فإنّه، ومن أجل التّمييز بـين النّصّيْـن الدّاخلـيّ والخـارجيّ يجـبُ وضْـعُ النّـص المناجـاتيّ بـيِن مزدوجتين: « »؛ وذلك لتِبيان هذا الإدماج النّصّيّ، أو أيّ علامة أخرى ممـيِّزة. ولعـل مـن الأمثـل أن تُـتْرَك، هنا، حريّة المبادرَة للرّوائيّ نفسه الذي هو وحده الجديرُ باختيار هذه العلامـة الفاصلـة بـين المُناجـاة والخطـاب الآخر في نصّه.

وتُعدّ المناجاة تقنيّة متطوّرة من تقنيات السّرد الرّوائيّ في القرن العشـرين. ومـن النّـاس مـن يعـود بـهذه التقنيّـة السرديّة إلى الكـاتب الفرنسـيّ إدوار دي جـردان (Edourd Dujardin, 1881-1949) في روايته «الرّنْدات المقطوعة» (Les lauriers sont coupés) التي ظهرت عـام 1887 حيـث اصطنـع لأوّل مـرّة، فيما يزعم مؤرّخو الأدب الفرنسيّ، هذه التّقنيّة التي تنتمي، من وجهة أخرى، إلى حقل علـم النّفس لارتباطها بتيّار الوعي. وقد أولع بها، فيما بعد، جيمس جويس إلى حدّ الهوس.

وكان الكاتب في حلّ من أن يُنشئ شخصيّة وطنيّة أخرى كأن تكون جنديّاً جزائريّاً من المنبوذين في الجيش الفرنسيّ... ولو جاء الكاتب ذلك لأثرى الحدث، ولكان سمح لظهور ملامح شخصيّة رشيد بأن يجري حواراً بينه وبين الجنديّ الجزائريّ الآخر، أو الجنود الجزائريّين الآخرين. بل كان يمكن أن تنطلق ثورة من هناك بهروب مجموعة من الجنود الجزائريّين المدرّبين بأسلحتهم والصّعود إلى الجبال لإعلان مقاومة ضدّ الاِحتلال...

إنّ الاقتصار على شخصيّتين اثنتين فقط، والتّعامل معهما خارج مسرح الأحداث أفقر هذا العمل السّرديّ وجعله خالياً من الصّراع؛ على الرّغم من وجود بوادر هذا الصّراع الذي قامت عليه القصّة في أصلها؛ إلاّ أنّ القاصّ فاته تحريك هاتين الشّخصيّتين حين دخلتا الحياة العمليّة، وإذكاء هذا الصّراع بإضافة شخصيّات ثانويّة أخرى. وإذا كنّا نحن بصدد الحديث عن قصّة قصيرة لا عن رواية؛ فإنّ ذلك ما كان ليحظُر علينا أن نطالب الكاتب بإضافة بعض الشّخصيّات الأخرى، أو إيجاد وسيلة فنّيّة، على الأقلّ، لإذكاء نار الصّراع بين الشّخصيّتين.

4.بناء الزّمن:

يمتدّ زمن القصّة على مدى خمسة وعشرين عاماً أو أكثر، قليلاً أو كثيراً؛ وذلك على أساس أنّ فرانسو والرّشيد وُلدا في يوم واحد، ثمّ دخلا المدرسة في يوم

ومصطلح المُناجاة من اقتراحنا؛ وقد جئنا به من قولهم ناجَى يناجي مناجاة؛ وهو معنىً يدلّ على الحديث إلى النّفس، والمُسارّة بين إثنين، ولكن في صوت مهموس كمناجاة العبد لربّه وهو يصلي؛ فإنّ صوته يكون بين الهمس الخافت، والجهر الظاهر. ونحن ندعو، بهذه المناسبة، إلى استعمال مصطلح المناجاة عوضاً عن المصطلح الأجنبيّ الهجين، وهو «المونولوج»؛ إذ لا مبرّر لاستعماله مع وجود المصطلح العربيّ القُحّ. وربما وجدنا من يصف مصطلح «المناجاة» بوصف فيقول: «المناجاة الذّاتيّة»؛ وهو وصف لا معنى له من الوجهة الدّلاليّة؛ إذ هذه الذّاتيّة حين توصف بها المناجاة لا تضيف شيئاً جديداً للدّلالة القائمة فيه؛ إذ لا يحمل لفظ «المناجاه»، في أصل وضعه، إلاّ معنى الذّاتيّة، والمُسارّة. من أجل كلّ ذلك عدلنا في كتاباتنا الأخيرة عن استعمال هذه الصّفة لعدم لزومها لهذا المصطلح النّقديّ في دلالة اللّغة العربيّة، كما بيّنّا ذلك. واستعمال الصفة ترجمة حرفيّة للمصطلح الغربيّ «المناجاة الدّاخليّة» (أو «المونولوج الدّاخلي»، كما هو مستعمل في المصطلح العربيّ الجاري).

واحد، فيكون ذلك مقدّراً بزهاء ستّة أعـوام؛ ثـمّ تخرّجـا فيـها؛ فيكـون ذلـك مقدّراً ببلوغِ سنّ العشرين أو نحوها. ثمّ أدّيا الخدمة الإجباريّة في الجيـش الفرنسـي؛ وهـي الخدمة التي تؤدّى في زهاء سنّ العشرين. غير أنّ بلوغ فرانسوا رتبة عميـد (جنرال) أربك زمن القصّة وبرهن على أنّ الزّاهري لم يكن يعرف، فيما يبدو، شيئاً كثيراً عـن نظام التّرقيات في أيّ جيش نظاميّ؛ وأنّ من العسير علـى شابّ أن يرتقي في رتـب الجيش الفرنسيّ بتلك السّرعة التي ذُكِرت في القصّة؛ فالذي يُفـهم أنّـه وقـع إحـراق المراحل، وطيّ المسافات فاغتدى فرانسوا في ظرف عامين اثنين، وهـي مـدّة الخدمـة العسكريّة الإجباريّة في الجيش الفرنسَيّ على ذلك العهد...

وأيّاً ما يكن الشّـأن، فـإنّ مـدى الزّمـن في هـذه القصّـة في أبعـد التّقديـرات لا ينبغي له أن يزيد عن خمسـة وعشـرين عامـاً قسّـمت علـى مراحـل غـير دقيقـة ولا واضحة، لعلّ أدقّها سنّ الميلاد، وسنّ دخول المدرسة.

وقد بُني الزّمن في هذا النّصّ السّرديّ بنـاء رتيبـاً متسلسـلاً، أو «كرونولوجيّـاً» فلم يقعْ التّلاعُب بـالزّمن بـالتّقديم والتّأخـير، والتّأخـير والتّقديـم. ذلـك بـأنّ النّص يصطنع ضمير الغائب المفرد الذي يُسْهم في بناء زمن متسلسل رتيب.

5.بناء الحيز:

قد يكون الحيز[46] هنا أسوأ حظّاً مـن الزمـن علـى الرّغـم مـن أنّ التّعـامل مـع الحيز في أيّ عمل سـرديّ ليـس أقـلّ أهمّيّـة مـن المكوّنـات الأخـراة للعمـل السّـرديّ

---

46 لعلّ من الأمثل أن نكرّر ما قد يكون قيل بصدد مصطلـح «الحـيز» (Espace) الـذي يُعـرَف أيضـا، في الكتابـات النّقديّـة العربيّـة تحـت مصطلـح «الفضـاء». وكـم ردّدنـا، في كتاباتنـا الأخـيرة أنّ إطـلاق مصطلـح «الفضاء» لا يحتمل كلّ الأحمال الدّلاليّة، من وجهة نظرنا نحن على الأقل، المتعلّقة بأصناف الأطوار الـتي تعتور خصائص الدّلالة المكانيّة من حيث هـي؛ يضـاف إلى ذلـك أنّ تعاملنـا مـع الحـيز، بمفـهومنا نحـن لهـذا المصطلح (حيث لا نعتقد أنّ أحداً من المتعاملين مع النّصوص الأدبيّة، من المعاصرين العرب، يمضي على نحونا في تصورِ هذا الإجراء السّيميائيّ؛ إذ معظمهم يبادر إلى التّعامل مع الحيز [أو الفضـاء] علـى أنّـه مكـان جغرافي قبل كل شيء)، لا يرمي، بالضّرورة، إلى تسليط الضّياء على المكان من حيث هو مفهوم تقليديّ؛ ولكنّه يسعى إلى

الكبير. ذلك بأنّ الحيز هنا شاحب بل غائب؛ إذ لا نكاد نلمح منه إلاّ ثلاثة مؤشّرات له: الحارة التي ولدت بها الشّخصيّتان، والمدرسة التي تعلّمتا فيها، ثمّ الثكنة العسكريّة التي مارسا فيها الخدمة الإجبارية في الجيش الفرنسي. غير أنّنا لا نستطيع مشاهدة هذه الأحياز من خلال القراءة؛ كما لا نستطيع أن نضع له خارطة تمثل حركة الشّخصيّات عبر هذا الحيز. فلا أبعاد، ولا خطوط، ولا أحجام، تمثل أمام القارئ؛ بلهَ التّفكيرَ في الشّوارع أو الأشجار أو الطّرقات التي تتحرّك من خلالها هذه الشّخصيّة أو تلك... حتّى كأنّ هذا العمل معزول عن الحيز الطّبيعيّ لشخصيّات أيّ عمل سرديّ توفر فيه الشّروط الفنّيّة المعروفة لدى النّقّاد...

غير أنّنا، وعلى الرّغم من كلّ الملاحظات التي قدّمناها حول النّقص الملحوظ في البناء التّقنيّ لهذه المحاولة السّرديّة المبكّرة، نؤكّد أخيراً ما قلناه أوّلاً، وهو أنّه ليس ينبغي أن ننسى أنّها عمل رائد؛ وأنّ الجزائر كان يوجد بها كلّ شيء إلاّ ازدهار الثقافة الأدبيّة؛ وأنّ على المؤرّخ والدّارس أن يتغاضى عن بعض هذه الهنَات التي ذكرنا منها طائفة؛ لأنّ الغاية من وراء تقديم هذا العمل ليس على أنّه رائعة من روائع الدّهر؛ ولكن لأنّه عملٌ سرديّ مقاوم للاستعمار الفرنسي.

منحه شحنةً جديدة من الدّلالة السّيميائيّة بتوْسِعَة مفهومه إلى كلّ أضرُب الأحياز: كالخطوط، والأبعاد، والأشكال، والأحجام، والأوزان، والأثقال؛ وكل ما يتّخذ شكلاً ما، أو هيئة ما، في حيز ما؛ كالمطر، والسّحاب، والماء، وهلمّ جرّا...

الفصل الرابع

صورة المقاومة الوطنيّة

في الكتابات السِّيَاسيّة

العهد الذهبيّ لكتابة المقالة في الجزائر

لم يزدهر أيَ جنس أدبيَ في الجزائر، كما كنّا ذهبنا إلى ذلك في كتابنا «فنون النّثر الأدبيَ في الجزائر»، منذ أكثر من ربع قرن، كما ازدهر أدب المقالة. ذلك بأنّ الجزائر عرفت جنس المقالة[1] فعالجته بتألّقٍ وتأنّقٍ؛ وذلك بفضل صحُفها العربيّة الرّاقية التي اتّخذت لها من اللّغة العربيّة الفصحى لساناً؛ فانتعشت وتطوّرت.

وقد تكون الجزائرُ، في الرّبع الثاني من القرن العشرين خصوصاً، هي البلدَ العربيَ الثاني، بعد مصر، الذي تطوّر أدب المقالة فيه مُتَّخِذاً له صوراً جميلة من الرّقيّ والتّأنّق في الكتابة بفضل كتّاب كبار أمثال طه حسين، وعبّاس محمود العقّاد، وحسن الزّيّات، ومصطفى صادق الرّافعي، وعبد العزيز البشري، وغيرهم كثير...

وأمّا في الجزائر فإنَ الذين تطوّرت المقالة، بأنواعها السّياسيّة والأدبيّة والاجتماعيّة والدّينيّة، بفضل أقلامهم فهم خصوصاً: عبد الحميد بن باديس (المقالة السّياسيّة خصوصاً، ثمّ المقالة الدّينيّة)، ومحمّد البشير الإبراهيميَ (المقالة الأدبيّة أساسا، وبجانبها المقالة السّياسيّة)، ثم أحمد توفيق المدني، وفرحات بن الدّراجي، والطّيّب العقبي، وباعزيز بن عمر، وأحمد رضا حوحو، ومحمّد سعيد الزاهري، ومحمود بوزوز، وأحمد ابن ذياب، وغير هؤلاء كثير... فما مِن هؤلاء إلاّ مَن كتب في قضايا المجتمع، والسّياسة، والثقافة، والأدب، والتّاريخ، والتّربية...

---

[1] نريد أن نطلق على هذا الضّرب من الكتابة الحديثة التي استدعت ظهورَه الصّحافةُ السّيّارة «جنس المقالة»، وذلك بحكم أنّ المقالة كتابة أدبيّة أساساً، وهي لا يمكن أن تنتمي لا إلى القصّة القصيرة، ولا إلى الخطبة، ولا إلى أدبِ المذكّرات؛ فهي من هذه الوجهة جنس أدبيّ قائم بذاته مثله مثل القصّة والروايةِ والشعر. وقد رأينا عامّة النّقاد العرب الذي كتبوا عن هذا الضرب من الكتّاب أطلقوا عليه «فنّ المقالة». ولعل إطلاق هذا مصطلح «فن» على هذا الجنس الأدبيّ أن يكون ضرْباً من العيّ، ووجهاً من القصور. فالعرب وحدهم هم الذين يطلقون مصطلح «فن» على «جنس»؛ فإذا هم يقولون: فن المقالة، وفنّ القصّة، وفنّ الرّواية. وربما قالوا فنّ الطبخ، وفنّ التّمريض! وقد انسقنا نحن أيضاً معهم في بداية عهدنا بالكتابة والبحث فقلنا: «فنون النّثر الأدبيّ في الجزائر».

والحقَ أنَ هناك عدداً كبيراً من الكتّاب الجزائريّـين، ممّـن كـانوا ينتمـون إلى جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، وممّن لم يكونـوا ينتمـون إليـها أيضـاً مـن أهـل الطَرق الصّوفيّـة، وأئمّـة المسـاجد الرّسميّـين: كـانوا ربمـا جرّبـوا الكتابـة في المقالـة السّياسيّة؛ غير أنّنا أعرضنا عن ذكْرهم لاقتناعنا بـأنّ عامّـة كتاباتـهم لا ترقـى، مـن الوجهة الأدبيّة الخالصـة، وليـس لأيّ سـبب آخـر إدْيولوجـيّ مَقيـت، إلى مستوى كتابات الأسماء التي أومأنا إليها في الفقرة السّابقة. ونحن نحـزن أشدّ الحـزن أن لم نعثر فيما وقعنا عليه من نصوص مقاليّة -في الحقيقة كثيرة- فيمـا كـان ينشـر خـارج صحف جمعيّة العلمـاء، أو ممّـن كـانوا يتعـاطفون معـها فكـانوا امتـداداً لهـا: على نصوصِ مقالاتٍ ترقَى إلى مستوى كتابات الإبراهيمي وابن بـاديس ومـن كـان يقترب مـن مسـتواهما في تدبيـج القـول وزخرفـة الكَـلام... وأمـام المـادّة الضّخمـة مـن المقالـة السّياسيّة خلال هذه الفترة التي نحاوِل تغطيتها بالبحث (1919–1954) لم نجد بدّاً من اشتراط أمرين اثنين:

. المضمون السّياسيّ النّاضحِ عن القضيّة الوطنيّة؛ ويشترك فيـه عـدد ضخم من كتّاب هذه الفترة؛

2.الأسلوب الأدبيّ العالي الذي لا يتفرّد به إلاّ قلّةٌ منهم، وعلى رأسهم محمّد البشير الإبراهيميّ الذي نعتقد أنّه كان أكتب الكتّاب الجزائريّين.

وقد أعدنا ازدهارَ كتابةِ المقالة إلى عواملَ كنّـا ذكرناهـا في موقعـها مـن كتابنـا الذي أحلنا عليه منذ حين، وهو «فنون النّثر الأدبيّ في الجزائر»، ومن أهمّها انتشـارُ الصّحافة العربيّة في الجزائر التي كانت مظـهراً حقيقيّاً مـن مظـاهر المقاومـة بـالرّأي السّياسي، والنّضال بالكلمة؛ والتي كانت تتطلّب وجود طائفة من الكتّـاب المقتدريـن ليحرّروا مقالاتها، يُضاف إلى ذلك احتدامُ الصّـراع الفكـريّ بـين الزّعمـاء السّياسيّين

والمفكّرين من وجهة، وبين شيوخ الزّوايا والعلماء الإصلاحيّين من وجهة أخـراة[2]. ولا نريد أن نتحدّث، في هذا الموقع، عن الصّراع السّياسـيّ بـين الإدارة الإسـتعماريّة في الجزائر، والمدعومة من باريس، والوطنيّين الجزائريّين وما كانوا يكابدون. فتلك سيرة تُوقِرُ متون الأسفار...

وإذا كانت الكتابة القصصيّة تتطلّب من صاحبها وعياً أدبيّاً احترافيّاً، وخيـالاً مجنّحاً، ومعرفة مسبقة بأصول هذا الجنس من الكتابة وتقنياته؛ على نحو يستطيع معه معرفة رسْم الشّخصيّات، وتنمية الحدث، وتوتير الحبكة، وتوظيف اللّغة... كمـا تتطلّب أن يكون من بين المتلقّين وجود نقّـاد محـترفين، وقـراء مستنيرين، يفـهمون النّصّ القصصيّ ويُدركون ما بين سطوره فيُضيفون إليه إبداعاً آخرَ بقراءتهم إيّاه؛ فإنّ جنس المقالة لا يكاد يتطلّب مـن صاحبـه إلاّ شـيئاً مـن الوعـي السِّيَاسـيّ النّـاضج، والشّجاعة الفكريّة الجريئة؛ ثمّ شيئاً من المقدرة الأدبيّة على تدبيج الأفكار، والتّعبـير عنها برشاقة وأناقة، ووضوح وجمال: تؤثّـر وتَلْفِتُ، إمّا بالإبهار وإمّا بالإزعاج؛ وإمّا بهما جميعاً.

ثمّ إذا كـانت هـذه الكتابـة القصصيّـة، مـن وجهـة أخراة، تتطلّب خصبَ الخيال، بالإضافة إلى رشاقة القلم؛ فإنّ كتابة المقالة تتطلّـب سَعة الثّقافـة، والقـدرةَ علـى الإقنـاع، والبراعـةَ في التّبليـغ، والحنكـة في اصطنـاع العقـل والمنطـق في تقديـم الأفكار، وفي عرْض المبادئ، والنّضْح عنها بعد كلّ ذلك. كما أنّ المُباشَرة الـتي تقـوم عليها كتابة المقالة تكثّـر من سَواد قرّائها، وتجعلهم أشدّ التصاقاً بـها، وأكـثر إقبـالاً عليها، فيتكاثرون مع الأيّام ويتزايدون.

ولقد كان عبد الحميد بن باديس يصاول في كتابات مقالاته التي بلغـت أربعـةَ مجلداتٍ ضِخام، حين جُمِعت من بعد وفاته، على جملة مـن الجبـهات؛ فقـد كـان

---

[2] ينظر عبد الملك مرتاض، فنون النّثر الأدبيّ في الجزائر، ص.56 وما بعدها.

من وجهة في معرض الدّفاع عن الأفكار الإصلاحيّة ومهاجمة الطّرقيّة، وخصوصاً ما كان يخالف الشّرع في معتقدات النّاس وسلوكهم؛ في حينَ كان، من وجهة أخراة، يصارع رجال السّياسة من النّوّاب الجزائريّين حين كانوا يرتكبون هَنَاتٍ وطنيّةً، ويخوضون في أحاديث السّياسة بما لم يكن يتواكب والمصلحةَ الوطنيّة العليا كردّه على النّوّاب الجزائريّين: ابنِ غُراب، وابن جلّول، وفرحات عبّاس، ثمّ الوالي الفرنسيّ العامّ. وكانت تلك الكتابات، كما سنرى، مقاومة فكريّة صريحة للسّياسة الإستعمارية التي كانت تتربّص السّوءَ بالجزائر والجزائريّين.

وقد يكون من الأليق، على غزارة مادّة هذا الفصل، أن نجتزئ بالتّوقّف لدى كاتبين اثنين كبيرين هما ابن باديس والإبراهيمي، لاعتقادنا أنّهما يمثّلان أوج هذا الجنس من الكتابة؛ فهما زعيماه الكبيران، وفارساهُ المغواران؛ ثمّ نحاول تحليل أطرافٍ ممّا كَتبا، عافين عن الباقيَ للقارئ ليكمّله، فيكتملَ لديه، انطلاقاً من تصوّرنا؛ أو حتّى انطلاقاً من تصوّر آخر لِسَوائنا، ما عسى أن يكون ناشِدَهُ. وعلى أنّنا لم نجتزئ بالمقالة السّياسيّة بالقياس إلى ابن باديس فحسب؛ ولكنّنا أمعنّا في متابعتنا إلى قصيدة «شعب الجزائر مسلم» باعتبارها مصنّفةً في الكتابة الأدبيّة السّياسيّة[3]. ولم نشأ أن نجعلها في الفصول التي وقفناها على الشّعر لأنّ الأليق أن يذكر هذا النّصّ الشّعريّ، هنا، مع النّصوص النّثريّة لاستكمال الحديث عن صورة المقاومة السّياسيّة في كتابات ابن باديس. فذلك، إذن، ذلك.

[3] كان يفترض أن يُفترض أن نتناول مقطّعة من قصيدة «شعب الجزائر مسلم» الطّويلة في الجزء الأوّل الذي وقفناه على الشّعر؛ ولكن لَمّا طال، آثرنا أن لا نغيّر من شأن هذا البناء الذي كان في الأصل موزّعاً توزيعاً تاريخيّاً، لا موضوعاتيّاً، كما سبق تِبيانُ ذلك في مقدّمة الجزء الأوّل.

أوّلاً: المقاومة السّياسيّة في كتابات ابن باديس

لعبدِ الحميد بنِ باديسَ عددٌ كبيرٌ من المقالات السّياسيّة؛ ممّا قد يجعله أكبرَ كاتب لهذا الضّرب من المقالة فيما بين 1925 و1939. فقد كان مضطرّاً إلى أن يكتب افتتاحيّات صحف جمعيّة العلماء حين كانت تصدر بقسنطينة، كما كان مضطرّاً إلى أن يدافع عن جمعيّة العلماء إزاء خصومها وقد كانوا كثيراً. في حين أنّ مجلّته «الشّهاب» كانت تتطلّب منه أن يمدّها بالمادّة الفكريّة، وبالنّفَس المتّصل، شهريّاً. وأمام فيضٍ فائض من مقالاته السّياسيّة سنُضطرّ إلى الاجتزاء بالتوقّف لدى فقرات محدودة من مقالاته لنحاولَ تحليلها، أو التّعليقَ عليها على الأقلّ، لِنترُكَ الباقي لذكاء القرّاء الأكارم يقرءونه كيف يشاءون.

أ.مقالة «كلمة صريحة».[4]

للرّجالات كبوات فتوشك أن تُلقيَ بهم في متاهات التّاريخ؛ ومن رجالاتنا الكبار الذين زلّت بهم القدم، وزاغ بين أناملهم القلم، الزّعيم الوطنيّ فرحات عبّاس؛ فقد حار عقله، وتضبّب حسّه الوطنيّ، في لحظة يأس وذهول؛ فكتب مقالة باللّغة الفرنسيّة عنوانُها شديد الإثارة، عظيم التّحدّي للشّعور الوطنيّ، وهو: «فرنسا هي أنا»! فلم يتأخّر ابن باديس في الرّدّ عليه في مقالة طويلة نَعُدّها من أجمل مقالات ابن باديس السّياسيّة، وأعمقها وعْياً، وأحرّها شعوراً وطنيّاً، وأنبلها مضموناً، وأشجعها موقفاً. يقول في مطلعها:

1.«حقا إنّنا نعيش في وسط سادت الفوضى فيه من جميع جهاته: فمن فوضى في الدّين، إلى فوضى في الأخلاق، إلى فوضى في الاِقتصاد. وزادتنا الأيّامُ على

[4] نُشرت هذه المقالة الكبيرة أوّل مرّة بمجلّة «الشّهاب»، ج1، م.12، قسنطينة فاتح محرّم الحرام 1355 للهجرة (أبريل 1936). ص. 45 وما بعدها.

كلّ ذلك فوضى جديدةً ربما كانت أخطر الفوضاتِ وأشدّها تأثيراً على حياة الأمّة، وهي فوضى التّكلّم باسم الأمّة(...).

2.قال البعض من النّوّاب المحلّيّين، ومن الأعيان ومن كبار المتوظّفين بهذه البلاد: إنّ الأمّة الإسلاميّة الجزائريّة مُجْمِعةٌ على اعتبار نفسها أمّةً فرنسيّة بحتة، لا وطنَ لها إلاّ الوطنُ الفرنسيّ، ولا غاية لها إلاّ الإندماجُ الفعليّ، التّامّ، في فرنسا، ولا أملَ لها في تحقيق هذه الرّغبة إلاّ بأن تمُدّ فرنسا يدها بكلّ سرعة؛ فتُلْغيَ جميع ما يحول دون تحقيقِ هذا الإندماج التّام.

3.بل لقد قال أحد النّوّاب النّابهين[5]: إنّه فتّش عن القوميّة[6] الجزائريّة في بطون التّاريخ فلم يجد لها من أثر! وفتّش عنها في الحالة الحاضرة فلم يعثر لها على خبر! وأخيراً أشرقت أنوار التّجلّي فإذا به يصيح: فرنسا هي أنا!

4.حقّاً، إنّ كلّ شيء يرتقي في هذا العالم ويتطوّر، حتّى التّصوّفُ. فبالأمس كان يقول أحد كبار المتصوّفين:

فتّشت عليك يا اللّه وجدتُ روحي أنا اللّه!

واليوم يقول المتصوّف في السّياسة:

فتّشت عليكِ[7] يا فرنسا وجدتُ روحي أنا فرنسا!

فمن ذا الذي يستطيع، بعد اليوم، أن ينكر قدرة الجزائريّ العصريّ على التّطوّر والإختراع؟

---

[5] يريد به إلى فرحات عباس.

[6] نلاحظ أنّ بعض المصطلحات السّياسيّة لم تكن متبلورة، باللّغة العربيّة إلى عام 1936، كالخلط بين مفهومي «الوطنيّة» و«القوميّة»، وهما مفهومان مختلفان: الأوّل خاصّ، والآخر عامّ.

[7] كذا بالأصل، والمعروف أن يقال: فتّش عن الشّيء، لا عليه. وكأنّهم قاسوه على معنى البحث. نقول ذلك بناء على ما يُستعمل في اللغة العربيّة المعاصرة، أمّا في الاستعمال القديم فكانوا يُعَدّون الفعل منه فيقولون: فتّشته. ولا يزال يقال هذا اليوم، في الحقيقة. وانظر لسان العرب، فتش.

5. إنّ هؤلاء المتكلّمين باسم «المسلمين الجزائريّين» والذين يصوّرون الأمور بغير صورتها، ويوشِكون أن يوجِدوا حفيراً عميقاً بين الحقيقة وبين الذي يجب أن يعرفها: فهم في واد، والأمّة في وادٍ؛ ويريدون أن يضعوا رجال الإدارة العليا في واد ثالث.

6. لا، يا سادتي! نحن نتكلّم باسْم قسم عظيم من الأمّة، بل ندّعي أنّنا نتكلّم باسم أغلبيّة الأمّة، فنقول لكم ولكلّ من يريد أن يسمعنا؛ ولكلّ من يجب عليه أن يسمعنا، إن أراد أن يعرف الحقائق ولا يختفي وراء آكام الخيال؛ نقول لكم: إنّكم، من هذه النّاحية، لا تمثلوننا، ولا تتكلّمون باسمنا، ولا تعبّرون عن شعورنا وإحساسنا.

7. إنّنا نحن فتّشنا في صحف التّاريخ، وفتّشنا في الحالة الحاضرة، فوجدنا الأمّة الجزائريّة المسلمة متكوّنةً موجودةً، كما تكوّنتْ ووُجِدت كلّ أمم الدّنيا. ولهذه الأمّة تاريخُها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدّينيّة واللّغويّة. ولها ثقافتها الخاصّة وعوائدها وأخلاقها، بما فيها من حسَن وقبيح، شأن كلّ أمّة في الدّنيا.

8. ثمّ إنّ هذه الأمّة الجزائريّة الإسلاميّة ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت. بل هي أمّة بعيدة عن فرنسا، كلّ البعد، في لغتها، وفي أخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها. لا تريد أن تندمج. ولها وطن محدود، معيّن، هو الوطن الجزائريّ بحدوده الحالية المعروفة...»[8].

---

[8] ابن باديس، كلمة صريحة، في الشهاب، ج.1، م.12، أبريل، 1936. وينظر آثار ابن باديس، 3. 307-309.

تحليل هذا النّص

وعلى أنّنا لا نريد أن يفهم القارئ الكريم أنّنا نعمد إلى تحليل هذا النّصّ بالمنهج التّحليليّ الذي ألِفْنا تحليل النّصوص الأدبيّة به؛ لأنّنا لو جئنا نتوقّف لدى كلّ كلمة من هذه المقالة لصار ذلك في حجم كتاب؛ ولذلك سنعمد إلى تحليل مضمونها العامّ مُتجانِفين عن سطحها بكلّ ما يمكن أن يتولّد عنه من عناصر كثيرة للتّحليل. فذلك، إذن، ذلك.

1.يخبر ابن باديس قارئه بهدوء نفسٍ، ورزانةِ عقلٍ، وكَلامٍ حكيم؛ فيُخفي عنه ثورته، ويكْتَتِمُ منه غضبَه، مطلعَ مقالتِه. فكأنّه يريد أن يَزْدَجِيَ إليه مجرّد خبر عاديّ، وأمرٍ من شأن الحياة اليوميّة العاديّة التي نحياها كلّ يوم، ليتجدّدَ هذا الشّأنُ بذهاب اللّيل وطلوع النّهار الجديد. فالأمر، هنا، منصرف إلى ظاهرة الفوضى. فهناك فوضى في كلّ شيء: هي فوضى في الدّين حيث يُفتي كلّ من شاء أن يُفتيَ النّاس، وحيث يخوض في أصول الدّيانة الإسلاميّة كلّ من سوّل له هواه أن يأتيَ ذلك، عُجْباً بنفسه، ولو لم يكن من علماء الدّين الحقيقيّين، وتراه، مع ذلك يفعل، ولا يستَحِي. وهي فوضى في الأخلاق بحيث يسلك كلٌّ من شاء له هواهُ أن يسلُك سلوكاً شاذا عمّا ألِفَه المجتمع من أخلاقيّات السّلوك التي تنفع علاقات النّاس بعضَهم ببعضٍ ولا تَضيرهم شيئاً؛ فتتشبّه المرأة بالرّجل، ويتشبّه الرّجل بالمرأة؛ ويعْثُو مَن لا خَلاق لهم في المجتمع بما يحملون له من مستبشَعات وشذوذ، ومُسْتسْمَجات ومُجُون. وهي فوضى في الاِقتصاد بمفهومه العامّ بحيث أمسى طلب الرّزق غيرَ مُذعنٍ لشروط التّجارة، ولا لمقاييس جمع المال بالطّرُق الحلال. بل ما أكثر ما تجد النّاس يُثْرُون وهم في ريعان الشّباب لمجرّد انضمامهم إلى عصابة تهريب، أو إلى عصابة مخدّرات... لكنّ الفوضى الأكثر سوءاً، والأشدّ ضيْراً للنّاس، ما كان النّاس فيه يتحدّثون، على عهد ابن باديس، من ادّعاء تمثيل الأمّة الجزائريّة والتّحدّث باسمها دون حياء! وهنا يكشف ابن باديس عن الغاية من وراء كتابة مقالته من

وجهة، ومن وراء سـرْد أنـواع الفوضـى السّائدة في المجتمـع الجزائـريّ علـى عـهده لينزلق إلى فوضى أخرى، هي الفوضى السّياسيّة...

2.وفي خضمّ هذا السُّعْر السّياسـيّ، والادّعـاء بتمثيـل الأمّـة تحـت كـلّ لـون، وباسْم كلّ حقّ، لم يزل بعض النّوّاب والأعيان وسامي الموظّفين يزعمـون، وأيّ مزعـم كانوا يزعمون في إصرار، وفي وهـج النّـهار: «أنّ الأمّـة الإسلاميّة الجزائريّـة مُجْمعـة على اعتبار نفسها أمّةً فرنسيّةً بحتة؛ لا وطن لها إلاّ الوطن الفرنسيّ، ولا غايـة لهـا إلاّ الاِندماج الفعليّ التّامّ في فرنسا». فقد تدرّج ابن باديس إلى استخلاص النّتـائج مـن الفوضى التي اتّخذ منها منطلقاً لفكرة مقالته السّياسيّة التي يعارض فيها من لا يتّفـق معهم من السّاسة الجزائريّين على ما ذهبوا إليه باطلاً؛ وذلك باعتبار أنّ هذه الأفكـار هي أفكار استعماريّة خبيثةٌ كان الفرنسيّون يروّجونها، فيتلقّفُها ممّن في قلوبهم مرَضٌ من خونة الجزائريّين، أو من ضعفـاء العقـول إن أردنـا للعبـارة شيئاً مـن التّلطيـف. فتحويل أمّة جزائريّة لها لغتُها ودينُها وشـعبها ووطنـها وتاريخـها إلى أمّـة فرنسيّة الرّوح واللّسان لمجرّد احتلال الفرنسيّين لهـا بـالقوّة النّاريّـة -علـى إقبـالهم مـن وراء البحار- وبذبح كلّ الوطنيّين والمقـاومين وتعذيبـهم عذابـاً لم يُعَذِّبْـهُ أحـدٌ قبلَـهم مـن العالمين: خيانةٌ للجزائر، وغدراً بالأمّة الجزائريّـة، بـل وازدراءً لشعبها. فـأن تنفِـيَ تاريخاً وثقافة وجغرافيا وكياناً كاملاً لشعب من الشّـعوب لا تفعـل شيئاً في الحقيقـة غير ازدرائه واحتقاره. ولذلك لم يكن ذلـك الموقـف الظّـالم يعبّر عـن خيانـة وطنيّـة فحسب، ولكنّه كان ينمّ أيضاً عن جهل مركّب بتـاريخ الشّعوب وثقافتـها وهويّاتـها الوطنيّة. وتلك الأفكار المرفوضة التي كان بعض الزّعماء الجزائريّـين مـن أولي الثّقافـة الفرنسيّة ينادون بها، وينضَحون عنها؛ إنّما كانت أثراً مـن أثـر المسخ الـذي سلّطه الفرنسيّون على الجزائريّين طـوال احتلالهـم للوطـن بحيـث أفضـى ذلـك إلى تجريـد بعض النّاس من أيّ خُيَلاءَ وطنيّة تسمح لهم بـالاعتزاز بـالوطن، والافتخـار بالانتمـاء

إليه؛ كما يعتزّ بالوطن الفرنسيّ الفرنسيّون أنفسُهم، وهي صفة نبيلة فيهم لا نُنكرها عليهم، بل نحمدها فيهم وفي سَوائِهم من الأمم التي تتمسّك بأوطانها، وتعتز ببلدانها؛ لكنْ أن يفتخر بالوطن الفرنسيّ الأجانب عنه بتخيّلٍ منهم أنّهم سيستطيعون بذلك أن يكونوا طرَفاً فيه بمجرّد نبذ الهويّة الوطنيّة، وتقمُّصِ الجنسيّة الفرنسيّة الإداريّة، فإنّما ذلك خيانة لا يغفرها لهم التّاريخ. لا يمكن لشخص عربيّ أمازيغيّ مسلم أن يُصبح فرنسيّاً لمجرّد أنّه يحمل بطاقة إداريّة تُفيد ذلك. فالانتماء إلى أمّة يكون في مألوف العادة أعمق من ذلك غَوراً، وأبعد في السّلوك شأناً.

ولقد كانت خيانة أولئك الذين وُلدوا في الجزائر لا تزال تحملهم على إغراء الفرنسيّين بالمسارعة بمسخ الجزائر جَملة وتفصيلاً، والمبادرة إلى تجريدها من هويّتها الوطنيّة؛ وذلك بأن «تمدّ يدَها بكلّ سرعة، فتُلغي جميع ما يحول دون تحقيق هذا الاِندماج التّامّ».

3.ويتدرّج الكاتب إلى أهمّ نقطة في مقالته فيعرض مقولة فرحات عبّاس، الخبيثة الظّالمة، سامحه اللّه وغفر له على كلّ حال، فيعترض على مقولته، ويَعُدّ موقفه شبيهاً بمواقف بعض الصّوفيّة الجزائريّين المغالين الذين قال أحدهم: إنّه بحث عن اللّه، فلم يجده إلاّ في نفسه فأمسى إلهاً!... على حين أنّ فرحات عبّاس بحث عن الوطن الجزائريّ في التّاريخ القديم والحديث فلم يجده إلاّ في فرنسا، بل لم يجد فرنسا إلاّهُ، فأمسى هو، بقدرة قادر، فرنسا! فقد تحلّل فيها وتحلّلت فيه فأمسَيا شيئاً واحداً! ولم يكن ذلك ليقعَ لولا إشراقاتُ التّجلّي التي أشرقت عليه، بفضل عِشْقِه فرنسا، فأمسى شيئاً غير الذي كان، وكائناً غير الذي كان يجب أن يكون؛ بعد أن مرّ بحالة جعلته يتحلّل من قومه، ويخال إنّه يستطيع أن يتحلّل في قوم آخرين، مقتحماً عليهم كِيَانَهم بكلّ ما فيه من لغة وتاريخ ودين وحضارة وعادات وتقاليد، ولم يكن يُحسّ أنّه سيظلّ أجنبيّاً عنهم من المنبوذين.

وعدّ ابن باديس ذلك السّلوكَ الشاذ، في سخريّة باديَة، من عبقريّة الجزائريّين في التّطوّر والاختراع!

4.ويعود ابن باديس إلى الحديث عن الذين كانوا يزعمون أنّهم يتحدثون باسم الجزائريّين، أمام المجالس والهيئات الفرنسيّة، فخطّأهم وجعلهم ممّن يباعدون بين الحقيقة باتّخاذ الوهم في التّعامل لهم سبيلاً؛ فإذا هم بذلك يُخطئون خِطْئاً كبيراً.

5.ويبلغ الكاتب قمّة الإثارة والعنفوان في الفقرة الخامسة، بتقسيمنا، من مقالته، فيصرخ في وجوه أولئك الانهزاميّين: «لا، يا سادتي!». فهذا «اللاّ» هنا ليس عاديّاً؛ بل يُحسّ القارئ أنّه يشبه قذفة المدفع المدوّيَة؛ فهو يرفض كلّ الأفكار الخائنة التي كان الزّعماء المجِّدون لفرنسا يطرحونها في سوق السّياسة الكاسدة: أوّلاً من حيث إنّهم لم يكونوا يكادون يمثلون إلاّ أنفسهم؛ وآخراً من حيث نفْيُهم، – كبُرَتْ كلمةً تخرجُ من أفواههم!– أن يكون للجزائر وشعبها وطنٌ وتاريخٌ وكيان. ويأتي الجواب هنا، أو الاستنتاج على الأصحّ، نسْجاً على القضيّة المطروحة للجدال: «نحن فتّشنا في صحف التّاريخ، وفتّشنا في الحالة الحاضرة، فوجدنا الأمّة الجزائريّة المسلمة متكوّنةً موجودة؛ كما تكوّنت ووُجدت كلّ أمم الدّنيا. ولهذه الأمّة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدّينيّة واللّغويّة. ولها ثقافتها وعوائدها وأخلاقها (...) شأن كلّ أمّة في الدّنيا».

أوّلاً: نجد ابن باديس يثبت هنا ما نفاه الخصم، إمّا جهلاً بتاريخ وطنه، وإمّا وقوعاً في خطإٍ كبير. فالخصم بحث عن الجزائر في التّاريخ القديم فلم يجد لها أثراً، وفتّشها في التّاريخ الحاضر فلم يَسمع لها خبراً؛ فاقتنع بأنّها منعدمة غير موجودة؛ واقتنع بأنّ الموجود وحده هو فرنسا التي أصبحت، بحكم إشراقة سياسيّة تشبه إشراقة أهل التّصوّف، هي إيّاه، بل أمسى هو إيّاها.

ثانياً: يقيم ابن باديس إثباتَه على المنطق نفسِه الذي نفى به خصمُه «الحقيقة الجزائريّة»، ذلك بأنّ الكاتب بحث عن الجزائر في التّاريخ القديم فوجدها، وفتّشها في العهد الرّاهن فظفر بها؛ تجلّتْ له شامخةً، وارْتَأدَتْ أمامه عملاقة، فتجلّت كريمة عظيمة: أرضاً وبشراً، وتاريخاً وأثراً، واعتزازاً وأشَراً. ألفاها الشّيخ في المساجد العامرة، ووجدها في النّفوس الأبيّة، وتحسّسها في القلوب الطّيّبة. ألفاها في هذا الشّعب الأبيّ الكريم الذي لم يزل يرفض الاحتلال طوال عهود الظّلمات الاستعماريّة إلى أن بدّدها تبديداً؛ فأشرقت أنوار الحرّيّة، وعبقت نسماتها العطرة، في كلّ رجاً من أرجاء الجزائر.

وأخيراً: ينتهي ابن باديس، من جدال خصْمه، في هذه الفقرة، إلى أنّ الأمّة الجزائريّة، كأيّةِ أمّةٍ في العالم، موجودة بحكم كلّ المقوّمات والمكوّنات التي تقوم على أساسها أمّة من الأمم في الأرض.

6.ولا يستنتج ذلك وحدَه من مُحاجّةِ خصْمه، بل يبرّر ذلك بأنّ الجزائر التي يعتقدون أنّها ماتت، وأنّها غير موجودة، وأنّها ذابت في فرنسا «ليست فرنسا»! وهي ليست فرنسا، لأنّها لا تستطيع، «ولا يمكن أن تكون فرنسا». وهي لا تستطيع فحسب؛ ولكنّها أيضاً «لا تريد أن تكون فرنسا». ولو اجتمعت الإنس والجنّ، وكلّ شياطين الأرض على أن تصير الجزائرُ فرنسا لما صارت إلى ذلك. «بل هي بعيدةٌ كلّ البعد في لغتها، وفي أخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها؛ لا تريد أن تندمج. ولها وطن محدود معيّن هو الوطن الجزائريّ...».

لقد كانت قضيّة الاندماج مع فرنسا، في الأعوام التي سبقت الحرب العالميّة الثانية، بل منذ الحرب العالميّة الأولى، قائمةً على أشُدّها؛ فكان مجموعة كبيرة من أولي الميول الفرنسيّة، وممّن انقطعوا عن الثقافة العربيّة، وممّن لم يكونوا، فيما يبدو، يعرفون من الإسلام إلاّ اسمَه: ينضَحون عن فكرة الإدماج ويرَوْنها فرصةً عظيمةً لأن

يذوب الشّعب الجزائريّ في الكيان الفرنسيّ وينتهي من الوجود بالتّلاشي. غير أنّ الوطنيّين والشّخصيّات الوطنيّة الكبيرة رفضت هذه المؤامرة الخبيثة؛ بل أفتى بعض العلماء بتكفير المتجنّس بالجنسيّة الفرنسيّة يومئذ، فيما يقال، فقيس على المرتدّ عن دينه...

من أجل ذلك نجد ابن باديس يركّز، هنا، على مسألة الخصوصيّة الوطنيّة للجزائر وشعبها، ويعدّد منها، للتّأثير في المخاطَب الذي كان يسوق إليه الخطاب في الجزائر.

ب.حول كلمتنا الصّريحة.

لقد أثارت المقالة السّياسيّة الحارّة التي كتبها ابن باديس عن الاندماج، والارتباط بفرنسا، وعن اللّغة العربيّة والإسلام والتّاريخ والثقافة الوطنيّة ردودَ فعْلٍ عنيفة وشديدة، ومتعدّدة أيضاً لدى خصومه، وخصوصاً في الصّحافة الفرنسيّة اللّسان التي كانت تصدر بالجزائر على ذلك العهد.

غير أنّ مقالة ابن باديس أحدثت أثراً طيّباً جداً في نفس الأستاذ فرحات عبّاس الذي اعترف بخطئه فيما يبدو، وذلك بنشره مقالةً في جريدة «الدّفاع» (La Défense) التي كان يصدرها الأمين العمّوديّ؛ بل زار ابنَ باديس في مقرّ مجلّة «الشّهاب» بقسنطينة؛ ممّا حمَل ابنَ باديس على التّنويه بروح فرحات عباس العالية، وشرف نفسه السّامية؛ وذلك حين قال في مقالته «حول كلمتنا الصّريحة»:

«وإنّا لنشهد أنّ من أكمل الرّجال الذين رأينا فيهم، بهذه المناسبة، الهمّة العالية، وشرف النّفس، وطهارة الضّمير، الأستاذ فرحات عبّاس، الصّيدليّ، والعضو البلديّ والعَمَاليّ بسطيف.

كان هذا الرَّجل الأبـيَ مـن أهدافنـا في مقالتنـا «كلمـة صريحـة»، وهـو الـذي آخذناه عن مقاله: «فرنسا هـي أنـا». وقلنـا لـه، ولمـن معـه: إنَّكم عندمـا تسمعون لسياسة الإِندماج، وتحبَّذون التَّجنيس، وترضَوْن بضياع حقوقنا الإسلاميَّة مقابل حـقَ الإِنتخاب؛ وتريدون -خلافاً للطَّبيعة- أن يصير جمهور المسلمين بهذه البلاد جمهوراً فرنسياً بحتاً؛ إنَّكم عندما تسمعون، وتحبَّذون هذا: لا تمثلوننا ولا تتكلَّمـون باسمنـا، وإنَّكم في وادٍ، والأمَّة في وادٍ آخر».[9]

على الرَّغم من أنَّ فرحات عبَّاس نشر مقالته في جريدة وطنيَّة، بل ذات اتِّجاه إصلاحيَ، هي جريدة «الدَّفاع» للأمـين العمـوديَ؛ وعلـى الرَّغـم مـن أنَّـه ازْدَار ابـنَ باديس في مكتبه بمجلَـة «الشَّـهاب» بقسنطينة؛ وعلـى الرَّغـم مـن أنَّ الكـاتب نـوَّه تنويهاً عالياً بأخلاقه، وأنَّه مـن أكمـل الرَّجـال، وأنَّـه كـان طـاهر الضَّمير، شريف النَّفس، إلاَّ أنَّ الموقف المبدئيَ مـن القضايـا الجوهريَّـة يظـلَّ موقفـاً ثابتـاً قائمـاً لـدى الرَّجال الكبار. فابن باديس بعد أن أشاد بفرحات عبَّاس، يظلَّ ذكَر، مع ذلك، بـأنَّ الاندماج والتَّجنيس مرفوضان، وسيظلاَّن مرفوضيْنِ إلى أن ينال الجزائريَّون حقوقـهم، ويسترجعوا كيانهم.

ولعلَّ الأروع في هذه المقالة السَّياسيَّة الباديسيَّة أنَّ خصْمَه مـن النَّـاضحين عـن وجود فرنسا، بل انعدام وجود الجزائر بالقياس إلى فرنسا، ومن الذين كـانوا يصفـون «الأمَّة الجزائريَّة بكلَّ أوصاف الجـهل والفوضـى، والتَّـهديم والتَّخريـب»[10] لم يزالـوا ينشرون المقالات تلو المقالات، في جريدة «النَّجاح» القسنطينيَّة وغيرهـا مـن الجرائـد ذات الهوى الحكوميَ، فرمَوْه، رحمه الله، بكـلَّ قبيحـة، وقذفـوه بأشنـع الصِّفـات التي يستحِي المرء أن يصف بـهـا راعـيَ غنـم في رأس جبـل مـن باديـة منقطعـة عـن

---

9 ابن باديس، م.س.، ج.3، م.12، يونيو 1936. وانظر آثار ابن باديس،3. 316 وما بعدها.

10 م.س.

الحضارة والعمران، فكيف أذنوا لأنفسهم بأن يصفوا بها مفكّراً كبيراً، ووطنيّاً غيوراً، ومسلماً نقيّ السّريرة، وهم لا يستحُون...؟[11] لقد همّوا بأن يستفزّوه، ويحملوه على أن يقول شيئاً لم يكن قد قاله من قبل قطّ، لكنّه قاله ولم يَهَبْ (وهو الذي سيقول للنّشْء الجزائريّ، في العام القادم (1937) «وخُض الخطوبَ ولا تهَبْ!»:

«لكنّ خصومنا (...) أرادوا أن يفهَموا من كلامنا[12] أنّنا نريد الاِستقلال، ورأوا أنّهم يُحرجوننا إذا وضعوا البحث على بساط الاِستقلال. حتّى إذا زلّ بنا القدم فوق هذا البساط الأملس، استنزلوا علينا نقمة الحكومة، وطلبوا أن نعامَل معاملة الثّائرين المُهيِّجين، وأن نذهب ضحيّة قوانين روني وما سبقها.

لكنْ خابت آمالهم! فنحن قوم لا نتأخّر عن الخوض في هذه الميادين، وأنّهم لا يُزعجوننا إن جرُّونا للبحث في مسألة الاِستقلال !

إنّ الاستقلال حقّ طبيعيّ لكلّ أمّة من أمم الدّنيا.

وقد استقلّت أمم كانت دوننا في القوّة والعلم، والمنَعة والحضارة.

ولسنا ممّن يدّعون علم الغيب مع اللّه ويقولون: إنّ حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد. فكما تقلّبت الجزائر مع التّاريخ، فمن الممكن أنّها تزداد تقلّباً مع التّاريخ. وليس من العسير، بل إنّه من الممكن أن يأتيَ يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرّقيّ المادّيّ والأدبيّ، وتتغيّر فيه السّياسة الاِستعماريّة عامّة، والفرنسيّة خاصّة، وتسلك فرنسا مع الجزائر مسلك إنكلترا مع استراليا، وكندا...».[13]

---

[11] لم نرِد ذكْر بعض هذه الصّفات التي سردها ابن باديس بشجاعة، والتي رماه بها خصومهم، تكريما للرجل وإجلالا. ينظر ابن باديس، حول كلمتنا الصّريحة، في مجلّة الشّهاب، ج.3، م.13 (يونيو 1936).

[12] يريد إلى ما ورد في المقالة السّابقة التي حللنا أطرافا منها، ونشرها في مجلّة «الشّهاب» بعنوان «كلمة صريحة». ولنسجّل هنا أنّ ابن باديس لم يرد أن ينشرِ تلك المقالة الحامية، ولا هذه أيضا، في جريدة البصائر التي كثيراً ما كان يكتب افتتاحياتها؛ ونشرها في مجلته ليتحمّل المسؤوليّة السّياسيّة والقانونيّة وحده ولا يورّط جمعيّة العلماء التي كان يرأسها. فهذا الموقف أراده أن يكون شخصيّاً. وهو موقف ما أروعه!

[13] الشّهاب، ج.3، م. 12، 141–147.

لست أدري هل توقّف الدّارسون والمؤرّخون قبلنا عند هذا النّصّ فحلّلوه، وهل التفتوا إليه فعلّقوا عليه على الأقل، أم لا؟ أمّا نحن فإنّا نعتقد أنّه أهمّ نـص سياسيّ كتب في الأعوام الثلاثين من القرن العشرين حول القضيّة الوطنيّة. وأروع مـا فيـه أنّـه استطاع أن يتنبّأ باستقلال الجزائر، إن عاجلا أم آجلا. والذي لا يقلّ روعة أنّه تنبّـأ بنهاية الاستعمار في العالم. ويمكن أن نستخلص من نصّ ابن باديس العجيـب بعـض ما يأتي:

1.يبدأ فقرته، التي هي في الأصل من ضمن مقالة طويلة يجادل فيـها خصْمَه الذين رَمَوْه بكلّ قبيحة، بأن يقرّر حقيقة مقدّسة تمثُّـل في أنّ الاستقلال حـقّ طبيعيّ لكل الأمم والشّعوب. ويعني ذلك أنّ الشّعب الجزائريّ يقيم على أرض مثل أيّ أرضٍ تقيم الشّعوبُ الأخرى عليها؛ كما يعني، بطريق غير مباشـر، أنّ مـن حـقّ الشّعب الجزائريّ أن ينال هذا الاستقلال الذي تنالـه الأمـم الأخـرى، لأنّـه حـقّ طبيعـيّ في الحياة. وهو تبكيت للاستعمار الفرنسيّ وتذكيرٌ له من طرْفٍ خفـيّ بمصيره المحتوم في الجزائر، وأنّ عليه أن يفكّر فيما ليس منه بدّ. وأنّ التّاريخ حـين يـدور سيغيّر في دورته كلّ شيء!

2.أنّه يصطنع الدّهاء السّياسيّ، والحُنكة الفكريّة، في هذه الكلمة، علـى نحـو يجعله يستطيع تبليغ رسالته دون أن يتعرّض للإزعاج والتّضييق من الفرنسيّين، مـن أجل ما قال؛ فهو كأنّه يفترض وهو، في الحقيقة، يقرّر؛ وهو كأنّه يشـكّك وهو، في الحقيقة، يتنبّأ بنبأٍ يقين؛ وهو كأنّه يصف مجرّد وضْـع قـائم في العـالم، ولكنّـه، في الحقيقة، يُسقطه على الجزائر ويقيس حالَها عليه. وذلك كلّه ينمّ عن دهـاء خـارق، وذكاء فائق.

3.يستخلص من التّـاريخ عِـبَراً ونتـائجَ مـن أهمّـها أنّ الحالـة الحـاضرة الـتي تعيشها الجزائر، أي وقوعها تحت سلطان الإستعمار الفرنسيّ منـذ سـنة 1830، لن

تدوم إلى الأبد، وأنّ دوام تلك الحال، من المحال؛ وأنّ الأحداث التي اعتورَتْها، والخطوب التي تأوَّبَتْها في ماضيها، أفضت إلى تغيير دول وراء دول، وأدّت إلى تبدّل أطوار بعد أطوار؛ فما يمنع الجزائرَ من أن تتعرّض هي أيضاً، في المستقبل، لتغيير سعيدٍ يقع لها؟ «فكما تقلّبت الجزائر مع التّاريخ، فمن الممكن أن تزداد تقلّباً مع التّاريخ». وليس التّقلّب المستقبليّ هنا إلاّ القيامَ بحركةِ مقاومةٍ من أجل الانفصال عن فرنسا. ذلك هو سياق الحديث، ونسق الكلام، في مقالته، ولا شيء سواه ممّا يُقرأ ما بين السّطور؛ بل ممّا يقرأ من الكلمات الصريحة، باللّغة الفصيحة.

4.أنّ الاستعمار العالميّ سيندحر حتماً، وحين يندحر هذا الاستعمار، سيندحر معه الاستعمار الفرنسيّ. وستعود الأمور إلى أهليها، والمياه إلى مجاريها.

5.إنّه من الممكن، والممكن هنا وجوب؛ لأنّ الشيخ يصطنع لغة رقيقة عالية الدّلالات والإشارات، فلغته هنا ملطّفة دبلوماسية. والممكن في الدبلوماسيّة هو الشّيء الحقيقيُّ الفعلِ، والواجبُ القيامِ. وإذن، فمن «الممكن أن يأتيَ يوم تبلغ فيه الجزائرُ درجة عالية من الرّقيّ المادّيّ والفكريّ»، أي حين تكون مؤهّلة لنيل استقلالها، وتسيير شؤونها بنفسها؛ وذلك ما سيكون من أمرها بعد أقلّ من عِقدين من كتابة هذا المقال المطروح للتّحليل.

6.يذكّر ابن باديس الفرنسيّين بما فعل الاستعمار الإنجليزي، قبلهم، بمنْحه الاستقلالَ لأستراليا، وكندا وغيرهما... فكأنّ ذلك كان تذكيراً لطيفاً بحتميّة أيلولة الأشياء هنا إلى ما آلت إليه هناك، وإلى أنّ استقلال الجزائر عن فرنسا أمرٌ آتٍ لا ريب فيه...

وإذا كنّا وجدنا ابن باديس يقرّر من بعد ذلك بأنّ الجزائر ستصبح «مستقلّة استقلالاً واسعاً، تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحرّ على الحرّ»؛[14] ولم يذكر الاستقلال

---

[14] م.س.

التّامّ؛ فلم يكن ذلك منه، في أغلب الظّنّ، إلاّ تقيّة؛ لأنّه لـو ذكـر الاسـتقلال التّـامّ، يومئذ، لكان أوغر صدور الفرنسيّين وغضبَهم عليه؛ فتكون العواقـب وخيمـة؛ ولكنّـه بالمقابل يقول: اعتماد فرنسا على الجزائر «اعتماد الحرّ على الحرّ». وليس بعد هـذا من بيان أوضح بالمطالبة بالاستقلال؛ ولكن عوض أن يصوغـه الشـيّخ في لغـة مباشرة ومبتذلة؛ جاء بـه في افتراضـات ممكنـة الوقـوع، وفي أمثلـة مـن الافتراضـات وقعت وتحقّقت فعلاً؛ فتحوّل الافتراضاتِ إلى حقائقَ واقعة.

وأيّا ما يكن الشّأن، فإنّ تعويل «الحرّ، على الحرّ» يعني علاقة متساويةً بـين الحُرّيْن -السّيّدين- الإثنين.

ج. صورة المقاومة الوطنيّة

في نصّ «شعب الجزائر مسلم».

يجب أن ننبّه، هنا، إلى شيء وقد دُفعنا إلى تحليل أبيـات مـن نـصّ شعريّ كان ابن باديس قاله عام سبعة وثلاثين وتسعمائة وألف؛ وهو أنّ أصل هـذه القصيـدة لم ينشر أوّل الأمر في مجلّة «الشّهاب» تحت أيّ عنـوان؛ غـير أنّ النّـاس فيمـا بعدُ تعارفوا على عنونة هذه القصيدة الطّويلة بأن يقدّموا مقطّعة من أبياتها تحت عنـوان: «شعب الجزائر مسلم»، وهو صدرُ أحدِ أبياتها.

وعلى الرّغم من أنّ هذا النّصّ شـعريّ، وموضـوع هـذا الفصـل الكتابـة، فإنّنـا نطبّق هنـا نظريّـة زوال الحـدود بـين الشّعر والنّـثر لنتحـدّث عـن الكتابـة الأدبيّـة

ويضاف إلى ذلك أنّ هذه الفقرة الطّويلة من هذا الفصل مخصّصة لابن باديس فارتأينا أن ننتهيَ من كتاباته المقاومة كلّها، شعراً ونثراً، هنا.

ذلك، ولقد كانت الاحتفالات بالمولد النّبويّ في الجزائر، على عهد الاستعمار الفرنسيّ، ربما تفوق الاحتفالات التي تقام أثناء عهد الاستقلال؛ فكانت كلّ هيئة إسلاميّة، وكلّ مسجد، وكلّ زاوية، وكلّ بيت في ريف أو بادية، يحتفل بطريقته الخاصّة، وبما يتيسّر له من الاحتفاء والابتهال. وكان النّاس لا ينامون ليلة المولد المحمّديّ حتّى الفجر؛ وذلك حتّى في البوادي القاحلة، والأرجاء النّائيَة...

وفي خضمّ الاحتفالات التي وقعت بالمولد النّبويّ في قسنطينة، في عام 1356 للهجرة (يونيو 1937) احتفلت جمعيّة التّربية والتّعليم الإسلاميّة بقسنطينة، وحضرتها الكشّافة [الجزائريّة] الإسلاميّة؛ فألقى ابن باديس قصيدة بائيّة في المحتفلين، ووجّهها إلى الشّباب بخاصّة مطلعُها:

حُيِّيتَ يا جَمْعَ الأدَبْ ورَقِيتَ سامِيَةَ الرُّتَبْ

وهي طويلة تقع في أربعين بيتاً. وهي التي أمست أبياتٌ منها أنشودةً في المدارس الجزائريّة؛ فهي أكثر الأشعار محفوظيّةً بعد النّشيد الوطنيّ «قسماً»، على الإطلاق في الجزائر. ولمّا كانت هذه القصيدة طويلةً، وتحليلها كلّها قد يخرج هذه الدّراسة عن مساحتها المحدّدة لها سلفاً؛ ارتأينا أن نعرض بالتّحليل لطائفة من أبياتها الأشهر؛ على أساس أنّ ذلك نصٌّ أدبيّ يندرج في صميم الأدب الوطنيّ المقاوم للاستعمار الفرنسيّ.

لقد أغرى عبد الحميد بن باديس الشّبابَ الجزائريّ باسترجاع حقّ الجزائر المستلب بكلّ الوسائل المكنة، أي بالاستقلال عن فرنسا، صراحة:

حتّى يعودَ لقومه من عِزِّهم ما قد ذَهَبْ

ويرى الجزائرَ رجّعتْ حقَّ الحياةِ الْمُسْتَلَبْ

والذي يعنينا من أفكار هذه القصيدة التي أصبحت فيما بعدُ أكثر الأشعار محفوظيّةً في المدارس الجزائريّة في عهد الاستقلال، كما ذكرنا منذ قليل؛ وذلك بعد أن قُرّرت على التّلاميذ الجزائريّين الذين يبلغُ عددُهم اليوم قريباً من عشرة ملايين، ليس وصْفَ الشّعبِ الجزائريّ وأنّه عربيّ مسلم فحسب، وأنّه لم يَحِدْ عن أصله قطّ فحسب؛ ولكن البرنامج العمليّ الذي ضُمِّنَها، ومن أهمّ مبادئه:

المبدأ الأوّل: التّسلّح بكلّ القيم، المادّيّة والمعنويّة، وحتّى الرّوحيّة، لمجابهة الحياة بكلّ مصاعبها الكأداء، ومتاعبها الشّنعاء:

«خُذْ للحياة سِلاحَها»

فاتّخاذ السّلاح لمجابهة تكاليفِ الحياة ومَعَاسرِها ومخاطرها يقتضي التّحلّي بالقوّة، كما يقتضي طلبَ العلم ولو ببلاد الصّين، كما يقتضي الحرص على العمل الذي يحضّ اللّهُ عليه ويدعو إليه[15]. ولْنقارنْ هنا بين هذا المبدأ، مثلاً، ومبدأ الحياء الذي كان ركّز عليه جمال الدّين الأفغانيّ في مناوأته الدّهريّين الهنود[16]...

المبدأ الثاني: التّحلّي بالشّجاعة بكلّ معانيها وأضرُبها لمجابهة الحياة العامّة. ونحن نعلم أنّ الشّجاعة ليست التّهوّرَ والانتحار، والإقدام الأعمى على الفعل أو على القول فحسب؛ ولكنّها تَحيُّنُ الفرصة الملائمة لاغتنام الهدف، وانتهاز اللّحظة المناسبة لاقتطاف الثمَر، وبلوغ الغاية.

المبدأ الثالث:

«وخُضِ الخطوبَ ولا تهَبْ»

---

15 قال اللّه تعالى: «وقل اعمَلوا فسيرى اللّهُ عملَكم ورسولُه والمؤمنون»، سورة التّوبة، الآية 105.

16 ينظر جمال الدّين الأفغاني، إبطال مذهب الدّهريّين وبيان مفاسدهم، ترجمة محمّد عبده، ص. 71 وما بعدها؛ محمّد البهيّ، م.م.س.، ص. 64.

ونلاحظ أنّ الحثّ على التّسلّح بقيمة الشّجاعة يتّخذ سيرة الأمر المؤكّدِ مرّتين اِثنتين: وذلك ترسيخاً للفكرة، وإصراراً عليها؛ فخَوْض الخُطوب (وخُض الخطوب)، وملاقاةُ الأهوال، ومكابدة الشّدائد، هو سلوك في نفسه قيمةٌ من قيم الشّجاعة؛ ولكنّه أضاف إليه عدم التّردّد أو الخوف أو التّهيّب لدى الإقدام على فعل شيء يكون ذا قيمة في الحياة، ويكون فيه منافعُ للنّاس.

المبدأ الرّابع والأخير: التّعويل على عنصر الشّباب في إنجاز برنامج القضيّة الإصلاحيّة كما كان يراها ابن باديس:

يا نَشْءُ أنتَ رجاؤُنا وبك الصّباحُ قد اقترَبْ

إذ ليس هناك من مشروعِ نهضةٍ، ولا رسالة حضاريّة راقية، ولا حركة إصلاح، ولا برنامج تجديد للأمّة وإصلاح أمرها، يمكن أن يرى النّور إذا لم تكن وراءه هِمّةُ الشّباب العُتاة، وطموحُ الفتيان الأشدّاء. من أجل ذلك نُلفي ابن باديس يجعل من الشّباب الأداةَ التي يمكن أن تنجز ما كان يريد من أفكار. ولْنلاحظْ أنّ ابن باديس يصطنع اللّغة الانزياحيّة في شعره فيرمي إلى بعيد دون أن يجلب على نفسه المتاعب والهموم من السّلطات الاستعماريّة. وإلاّ فأيّ شيءٍ هذا «الصّباح» المُشرق الجميل الذي اقترب ظهوره حتّى أظلّ، وآن أوانُه حتّى أنى؛ إن لم يكن نيلَ الشّعبِ الجزائريّ الحرّيّةَ والاستقلال، أي استرجاع الحقّ المستلَب، والاستقلال المغتصَب، منذ أشأم سنة في تاريخ الجزائر الحديث، وهي سنة ثلاثين وثمانمائة وألف؟

ولولا أن هذه الدّراسة عامّة، لَتوقّفنا توقّفاً أطولَ لدى أفكار هذه القصيدة العجيبة التي تلخّص أفكار ابن باديس في الإصلاح، وفي الحياة، وفي الوطنيّة، وتكشف عن ذكاء متألّق في مقاومة الاستعمار الفرنسيّ الشّرس بالكلمة النّافعة، فكأنّ كلّ لفظةٍ من هذه القصيدة كانت بمثابة قَطرة الغيث التي تهتن فتربو لها الأرضُ

الْمَوَاتُ فهتزّ، وتُنبت ما كان في بطنها كامناً فيبدو ويخضرّ؛ ومن ثمّ تعبّر، على نحو عامّ، عن فلسفة ابن باديس في تصوّر النّهضة، وتمثّل التّجديد، وتحسّس الإصلاح، والنّظر إلى مستقبل الجزائر مع فرنسا.

من أجل ذلك عمد ابن باديس، عن طريق جمعيّة العلماء، إلى تأسيس مدارس عربيّة لم يزل تعدادها يتكاثر بعد موته، بفضل أصحابه إلى أن بلغ عام خمسة وخمسين وتسعمائة وألف أربعمائة مدرسةٍ عصريّة لتدريس العربيّة، ومبادئ الفقه الإسلاميّ والرّياضيّات، والجغرافيا، والتّاريخ. وبلغ عدد معلّميها في السّنة نفسِها قريباً من سبعمائة معلّمٍ، على حين بلغ عدد تلامذتها زهاء خُمسة وسبعين ألف تلميذ[17]. ولولا فكرة إنشاء المدارس العربيّة لكانت الجزائر اليوم فرنسيّة اللّسان إطلاقاً، ولَمَا كانت فيها هذه البقيّة من العربيّة التي تُشعّ على الجزائر بالنّور فتجنّبها ظلام العُجْمة الغربيّة المتربّصة؛ ولَخِلْنا النّاس يؤبّنون موتاهم ويترحّمون عليهم باللّغة الفرنسيّة!

ولقد ظلّ ابن باديس يحلم بإنشاء كلّيّة للتّعليم العالي في الجزائر باللّغة العربيّة[18]. كما وضع ابن باديس مشروعاً إصلاحيّاً وطنيّاً ظلّ يبشّر به في محاضراته العلميّة، ومقالاته الصّحفيّة، وحتّى في كتاباته الشّعريّة القليلة أيضاً. وكلّ ذلك للتّوكيد على خصوصيّة الشّخصيّة الوطنيّة، واختلافها البعيد عن الشّخصيّة الفرنسيّة.

وربما تكون قصيدتُه الشّهيرةُ التي أومأنا إليها آنفاً، بالإضافة إلى ما ذكرنا لدى التّعرّض لمقالتيْه، من أحسن ما قد يمثّل فلسفتَه الإصلاحيّة، ورؤيته الوطنيّة، ونظرتَه إلى القضايا الكبرى في الجزائر بوجه عامّ. ولذلك ارتأينا أن نختار من هذه

---

17 محمّد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص.271، (الإحالة الأولى).
18 الإبراهيمي، البصائر،

القصيدة/الأنشودة أبياتاً ثمّ نحاول تحليلها؛ لأنّنا نعتقد أنّـها تمثّـل حقّاً رؤيتـه إلى الأشياء، ونظرته إلى القيم، وأنّــها إحـدى أروع صـور المقاومـة الوطنيّـة بالكلمـة؛ ولا سيّما أنّها قيلت ثلاثَ سنواتٍ ونصفٍ[19] فقط قبـل أن يتوفّـاه اللّـه. ونـودّ أن نجـتزئ باختيار أبيات منها، وهي:

1.شعبُ الجزائر مسلمٌ وإلى العُروبة ينتسِـــــبْ

2.مَن قال: حاد عن أصله أو قال: مات؛ فقد كـذَبْ

3.من رام إدماجاً لــــه رام المُحالَ من الطّلــبْ

4.يا نشْءُ أنتَ رجاؤُنا وبك الصّباحُ قد اقــتربْ

5.خذْ للحياة سلاحَها وخُضِ الخُطوبَ ولا تهَبْ

6.فإذا هلكْتُ فصَيْحتي: تحيَى الجزائرُ والــعَرَبْ

ذلـك، وإنّ القيـم الوطنيّـة والدّينيّـة والنّضاليّـة تتشابك وتتخـامر، وتتداخـل وتتعانق، في هذه القصيدة، إمّا متشاكلةً، وإمّـا متقابلـة؛ وذلـك علـى سبيل الـتّزاوج والتّلازم فيما بينهـا. وعلى أنّ هـذا الـتّزاوج كثيراً مـا ينشطر إلى قيـم أخـرى داخـل الثنائيّات، فيكون لمعانيها أوضحَ، ولعُمقها أبعد. وفيما يلي تحليل لهذه الأبيات.

1.شعبُ الجزائر مسلمٌ وإلى العروبة ينتسبْ

يقوم هذا البيت العجيـب علـى ثنائيّـة متلازمـة، وقـد وردت كلّـها في سياق التّشاكل. فنجد ثنائيّة الشّعب الجزائريّ المسلم، والانتماء إلى العروبة. وهاتان قيمتـان متشاكلتان متلازمتـان. ذلـك بـأنّ الـدّلالات الكامنـة في الشّعب الجزائـريّ المسلم لا تتعارض ولا تتباين مع انتسابه إلى العروبة؛ من أجل ذلك يمكن أن تُقرأ هذه الثنائيّة في إطار التّشاكل المتلازم. ونلاحظ أنّ العنصر الأوّل من الثنائيّة ينهض على ثلاثِ قيمٍ تندمج فتشكّل كتلةً واحدة من القيم: الشّـعب الـذي يمثّـل قيمـة بشريّة، والجزائر

[19] تراجع البصائر (الأولى)، ع. 71، يوم الجمعة 18 يونيو 1937.

التي تمثل قيمة تاريخيّة وحضاريّة وجغرافيّة، والمسلم الذي يمثل قيمة عَقَدِيّةً وروحيّة. غير أنّ تَيْنِكَ القيمتين لا تمتنعان من الوقوع تحت دائرة الانشطار، فتنشطران إلى أربعِ قيم هي:

أ.الشّعب من حيث هو مجموعةٌ بشريّة ذات كيان خاصّ يجعل منها شعباً؛

ب.الجزائر من حيث هي وطن وجغرافيا وتاريخ؛

ج.الإسلام من حيث هو دين وعقيدة وقيمة روحيّة عظيمة؛

د.العروبة من حيث هي انتماء قوميّ وحضاريّ ولغويّ.

فهذا البيت من أبلغ الأبيات في الشّعر العربيّ على وجه الإطلاق، كما رأينا من خلال مشمولاته الدّلاليّة؛ أرأيت أنّنا نلفي عدداً قليلاً من الألفاظ لا يجاوز ستّةً، مُوقَراً بالعدد الكثير من القيم والأفكار؛ بحيث يستقلّ كلّ لفظ بحمولة دلاليّة قائمة بذاتها ما عدا لفظ «وإلى» الذي بحكم حرْفيّته لا يرقى إلى مستوى اللّفظ المستقلّ بنفسه عن غيره. وعلى أنّ هذه القيمَ لسْنَ مجرّد دلالاتٍ عابرة، ولا معانٍ عارضة؛ ولكنّهنّ قيمٌ شريفة عظيمة، وقائمة ثابتة؟ وإلاّ فما القِيمُ التي يجوز لها أن تعلُوَ على قيمة الشّعب الجزائريّ، بوطنه الجزائرِ، ودينِه الإسلامِ، وانتمائه العُرُوبيّ، وتاريخه الحافل بالأمجاد؟

وفي البيت توصيفٌ للشّعب يقضي بإبعاد كلّ صفة أخراةٍ ما عدا ما ذُكِرَ. وفيه تقديمٌ يتسارع بالذهن إلى تجسيد انتماء الشّعب الجزائريّ؛ وذلك بتسبيق موضوعِ الانتماء (العروبة) على الانتماء نفسه.

وتنتشر الدّلالة، حسب إجرائنا التّحليليّ الذي استحدثناه لقراءة النّصوص وتحليلها،[20] في هذه السّمات اللّفظيّة أكثر ممّا تنحصر، لعموميّتها واتّصالها بالوضع العامّ للوطن.

•شعب: تحتوي هذه السِّمَة اللّفظيّة على معانٍ انتشاريّةٍ؛ لأنّ أيَّ شعبٍ على الأرض لا بدّ له من أرضٍ عليها يُقيم، فيَقَرُّ فيها ولا يَرِيم. بالإضافة إلى أنّ هذه السّمة تعني، في دلالتها التّقليديّة المتواضَعِ عليها، عدداً كبيراً من الخلْق يجمعهم أمرٌ واحدٌ وهو الانتماء إلى الجزائر. ولهؤلاء القاطنين أصوات وأجسام، وحركات وتنقّلات؛ وكلّ أولئك معانٍ يَجعلْنَ من سِمَة «شعب» منتشرةً في دلالتها. كما تجعل هذه السّمة في حدّ ذاتها مركّبةً بحيث تغدو بصريّة وسمعيّة معاً.

•الجزائر: ولا يقال إلاّ نحو ذلك في هذه السّمة اللّفظيّة المركّبةِ الدّلالةِ؛ فبمجرّد نطْق هذا اللّفظ يسرَح الذهن في آفاق ممتدّة في كلّ الْمُتَّجَهات، كلّ مُتَّجَه يُحيل على قيمة من القيم، وشأن من الشّؤون. فالجزائر من حيث هي شعبٌ (أناس متحضّرون يتقاطنون ويتعايشون داخل حيز جغرافيّ مقدّس الحدود، معروف التّاريخ: لهم كرامة ينضَحون عنها، ولهم خيلاء وطنيّة يتميّزون بها؛ فيتّخذونها قيمة عظيمةً يحرصون على التّمسّك بها)؛ والجزائر من حيث هي وطنٌ (جغرافيا تشتمل على سهول وجبال، وأنهار ووديان، ورَوابٍ وهضاب، وشواطئَ وصحارٍ).

•مسلم: الإسلام انتماء روحيّ وعَقَدِيٌّ وحضاريّ، وإنسانيّ. فالشّعب المسلم، انطلاقاً من سموّ المبادئ الإسلاميّة السّمحة التي يؤمن بها، يعني أنّه ينضوي تحت معنى قوله تعالى: «كنتم خيرَ أمّةٍ أخرِجَتْ للنّاس: تأمرون بالمعروف، وتَنْهَون عن المنكر، وتُؤْمنون باللّه».[21]

---

[20] ينظر كتابنا قراءة النّصّ: بين محدوديّة الإستعمال، ولا نهائيّة التّأويل، ص. 301-303، نشر كتاب الرّياض، الرّياض، 1997.
[21] من الآية 110 من سورة آل عمران.

ونعتقد أنّ سمة «مسلم» موظَّفة، هنا، توظيفاً سياسيّاً أكثر منها توظيفاً دينيّاً؛ فالشّاعر بصدد تعميق الفرْق بين الشّعب المستعمَر، والدّولة المستعمِرة؛ وأنّ الفرْق بينهما يمتدّ إلى أكثرَ من مجال؛ ممّا يجعل من انفصال الجزائر عن فرنسا، واستقلالها بنفسها، أمراً حتميّاً، وشأناً مقضيّاً.

ومعانِي سمةِ «مسلم» منتشرةٌ لا منحصرة؛ لأنّ المسلم يصلّي فيرفع صوته بالتّكبير، ويؤذّن فيرفع صوته بالأذان، ويقرأ القرآن فيسمعه القريب والبعيد، ويذكر اللّه قياماً وقعوداً فيُعرَف بذلك. فكلّ المعاني المتولّدة عن هذه السّمة منتشرة.

*وإلى العروبة ينتسب: العروبة كيان حضاريّ قوميّ لغويّ؛ فهو سمة ذات معنى انتشاريّ؛ وذلك على أساس أنّ العروبة تعني جيل العرب، والعرب لغة كبيرة، وحضارة عريقة، وتاريخ طويل، ومجد أثيل، وفتح مبين، ومُلْك مَكين. وأمّا الانتساب فهو ذو معنىً ينطلق التّصوّر الذهنيّ به من الخارج نحو الدّاخل على نقيض المعاني السّابقة، فهو معنىً منحصرٌ؛ ممّا يجعله متبايناً مع سمة العروبة. غير أنّ في الانتساب إلى كيان، أو إلى قيمة، لا يكون سرّاً مكنوناً، ولا شأناً مكتوماً؛ بل يقع الاعتزاز بهذا الانتساب بالصّوت والكلمة والفعل؛ فسمة «ينتسب» تعود لتصبّ في المعاني الانتشاريّة ممّا يجعلها تتشاكل مع صِنوتها «العروبة» من وجهة؛ وتتشاكل مع باقي المعاني السّابقة للسّمات التي أتينا عليها تحليلاً، في هذه الفقرة، من وجهة أخرى. ويعني ذلك أنّ كلّ السّمات اللّفظيّة لهذا البيت متشاكلة في معانيها على سبيل الاِنتشار.

وتمثل في سمات هذا البيت سيمِيائيّات زمنيّة تتجسّد في عامّتها؛ فقول قائل: «شعب» إنّما يعني أنّ ذلك الشّعب لم يغتدِ شعباً إلاّ بعد مئات السّنين، بل ربما آلاف السّنين؛ فلا يكون أيّ شعب إلاّ والسِّيمَاءُ الزّمنيّةُ ماثلة فيه، حائمة من حوله. وتحديد زمن دلالة «شعب» (شعب الجزائر) يخضع لضوابط علميّة بحيث من

الصّعب معرفة البدايات الأولى للحياة البشريّة في الجزائر والأبحاث لا تبرح جارية؛ غير أنّ من المتّفق عليه أنّ ذلك يعود إلى آلاف السّنين. فلفظ شعب يحمل إذن في دلالته الزّمنيّة عشرات من القرون الغابرة.

وأمّا الزّمن الكامن في سمة «الجزائر» فهو أقدم حتماً وأطول مدىً من الزّمن الماثل في سمة «شعب». وما ذلك إلاّ لأنّ الأرض تسبق الإنسان إلى الوجود.

على حين أنّ سمة «مسلم» تعني زهاء أربعة عشر قرناً هي عمر الإسلام في الجزائر التي اعتنق شعبها الإسلام وراح ينافح عنه ففتح الأندلس، وبشّر بالإسلام في إفريقيا، وأقام دولة الفاطميّين بمصر؛ كما يعود شرف تأسيس أعظم دولة في الغرب الإسلاميّ إطلاقاً (الأندلس، والمغرب، والجزائر، وتونس، وليبيا، وتأسيس أسطول يتكوّن من أربعمائة بارجة يجوب البحر الأبيض المتوسط من برقة إلى طنجة؛ وهي سيرة لم تتحقّق في التّاريخ لا من قبل الموحّدين الجزائريّين، ولا من بعدهم) إلى الدّولة الموحّديّة التي حكمتها أسرة جزائريّة تنحدر من ضواحي مدينة ندرومة ...

وأمّا الزّمن الكامن في سمة العروبة فهو طويل عريق، ويعود إلى الأزمنة الموغلة في القِدم؛ وقد يبلغ أربعين قرناً أو أكثر. وأمّا زمن الاِنتساب فمرتبط بتاريخ الانتساب إلى العروبة حيث يمكن ربْط ذلك بعهد انتشار الإسلام في الجزائر.

وكان يمكن أن نحلّل سمات هذا البيت من الوجهة الحيزيّة فنلتمس الحيز في الشّعب، والجزائر، والعروبة... ولكنّنا عفَفْنا عن تناوُل ذلك خشيةَ التّطويل...

2.مَن قال: حاد عن أصله أو قال: مات، فقد كذَب!

لم يزل الشّعب الجزائريّ، منذ الأعصار الموغلة في القِدم، يتعرّض للمُغرِيات التي تحاول إزاحته عن أرومته، والحَيْدُودة به عن أصله الأمازيغيّ العربيّ، وتمزيق وحدته التي لا تنفصم، وتفتيت قوّته التي لا تضعف؛ فلقد توالت المحاولاتُ تلو المحاولات، عبر فترات من الزّمن طويلة، من أجل رَوْمَنَتِه، أو وَنْدَلَتِه، أو أسْبَنَتِه،

أو أتْرَكَتِه، أو فرْنَسَتِه[22]... ثمّ من أجل تمزيق وحدته المقدّسة التي لا تساوَم ولا يُتفاوَضُ فيها، تحت النّعرات الجهويّة المتخلّفة... ولكنّ هذا الشّعب العظيم ظلّ صامداً قائماً، وشامخاً عَنوداً؛ متمسّكاً بأصله، عاضّاً بالنّواجذ على سلامة دينه، ووحدة وطنه.

وكان ابن باديس يومئ في هذا البيت إلى ما كان يثار في الأعوام الثلاثين من القرن العشرين، في الخطاب السّياسيّ الفرنسيّ الاستعماريّ، من كلام حول ضرورة إدماج الشّعب الجزائريّ في الكيان الفرنسيّ إدماجاً كاملاً. ولابن باديس حول هذه القضيّة أبياتٌ شعريّة، سينيّة، أخرى تتحدّث عن هذه القضيّة الخطيرة التي كان يراد منها مسْخُ الشّعب الجزائريّ وتذويبُ كيانِه العربيّ الإسلاميّ الأمازيغيّ نهائيّاً...

ويقوم هذا البيت أيضاً على معالجة ثنائيّة سياسيّة وحضاريّة تمثل في:

1.نفي حَيْدُودة الشّعب الجزائريّ عن أصله (والأصل هنا أمازيغي عربيّ)؛

2.نفي الموت الوارد هنا بمعنى الخمول والخنوع والقبول بذلّ الاستعمار عن الشّعب الجزائريّ؛

3.نفي الصّفتين الاثنتين معاً عن الشّعب الجزائريّ بتكذيب الأقوال التي كان الخطاب الإعلاميّ الاستعماريّ لا يزال يروّجها. فكاذبٌ مَن زعم أنّ الشّعب الجزائريّ حاد عن أصله؛ ومائِنٌ من زعم أنّه مات وانتهى أمرُه، واندثر أثرُه، وانقطع من التّاريخ دورُه.

ونجد ابن باديس هنا ينفي شيئاً ليُثبت شيئاً آخر، ليثبت قيماً خصوصاً؛ ذلك بأنّه ينشأ عن الحَيْدُودة عن الأصل، ثبوتُ هذا الأصل؛ كما ينشأ عن نفي الموت، إثباتٌ للحياة.

---

[22] أي من أجل جعْله رومانيّاً، أو وزداليّاً، أو إسبانيّاً، أو تركيّاً، أو فرنسيّاً.

وإذا كانت الثنائيّتان الأماميّتان، أو الواردتان في نسج النّصّ، تتشاكلان بحكم أنّ الحَيْدُودَة عن الأصل ضَرْبٌ من الموت، مثلها مثل الموت الصُّراح الذي يأتي ذكْرُه في المصراع الثاني؛ فإنّ هناك ثنائيّةً خلفيّة أخراةً تنشأ عن الثنائيّة الأماميّة وهي نتيجة النّفي كما رأينا منذ حين؛ والنّتيجة هي: الأصالة والحياة. ولعلّ هذه الثنائيّة أن تمثّل، هي أيضاً، تشاكلاً فيما بينها لتلازُمِ المعنيين الاِثنين وتقارُبهما. فالتّشاكل هنا يشمل اللّوحة الأماميّة كما يشمل اللّوحة الخلفيّة.

ونلاحظ أنّ هذا البيت يشتمل هو أيضاً على أربعةِ معانٍ على الأقلّ، وهي:

أ. الذي قال، أو قال (والقول هنا مجرّد باطل)؛

ب. الحيدودة عن الأصل (والاِدّعاءُ غير وارد)؛

ج. الموت (الادّعاء بموت الشّعب الجزائريّ، غير وارد أيضاً)؛

د. الكذب (الحقيقة الوحيدة في هذه القيم الأربع هي الكذب).

والمعنى الأخير يأتي نفياً قاطعاً لسلسلة المعاني السّابقة؛ إذ توجَدُ ثلاثة ادّعاءات (أو ادّعاءانِ اِثنان على الأقلّ إذا أخرجْنا القول من الاعتبار)، كما يوجَدُ تكذيبُها. فالكلام من هذا المنظور يمثُل تحت شكل تباين القيم. ولَمّا كان المعنى الأخير بمثابة حُكْمٍ مقرّر فإنّ الكلامَ كلّه بقيَمه المغلوطة يغتدي لاغياً باطلاً.

وإذا كان البيت الأوّل يقوم على تجسيد كيان الشّعب الجزائريّ وتثبيت هويّته؛ فإنّ هذا البيت يأتي مناقضاً له لينفيَ، كذباً على كلّ حال، هذا الكيان؛ فالبيتان من هذا المنظور من القراءة متباينان، لا متشاكلان. والتباين هنا ينهض بوظيفة سياسيّة وحضاريّة عظيمة؛ حيث إنّ النّفي يُفضي آخرَ الأمر إلى إثبات.

ثمّ إذا كان البيت الأوّل معروفةً شخصيّتُه بصريح القول؛ وهي الشّعب الجزائريّ بكلّ كيانه المركّب من الجغرافيا والتّاريخ والدّين واللّغة والأرومة، فإنّ البيت الثاني يشتمل على شخصيّة مناوئة ولكنّها لا تُذكَر تصريحاً، وإنّما تذكر

تلميحاً. وإلاّ فمَن هذا الذي قال، أو قال؟ ومن هـذا الـذي كـذب فيما ادّعـى وقـال؟ والتّلميح هنا أفضلُ، ألف مرّة، من التّصريح؛ لأنّ الشّاعر لـو جـاء يعـدّد هنـا الذيـن كانوا إمّا يقولون، وإمّا يقولون...، من رجال السّياسـة الفرنسـيّين، ومـن الإعلاميّين الاسـتعماريّين، ومـن بعـض صغـر النّفـوس، وضعـاف الإيمـان بعظمـة الوطـن مـن الجزائريّـين: لطـال الكـلام، ولاسـتحال الشّـعر إلى نـثر، ولاســتحال التّكثيـف إلى تسطيح...

ونجد في هذا البيت إيقاعاً داخليّاً يقوم على تَرداد أفعال ماضيـة تمضـي على إيقاع متجانس أو متقارب: قالَ؛ حادَ؛ قالَ؛ ماتَ؛ كذبْ.

وإذا كان المونيم الأخير (كذب) لا نجـده يتـلاءم إيقاعيّـاً، كـلّ التّـلاؤم، مع العناصر اللّفظيّة التي تمّ بواسـطتها تركيـب هـذه البنيـة الإيقاعيّـة الدّاخليّـة؛ فـلأنّ وظيفته ليست أن يتلاءم مع الإيقاع الدّاخليّ، ولكنْ مع الإيقاع الخارجيّ للنّصّ.

3.أو رامَ إدْماجاً له　　　　رامَ الْمُحَالَ من الطَّلبْ

يُعدّ هذا البيتُ امتداداً لِمَا ورد في البيت السّابق؛ كما يمثّـل خلاصة له؛ فـإذا كان البيت السّابق يتحدّث ضمناً عمّا كان يعرف في الجزائـر بــ «الإدمـاج» بـالتّلميح إلى تكذيب الذين كانوا لا يزالون يزعمون أنّ الشّعب الجزائـريّ حـادَ عـن أصلـه، أو تنكّر لقِيمه؛ فإنّه هنا يتحدّث تصريحاً عـن هـذا الإدمـاج الـذي لا يعـني شيئاً غـير المسْخ والفسخ، والتّلاشي والذوَبان.

ونلاحظ أنّ الثنائيّة التي ينـهض عليـها هـذا البيـت ليسـت متشـاكلة بحكـم الموقف؛ فالعنصر الأوّل يناقض العنصر الآخِر؛ فرَوْم الإدماج للشّعب الجزائريّ يباينه رَوْم الطّلب المحال مـن الأمـر. فالقيمتـان الاثنتـان متناقضتـان. غـير أنّ هـذا البيـت بجَذاميره يتشاكل مع كلٍّ من صِنويْهِ الأوّل والثاني حيث يركض معنـاه فيما يركـض معناهما نفْياً وإثباتاً.

4.يا نشْءُ أنت رجاؤنا وبك الصّباحُ قد اقتربْ

ولقد يكون هذا البيتُ من الشّعر السّياسيّ الجزائـريّ المبكّـر في اصطنـاع الرّمـز من وجهة[23]، واصطناع المجاز اللّغويّ من وجهــة أخـراة. ونجـد الشّـاعر ينتقـل مـن تقرير قضيّة مرفوضة من أساسها وهي مسألة الإدمـاج، والـتّربّص للشّعب الجزائـريّ بكلّ ألوان الشّرور والمؤامرات السّياسيّة الأخرى، إلى مخاطبة الشّباب الجزائريّ لكـي ينهض ويثور، ويقوَى ولا يخور؛ فـهو وحْـدَه الرّجـاءُ المنتظَر، وهـو وحـده الصّباح المقترَب.

ويمثـُل الرّمز، في الحقيقة، في المجاز اللّغويّ نفسِه؛ ذلك بـأنّ الصّباح الـذي هو، هنا، مُنزاحٌ عن مكانته اللّغويّة المألوفة الدّالّة علـى بدايـة النّـهار بمـا فيـها مـن ظهور الضّياء، وطلوع النّهار، زيَّحَه الشّـاعر إلى دلالـة جديـدةٍ تمثّـل بدايـة الأمـل، وتجسّد مطالع النّور. فلفظ «الصّباح» هنا يجسّد قمّة الشّعريّة السّياسـيّة. فالصّبـاح في التّعبير العاديّ لا يعني إلاّ نفسه؛ لكنّه هنا مُماثِل (إقونة) لقيمة خارجيّة لَمّا تُنْجَـزْ، وسِمَةٌ خفيّة لَمَّا تَظهرْ. غير أنّ ظهورها مرتقَب، وتجلّيها مقتَرَب.

وتوجَد جماليّة شعريّة أخراةٌ يستبدّ بها هذا البيت، وهي الخروج مـن الرّتابـة الخبريّة التي كان يمضي عليها إلى إنشائيّة قلقـة متحرّكـة، ونعـني بـها هـذا النّـداء الذي أجرِيَ في أداة النّـداء الدّالّـة علـى البعيـد؛ فكـأنّ الشّيخ كـان يـرى أنّ الذيـن يسمعون نداءه من شباب الوطنيّين كانوا منه بُعْداناً، أو أنّه كان يعني القُرْبـانَ الذيـن كـان يخاطبـهم خطابـاً مباشـراً، والبُعـدان الذيـن كـان يخاطبـهم مـن خـلال الفئـة

---

[23] لقد اصطنع فيما بعد ابن باديس الرّمز في الشّعر تمجيداً للقضيّة الوطنيّـة وتطلّعـاً إلى الحرّيّـة محمّـد العيـد آل خليفة في قصيدته:

أين ليلايَ أينَها؟ حيل بيني وبينها

(ينظر كتابنا، ا-ي، ديوان المطبوعات الجزائريّة، الجزائر).

الحاضرة، واختار التّعامل مع البُعدان لأنّهم يمثلون الأكثريّة؛ وذلك على الرّغم من اقتراب الصّباح المُشْرق بفضل تضحياتهم...

ويمكن قراءة هذه العلاقة الأسلوبيّة في البيت قراءةً تشاكليّة لا تباينيّة، وذلك بحكم البُعد المتضمَّن في أداة النّداء (يا) من وجهة، واقتراب بزوغ نور الأمل الذي يأتي بإصباح الصّباح من وجهة أخراةٍ.

وعلى أنّه يمكن قراءة هذه العلاقة نفسِها أيضاً قراءةً تباينيّة أخراةً بحكم أنّ النّداء يحيل على الحيز الحيّ (النّشْء) الموجود، على حين أنّ الصّباح وما تلازم معه يحيل على لحظة زمنيّة لَمّا تقعْ. فالعلاقة التّباينيّة تقوم في شيء موجود لَمّا ينهض، وفي شيء مفقود، ولكنّه في حكم الموجود، لَمّا يحدُثْ.

وممّا يُقرأ ممّا بين السّطور أنّ مخاطبة النّشْءِ قد يعني شيئاً من اليأس من الشّيوخ؛ فتخصيص الشّباب بالذكر وحدَهم دون سَوائِهِم قد لا يعني إلاّ هذا. كما يعني تخصيصَ الصّباح بالذكْر رفْضاً لِلَيل الاستعمار الذي كان طال، ولظلامه الذي كان أطبق على الجزائر والجزائريّين. غير أنّ ذلك كلّه لا يعني رفْض الشّيوخ طرَفاً في المسألة النّضاليّة بمقدار ما هو إيثارٌ لإيداع الأمانة النّضاليّة إلى مَن يستطيع النّضْحَ عنها، والنّضال من أجلها، وهم الشّباب العُتاةُ المخلصون وحدَهم. فهم قيمة عظيمة يجب أن تُستثمَر في مَواطن الخير والحبّ والجمال. فبالشّباب يمكن هدُّ أشَمّ الجبال، وبهم يمكن تجاوزُ أعْتَى الأهوال.

غير أنّ التّشاكل سرعان ما يعود إلى هذه العَلاقة اللّغويّة إذا راعينا أنّ النّشْءَ قيمةٌ إنسانيّة، والصّباحَ قيمة جماليّة وسياسيّة؛ والتّلازم بين القيمتين هو الذي يمكّن لهذه العلاقة في التّحَصْحُصِ والثبات. ويضاف إلى ذلك أنّ الثنائيّة التي ألِفْنا التماسَها في أبياتِ هذا النّشيد، بالقياس إلى هذا البيت، تتجسّد في تمثل الرّجاء،

واقتراب الصّباح. فكلتا القيمتين تُشاكِل صِنْوَتَها. فالرّجاء المعقود على الشّباب الجزائريّ، هو نفسُه الصباحُ المنتظَر إصْباحُه قريباً.

5. خُذْ للحياة سلاحَها وخُضِ الخُطوبَ ولا تَهَبْ

يعدّ هذا البيت امتداداً، في سياق المعنى، للبيت السّابق. فالنّشء الذي كان يخاطب ابن باديس لم يكن من الدّهماء ولا الرّعاع، ولكنّه كان من النّخبة المستنيرة من الشّباب. من أجل ذلك يستمرّ النّصّ في التّوكيد على ضرورة أن يتّخذ هذا النّشء المتعلّم الصالحُ للحياة العامّة سلاحَها، ويتأهّبَ لأن يخوضَ خُطوبَها، ولا يهابَها حين يخوضُها.

وتقوم الثنائيّة في هذا البيت على معنيين متشاكلين: اتّخاذِ السّلاح الذي هو هنا العلم من وجهة، وخوْضِ الخطوب من وجهة أخراةٍ. أمّا التّنْصاحُ بعَدَم التّهيّب في خوض غِمار الحياة فهو مجرّدُ بيان لهذه الثنائيّةِ المتشاكلةِ المعنى؛ فسواء على الشّابّ الجزائريّ فيما يتّخذ من سلاح المعرفة بكلّ أنواعها لمواجهة الحياة، أم خوْضه الخطوبَ من أجل هذه الحياة الكريمة؛ ففي الحالين عليه أن يتحلّى بالشّجاعة الخارقة لكي يحقّق الآمال، ويبلغ الغاية.

وعلى أنّ اتّخاذ السّلاح يجب أن يعنيَ هنا كلّ الوسائل التي تُظاهره على أن يخوض خطوبَ الحياة العامّة بكفاءة وشجاعة: من تعلّمٍ للعلم، وتحَلٍّ بالأخلاق، وتعلّقٍ بشرف النّفس، وتشبّثٍ بالنّضح عن الكرامة الوطنيّة، والخُيَلاء الجزائريّة: فيكون في سلوكه سماحة، وفي عقله رجاحَة، وفي خُلقه سَجَاحَة. ونلاحظ أنّ لفظ السّلاح مستعمَلٌ هنا في اتّخاذ القِيم ذخراً وزاداً، فهو سلاح معنويّ لا مادّيّ، كما لاحظنا ذلك من قبل. على حين أنّ لفظ «الحياة» يعني الحياة الوطنيّة العامّة، وليس مجرّد الحياة العائليّة، أو الشّخصيّة.

وفي هذا البيت تشاكلٌ لفظيّ يقترب من الجناس بالمنظور البلاغيّ بين «خُذ» و«خُض». غير أنّنا نحن نرى، خارج المفاهيم البلاغيّة، في هذين المقوّمين: خذ، خض تشاكلاً معنويّاً ينهض على الانتشاريّة في كلّ من معنييْهما؛ ذلك بأنّ كُلاًّ منهما يشتمل على حركة: فمعنى «خذ» لا يكون إلاّ بإحداث حركة تنهض على تحرّك طرَفين اِثنين: الآخذ منه، والآخذ إليه. على حين أنّ معنى «وخض» لا يعني أيضاً إلاّ وقوع حركة عنيفة ضدّ قوّة عاتية؛ فالحركة هنا أيضاً تقع من طرَفين: طرَف يدافع عن شيء، وطرَف آخر يريد أن يأخذه منه غِلاَباً.

كما أنّ تقديم الحياة على السّلاح رُقِيٌّ بالتّعبير والنّسج إلى المستوى الأعلى من الشّعريّة اللّبيديّة[24] من وجهة، وتمجيدٌ لقيمة الحياة التي دونَها لا يُجْدي شيءٌ من وجهة أخراة.

6.فإذا هَلكتُ فصَيحتي: تحيَى الجزائرُ، والعرَبْ

هذا بيتٌ عجيب يَشِي بخروجه من أعماق نفس الشّاعر وقلبه وروحه ووجْدانه معاً؛ فهو يدلّ على أنّ نظرة ابن باديس الوطنيّة كانت بعيداً؛ فكان يرى أنّ عهد الكفاح المسلّح أظلّ أوانُه ولكنْ لن يشهدَه غالباً، وأنّه قد يموت شهيداً لا ميتةً طبيعيّة؛ فمن أجل ذلك اصطنع عبارة «هلكتُ» عوض «مِتّ». هذا أمر.

والأمر الثاني أنّ ابن باديس لم يصطنع عبارة مألوفة مثل: «فقَوْلي» أو «رجائي»، أو «وصيّتي» إذا هلكت؛ ولكنّه اصطنع عبارة متأجّجة كالنّار المحرقة تليق بمستوى عظمة الموقف، وتأجّج اللّحظة؛ وهي قوله «فصَيْحتي». وأمّا الأمر الآخر فإنّه كان يعلم ما يدبَّرُ للجزائر ومحاولة فصلها عن العالم العربيّ من وجهة، والتّربّص للعرب عن طريق اغتصاب فلسطين (وقد كان باكر إلى كتابة مقالات عن

---

[24] في مثل قوله من المعلّقة: يعلو طريقةَ متنها مُتواتِرٌ في ليلةٍ كفرَ النّجومَ غَمامُها
أم لم يقل ابن باديس: خذ للحياة سلاحها؟

القضيّة الفلسطينيّة...) من وجهة أخراة؛ من أجل ذلك قَرَنَ حياةَ الجزائرِ بحياةِ العربِ. فواو العطف هنا واوُ اشتراكٍ في الفعل الحضاريّ حقّاً، وليست واواً لتعاقب الفعل. ولا جزائريٌّ يجهل اليومَ الدّعم العظيم الذي لقِيَه الشّعب الجزائريّ من إخوانه العربِ أيّامَ ثورة التّحرير المجيدة.

ويمكن أن نستخلص طائفة من المبادئ التي اشتملت عليها هذه المقطّعة العجيبة، منها:

المبدأ الأوّل: أنّ ابن باديس لم يرسل هذه القصيدة في بَراح من الأرض خالٍ؛ ولكنّه ألقاها في محفل للعلم والعلماء؛ فقد ألقاها أولَ أمرٍ بقسنطينة في أعضاء جمعيّة التّربية والتّعليم، وأعضاء الكشّافة [الجزائريّة] الإسلاميّة بقسنطينة؛ قبل أن يُلقيَ أبياتاً منها في حفل أقامه له الطّلاب الجزائريّون الزّيتونيّون بتونس. فهي قصيدة قالها عالم مفكّر، وخاطب بها طلبة للعلم؛ فالجوّ الذي قيلت فيه وألقِيَت، ملائكيّ روحيّ كريم.

المبدأ الثاني: أنّ هذه القصيدة تدعو إلى التّسلّح بالعلم ضمناً، وبكلّ القيم المادّيّة والمعنويّة، وحتّى الرّوحيّة، لمجابهة الحياة العامّة (ولا نحسبها في تلك الفترة من تاريخ الجزائر إلاّ مقاومة الاستعمار الفرنسيّ والتماس الحرّيّة السّياسيّة ولو بنار السّلاح...) بكلّ مصاعبها الكأداء، ومَعاسِرها الشّنعاء:

خُذْ للحياة سِلاحَها

فاتّخاذ السّلاح لمجابهة تكاليفِ الحياة ومَعَاسِرِها يقتضي التّحلّيَ بالقوّة؛ كما يقتضي طلبَ العلم ولو ببلاد الصّين؛ كما يقتضي الحرصَ على العمل الذي يحضّ اللّهُ عليه ويدعو إليه[25]. ولْنقارنْ هنا بين هذا المبدأ الكبير، مثلاً، وبين مبدأ الحياء

---

[25] قال اللّه تعالى: «وقل اعْمَلوا فسيرى اللّهُ عملَكم ورسولُه والمؤمنون»، سورة التّوبة، الآية105.

الذي كان ركّز عليه جمال الدّين الأفغانيّ في مناوأته الدّهريّين الهنود[26] . فأيّهما أعظم قيمةً لدى النّاس وأنفعُه: آلْعلمُ أم مجرّد الحياء؟

المبدأ الثالث: يدعو ابن باديس من خلال هـذا النّـصّ إلى التّحلّـي بالشّجاعة بكلّ معانيها وأضرُبها لخوض غمراتِ الحياة العامّة. ونحن نعلم أنّ الشّجاعة ليسـت هي التّهوّرَ والانتحار والإقدام الأعمـى علـى الفعـل أو علـى القـول فحسـب؛ ولكنّـها تَحَيُّـنٌ للفرصـة الملائمـة لاغتنـام الهـدف، واقتطـاف الثمَـر، وبلـوغ الغايـة، بـأخفّ الأضرار، وأقلّ النّفقات.

المبدأ الرّابـع: دعـوة الشّـباب الجزائـريّ إلى خـوض غمـار الخطـوب، وعدم التّهيّب، أمام المواقف الجِسام.

«وخُضِ الخطوبَ ولا تهَبْ»

ونلاحظ أنّ الحثّ على التّسلّح بقيمة الشّجاعة يتّخذ سيرة الأمر المؤكّدِ مرّتـين اثنتـين: وذلـك ترسـيخاً للفكـرة، وتكريسـاً للقضيّـة؛ فخَـوْض الخُطـوب (وخُـض الخطوب)، وملاقاةُ الأهوال، ومكابدةُ الشّـدائد، هـو سـلوك في نفسـه قيمـةً مـن قيم الشّجاعة؛ ولكنّ الشّاعر الحكيم أضاف إليه عدم التّردّد أو الخوف أو التّـهيّب لـدى الإقدام على فعل وطنيّ كبـير يكـون ذا قيمـة في الحيـاة العامّـة للشّـعب الجزائـريّ، ويكون فيه له منافع وشرَف وخير.

المبدأ الخامس والأخير: التّعويل على عنصر الشّباب في إنجاز برنـامج القضيّـة الوطنيّة، ومقاومة الاستعمار به:

---

[26] ينظر جمال الدّين الأفغاني، إبطال مذهـب الدّهريّـين وبيـان مفاسـدهم، ترجمـة محمّـد عبـده، ص.71 وما بعدها؛ محمّد البهيّ، م.م.س.، ص.64.

يا نَشْءُ أنتَ رجاؤُنا وبك الصّباحُ قد اقترَبْ

فليس هناك من مشروعِ نهضةٍ، ولا فكرةِ إصلاحٍ، ولا مبادرة تجديد، ولا إعلان ثورة، ولا ممارسة نضال، يمكن أن يرى النّور إذا لم تكن وراءه هِمّةُ الشّباب الأقوياء، وعزيمةُ الفتيان الأشدّاء. من أجل كلّ ذلك نُلفي ابن باديس يجعل من الشّباب المتعلّم الأداةَ التي يمكن أن تُنجز وتنفّذ ما كان يريد أن يتجسّد في مجال العمل من أفكار وطنيّة جريئة.

ولْنلاحظْ أنّ ابن باديس يصطنع اللّغة الانزياحيّة في شعره فيرمي إلى بعيد؛ دون أن يجلب على نفسه المتاعب والْمَعاسِر من السّلطات الاستعماريّة المتغطرسة المتشدّدة. وإلاّ فأيّ شيءٍ هذا «الصّباحُ» المشرق الجميل الذي اقترب ظهوره، وآن أوانه، إن لم يكن نيلَ الشّعبِ الجزائريّ الحرّيّةَ والاستقلال؟

ولولا أن هذه الدّراسة عامّة، لكنّا حلّلنا هذه القصيدة العجيبة تحليلاً أعمق، ولَتوقّفنا توقّفاً أطولَ لدى أفكارها التي تلخّص فلسفة ابن باديس في الإصلاح، وفي الحياة، وفي الرّؤية الوطنيّة إلى الوجود الاِستعماريّ، وفي كيفيّة مقاومة هذا الاِستعمار بالكلمة والفعل...

ثانياً: صورة المقاومة الوطنيّة في مقالات الإبراهيمي

كنّا تناولنا في كتاب كتبناه عن محمّد البشير الإبراهيميّ عالجنا فيه الإبراهيميّ، كاتب المقالة بأنواعها السّياسيّة، والإصلاحيّة، والأدبيّة[27]. ونحن حين جئنا نثير صورة المقاومة الوطنيّة في كتابات الإبراهيميّ، باعتباره أحد أكبر كتّاب العربيّة في النّصف الأوّل من القرن العشرين، وباعتباره أحد أكبر المفكّرين

[27] ينظر عبد الملك مرتاض، الشيخ البشير الإبراهيمي، وزارة الثقافة، الجزائر، 1984؛ نفسه، مع الشيخ الإبراهيمي، في مجلّة الجيش، الجزائر، في خمس حلقات، 1972.

الإصلاحيّين والوطنيّين؛ ومقالاته تملأ الأسفار على كلّ حال، أردنا أن نتوقّف لدى مقالة كان كتبها عن الحكومة الفرنسيّة التي يصوّرها الإبراهيميّ كدأبه بسخريّة أدبيّة عجيبة، وهي مقالة: «عادت لِعِتْرِها لَمِيس». ولم يمنعنا ذلك من أن نتناوله في فصلٍ آخر من هذا الكتاب حين تناولنا مجازر ثامن مايو 1945؛ فقد كان أوّل الكاتبين عن هذا الموضوع الوطنيّ، ثمّ تلاه باعزيز بن عمر من الكتاب، والرّبيع بوشامة وعبد الكريم العقون من الشّعراء...

وتعدّ مقالة «عادت لعترها لميس» من أطول مقالات الإبراهيميّ حيث يستعرض فيها طائفة من القضايا السّياسيّة مثل الانتخابات، والأحزاب، والاحتفالات السّنويّة المقامة من حول الأضرحة، وسجن المعلّمين الأحرار الذين كانوا يعلّمون اللّغة العربيّة ومحاكمتهم، جنْباً لجنب، مع المجرمين والسّارقين، حذوَ النّعل بالنّعل...

وسنثبت أطرافاً من نصّها لنعمد من بعد ذلك إلى تحليله كما جئنا ذلك مع بعض كتابات ابن باديس المقاومة. يقول الإبراهيمي:

1.«ولميس هذه في مورد المثل هي امرأة كانت لها عوائدُ شرٍّ تعتادُها، وأخلاقُ سوءٍ تفارقها، ثمّ تقارفها؛ لغلبة الفساد فيها، وصيرورته أصلاً في طِباعها (والعِتْر هو الأصل)؛ فسيّرت العرب فيها هذا المثل.[28]

أمّا في مضرِب المثل فهي الإدارة الجزائريّة، وعِتْرُها هو الاستعمار البغيض إلى كلّ نفس، وما يقتضيه من ظلم وعَنَتٍ للمستضعَفين، وما يُبنَى عليه من انتهاك لحرماتهم، وما ينتهي إليه من وحشيّة في معاملتهم، وقتْل لمعنويّاتهم، ومسْخ لأخلاقهم.

[28] ورد في لسان العرب (عتر) نصّ المثل بهذه الصّياغة: «عادت إلى عِتْرها لميس، أي رجعت إلى أصلها». ويقال في العربيّة: عاد له، وعاد إليه، معاً.

2.كلّ الحكومات الاِستعماريّة تجعل معنويّات الشّعوب المغلوبة هدفَها الأوّلَ فترميها بما يُضعفها؛ ولكن على التّدريج لا على المُغافَصة؛ وبالحيلة لا بالقوّة، وفي السّرّ لا في العلَن.

3.أمّا حكومة الجزائر[29] فإنّها تتعمّد تلك المعنويّات بالقتل الوحِيّ، عمداً على الإصرار، وجهراً ليس فيه سِرار؛ وعناداً لا توبة فيه، ولا توبة منه. وغاية أمرها أنّها تسنّ القوانين القاتلة وتتناسى تنفيذها إلى حين، تغليطاً للمغفّلين، وإيهاماً للمنتقدين. فإذا عادها من جبروتها عيد، عمدت إلى تلك القوانين فأخرجتها كما يخرج السّلاح لوقت الحاجة. فإذا اقتضتها الظّروف شيئاً من التّعميَة والإيهام، وضعت تلك الأسلحةَ التي اسمها القوانينُ، في أيدي أسلحة بشريّة ممّن يلبس لباس هذه الأمّة المسكينة ويدّعي باسمها(...) وقالت له:

–ارمِ بهذا! فإنّما خلقتُك لهذا، ورزقتُك من أجل هذا، ورفعت ذكْرَك لمثل هذا، وانتخبتك لتنفيذ هذا، وأوطأت النّاس عقبك لتقوم بهذا...

ارمِ دينَك باسم دينك، واخدع أمّتك باسم أمّتك، واكذب على تاريخك باسْمِه، وعَفِّ رسومَه بما بقيَ من رسْمه...

أجهزْ على البقيّة الباقية، ولك منّي الجُنّة الواقية، والمنزلة الرّاقية. وفي خدمتك المذياع، وفي نُصرتك الأتباع والأشياع...

4.هذا ما يقوله لسان الحكومة لصنائعها(...) حين تريدهم على تنفيذ رغائبها الاِستعماريّة. وإنّ لها في كلّ ما ترمينا به هذين النّوعين من الأسلحة: سلاحَ القانون وهو تحت يدها؛ وهذا النّوع المسترذل من السّلاح البشري، وهو تحت رجلها...

[29] كان الكتّاب الجزائريّون كثيراً ما يطلقون على الطّغمة الاِستعماريّة الفرنسيّة التي كانت تضطهد وتستعبد في الجزائر: «حكومة الجزائر»، أو «الإدارة الجزائريّة»، أو «الحكومة»، كما يمثل ذلك في مصطلحات الإبراهيمي، وابن باديس وسَوائهما..

ولكنّها تسكت ما تسكت، لحكمة استعماريّة ثمّ تعود... كما عادتْ لِعترها لِمس (...).

5.إنّ الدّيمقراطيّة عند حكومة الجزائر كصلاة المنافقين؛ لا تزكّي نفْساً، ولا تَنْهَى عن فحشاء. وتفضُلُها صلاةُ المنافق بأنّ فيها من الصّلاة، مظهرَ الصّلاة... فإنّ الدّيمقراطيّة عند الأمم التي تنتحلها وتزعمها لنفسها تتجلّى في عدّة مجالي[30] أرفعُها الاِنتخاب؛ فهو عندهم العنوان الواضح للحرّيّة (...)، والميزان العادل لاختيار الشّعب.

أما في الجزائر فالانتخابات، منذ سُنَّت، لعبةُ لاعب، وسخريّة ساحر، ورهينةُ استبداد. وُلدتْ شوْهاء ناقصة، وما زالت متراجعة ناكصة...

6.وعادت لعِتْرِها لِمس في هذه الأيّام، وكانت عودتها، هذه المرّة، للمدارس العربيّة التي تديرها جمعيّة العلماء؛ فبعد أن سكتت عنها سنين اتّسقَ فيها سيرُها، وعاد على الأمّة خيرُها؛ عادت عليها في هذه الأيّام بالتّضييق والتّعسير، وأخرجت ما كان مخبوءاً في جعبتها من القوانين والقرارات (...). كأنّ التّعليم جريمة يترتّب عليها العقاب، وكأنّ حبل الأمن اضطرب بسبب هذه المدارس ومعلّميها وأطفالها.

7.بدأت دعوة المعلّمين إلى المحاكم نَقَرَى، ونحن نقدّر أنّها ستعمّ؛ وإنّ أوّل المطر قَطْر! وإنّ الأحكام ستكون بالغرامة فالسّجن؛ ولكنّنا سندخل هذه المحاكم برءوس مرفوعة، وسنتلقّى هذه الأحكام بنفوس مطمئنّة بالإيمان، وسندخل السّجون بعيون قريرة، وسنلتقي «بإخواننا» المجرمين في مجالس الأحكام ومقاعد الاِتّهام...

(...) وحسْب الاستعمار «ديمقراطيّة» أن يحاكم معلّمي العربيّة والإسلام، ويسجنهم على التّعليم كما يحاكِم المجرمين ويسجنهم على الإجرام، في محكمة

---

[30] كذا.

واحدة، وسجن واحد، وظرف واحد (...). أليست هذه هي الديمقراطيّة؟! فما لكم تكذبون؟ (...).

8.ولكنّ الذي يغيظ ويحنق هو هذه الدّعوى العريضة الطّويلة من الاستعمار في تثقيف الشّعوب، وتعليم الأمم، وقطْع دابر الأمّيّة. وكيف تتّفق هذه الدّعوى منه مع أعماله التي تقاوم التّعليم وتتنكّر له؟ وتنصر الأمّيّة وتحميها، وتغذي الجهل وتقوّيه، والتي تفضل عصا الشّقيّ على قلم الكاتب؛ فتتساهل مع العَصَى[31] حتّى تصير عِصِيّاً، وإن آذت وإن قتلت؛ وتحطم القلم لئلا يلد أقلاماً، وإن رشحت بالخير، وإن جرت بالنّفع.

9.أليس معنى مقاومة التّعليم نشرَ الأمّيّةِ وتكاثُرَ الأمّيّين؟ لا يقتضي المنطق إلاّ هذا، ولا يفعل الاِستعمار إلاّ هذا؛ لأنّ له مذهباً في المحافظة على الأمّيّة لئلاّ تزول، كمذهب العلماء في المحافظة على الحيّات السّامّة لئلاّ ينقطعَ نسلُها».[32]

<><><><><><><>

1.للإبراهيمي في كتابة المقالة بأنواعها صوْلاتٌ وجوْلات؛ وذلك بفضل أسلوبه الأدبيّ الأنيق، ولُغته الفخمة العالية، ثمّ لِمَا أوتِيَ من سخريّة نادرة كثيراً ما يرطّب بها كتابته حتّى تغدوَ محبوبة لدى القارئ، وخفيفة عند المتلقّي، وممتعة له إلى حدّ السّحر والإبهار. ولعلّ الإبراهيميّ أن يكون كاتبَ المقالة الجزائريّ الوحيد، وذلك على امتداد قريبٍ من أربعين عاماً، الذي كان يمتلك القدرة على توظيف محفوظه الغزير من التراث شعراً ونثراً، وقواعدَ ونوادر؛ فيصطنعها في كتابته لتتناصّ معها فإذا الفائدةُ تمتزجُ بالجمال؛ وإذا أنت لا تدري أأنت تقرأ أدباً خالصاً، أم أنت تقرأ

---

[31] كذا بالأصل.

[32] محمّد البشير الإبراهيميّ، البصائر2، ع.64، في 24 يناير 1949.

حكمةً نافعة، أم أنت تقرأ ذلك المضمون الذي يتناوله في رشاقة وأناقة وتصوير بديع، نصادف ذلك في كثير من مقالاته ومنها ما يطالعنا في مقالات: «اللّغة العربيّة في الجزائر: عقيلة حرّة، ليس لها ضرّة!»، وفي: «أفي كلّ حيّ، عبد الحيّ؟»، وفي: «إلى الزّاهري»، وفي: «إبليس ينهَى عن المنكر !»... وفي مقالات كثيرات أخريات...

وكثيراً ما كنت ترى الإبراهيميّ ينطلق من فكرة بيت شعر عربيّ شهير، أو فكرة مثل عربيّ قديم، أو قاعدة نحويّة طريفة، أو مسألة فقهيّة شريفة، أو قضيّة أصوليّة معروفة: ليؤسّس النّتيجة على المقدّمة، وليُسقط الفرع على الأصل، وليَبنيَ الحُكم على نازلة سابقة. كما تراه يضرب، أثناء كتابته، أمثالاً عربيّة قديمة لم يسبقْه أحدٌ إلى ضرْبها وتوظيفها لا في مغرب ولا في مشرق، في الكتابة الحديثة، كما نجده يشبّه الأحوال بالأحوال، ويقيس الظّروف الرّاهنة على الظّروف الفارطة، في براعة تجنّبه الإسقاط، وفي رشاقة تبعد عنه التكلّف.

من أجل ذلك كلّه نُلفي الإبراهيمي، وهو يكتب هذه المقالة التي أثبتنا فقرات منها، وهي التي نحن بصدد الشّروع في تحليلها، عن سيرة الاِستعمار الفرنسيّ في الجزائر: ينطلق من مَضرِب مثلٍ عربيّ قديم، كانت العرب سَيَّرتْه حول امرأة عاهرة لم تستطع الإفلاتَ من سيرتها القديمة حين تقدّمت السِّنُّ بها على نحو ما؛ فكان ذلك الدّأبُ السّيّئ لا يزال يقارفها إذا ظنّ النّاس أنّه فارقها، فلمّا أيقنوا أنّه لا مناصَ من ذلك الشّرّ الذي كان يتبوّؤها فيعْتَورِها: عادت لميس لعِتْرِها، فسلكتْ من عاداتها القديمة ما سلكتْ! ويبدو أنّ الشّيخ لم يُلْفِ حالةً تشبه حالة الحكومة الاستعماريّة في إصرارها على العودة إلى عاداتها السّيّئة، غير حالة تلك المرأة العربيّة الفاسقة.

ومن عجبٍ أنّ الإبراهيميّ وصف الحكومة الاِستعماريّة بالعُهر الصُّرَاحِ؛ ولكن دون أن يقول أيّ عبارة مباشرة حول ذلك لينجُوَ من المحاكمة، ويُفْلت من المتابعة

من وجهة؛ وليعلُوَ بكتابته الأدبيّة السّياسيّة على طريقة الكبراء فلا يُسفَّ، ويسمو على طريقة البلغاء فلا يَسقط؛ وذلك على الرّغم من أنّ تشبيه الحال بالحال، يصير مكتسِباً لجوهره. فلا شيء، في رأينا، كان أهجَى لوجود المستعمِرين الفرنسيّين في الجزائر، ولا أنْحَتَ لأَثْـلَتِهم، من هذا المثل العربيّ القديم الذي ضربه الإبراهيميّ لهم، وأسقطه على سلوكهم في الجزائر، لو كانوا يتذوّقون الأدب، ويدركون مراميَه البعيدة. ولعلّ اللّه ستر على الشّيخ فأفلت من المتابعة والمضايقة على ما دبّج.

أرأيت أنّ هذه المرأة المضروبَ بها المثلُ في العَهَارة ليست إلاّ «الإدارة الجزائريّة»؛ وعِتْرها -سلوكها السّيّئ، وأخلاقها العفِنة، ليست إلاّ ذلك «الاِستعمارَ البغيض إلى كلّ نفس، وما يقتضيه من ظلم وعَنت للمستضعفين، وما يُبنَى عليه من انتهاك لحرماتهم، وما ينتهي إليه من وحشيّة في معاملتهم، وقتْل لمعنويّاتهم، ومسْخ لأخلاقهم».

كان ذلك هو الاستعمارَ الفرنسيَّ وسلوكه المتغطرسَ في الجزائر مع المواطنين الجزائريّين المستضعَفين الذين لم يكن لهم حوْلٌ ولا طول، ولا جاهٌ ولا قاهٌ، للتّخلّص من اضطهاده، والْمَنجاة من شروره التي كان عليهم يصبُّها صبّاً. وإذا كانت عينه ربما تغاضت، بعض التّغاضي، من حين إلى حين، فما كان ذلك منه إلاّ ليظنَّ النّاس أنّ الاِستعمار أدركته التّوبة، وتأوّبتْه نقاوة الضّمير؛ مع أنّه كان لا يلبث أن يعود إلى أصل سلوكه، وهو الظّلم والاضطهاد، وإلى عِتْر شأنه في الشّعوب، وهو التّغطرس والفساد؛ فكان ينال الجزائريّين من ذلك شرّ مستطير، وهمّ طويل.

2. وعلى أنّ سيرة الاِستعمار، من حيث هو، في النّاس بالظّلم والاِضطهاد، والمضايقة والمتابعة؛ ليس غريباً، في الحقيقة، في سلوكه، ولا شاذاً في سيرته؛ فعهْدُ النّاس به أنّه يرمي الشّعوب في مَقاتلها، ويطعنُها في أعزّ عزيز لديها؛ فيقصد منها المعنويّاتِ القويّةَ حتّى يُضعفَها، ويتطاول على المقدّسات في نفسها حتّى يَعْتُوَ فيها

فساداً. لكنّه بحكم خبثه ونتانة سيرته كثيراً ما يبدي غير ما يبطن، ويُظهر غير ما يُعلن، ويقول غير ما يفعل؛ حتّى يُربك المستعمَرين الذين ابتُلوا بشرّه ابتلاءً مبيناً. فيكون ببعض ذلك مِثلَ تلك المرأةِ العربيّة العاهرة، لميس، في سلوكها المتأخّر بالقياس إلى سلوكها المتقدّم. كان النّاس ظنّوا أنّها تابت عن فعل الشرّ، وأقلعت عن اقتراف الرّذيلة؛ فلم يشعروا إلاّ وقد عادت إلى سابق عادتها، وقديم دأبها. فكانت كأنّها تبدي غير ما تُظهر. وكانت كأنّها تريد أن تحمل النّاس على الاعتقاد بأنّها لم تعُد تأتي ذلك الشرّ الذي كان رُكّب في شِنْشِنَتِها، وتحَصْحَصَ في عِتْرها، فحملها على أن تفعل ما تفعل... على حين أنّ ذلك لم يكن منها إلاّ خداعاً وغُروراً. وكلّ ما في الأمر أنّها لم تعد تهجم على فعل السّيّئات اغْتِفاصاً واستباقاً، ولكنّها أمست تمارسه تدرّجاً واختلاساً؛ فإذا هي تعمِد إلى المِحَال بعد أن كانت تعتمد على القوّة، وإذا هي تمارس الشرّ والتّآمر في السرّ، بعد أن كانت تمارسه في العلانيَة؛ ذلك بأنّ «كلّ الحكومات الإستعماريّة تجعل معنويّات الشّعوب المغلوبة هدفَها الأوّل فترميها بما يُضعفها، ولكن على التّدريج لا على المُغافصة، وبالحيلة لا بالقوّة، وفي السرّ لا في العلن».

ولْنلاحظْ أنّ الكاتب اصطنع سِمَةَ «كلّ» لاستغراق الحُكم العامّ على الاستعمار من حيث هو، بوعيٍ سياسيّ وفكريّ؛ فالاستعمارُ هو، هو حيث يكون، وحيث كان (ولا بريد الكاتب في هذه الفقرة إلى الاستعمار الفرنسيّ الذي يختلف، كما سنرى في الفقرة الموالية، عن بقيّة أنواع الاستعمار)؛ لا يحرص إلاّ على قهْر الشّعوب المغلوبة، ولا يسعى إلاّ إلى التّحكّم في رقابها؛ بحيث لا يبتعد سلوكه معها عن سلوك السّادة مع العبيد، وتصرّف القاضي مع المجرمين.

3.كلّ ذلك والأمر منصرفٌ إلى غير الإستعمار الفرنسيّ في الجزائر حيث إنّ حكومته «تتعمّد تلك المعنويّات بالقتل الوَحِيّ (وقد كنّا رأينا أن دأب الاستعمار، غير

الاستعمار الفرنسيّ، كان يجعل «معنويات الشّعوب المغلوبة هدفها الأوّل فترميها بما يُضعفها، ولكن على التّدريج لا على المغافصة، وبالحيلة لا بالقوّة...»)، عمْداً مع الإصرار، وجهراً ليس فيه سِرَار؛ وعناداً لا رجوع فيه، ولا توبة منه». فهذا الاستعمار الذي رُمِيَتْ به الجزائر على حين غفلة من الدّهر المعتوه، لا يتورّع في إعلان ما يبطن، ولا يتردّد في قتل معنويّات الشّعب الجزائريّ بالقتل السّريع، والحَيْنِ القريب. فكأنّ هذا الاستعمار من طينة خاصّة؛ وكأنّه لم يدنّس هذه الأرضَ الطّاهرة بأقدامه إلاّ ليعيثَ فيها فساداً، ويضطهد أهلها إصراراً وعِناداً، ويصبّ عليهم أسواط العذاب جِهاراً لا سِراراً. فلْيتجشّموا على ما ألمّ، ولْيتصبّروا على ما نزل، واللّه المستعان على الدّهر الغادر، والزّمن الْمُخاتل.

وكانت الغاية الأولى لحكومة الاستعمار في الجزائر أنّها تسنّ القوانين الجائرة لتضيّق بها خناق الجزائريّين، على الرّغم من أنّها ربما حين تسنّها تتناساها وتتغافل عنها، فيظنّ السّذج والطّيّبون من النّاس أنّ تغافلها ذاك ربما كان تغاضياً أبديّاً؛ ولكنّ أولئك نسُوا أنّ حكومة الجزائر الاستعماريّة لم تكن في سلوكها إلاّ تلك المرأة العربيّة في تناسي بعض دأبها إلى حين؛ حتّى إذا استعادت طبيعتها الحقيقيّة التي جُبلتْ عليها فزعَت إلى سلوكها القديم الآثم، فإذا هي تفعل الأفاعيل!...

وحين يسنّ الاستعمار قانوناً جائراً يعمد في الوقت نفسه إلى تعيين مَن ينفّذ بنوده القاسيَة على المواطنين من أعوانه الطّيّعين؛ فيغريهم بالمال والجاه، ويغويهم بالسّلطة والسّمعة؛ وذلك كي لا يتركوا شيئاً باقياً من المروءة الوطنيّة إلاّ أجهزوا عليه مطواعاً لتعاليم الاستعمار: «أجهزْ على البقيّة الباقية، ولك منّي الجُنّة الواقية، والمنزلة الرّاقية؛ وفي خدمتك المذياع، وفي نصرتك الأتباع والأشياع».

4. ويتدرّج الإبراهيميّ في هذه المقالة السّياسيّة إلى تناوُل مسألة الدّيمقراطيّة بالقياس إلى الحكومة الإستعماريّة في الجزائر؛ فيشبّهها لديها بصلاة المنافقين، لأنّها

لا تزكّي نفساً، ولا تنهى عن فحشاء».[33] ذلك بأنّ اللّه جعل الصّلاة المخلصة للّه، بالقياس إلى المؤمنين، ناهيةً عن الفحشاء والمنكر، ومدعاة للفضيلة والخير؛ على حين أنّها بالقياس إلى المنافقين لا تعدو أن تكون مجرّد حركات ظاهريّة لا خشوع فيها ولا إخلاص، ولا خنوع ولا إخْبات؛ فيلِجّ المنافقون بذلك في عتُوّ وطغيان، وفي خبث واستهتار. بل لعلّ صلاة المنافق أن تكون أفضل من ديمقراطيّة الإستعمار في الجزائر، لأنّ صلاة المنافق فيها من الصّلاة مظهرها على الأقلّ. وأمّا في الجزائر فإنّ الانتخابات التي تمثّل مظهر الدّيمقراطيّة الغربيّة التّقليديّة منذ كانت لا تعدو كونها «لعبةَ لاعب، وسخريّة ساخر، ورهينةِ استبداد؛ وُلدت شوهاءَ ناقصة، وما زالت متراجعة ناكصة؛ وُضعت من أوّل يوم على أسوأ ما يُعرف من التّناقض، وأشنع ما يُعلم من التحكّم والميز والعنصريّة». فهي كأنّها كلمة حقّ يراد بها باطل، ومظهر خير لا يراد منه إلاّ تكريس العنصريّة والتّمييز بين الأوربيّين والجزائريّين. والأسوأ من كلّ ذلك أنّ الاستعمار الفرنسيّ كان يلوّح لبعض الجزائريّين، في كلّ موسمِ انتخاباتٍ، بالمناصب العالية، والامتيازات الْمُغريَة؛ فكنت ترى ذلك كثيراً ما يُفضي إلى انقسامهم تحت وطْأة هذه الْمُغريَات.

وهنا انتقاد غير صريح للدّيمقراطيّة الغربيّة التّقليديّة التي تُوغر الصّدور عداوة، وتُوعب القلوبَ بغضاء بين أبناء الشّعب الواحد باسم التّنافس الشّريف، والتّعدّديّة الخادعة. وكأنّ الشّيخ كان يريد أن يقول: لو استقبلنا من الأمر ما استدبرنا لكنّا طالبنا ببديل آخر لهذا الوجه الغربيّ البشع الذي كثيراً ما يُفضي إلى التّقاتل والتّباغض، والتّناحر والتّشاحن، بين النّاس. وهل ضرّم الحروبَ في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاّتينيّة بين الزّعماء السّياسيّين إلاّ هذا التّنافسُ على المناصب

---

[33] يتناصّ الإبراهيميّ في هذا التّعبير مع قوله تعالى: «إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر». من الآية 45 من سورة العنكبوت.

السّياسيّة بحيث لا أحدَ يعترف بظفر الخصم في الإنتخابات، حين تسكن الزّوبعة، وتنتهي المهاترة، فيَعُدّ كلّ خاسر الرّابحَ مزوّراً؟... لقد أمسى هذا الدّأب هو الأغلبَ على انتخابات العالم الثالث؛ فما الفائدة، إذن، من هذه الإنتخابات الشّوهاء، والإقتراعات الجوفاء، في مجتمع هو أحوج ما يكون إلى الخبز والتّعليم منه إلى هذه السّلوكات المظهريّة التي تشبه ممارسة النّفاق السّياسيّ !

فلعلّ من أجل كلّ ذلك صار الانتخاب «وبالاً على الأمّة ووباء، وذهب بالبقايا المدّخرة من الأخلاق الصّالحة هباء». فأن يقيم الشّخص في قبو أو في قبر، وأن يأكل الشّخص من مزابل الأغنياء إن ظفر بها، وأن يتسوّل الشّخص فيمُدَّ يده إلى النّاس يستجديهم من أجل أن يقتات، وأن يُحْرَم الشّخص من التّعليم فلا يكون أحدٌ أجهل منه على الأرض، وأن يكابد الشّخص من أمراض وبيلة دون أن يعالجه أحدٌ فيعيش بين الموت والحياة زمنا طويلاً أو قصيراً، وأن يفقد الشّخص من أجل كلّ ذلك كرامته في مجتمعه فقداناً تامّاً؛ حتّى إذا أظلّ موسم... النّفاق والتّسابق على الكراسيّ، والإصطراع على المناصب بين عوامّ السّاسة: طُلب إلى هذا الشّخص المنبوذ، لمجرّد أنّه مسجّل في سجلّ الحالة المدنيّة مع الآخرين، أن يذهب إلى مكان معلوم، في يوم مشهود، ليختارَ شخصاً لا يعرفه، أو ليزكّيَ برنامجاً لا يفهمه... أيّ محنة أسوأ من هذه؟ وأيّ خرافة هذه الدّيمقراطيّة؟ وأيّة لعبة غربيّة عابثة هذه التي أتعبت العالم الثالث؛ فلا هو حافظَ على التّقاليد المحلّيّة التي كانت تحكمه؛ ولا هو استطاع أن يتقن لعبة المكر السّياسيّ السّيّئ لدى الغرب؛ فإذا هو كالغراب الذي أراد تقليد الحمامة، فأمسى من الخاسرين...

5.كان للتّعليم العربيّ في الدّفاع عن الهويّة الوطنيّة طوال عهد الحركة الوطنيّة مكانةٌ مكينة من العناية والاهتمام؛ فقد أجمعت عامّة الأحزاب الوطنيّة على ضرورة احترام الشّخصيّة الوطنية الماثلة، يومئذ، خصوصاً في العربيّة والإسلام. ونجد ابن

باديس يكتب قريباً من عشرِ مقالات حول هذه الثنائيّة من أشهرها: «يا للّه! للإسلام والعربيّة في الجزائر»[34].

وأمّا الإبراهيمي فقد كتب عن اللّغة العربيّة والإسلام عدداً ضخماً من المقالات منها عشرون مقالة عن الدّين الإسلاميّ في الجزائر، وعشرون أخريات عن التّعليم العربيّ، متواليةً في جريدة البصائر الثانية[35]. ذلك بأنّ الفرنسيّين لَمّا رأوا نهوض المدارس العربيّة الحرّة التي كان الشّعب الجزائريّ يتبرّع لها من أمواله الخاصّة، رأت الحكومة الاستعماريّة سنَّ قرار جائر صدر في ثامن مارس 1938 يحظُر على أيّ معلّم جزائريّ أن يحفّظَ الصبيةَ القرآن، أو يعلّمهم أيّ حرْف من العلم، إلاّ بترخيص رسميّ من الفرنسيّين. غير أنّهم كانوا لا يمنحون تلك التّرخيصات لمن يلتمسها منهم إلاّ بعد التي واللّتيا، وبعد التّحرّي والتّشدّد، وبعد اشتراط الشّروط التّعجيزيّة في وثيقة التّرخيص بحيث لا تُدرّس إلاّ موادُّ ميتةٌ من العلم بحيث قد يكون الجهل بها كتعلّمها؛ وذلك ليُغرق النّاس في الجهل والظّلام، مع ما نعلم من أنّ الفرنسيّين لم يكونوا يفتحون أبواب مدارسهم إلاّ لأبناء الأعيان ومن كانوا يشايعونهم، وفي المدن فقط. وأمّا في الأرياف والبوادي فكان الجهل هو السّائد، والأمّيّة هي المطبقة.

وقد عجب ابن باديس من أمر هذا القرار في إحدى كتاباته، وأنّه لا مانع من سَنّه لو كانت نيّة الاِستعمار سليمةً فتأذن للمعلّمين الأحرار بالتّعليم؛ لكنّ الفرنسيّين كانوا بيّتوا الشّرّ للأطفال الجزائريّين ليعمّ بينهم الجهل والظّلام.

ويتحدّث الشّيخ الطّيّب المهاجي الذي كان مدرّساً بمدينة وهران عن تجربته المرّة في الحصول على هذه الرّخصة اللّعينة فيفصّل القول في ذلك حيث إنّ الحكومة الفرنسيّة كانت منعته من تدريس العربيّة والشّريعة «بدعوى أنّ القانون الفرنسي

---

[34] ابن باديس حياته وآثاره، 3. 243– 246. ويمكن مراجعة المقالات التي كتبها ابن باديس عن العربيّة والإسلام في هذا المصدر: 3. 238–270.

[35] ينظر عيون البصائر، ص.86–182، 231–319.

يمنع التّعليم بسائر أنواعه، حتّى تعليم الدّيانة بدون رخصة. والملاحَظ في سنّ هذا القانون الجاني على العلم، وعلى معلّمه ومتعلّمه، هو تسليط الجهل على أفراد الأمّة، وإماتة شعورها وإحساسها حتّى لا تتنبّهَ إلى دسائس الاِستعمار ومكائده؛ ولا إلى ما يدبّره لها في الظهور والخفاء، من القضاء على دينها ووطنيّتها، ثمّ على عروبتها. وبعد التّسويف مدّة، وبعد عراقل[36] وصعوبات تحمل على اليأس، حصلتُ على رخصة ضيّقة مقيّدة بالإذن في قراءة فنون خاصّة مع الحجْر في باقيها؛ ولكنّي لم أقتصر على ما حدّدته الرّخصة، بل كنت أتعدّاه إلى قراءة ما أشاء. وفي بعض الأوقات يأتي على حين غفلة مفتّش من طرف الحكومة يراقب سير التّعليم ويسأل عن العمل بمقتضى ما في الرّخصة مع التّنبيه على جلب الكتب التي حجر القانون الفرنسيّ دخولها للقطر الجزائريّ. وهكذا تضغط الحكومة الفرنسيّة على حرّيّة التّعليم، وحرّيّة الرّأي، وحرّيّة الصّحافة، وسائر الحرّيّات...».[37]

وإنّما جئنا بكلّ هذا النّصّ لنمهّد به لتحليل الفقرة الخامسة من مقالة الإبراهيميّ، بتَفْقيرنا على كلّ حال، ولنبيّنَ أنّ الاستعمار الفرنسيّ كان يستمتع بعقاب المعلّمين والشّيوخ الذين كانوا ينتصبون لتدريس العربيّة والشّريعة الإسلاميّة؛ ولذلك نجد عامّة المستنيرين من المفكّرين الجزائريّين، وفي طليعتهم ابنُ باديس والإبراهيميّ، يتّخذون من المُطالَبة بحقّ تدريس العربيّة للأطفال الجزائريّين قضيّةً سياسيّة لم يزالوا يناضلون من أجل أن تتحقّق. بل إنّ ابن باديس يلاحظ في مذكّراته التي كتبها عن رحلته، رفقة الوفد الجزائريّ، إلى باريس سنة 1936 أنّ الأستاذ

---

36 كذا، ولا نعرف جمعاً في العربيّة بهذا البناء، وإنّما المعروف أن يقال: «عراقيل».

37 الطّيّب المهاجي، أنفس الذخائر، وأطيب المآثر، في أهمّ ما تّفق لي في الماضي والحاضر، ص.84-85. وهران، (دون تاريخ، لكنّنا نعلم أنّه طُبع في الأعوام السّتّين). وما يتحدّث عنه بالقياس إلى طلب الحصول على الرّخصة فقد كان، فيما يبدو، عام 1950 تقريباً.

الأمين العمّوديّ، حين استقبل فيوليط الوفد الجزائريّ المكوّن من العلماء والنّواب[38]، ذكّر المسؤول الفرنسيًّ الكبير «بمطلب حرّيّة التّعليم العربيّ؛ فأخذ [فيوليط] في مدح العربيّة وأنّها لغة تاريخيّة، ولغة علم؛ فمن المُحال أنّ أحداً يُبغضها أو يقاومها. فقلت له (يقول ابن باديس):

لكن مع الأسف أنّ اللّغة العربيّة محارَبة بالفعل من الإدارة الجزائريّة، وأنّ المسلمين يشعرون، من أجل ذلك، بألم شديد.

ونبّهت، (يلاحظ ابن باديس)، بعض الإخوان إلى أنّ م. فيوليط لَمّا كان يتكلّم على المَطالب كان يتكلّم بفصاحة واسترسال، فلمّا أخذ في الكلام على العربيّة لم يكن كما كان! فوافقوني على ذلك وقد كانوا تنبّهوا له مثلي».[39]

فإذا كان فيوليط يتلعثم لسانه، ويضطرب جَنانه، ويرتعش بنانُه؛ فلم يكن ذلك منه إلاّ لحقد يحمله للعربيّة، أو عقدة في نفسه منها؛ وإلاّ فما بالُه استحال إلى ما استحال إليه من التّلعثم والْعِيّ والاِضطراب بشهادة كلّ أعضاء الوفد الجزائريّ، وقد كان من بين الحضور عبد الحميد بن باديس، والأمين العمّوديّ، والطّيّب العقبي، ومحمد البشير الإبراهيميّ، ورئيس الوفد الدّكتور ابن جلول؟ !

ويتناول الإبراهيميّ في هذه الفقرة من مقالته السّياسة اللّغويّة للفرنسيّين في الجزائر فيلاحظ أن حكومة الاِستعمار في الجزائر، أو تلك المرأة العاهرة، عادت إلى ما كانت تقترفه من شرور؛ وقد ركّزت فعلاتها هذه المرّة على المدارس العربيّة ومعلّميها فأخذتْهم أخْذَ مستبدّ ظالم، وعدّت تعليم العربيّة جريمةً ترتكب في شأن

---

[38] لا نريد هنا أن نثير مسألة الخطأ أو الصّواب في ذهاب هذا الوفد إلى باريس ورجوعه بأيدٍ فارغة، فتلك مسألة أثارها المؤرّخون الجزائريّون، وعلماء السّياسة، وقالوا فيها ما قالوا...

[39] ابن باديس، مع الوفد الإسلاميّ الجزائريّ، في مجلّة الشّهاب، ج.7، م.12، في أكتوبر 1936.

الإنسانيّة؛ وهي وإن بـدأت إلى ازْدِجَـاءِ المعلّمـين إلى الْمَحـاكم الجـائرة «نَقَرَى»[40] في انتظار أن يغتديَ السَّوقُ جَفَلَى !

ونجد الكاتب يسخر من الإِسـتعمار الفرنسـيّ، في هـذا السّلوك الحـاقد علـى العربيّـة، فيقـول: «وحسْـبُ الاسـتعمار «ديمقراطيّـةً» أن يحـاكم معلّمـي العربيّـة والإسلام، ويسجنهم على التّعليم كما يحاكم المجرمين ويسـجنهم علـى الإجـرام، في محكمـة واحـدة، وسـجن واحـد، وظـرف واحـد». فمـن العجـب العجـاب أن يقـع التّساوي بين القتَلة والسُّرَّاق وقُطَّاع الطّرق، وبين معلّمـين ينشـرون النّـور، ويحـاربون الجـهل، ويبثـّون الفضيلـة والخـير بـين النّـاس ! لكـنْ لا عجـبَ مـن بشـاعة فعْـل الاستعمار الفرنسيّ في الجزائر.

<><><><><><><>

40 تستعمل العرب تعبيراً جارياً في كلامها القديم في الدّعوة إلى الطّعام: فإن كانت الدّعـوة خاصّة لمجموعـة مـن النّاس بالاسم، فهي دعوة نقرى، وأمّا إن كانت عامّة يحضرها من يشاء فهي دعوة جَفَلَى. واصطنع الكاتب لفـظ «النّقرى» هنا لسَوْق المعلّمين إلى المحاكم واحداً واحداً بأسمائهم، في انتظار تعميم ذلك الإجـراء ليشـمل كـل مـن يعلّم العربيّة...

الفصل الخامس

صورة مجازر ثامن مايو في المقالة الأدبيّة

فظاعة الاستعمار

مجازرُ رهيبةٌ لم يشهد التّاريخ لهـا مثيلاً مـن قبـل، تشبه مجـازرَ أصحـابِ الأخدود في التّاريخ القديم.

ومذابحُ فظيعةٌ لم تعرف الإنسانيّةُ لهـا نظيراً قـطّ، فيمـا عرفـتْ مـن مذابـحَ وهمجيّاتٍ: ارتكبها الجيش الفرنسيّ في الجزائر خلال يوم واحدٍ هو ثـامن مـايو مـن سنة خمسٍ وأربعين وتسعمائة وألفٍ. إنّه يوم ويالــه مـن يـوم حـالك السّـواد، دامـي الدّمع،

إنّا لا نتصوّر شعباً تعرّض للإبادة الجماعيّة، ودون مبرّرات يقتنع بها عـاقل، ومتحضّر، وإنسان، أمام أنظار العالم المتواطئ على الضّعفاء، وعلى مَرأىً من التّـاريخ الخامل؛ كما تعرّض الشّعب الجزائـريّ للتّقتيل منـذ اليـوم الأوّل الـذي وطِئـتْ فيـه أقدام الفرنسيّين الجزائر، وعبْرَ فترات متلاحقـة مـن التّقتيـل، تخِـفّ وتقـلّ حينـاً، لتعودَ فتَشْرُسَ وتتكاثرَ أحياناً أخرى.

ولقد بلغت الإبـادة الجماعيّـة، المتهمّجـة، العنصريّـة، (وكـلّ الألفـاظ، كمـا اعترف ببعض ذلك الوفد الفرنسيّ نفسُه الذي زار الجزائـر مـن بعـد المذبحـة ببضـع سنوات...، كما سنرى في بعض هذا الفصل: تبدو غير قادرةٍ على التّعبير عـن حجـم المأساة، وضخامة الكارثة، وهول الجريمة) أوجَها في ثامن مايو 1945.

لقـد أراد الجزائريّـون أن يعـبّروا في مظـاهرات مرخّـصٍ لهــا مــن السّـلطات الإستعماريّة نفسِها، كما يذكر ذلك فرحات عبّاس[1]، عن تطلّعـهم العـارم إلى الحرّيّـة التي بدأ الغربيّون يتشدّقون بها منذ انتهاء الحرب العالميّة الثانية الـتي انتصـر فيـها الحلفاء على الألمانيّين في حرب مدمّرة جنونيّة خلفت عشرات الملايـين مـن الضّحايـا

---

[1] فرحات عبّاس، ليل الإستعمار، 1. 186–187.

في أوربا واليابان خصوصاً... لكنّ الجزائريّين لم يكونوا فهِموا حقيقة الاستعمار الذي كان يجثم على كواهلهم، فيما يبدو؛ وذلك على قُرْب الوِسَاد، وطول السَّوَاد، كما تعبّر هند بنت الخُسّ! فكأنّ الجزائريّين كانوا لا يبرحون يعتقدون أنّ الإستعمار الفرنسيّ سيعترف للجزائر بشيء من الجميل، وسيُقرّ لها ببعض ما نهَب من خيراتها طوال أكثر من قرن، فأثرى بعد أن كان مديناً لها بمقابل الكمّيّات الهائلة من الموادّ الغذائيّة ومنها القمح الجزائريّ العالي الجودة؛ وسيَجزي الذين حاربوا معه، بالأمس القريب، والبعيد، فماتوا هدْراً، وقُتِلوا سُدىً: الْحُسْنَى، فيمنحهم الحرّيّة التي سلبها منهم في خامس يوليو من سنة ثلاثين وثمانمائة وألف...

لم يكونوا، إلى ذلك اليوم، يعتقدون أنّ فرنسا ستجزيهم جزاء سنمّار، وستصبّ عليهم جام غضبها، وستكشر لهم عن مخالبَ مفترسة لم يكونوا رأوها منها قطّ؛ وستعوّض تعرّضَها للاحتلال الألمانيّ، وهزيمتها المخزية أمامه حتّى جاء الأمريكان فحرّروها، بهذا الانتقام البشِع العديمِ النّظيرِ منهم.

والذي يلاحظ أنّ «قمْع هذه المظاهرات كان وحشيّاً جداً، رهيباً جدّاً؛ نتج عنه سيل سائل من الدّماء، وفتْكٌ ذريع بالأبرياء. ذلك بأنّ الفرنسيّين اصطنعوا في قمْعها، وإخماد نيرانها، كلّ ما كانوا يملكون يومئذ من أسلحة بحرية وجوّيّة وبرّيّة. كلّ ذلك انتقاماً لطائفة قليلة من الأوربيّين. فكأنّهم قرّروا أن يقتلوا بكلّ واحد من الأوربيّين ألف جزائريّ. ينضاف إلى ذلك تخريب القرى، والاعتداء على شرف النّساء، والسّطو على الممتلكات. وكأنّه عزّ على الجيش الفرنسيّ أن ينهزم أمام النّازيّين، فقام بهذه الجولة الآثمة مع شعب أعزل، وأطفال أبرياء، ونساء لا حول لهنّ ولا طول».[2]

---

[2] عبد الملك مرتاض، فنون النّثر الأدبيّ في الجزائر، 1931-1954، ص.20.

ولقد شاع في الدّراسـات التّاريخيّـة الوطنيّـة أنّ عـدد الضّحايـا، في يـوم ثـامن مايو، بلغ خمسة وأربعين ألفاً؛ وعلى الرّغم من أنّ تحديد مثل هذا العـدد لا يعـني، بموضوعيّة، الدّقّة الحقيقيّة؛ إلاّ أنّه يعني هول الكارثة، وأنّ المذبحـة كـانت نجلاءَ إلى الحدّ الـذي لا يمكـن للعقـل البشـريّ تصـوّرُه؛ وذلـك ممّـا حمـل بعـض الكتّـاب الفرنسيّين على أن يرتفع بهذا العدد إلى ستّين ألف ضحيّـة[3] أو يزيـدون، ممّـا كـانوا يَعُدّون. وإذا كان العدد الـذي ذكـره ريبـو هنـا، هـو أيضـاً، ليـس دقيقـاً، ولا أحـد يستطيع معرفته إلاّ أن يكون الرّسميّون الفرنسيّون من خلال مراقبة شأن عدد السّكّان بتنظيم إحصائهم من حين إلى حين (وهو أمر سيظلّ سرّيّاً إلى الأبد، لأنّ الكشف عـن الفضائح والجرائم يفتقر إلى شجاعة أخلاقيّة استثنائيّة...)؛ فإنّنـا، مـع ذلـك، نميـل إلى رقم السّتّين ألفاً الذي ذكره الكاتب الفرنسيّ بول ريبو من بـاب شـهِدَ شـاهدٌ مـن أهلها. وإنّا لا ندري ما منع المؤرّخين الجزائريّين من تبنّي هذا الرّقم باعتبـاره صـادراً عن كاتب فرنسيّ؟

ولعلّ للقارئ غيرِ المُلِمّ بأسباب هذه المجزرة الحقّ في أن يتساءل عن الأسباب التي كانت وراءها، والدّوافع التي أفضت إلى إضرامها؛ ونحن نعتقد أنّ الأسباب هي من التّفاهة بحيث يمكن للمؤرّخ أن يَعُدّها غير أسبابٍ على الإطـلاق. يقـول فرحـات عبّاس، وهو أفضل مَن يمكن أن يكون كتـب عـن هـذه المذابـح لمعايشـته، شـخصيّاً، أوجُهاً من مأساتها:

«في فاتح ماي نظّم حزب الشّعب، كان إذ ذاك ممنوعـا، مظـاهرات احتجـاج ضدّ إبقاء مصالي الحاج في الإقامة الجبريّة، أسفرت في العاصمـة عـن قتـل جزائـريّ، وجرح عدد من المواطنين. وكذلك في مدينة سطيف تظاهر أكثر من أربعة آلاف فـلاّح.

---

[3]Cf. Paul Reboux, NOTRE (?) AFRIQUE DU NORD , p.254-266.

وكانت هذه المظاهرات بمثابة إنذار خطير. كان الجوّ مكـهرباً، وكـانت الحالـة تنذر بالويل».[4]

«وفي يوم الثلاثاء ثامن مايو تشكّل موكب حافل بمدينة سـطيف، وانطلق من حيّ المحطّة، قرب المسجد الجديد، ثمّ توجّه إلى المدينة. وكـان محفوفاً بالشّرطة، ومشى ألف مترٍ حاملاً الرّاية الجزائريّة.

وما كاد الموكب يزحف إلى وسط المدينة حتّـى بـرز محـافظ الشّـرطة، وحـاول انتزاع الرّاية الجزائريّة من حاملها الذي رفض تسليمها. فما كان مـن الشّرطة إلاّ أن أطلقت النّـار علـى المتظـاهرين؛ فتسـاقط الجزائريّـون ضحايـا. ولكنّـهم انطلقـوا وراء الأوربيّين يطاردونهم في مدينة سطيف ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً. وقد بلـغ عـدد القتلى من الأوربيّين زهاء مائة قتيل...».[5]

وإذا كان فرحات عبّاس يتحـدّث عـن فتْـك المتظـاهرين الجزائريّـين الثـائرين بالأوربيّين، فقد تحدّث أيضاً عمّن بدأ بالقتل؛ وذلك بـإطلاق النّـار علـى المتظـاهرين الذين كانوا يسيرون في الشّوارع بنظام وهدوء، وبترخيص من عامل عمالة قسنطينة[6]: وهم الفرنسيّون. فاللّوم يُنْحَى به، إذن، على من بدأ، وليس على مـن ردّ علـى مَـن بدأ! فالسّلطات الاستعماريّة في الجزائر هي المسؤولة عن أعمال العنـف الـتي بـادرت إلى البدء بها، بنفسها. فكأنّ ذلك منها كان مقصوداً؛ ولعلّه كان ضرْباً من الاستفزاز!

---

4 فرحات عبّاس، ليل الاِستعمار، 1. 187. ترجمة أبي بكر رحال، طبع بفضالة، المغرب (د.ت).

5 عبد الملك مرتاض، فنونِ النّثر الأدبي في الجزائر، ص.19. وقد أخذ أصل التّوثيق عـن فرحـات عباس، ليل الاستعمار، 1. 188. وممن عالج هذه الذبحة من المؤرّخين والدّارسين:

- فرحات عباس، ليل الاستعمار، 1. 186-193 وهو أدقّ المصادر وأفضلها بالقياس إلى هذه المسألة،
- أحمد توفيق المدنيّ، هذه هي الجزائر، 178-179،
- ليون فيكس، الجزائر حتف الاستعمار، ترجمة محمّد عيتاني، نشر مكتبة المعارف، بيروت (د.ت)،
- محمد علي كرد، المذكرات، 3. 736-737، + ج.4، 1004.

-Paul Reboux, NOTRE (?) AFRIQUE DU NORD, p. 254-266.

6 ينظر فرحات عباس، م.م.س.، ص.186-187.

وهنالك عمَد الفرنسيّون، في الجزائر، في سَوْرة من جنون، وفي غلَيان من حقد، يشبه البركان الهائج، إلى قتْل كلّ من يتحرّك من الجزائريّين، دون أن يحتجّ مُحتجٌّ، أو يندّد مندّد، من العالم «المتحضّر». بل ارتكب الفرنسيّون تلك المجازر في غياب أيّ لوم دوليّ، فيما نعلم. ولو كانت جمعيّة حقوق الحيوانات التي تشرف عليها بريجيت باردو اليوم موجودة يومئذ، لكانت ربما احتجّت على حكومتها في غياب جمعيّات حقوق الإنسان، المزعومة!

فلو قَتل اليومَ جيشٌ نظاميّ، أو حاكم مستبدّ، بضعة أفرادٍ، من رعايا الدّول الغربيّة الثلاثِ أو الأربع الأولى في العالم، صبراً؛ لقامت قيامة منظّمات حقوق الإنسان، لمحاكمة القاتلين على أنّهم مجرمُو حربٍ، وعلى أنّهم انتهكوا حقوق الإنسان، ولخفّت الجيوش بقَضّها وقَضِيضها للانتقام لهم، ولاضطرب العالمُ كلّه اضطراباً شديداً لهول ما وقع، ولبشاعة ما حدث... وكأنّ الحربَ في نفسها نوعان: حربٌ نظيفة بريئة طاهرة، وحربٌ قذرة مجرمة. وكأنّ الحرب في ذاتها ضرْبان: حربٌ يعاقب القانون الدّوليّ عليها إذا شملت أفراداً من دول معيّنة استبدّت بالهيمنة على خيرات العالم؛ وحربٌ لا يعاقب عليها إذا طاوَلَتْ أفراداً من نوع خاصّ من البشر كأن ينتموا إلى هذا الشّعب أو ذاك؛ من المغضوب عليهم والضّالّين، لكنْ لاَ آمين!!...

ولذلك لم يلتفتْ أحدٌ إلى ما اقترفتْه أيادي الإِستعماريّين الفرنسيّين في الجزائر، ولا حمَل المؤرّخين الأجانبَ حتّى على الإدانة التّقليديّة لِما ارتُكب في الجزائر من جرائم في حقّ الشّعب الجزائري، ومن ثمّ في حقّ الإنسانيّة. ومن الآيات على ذلك أنّ كارل بروكلمان، مثلاً، لم يُشر إلى هذه المذبحة حين تحدّث عن

حركات المقاومة الوطنيّة في الجزائـر بكلمـة واحـدة، بـل اعتـبر أنّ المقاومـة الوطنيّـة انتهت بأسر بومزراق، أخي الحاج مقراني، وانتهى الأمر ![7]

لقد تركت تلك المذابح التي جرت في مدن الشّرق الجزائريّ بعامّة، وخصوصاً في مدن سطيف، وقالمة، وخرّاطة، الشّـهيدة: آثاراً مـن الأحـزان عميقـةً في نفوس الجزائريّين؛ وجعلتهم يقتنعون بأنّه لا أمل لهم في الخلاص مـن الاِسـتعمار الفرنسـيّ البشع إلاّ بالتّضحية الفادحة بتقديم مئات من ألوف الشّـهداء، واستعمال القوّة مع القوّة.

ونحن نعتقد أنّ مذابح ثامن مايو سـارعت إلى إشعال فتيـل الثـورة الجزائريّـة التي ستندلع في فاتح نوفمبر 1954. ونلاحظ أنّ الاِستعمار الفرنسيّ منح، فيما بعد، كلّ الأقطار الإفريقيّة الـتي كـان يستعمرها، ليتفـرّغ لمحاربـة الجزائريّـين وحدَهم، وتقتيلهم! ولعلّ من المصادفة التّاريخيّة، ولا مصادفـة في التّـاريخ، أنّ الشّعوب التي حاربت من أجل استقلالها، بدرجات متفاوتة في الشّراسة وتقديم الضّحايا، هي فقط ثلاثةُ شعوبٍ عربيّة إسلاميّة: الجزائر، وتونـس، والمغـرب. وإلاّ فبـمَ نفسّـر مسارعة الفرنسيّين إلى منْح الشّعوب الإفريقيّة التي كانت تحتلّـها والـتي لم تكـن توفُـر فيـها هاتان الخاصّيّتان، استقلالَها دون إطلاق خرطوشـة واحـدة، جملـة وتفصيـلاً، ودون حتّى مطالبتها باستقلالها عن فرنسا...؟!

وأيّا ما يكن الشّأن، فإنّ ذلك اليـوم الأسود دخـل التّـاريخ في الحيـاة العامّـة للشّعب الجزائريّ حيث لا يـزال إلى اليوم يتذكّـر منـه فظاعـة جرائـم الفرنسـيّين في الجزائر، ويترحّم على أرواح الضّحايا بحزن عميق.

ولذلك لم يكن ممكناً أن يمرّ هذا الحدث المَهُول دون أن يُحْدث رجّـة كـبرى في نفوس الأدباء الجزائريّين شعراء وكتّاباً. فكتب عنه، لأوّل مرّة في حدود مـا بلغنـاه

---

[7] ينظر كارل بروكلمان، تاريخ الشّعوب الإسلاميّة، ص. 628-629.

من العلم، محمّد البشير الإبراهيميّ مقالة واحدة، وكتب عنه باعزيز بن عمر مقالتين اثنتين، نثراً؛ كما كتب عنه الشّاعران الشّهيدان: الرّبيع بوشامّة، وعبد الكريم العقون قصيدتين اثنتين.

وقبل أن نعمد إلى قراءة بعض هذه النّصوص الأدبيّة الجزائريّة نودّ أن ننقل نصّاً نادراً ورد على لسان الوفد الفرنسيّ الذي زار الجزائر في شهر أبريل 1954، وكان مؤلّفاً حسب جريدة البصائر الثانية من فرانسو ميتران، والسّيد مارتيني، محرّر جريدة «الملاحظ» (الأبسرفاتور)، والأستاذ فيال[8] بعنوان: «8 ماي» ورد فيه:

«ثمّ رأينا، ويا لهول ما رأينا! رأينا الآثار المؤلمة التي تركتها مذابح سطيف وقالمة، وما جاورها من البلاد، والتي وقعت يوم 8 ماي 1945. سمعنا من الضّحايا أنفسِهم، ومن أولاد المقتولين وبناتهم؛ وكيف وقعت هاتيك المجازر البشريّة، وكيف اقتُرِفت هاتيك الآثام الفظيعة. رأينا رأيَ العين تلك الآثار التي لا تزال مسجّلةً إلى الأبد على أجسام الضّحايا من رجال ونساء.

وإنّ نفَسي لينقطع، وإنّ لساني ليخرس، وإنّ الذهول لَيستولي عليّ[9] إذا ما أنا حاولت وصْفَ تلك الموبقة الجهنّميّة التي كانت تلك البقعة الغنيّة من أرض الجزائر مسرحاً لها. إنّنا في فرنسا رأينا فظاعة الاحتلال النّازيّ، وصهرَتْنا نار الزّجر الهتليريّ؛ وكان رجالنا ضحايا الفرن الإنسانيّ؛ لكنّنا إذا علمنا ما وقع في بلادكم خلال تلك الأيّام الحمراء، رأينا أنّ التّعادل واقعٌ بين الفظاعتين.

ومن العجب أنّ من القوم من لا يزال يفتخر بذلك؛ فقد قرأنا على رخامة منقوشة في معبر خراطة هذه الكلمة التّذكاريّة: «اللّفيف الأجنبيّ، سنة 1945.

---

[8] تراجع البصائر، ع.270 في 7 مايو 1954 ص.1 و8.
[9] يقول ذلك محرّر البيان الذي تُلي أمام الصّحافة الفرنسيّة بباريس.

لا ، إنّ اللّسان لا يستطيع الوصف المدقّق. فكلّ الكلمات تتضاءل أمام هول ما رأينا وما سمعنا!...»[10].

فهذه وثيقة كتبها فرنسيّون منصفون بعد أن زاروا الجزائر، فشاهدوا من عقابيل تلك المذابح ما شاهدوا، فلم يتمالكوا أن نطقوا بالحقيقة؛ وهي لا تقلّ وصْفاً للفظاعة والهول من الكتابات الجزائريّة التي سنتوقّف لديها لقراءتها، وتحليل أطراف منها.

أوّلاً: صورة ثامن مايو في الكتابات الأدبيّة الجزائريّة

1.ثامن مايو في كتابات محمّد البشير الإبراهيمي.

لقد تفرّد محمّد البشير الإبراهيمي، بكتابة مقالة وحيدة، ولكنّها رائدة وغيرُ مسبوقةٍ، بالإضافة إلى أنّها مصوِّرة معبّرة لهذه المناسبة الوطنيّة الأليمة بالعنوان نفسِه الذي سيكتب به باعزيز بن عمر، مقالتين اثنتين، وهو «ذكرى ثامن ماي».

والحقّ أنّ الإبراهيمي هو الذي كان مبادراً إلى الكتابة عن هذه المناسبة، منذ عام 1948، كما سبقت الإيماءة إلى ذلك؛ من أجل ذلك سبّقناه في التّرتيب على باعزيز بن عمر الذي سيكتب عن هذه الذكرى الأليمة عامي 1949، و1951..

افتتح الإبراهيمي مقالته التي قسّمها إلى تِسْعِ فقراتٍ بتصوير بديع لذلك اليوم المشؤوم في تاريخ الشّعب الجزائريّ الذي كأنّ القتل إنّما كُتِب عليه وحدَه، من دون الشّعوب الأخرى التي تنعم بالأمن والسّعادة والرّخاء... فكأنّ كلّ الشّعوب غانيات

---

[10] من كلمة الوفد الفرنسيّ الذي ألقاها في ندوة صحفيّة بباريس، وهو الوفد الذي كان زار الجزائر في شهر أبريل 1954.

تجرّ الذيول إلاّ الشّعب الجزائـريّ الشّـقيّ!... فكتـب الشّـيخ يقـول عـن هـذا اليـوم المشؤوم:

«يوم مظلمُ الجوانبِ بالظُّلم، مطرّزُ الحواشي بالدّماء المطلولة، مُقْشـعرّ الأرض من بطش الأقوياء، مبتهج السّماء بأرواح الشّهداء. خلَعتْ شمسُه طبيعتَـها فـلا حيـاةَ ولا نُور. وخرج شهرُه عن طاعة الرّبيع فلا ثمْر ولا نُوْر. وغُبنتْ حقيقتُه عنـد الأقـلام فلا تصوير ولا تدوين».[11]

ليس هذا اليومُ في مَشْأَمَتِه ومأساته، وفي ظُلمه وظُلماته، وفي ضحايـاه ودمائـه، وفي دموع نسائه، وفي عويل عجائزه، وفي بكاء أطفاله، وفي صراخ شبابه، وفي جُـؤّار شيوخِه، وفي تمـزّق أشـلائه... وفي وحشـيّة لفيفِـه، وفي نـيران مَدافعـه، وفي همجيّـة ضبّاطه، وفي حِقد أعدائه... كأيّ يومٍ من أيّام اللّه التي تمرّ بنا، أو نمـرّ بـها، رتيبـةً فلا يغشاها حدث، وعاديّة لا يعرض فيها شأن...

لقد تمـرّد هـذا اليـوم علـى انتمائـه إلى الرّبيـع البديـع، واسـتحال إلى طبيعـة مكفهرّة، ونبْتٍ غُثاء، وثمْر فِجّ، وزهْر ذابل؛ فكأنّه يوم مـن أيّـام الشّـقاء والأوجـاع، والعذاب والنّكال...

ومن عجبٍ أنّ الأقلام الجزائريّة كأنّها تكسّرت، أو جـفّ حِبرُهـا، فلم تكـد تكتب عنه إلاّ شيئاً قليلاً؛ فلا الشّعراءُ فاضت قرائحُــهم فصوّروه، إلاّ اثنـين منـهم؛ ولا الكتّابُ اخْصَوصَب خيالُهم فخلّدوه، إلاّ اثنين منهم أيضاً. بل غُبنت حقيقتُه فـلا تصويرَ له في الأدب ولا تدوين.

ولعلّ الإبراهيميّ بمبادرته هذه إلى الكتابـة عـن ثـامن مـايو هـو الـذي حمـل باعزيز بن عمر من الكتّاب؛ والرّبيع بوشامّة وعبد الكريم العقون من الشّـعراء، على

[11] محمد البشير الإبراهيمي، ذكرى ثامن ماي، في البصائر الثانية، عدد 35 في 10 مايو 1948، ص 1، فقرة أولى، عمود أوّل.

أن يكتبوا عنه شيئاً. ولعلّ ذلك كان بتوجيه منه وهو الذي كان رئيساً لتحرير جريدة «البصائر» التي استأثرت بتخليد هذا اليوم وحدَها، وذلك في حدود ما بلغناه نحن على الأقلّ من العلم... وإلاّ لَما كنّا ظفِرنا بنصّ أدبيّ واحد يتحدّث عن هذا اليوم المُدْمَى... ولكان ذهب هدْراً؛ لأنّ التّاريخ يحاول سرد الحقائق بالأرقام إن ظفِر بها، وأمّا الأدب فهو وحده المؤثّر المصوّر.

فالقدَر لم يقسُ على الشّعب الجزائريّ فكان من أمره مع الفرنسيّين ما كان فحسبُ؛ ولكنّه أصيب ببلَه سرت عدواه في الأدباء الجزائريّين المعاصرين للمذبحة، فلم يلتفتْ إليه إلاّ أربعةٌ منهم، وهم مكرَّمون!

ويتناول محمّد البشير الإبراهيمي مسألة تجنيد الفتيان الجزائريّين إلى جانب العساكر الفرنسيّين للدّفاع عن فرنسا، وكيف جزاهم الاِستعمار، جزاء سنمّار! وكيف جازى تضحيتهم بأنفسهم وأرواحهم بأنْ عمَد إلى التّضحية بآبائهم وأمهاتهم وإخوانهم؛ فكان أناس يحتفلون بعيد النّصر هناك، وكان آخرون يتجرّعون كأس الموت هنا، وهم صابرون. وكان النّاس، هناك، يزْدَهون بأنّ الحرب انتهت في أوربا، وكان آخرون في الجزائر يُساقون إلى الموت في مجزرة متوحّشة وهم ينظرون:

«فلمّا سكن الإعصار، وتنفّست الأمم في جوّ من السّلم، تهيّأتْ كلّ أمّة أن تستقبلَ بقايا النّار من شبابها، وكلّ أمّ أن تعانق وحيدها: عادتْ إلى الاِستعمار ألوهيّتُه وحيوانيّته في لحظة واحدة؛ يحادّ اللّه بتلك، ويغتال عبده بهذه. وعاد بالتّقتيل على من كانوا بالأمس يمدّون حياته بحياتهم، ليُرِيَهم مبلغ الصّدق في تلك الوعود، ويحدّثهم بلغة الدّم ومنطق الأشلاء، أنّه إنّما أقام سوق الحرب ليشتريَ حياته بموتهم، وليرمّ جداره بهدْم ديارهم (...). وكذلك كان! فقد فتح النّاس أعينهم في يوم واحدٍ على بشائرَ تدقّ بالنّصر، وعلى عشائر من «المنتصرين» تُساق للنّحر. وفتحوا آذانهم على مدافع للتّبشير، وأخرى للتّدمير. وعلى أخبار تؤذن بأن

الدّماء رقأتْ في العالم كلّه، وأخرى تقول: إنّ الدّماء أريقت في جزء صغير من العالم هو تلك القرى المنكوبة من مقاطعة قسنطينة. وفي لحظة واحدة تسامع العالم بأنّ الحرب انتهت مساء أمس ببرلين، وابتدأت صباح اليوم بالجزائر...».[12]

كيف وقع ما وقع؟ وكيف نزلت الصّاعقة؟ ولِمَ طاوَلت الجزائريّين هذه الصّاخّة؟ وما ذنبُهم في التّاريخ فتساور تاريخَهم هذه الطّامّة؟ وبمَ سيجيب الفرنسيّون التّاريخ، يوم أن يصبح التّاريخ تاريخاً، إذا قيل لهم: بأيّ ذنْبٍ قُتِلتْ نفْسٌ زكيّة؟ وهل كان ذلك مجرّد مصادفة أم كان أمراً مبيّتاً، وشأناً مدبّراً؟ وهل كان جنود اللّفيف الأجنبيّ الذين خرجوا مدجّجين بالسّلاح في نواحٍ من شرقيّ الجزائر من أجل الاستعراض والإِحتفال، أم خرجوا من أجل الإِغتيال والاعتداء، والبطش بالأرواح في خُيَلاء؟ أيّ قلوب كانت لأولئك القتلَة حين كانوا يقتلون؟ وهل علّموهم حين كانوا يدرّبونهم أنّ مهمّتهم الحربيّة ستكون قتل المدنيّين الأبرياء الأشقياء؟ وما لهم، ثكِلتْهم أمّهاتُهم، لمْ يفزَعوا وهم يقترفون ما يقترفون، إلى بقيّة من ضمير، وإلى صُبابة من مروءة، لو كانوا حقّاً من البشر كما كانوا يزعمون.

وكيف كان النّاس في أوربا يحتفلون بالنّصر والسّلام، وكيف كان آخرون في الجزائر، القليلة الحظّ في التّاريخ، يتجرّعون كؤوس الرّدى وهم يحترقون؟ أيّ منطق هذا إن كان للمنطق منطقٌ يقعّد له، ويؤسّس لمعاييره؟

وتلتهب عواطف الإبراهيميّ، ويحتدّ غضبه ممّا ارتكب الإِستعمار من مذابحَ كان ضحاياها عزّلاً فقراءَ ضعفاء مستعبَدين؛ فيصرخ في وجه هذا الإِستعمار المشؤوم، داعيا عليه؛ والدّعاء سلاح الضّعيف المظلوم:

«لك الويلُ أيها الإِستعمارُ! أهذا جزاءُ مَن استنجدْتَه ساعةَ العُسرة فأنجدك، واستصرختَه حين أيقنت بالعدَم فأوجدك؟ أهذا جزاءُ من كان يسهَر وأبناؤك نِيَام،

[12] م.س.، عمود ان2و3.

ويجوع أهله وأهلك بطَان؛ ويثبُت في العواصف التي تطير فيها نفوس أبنائك شَعَاعاً؟ أيشرّفك أن ينقلب الجزائريّ من ميدان القتال إلى أهله بعد أن شاركك في النّصر لا في الغنيمة، ولعلّ فرحه بانتصارك مُساو لفرحه بالسّلامة: فيجد الأب قتيلاً، والأمّ مجنونةً من الفزع، والدّارَ مهدومةً أو محرّقةً، والغَلّةَ مُتْلفةً، والعِرضَ منتهكاً، والمالَ نهبا مقسّما، والصّغار هائمين؟»[13].

يستحيل الكاتب هنا إلى مقرّع كالقارعة لهذا الاستعمار الظّالم الغاشم، وهو الذي لا يرعَى عهْداً ولا إلاًّ، ولا يحترم وعْداً ولا ميثاقاً؛ فبعد أن قدّم إليه الجزائريّون ما قدّموا؛ فأنقذوه من الفَناء المحتوم الذي كان يهدّدهم به الألمان؛ هاهو ذا اليوم يسارع إلى مُجازاتهم جزاءَ سِنِمّار بكلّ برودةِ دمٍ، ودون مَضَاضة أو ندَم؛ فيقتل بعشرات الآلاف، ويبيد بالجملة والتّفصيل، ويُفني الصّغار والكبار، ويغتال الرّجال والنّساء، ويُطاولُ الفقراء والأغنياء؛ يكفي الجزائريّ أن يكون جزائريّاً فقط ليُصبح قتْلُه مباحاً، ودمه مطلولاً، وعِرْضُه منتهكاً!...

أيّ شيء هذا الاستعمار وما هو!؟

يستحيل أن يكون من بني آدم فيصنَّف في البشر؛ ويستحيل أن يكون على حظّ من التّحضّر فيجوز أن ينتميَ إلى البدو أو الحضَر. يستحيل عليه أن يكون إلاّ استعماراً لا إنسانيّة له، واحتلالاً لا مَروءةَ فيه، ووحشاً لا حنان ولا لينَ في سلوكه ، وظالماً لا عدلَ ولا إنصافَ في سيرته...

ويختم محمّد البشير الإبراهيميّ مقالته البديعة بهذه الفقرة، وهي التّاسعة في تفقير مقالته:

«يا يوم!...

[13] م.س.، ص.1، عمود 4.

لك في نفوسنا السِّمة التي لا تُمحَى، والذكرى الـتي لا تُنسى. فكن مـن أيّـة سنةٍ شئت فأنت يوم ثامن ماي وكفى! وكلّ ما لك علينا من دَين أن نُحْيـيَ ذكْـراك. وكلّ ما علينا لك من واجب أن ندوّن تاريخَك في الطّروس، لئلاّ يمسَحَه النّسيانُ مـن النّفوس». [14]

إنّها احترافيّة بادية في كتابــة هـذه المقالـة الأدبيّـة السّياسـيّة؛ فـالفقرة الأولى تصف اليوم بالظّلاميّة والظّلم، والرّعب والبطش، والدّماء المُرَاقة، والأشلاء المُزهَقة... ولا يزال الكاتب يتدرّج إلى أن يبلغ الفقرة السّابعة التي يلعن فيها الاستعمارَ ويؤنّبه، ويعنف به ويوبّخه، على أفعاله المنكرة، وسيرته الآثمة إزاء الشّعب الجزائريّ الـذي كابد من احتلالــه مـا كـابد؛ وينتـهي إلى الفقـرة التّاسـعة، والأخـيرة، مـن مقالتـه، فيخاطب يوم ثامن مايو، وأنّه لن ينساه الجزائريّون، وأنّـه لِيَكُـنْ مـن أيّـة سـنةٍ مـن الدّهر؛ فالمهمّ أن يكون منها في يومٍ ثامنٍ، من شهرٍ خامسٍ...

وقد عاهد الكاتب هـذا اليـوم وهـو يخاطبـه أنّ الجزائريّـين سـيظلّون يُحْيُونـه بـالتّرحّم والاعتبـار، ويُحَيُّونـه بـالتّقدير والإجـلال، ويذكُرونـه في نفوسـهم بالإكبــار والإعظام؛ فليس لهم إلاّ ذلك... وقد وقع ما وقع!

ليس لهم إلاّ ذلك، بالأمس واليـوم، وهـم مـن ضعـف القوّة وقلّـة الحيلـة مـا يجعلهم لا يطالبون بتعويض، ولا حتّى باعتذار من الدّولة التي فعلت بهم ما فعلـت! كذلك سخريّة القدَر، وبلاهة التّاريخ، وعبَث السّياسة، ونِفاق العَلاقات الدّوليّة الـتي لا تقوم على المساواة في التّعامل إلاّ ظاهريّاً...

---

[14] م.س.

2.ثامن مايو في كتابات باعزيز بن عمر:

كَتب باعزيز بن عمر عن هذه الذكرى مقالتين اثنتين جميلتين كلتاهما بعنوان: «ذكرى ثامن ماي»، ونُشرتا معاً في افتتاحيّة البصائر الأولى[15]:

وورد في مطلع المقالة الأولى:

«إنّ عهود الاِستعمار كلّها عهودُ ظلم وإرهاب واعتداء على الحرّيّات والحرمات؛ وأيّامه كلّها أيّام سود في تاريخ البشريّة، وصحائف تاريخه كلّها تمجيد للطّغيان، وسفْك للدّماء، وقتْلٌ للمواهب، وخنْق للحرّيّات، وتمكين للاستبداد، وإبادة للشّعوب والأمم.

والاِستعمارُ – بمعنى غزو أمّةٍ لأخرى، واعتداء شعب على آخرَ- قوّةٌ عمياءُ تغذيها الفوارق القائمةُ بين الأمّتين، أو الشّعبين، في الجنس واللّغة، والدّين، والمصلحة؛ وتوجّهها العنصريّة المسلّحة؛ فتسير في الأرض لا تعرف قانوناً، ولا تدين بشريعة، إلاّ ما تضعه وتسنّه؛ وذلك كلّه يتلخّص في شيء واحدٍ: القضاء على الأمّة المغزوّة المغلوبة بوسائل مسطورة يرثها الخلف عن السّلف، وفي مقدّماتها تجريدها من مادّيّتها ومعنويّاتها كلّها؛ فلا غِنىً ولا دين، ولا عِلم ولا أدب. ثمّ الزّجر والقمع والرّدع عن طريق الإكثار من المذابح والجرائم والضحايا التي يلجأ إليها المستعمِر كلّما أحسّ بانقباض النّفوس، وانطواء القلوب، على كرهه.

والاستعمار قوّة عمياء، والمستعمر قويّ أعمى؛ لكنّه يرهب الضّعف، ولا يأمن العاقبة، ولا تزيده النّذر إلاّ عمىً وضلالاً، وإمعاناً في الطّغيان وعُتُوّاً ونفورا، واستكباراً في الأرض.

ولو ذهبنا نُحصي مآسيَه وضحاياهُ وجرائمه منذ نزل بأرضنا لَما استطعنا أن نحصيها».[16]

---

[15] البصائر الثانية، ع. 79 في 9 مايو 1949، الافتتاحيّة؛ ع. 155 في 14 ماي 1951 (الافتتاحيّة).
[16] باعزيز بن عمر، م.س. ص.1، عمود1.

نجد الكاتب في هذه المقالة الرّفيعةِ اللّغةِ، الأنيقةِ الأسلوبِ، الطّويلـةِ النّفَسِ، النّبيلة المضمون؛ والتي هي أهلٌ، فعلاً، لأن تكـونَ افتتاحيّـة «البصـائر» حيث لم يكن من الميسور على أيّ كاتب جزائريّ أن يَحظى بشرف كتابـة افتتاحيّتـها: يقدّم لموضوعه بالحديث عن سيرة الاستعمار من حيـث هـو قـوّة عاتيَـة، وغاشمـة ظالمـة، وغازية متسلّطة على الأمم والشّعوب التي تحتلّها بقوّة الحديد والنّار، ثمّ تسير فيـها سيرةً عُرفيّة لا تحترم القانون الدّوليّ، ولا ترعى المبادئ الدّينيّـة الـتي توصي بحفـظ حقوق النّاس على الأرض...

والإِستعمار الفرنسيّ في الجزائر بوجه خاصّ عـاث في الأرض فسـاداً، وجلـب على الشّعب الجزائريّ بالتّذبيح والتّقتيل، وصبّ عليه أسواطاً من العـذاب والنّكـال؛ حتّى فقَد كرامته، وضيّع عليه الاسـتعمارُ إنسـانيَّته؛ فأمسـى مجـرّدَ شـعب مسـتعبَدٍ يعيش تحت قيود الذلّ، ويرسف في أغلال الاِضطهاد.

ثمّ يتدرّج الكاتب إلى موضوع المقالة، وهو مذابح ثامن مايو فيقول:

«فذكرى ثامن ماي هي ذكرى ضحاياه التي بلغتْ 40.000 ألفـاً[17] حصدتـهم قوّته العمياءُ بقنابلها ومدافعها بين عشيّة وضحاها؛ فسـقط الشّيخ والكـهل والشّابّ والفتاة وربّة البيت والرّضيع ومن يحبو من الصّبْية والأطفال صرعى وحشـيّةِ جنـودِه، وضحايا رصاصه.

فاض الاستعمار في هذا اليوم المشؤوم كالبركان، فقذف كلّ مـا في أحشـائه مـن الحُمم واليَحْموم والنّار، فذبّح تذبيحاً، وقتّل تقتيلاً.

فذكرى ثامن ماي مؤلمة إيلاماً شديداً لا يفتأ يحزّ في النّفوس إلى الأبد، وإنّـها، لِهولها وعموم فظائعها، لتكاد تُنسينا ما قبلها مـن ذكريـات الألم والظُّلْم والعُدْوان؛

17 كذا كُتبت، والمفروض أن يقـال: بلغـت أربعـين ألفـاً، أو «40.000» دون ذكْـر الألـف الـواردة في الرّقم. ونلاحظ أنّ الكاتب هنا يذكر أنّ عدد ضحايا مذابح ثامن مايو لا يزيد على أربعين ألفَ ضحيّة، وقد كنّا رأينا أنّ أحد الكتّاب الفرنسيّين بلغ بهذا الرّقم إلى ستين ألفاً ضحيّة ممّا كانوا يقتلون.

وما سطّره في صفحات تاريخه السُّود من حوادث التّرويع والتّقتيل، والتّنكيل والزّجّ بالأبرياء في أعماق السّجون من كلّ ما كان يلجأ إليه في فترات مختلفة اتّصلتْ حلقاتها في هذه البلاد من سنة 1830 إلى حوادث معسكر الأخيرة»[18].

ثمّ يتدرّج الكاتب إلى وصْف المآسي التي تسبّبَ فيها مذابحُ الإستعمار الفرنسيّ في ثامن مايو في الشّرق الجزائريّ، وأنّها مآسٍ فظيعةٌ إلى حدّ أنّها أنست الجزائريّين ما كانوا لاقَوْه من الفرنسيّين إبّان احتلال 1830 المشؤوم؛ ذلك بأنّ المستعمِرين لم يذَروا وسيلة من وسائل التّذبيح إلاّ استعملوها، ولا طريقة من طرائق التّقتيل إلاّ اتّبعوها؛ فقد أطلقوا أيديَهم في الأبرياء، واصطنعوا سلاحهم الفتّاك في حصْدِ الأطفال والنّساء؛ فكان التّقتيل أعمى حقّاً، ولم يكن باستطاعة العَجَزة ولا النّساء ولا الأطفال أن ينجوا من شرّه المستطير؛ لأنّ النيران الكثيفة كانت تطلق من الجوّ والبرّ والبحر، فاستحالت الأرض الجزائريّة إلى جهنّم تتّقد ناراً، وتتنفّس أوَاراً؛ فكان يوماً كيوم القيامة! لم يَعُد أحدٌ في مدن الشّرق الجزائري، في هذا اليوم الأحمر، بمنجًى من الموت الوَحِيّ، والأمر المقضيّ؛ فاستسلم النّاس وسلّموا بما خطّ لهم القدَرُ وهم كارهون...

وبعد أن يقدّم باعزيز بن عمر من الأوصاف للوضع المؤلم ما رأينا؛ تثور نفسُه، فيغتدي قلمه كأنّه آلةٌ ذاتُ صوت مُزمجر تبلّغ بالتّقريع والاحتجاج، لا مجرّد أداة تخطّ حروفاً وألفاظاً على صحائفَ بيض:

«فتَعساً لشعبٍ لا تعلّمه آلامُه وأحزانه وذكرياته غيرَ البكاء، والدّعاء بالرّحمة والرّضوان لضحايا الظلم والإستعمار!

وتعساً لِمن لا يفهم عنها إلاّ أنّها محنة تولّتْ، ويوم نحس يطويه التّاريخ من بين أيّامه السّود طيّاً!

18 م.س.، عمودان: 1-2.

ثارت ثائرة الاِستعمار في هذا اليوم من شهر ماي، فكان حقّاً قوّة عمياء تمشي على الأرض لا في سطيف فحسب؛ ولكن في سائر بلاد القُطر؛ فاكفهرّت وزمجرت، وأرعدت وأبرقت؛ فما اعترض أحد طريقها إلاّ داسته، وأودعته القبر أو السّجن المظلم».[19]

يخيّل إلينا أنّ الفرنسيّين من خوفهم من اندلاع ثورةٍ وشيكةٍ عارمةٍ في وجوههم، تطردهم من الجزائر بالقوّة كما دخلوها بالقوّة، أرادوا أن يُفْهموا الجزائريّين، بالفعل لا بالقول، قبل أن ينهضوا بأيّ عمل ثوريّ، أنّ دون ذلك أهوالاً هائلةً، وأنّ الضّحايا سيكونون بالملايين!... وإلاّ فبأيّ شيء نؤوّل هذا الموقف الجهنّميّ الوحشيّ من مظاهرات كانت في الأصل مأذوناً لها بأن تقام من سلطانهم في قسنطينة؟ أم يقال: إنّ الأهالي قتلوا بعض الأوربيّين في بعض مظاهراتهم بمدينة سطيف؟ إنّ ذلك ليس مبرّراً لارتكاب تلك المذابح البشعة؛ إذ ما ذا يفعل اللّه بجهازهم القضائيّ؟ أم أليست فرنسا دولةَ الحرّيّة والحقّ والقانون؟ وما ذا كان يمنعها من القبض على القاتلين، ومحاكمتهم على أساس أنّها دولة، لا عصابة... غير أنّ الفرنسيّين لم يتصرّفوا قطّ في تلك الأحداث على أنّهم دولة حاكمة متحضّرة لها جهاز إداريّ وقضائيّ، وجيش نظاميّ، في الجزائر تستطيع من خلال ذلك التّحكّم في النّظام العامّ، حتّى وإن اختلّ لهم ساعةً من نهار يوم ثامن مايو سنة خمسٍ وأربعين وتسعمائة وألف؟

وما جعل التّاريخ يسهو عن متابعة الشّرطيّ الفرنسيّ الذي أطلق النّار على الجزائريّ الذي كان يحمل الرّاية الوطنيّة فأرداه قتيلاً؟ أكان ذلك القتل عادلاً قانونيّاً؟ ولِمَ يقتلُ شرطيّ مسلّحٌ جزائريّاً غيرَ مسلّح، في وضح النّهار، وعلى مَرأىً ومَسْمَعٍ من التّاريخ؟...

---

[19] م.س. عمود2.

كلاّ، لم يتصرّف الفرنسيّون من حيث هم دولة، ولكن من حيث هم عصابة من العساكر، وشُذاذ الآفاق، وطَغَامِ الخَلْق من محترفي القتل، من مرتزقة اللّفيف الأجنبيّ، فكان ما كان! ويا أشنع وأفظعَ ما كان!

ونجد باعزيز بن عمر يُنْحي باللّوائم على طيبة الجزائريّين ونُبْلهم، وسرعة نسيانهم للشّرور التي تنزل بهم، والذهول عن النّوازل التي تُلمّ عليهم وعلى أجدادهم؛ فإذا هم إمّا متسامحون، وإمّا ناسُونَ؛ وفي كلتا الحالَيْنِ هم قد يكونون من المخطئين! فالحقّ حقّ، والذنْب ذنب، والاحتلال احتلال... وهل جزاء السُّوءِ إلاّ السّوءُ مثلُه؟ فما لهم يتسامحون ولا ينتقمون ممّن صبّ عليهم أسواط العذاب، وهم ينظرون؟...

ثمّ يعود الكاتب ليتحدّث عن مقاومة الشّعب الجزائريّ العظيم للاستعمار الفرنسيّ منذ أن دنّست أقدام جنوده أرض الجزائر الطّاهرة، فيقول: «إنّ في تاريخنا مع الِإستعمار صفحاتٍ هي غُرَرٌ في جبين الأيّام تستعصي على الفناء، لأنّها كُتبت بدماء الشّهداء. وإذا كانوا لم يرفعوا بعدُ للحرّيّة صُروحاً، ويُعيدوا للبلاد استقلالها الضّائع؛ فقد ضربوا مثلاً حيّاً في التّضحية والبطولة لا يبرح مقيماً في النّفوس، مرسوماً على صفحات القلوب؛ يحدّث أبناء هذا الجيل ومن يأتي بعدهم أنّ الِإستعمار كلّه شرّ وإبادة، لا يتولاّه من الأمم والشّعوب التي اعتدى على استقلالها، وبسط عليها نفوذها[20]: إلاّ الخائنون المخدوعون. وقد أرانا في حوادث ماي هذه، لو كنّا نسمع أو نعقل، كيف ضرب الجميعَ ضربة واحدةً، وساقهم كلّهم بعصاهُ إلى العذاب المُهين».[21]

---

[20] كذا، وهو سهو مطبعيّ، والوجه أن يقال: نفوذه.
[21] باعزيز بن عمر، م.م.س.، ص.1، عمود 3.

الشّعب الجزائريّ من أعظم شعوب الأرض قدرةً على النّضال إذا عقد العزم عليه؛ وهو وإن لم يقيّض اللّه له استعادة الاستقلال، وإن لم يُنعمْ عليه بالحرّيّة المسلوبة، إلى يومئذ؛ فإنّ مقاومته العظيمة الشّجاعة، المتلاحقة في الزّمان، والمتنقّلة في المكان، والمتنوّعة في الأشكال، لا يزال النّاس يُشيدون بها، ويتّخذونها مثلَهم الأعلى في النّضال؛ فتسير بها رُكبانُهم، ويتحدّث بها نِسْوانُهم ووِلْدانهم. ولعلّ اللّه أن يأتيَ بثورة عظيمة لا تُبقي ولا تذر، تحرّر الأرض والبشر؛ فيُمسي الجزائريّون كما ولدتْهم أمّهاتهم أحراراً وهم يسعَدون...

وكتب، كما سلفت الإيماءةُ إلى ذلك، باعزيز بن عمر، مقالة أخرى عن ثامن مايو؛ فعالج الموضوع نفسَه في بدايته من جانب آخر؛ ولكنّه بعد المقدّمة عاد في مقالته لمعالجة ما كان عالجه في المقالة السّابقة التي عرضْنا لها منذ حين. وممّا يقول في المقالة الثانية:

«إنّ ثامن ماي لَيومُ محنةٍ كبرى على الجزائر؛ (...) وإنّه لنكبة من أفدح النّكبات، أصابت الجزائرَ. إلاّ أنّه نكبة كذلك على الاِستعمار، تشير إلى هزيمته، وزوال أيّامه السُّود، ولو كشر في هذا اليوم عن أنيابه، وشمّر عن ساقه؛ بعد أن انكمش أيّام الإيطاليّين والأمريكيّين[22] انكماشاً مخزياً لا يُبدئ ولا يُعيد.

وها هو اليوم يعود، فتعود إلى أذهاننا ذكرى أفظع مأساة عرفتها الجزائر في تاريخها الحديث، وأهول مجزرة بشريّة فتح الجزائريّون أعينهم عليها في صبيحة يوم، قيل عنه: إنّه يوم نصر مؤزّر، وظفر بالعدوّ المشترك.

---

22 كذا بالأصل. ولعلّه كان يريد «الألمانيّين» فوقع سهو في كتابة الكلمة، لأنّ الأمريكيّين كانوا حلفاء للفرنسيّين؛ وهم الذين ظاهروهم على تحرير أراضيهم من الاحتلال الألمانيّ. وأقول الألماني: لأنّي أريد أن أسمّيَ الأسماء بأسمائها؛ فهتلر لم يحارب بالصّينيّين أو الهنود أو الأحباش، ولكنّه حارب أوربا بأبنائه الألمان... فلسنا ممّن يسقط في خدعة اللّعب بالمصطلحات.

في هذا اليوم جنّ جنون المستعمرين، فانطلقت وحوشهم الضّاربة في سطيف، وقالمة، تفتك بالأبرياء فتكاً ذريعاً، وتُمعن في النّهب والسّلب وإحراق البيوت، وإزهاق الأرواح بشكل مُرعب لا قِبل لقلم بوصفه.

في هذا اليوم تحرّكت القوّة الاِستعماريّة العمياءُ في مقاطعة قسنطينة؛ فكانت لا تأتي على شيء في طريقها إلاّ جعلته كالرّميم. فللّهِ ما سال في هذا اليوم من دماء الشّيب والشّباب! وللّه تلك القرى التي كانت آمنةً مطمئنّةً؛ فجاءتها هذه القوّة العمياءُ فداستها في طريقها، وسامتْ أهلها سوءَ العذاب؛ فجعلتها حصيداً كأنْ لم تغنَ بالأمس. لم يترك فيها التّذبيح والتّقتيل والتّشريدُ أثراً لشيخ يدبّ، أو لصبيّ يحبو، أو لفتى وفتاة يستقبلان الحياة باسمَيْن...».[23]

ولعلّ من أهمّ ما جاء في بعض هذه المقالة المؤثّرة الجميلة التي يجب أن تُعدّ من عيون الأدب الوطنيّ المقاوم، والتي تبدو فيها آثارٌ من مقالة الإبراهيمي (استعمال «للّه» مثلاً...) أنّ الكاتب يتنبّأ، ولو على استحياء، بنهاية الاِستعمار من الجزائر. ولعلّ الذي حمله على بعض ذلك أنّ مجازره البشعة زادت الجزائريّين له كراهية، وأصبح العيش معه كالعيش مع أيّ مجرم خطير فتكَ بعدد من أفراد أسرة وهو، مع ذلك، لا يزال يُصرّ على العيش معهم تحت سقف واحد، وهو لا يتردّد ولا يرعوي في أن يجهز على البقيّة الباقية من تلك الأسرة التي ابتُلِيتْ به، في أيّة لحظة يُحسّ أنّها تريد الاِنقضاضَ عليه، والانتقام منه...

والحقّ أنّه لو كان للاستعمار وجهٌ يستحِي به، لكان خرج، من بعد تلك المجاز الفظيعة التي اقترفها في حقّ المدنيّين الجزائريّين العزّل، من تلقاء نفسه من الجزائر؛ ولكان ترك الجزائر للجزائريّين، وذهب إلى حيث لا يعود. وإنّا لا ندري

[23] باعزيز بن عمر، ذكرى ثامن ماي، في البصائر الثانية، ع. 155 في 14 مايو 1951، ص. 1. عمودان 2و3.

كيف رفع اللّه مروءةَ الحياء عن هذا الاستعمار البشع الوجه؛ فقتل ما قتل من أبرياء الجزائريّين، ثمّ ظلّ مقيماً بينهم رخيّ العيش، رضيّ البال، لا يَريم؛ فكأنّه لا قتل ولا ذبَح، ولا شرّد ولا خرّب! أيّةُ وقاحةٍ أوتِيَها ذلك الاِستعمارُ اللَّكِيع!

ويختتم باعزيز بن عمر مقالته بتوكيد التّنبّؤ بزوال الاِستعمار فيقول: «إنّ للفرح دمعاً وهو الذي سنسكُبه يوم يتمّ وعْد اللّه بتطهير العالَم من بقايا هذا الاستعمار البغيض في الوجود».[24]

لقد كنّا رأينا ابن باديس تنبّأ، في لغة افتراضيّة كانت بمثابة تقرير الأمر[25]، بزوال الاِستعمار الفرنسيّ، وأنّ الجزائر ستسترجع استقلالها المسلوبَ حتماً. وكان ذلك قبيل اندلاع الحرب العالميّة الثانية ببضع سنوات... وها نحن أولاءِ نُلفي كاتباً جزائريّاً آخرَ، من الكتّاب المقاومين بالكلمة، وهو باعزيز بن عمر، يتنبّأ بزوال الاِستعمار من الوجود. وقد قال ذلك بثلاثِ سنواتٍ فقط قبل اندلاع ثورة التّحرير العظيمة؛ ممّا يبرهن على أنّ المفكّرين الجزائريّين، ورجال السّاسة الوطنيّين، كانوا يتوقّعون اندلاع الثورة الجزائريّة بين حين وحين.

<><><><><><><>

نصّ مقالة لباعزيز بن عمر في مذابح ثامن ماي

هذا، وإنّا رأينا أن نثبت نصّ المقالة الأولى التي كتبها باعزيز بن عمر عام 1949 لما نفترض من ندرة هذا النّصّ الذى على كتابته اثنتان وخمسون سنة؛ ذلك بأنّ كتابات الإبراهيميّ قد جمعت ونشرت في مجلّدات فاطّلع عليها عامّة النّاس،

24 م.س.، عمود4.

25 يراجع الفصل الذي كتبناه في هذا الجزء عن صورة المقاومة الوطنيّة في المقالة السّياسيّة.

من حيث ظلّت كتابات با عزيز بن عمر، حسب اطّلاعنا، قابعة في صفحات البصائر؛ لأنّ إدراجنا بعض الفقرات من مقالته قد لا يقدّم صورة دقيقة للقارئ عن كيف كان الكتّاب الجزائريّون يتعاملون مع القضايا الوطنيّة.

يقول باعزيز بن عمر:

«إنّ عهود الإستعمار كلّها عهود ظلم وإرهاب، واعتداء على الحرّيّات والحرمات؛ وأيّامه كلّها أيّام سُودٌ في تاريخ البشريّة؛ وصحائف تاريخه كلّها تمجيد للطّغيان، وسفْك للدّماء، وقتْل للمواهب، وخنْقٌ للحرّيّات، وتمكين للإستبداد، وإبادة للشّعوب والأمم.

والإستعمار بمعنى غزو أمّة لأخرى، واعتداء شعب على آخر: قوّة عمياءُ تغذيها الفوارق القائمة بين الأم"تين أو الشّعبين في الجنس واللّغة والدّين والمصلحة، وتوجّهها العنصريّة المسلّحة؛ فتسير في الأرض لا تعرف قانوناً، ولا تَدين بشريعة إلاّ ما تضعُه وتسنّه؛ وذلك كلّه يتلخّص في شيء واحد: القضاء على الأمّة المغزوّةِ المغلوبة بوسائل مسطورة يرثها الخلف عن السّلف، وفي مقدّماتها تجريدها من ماديّاتها ومعنويّاتها كلّها فلا غنى ولا دين، ولا علم ولا أدب؛ ثم الزّجر والقمع والرّدْع عن طريق الإكثار من المذابح والجرائم والضّحايا التي يلجأ إليها المستعمر كلّما أحسّ بانقباض النّفوس، وانطواء القلوب على كرهه.

والإستعمار قوّة عمياء، والمستعمر قويّ أعمى؛ لكنّه يَرهب الضّعيف، ولا يأمن العاقبة، ولا تزيده النّذر إلاّ عَمىً وضلالاً، وإمعاناً في الطّغيان وعتوّاً ونفوراً،،،، واستكباراً في الأرض.

ولو ذهبنا نحصي مآسيَه وضحاياه وجرائمه منذ نزل بأرضنا لَما استطعنا أن نُحصيَها.

فذكرى ثامن ماي هي ذكرى ضحاياه التي بلغت 40.000 ألفا[26] حصدتهم قوّته العمياءُ بقنابلها ومدافعها بين عشيّة وضحاها؛ فسقط الشّيخ والكهل والشّابّ والفتاة وربّة البيت والرّضيع ومَن يحبو من الصّبية والأطفال صرعى وحشيّة جنوده وضحايا رصاصه.

فاض الاِستعمار في هذا اليوم المشئوم كالبركان، فقذف كلّ ما في أحشائه من الحمم واليحموم والنّار؛ فذبّح تذبيحاً، وقتّل تقتيلاً.

فذكرى ثامن ماي مؤلمة إيلاماً شديداً لا يفتأ يحزّ في النّفوس إلى الأبد؛ وإنّها لهولها وعموم فظائعها لتكاد تُنسينا ما قبلها من ذكريات الألم والظّلم والعدوان، وما سطّره في صفحات تاريخه السّودِ من حوادث التّرويع والتّقتيل والتّنكيل والزّجّ بالأبرياء في أعماق السّجون من كلّ ما كان يلجأ إليه في فترات مختلفة اتّصلتْ حلقاتها في هذه البلاد من سنة 1830 إلى حوادث معسكر الأخيرة...

فتعساً لشعب لا تعلّمه آلامه وأحزانه وذكرياته غير البكاء والدّعوة بالرّحمة والرّضوان لضحايا الظّلم والاِستعمار.

وتعساً لِمَن لا يفهم عنها إلاّ أنّها محنة تولّتْ، ويوم نحس يطويه التّاريخ من بين أيّامه السُّودِ طيّاً.

ثارت ثائرة الاِستعمار في هذا اليوم من شهر ماي؛ فكان حقّاً قوّة عمياءَ تمشي على الأرض: لا في سطيف فحسب، بل في سائر بلاد القطر؛ فاكفهرّت وزمجرتْ وأرعدت وأبرقت؛ فما اعترض أحدٌ طريقَها إلاّ داسته، وأودعته القبر أو السّجن المظلم.

أشرق وجه السِّلْم في هذا اليوم على العالم، وراحت تباشير النّصر تطرق كلّ باب، وبدا في الآفاق لألاء المواسم والأعياد، وعلت أصوات الاِبتهاج والطّرب في كلّ

---

[26] كذا بالأصل.

جوّ، وتألفتْ من الجماهير مَواكبُ تجوب المدائن في مختلف بلاد العالم مؤذنة بيوم النّصر السّعيد، هازجةً بعودة السّلْم إلى القصور والأكواخ.

ولكنّ الاِستعمار أبى إلاّ أن يجعل الجزائرَ كلّها في هذا اليوم مأتماً تُظلم فيه الأكواخ، وتُقْفر البيوت، ويعلو صوت الثكْل في كلّ مكان، ويشهد النّاس منظراً يُذيبُ لفائف القلوب، ويملأ النّفوس فزَعاً من هول السّاعة.

توقّع الاِستعمار كثيراً من الشرّ ينال من نفوذه نيلاً إذا انتهت الحرب، فأضمر كثيراً من الحقد والإحن للشّعوب التي تتطلّع إلى فجر الحرّيّة يُطلّ عليها بعد انتهائها؛ فاختار يوم النّصر لإبداء ما بين حناياه وضلوعه من الأضغان ففعل فعلته، وأنذر الجزائريّين بطشته، وحذرهم أن تمتدّ أعناقهم، وتتطلّع أبصارهم لِمَا لم يكن مباحاً جناهُ من ثمرات النّصر والسّلم إلاّ للأسياد المستعمرين.

آه لو أنّا نفهم الاِستعمار كما يفهمنا، لو أنّا نُحسن ذكرى شهدائنا؛ غداً لان لنا من ذلك كلّه خير درس يوحّد بين صفقنا؛ فيرى الاِستعمار عين اليقين أنّنا كسائر الشّعوب الحيّة النّاهضة التي تقبس من ذكرياتها السّارّة والمحزنة الحكمة العالية؛ فتسير على ضوئها لا تبالي بمآسي الحياة، وتُزيح ما في طريقها من الصّخور والأشواك التي لا تزال تهشم أقدام السّائرين وتُدمي أيديَهم. ولكنّي أخشى أن نكون قوماً لا يكادون يذكرون شيئاً حتّى ينسوه، خيراً كان أو شرّاً.

وها هو الاِستعمار لا يزال ينظر إلينا بعينه التي فتحها على مغانينا سنة 1830؛ يشعّ فيها المكر والخديعة وخبث الطّويّة. أمّا نحن فلنا في كلّ يوم ألف عين تنظر إليه على أشكال متنوّعة، وأبعاد متفاوتة؛ فإذا أشعّ في هذه الغضب صباحاً، استحال مساءً إلى رضاً وسرور. وإذا بكت تلك ليلاً مسحتْ دموعها سَحَراً، فلم يرَ له من أثر نهاراً.

إنّ في تاريخنا مع الاستعمار صفحات هي غُررٌ في جبين الأيّام تستعصي على الفناء، لأنّها كُتبت بدماء الشّهداء. وإذا كانوا لم يرفعوا بعدُ للحرّيّة صُروحاً، ويُعيدوا للبلاد استقلالها الضّائعَ فقد ضربوا مثلاً حيّاً من التّضحيّة والبطولة لا يبرح مقيماً في النّفوس، مرسوماً على صفحات القلوب؛ يحدث أبناء هذا الجيل ومن يأتي بعدهم أنّ الاستعمار كلّه شرّ وإبادة لا يتولاّه من الأمم والشّعوب التي اعتدى على استقلالها، وبسط عليها نفوذها[27] إلاّ الخائنون المخدوعون؛ وقد أرانا في حوادث ماي هذه لو كنّا نسمع أو نعقل كيف ضرب الجميع ضربة واحدة، وساقهم كلّهم بعصاه إلى العذاب المهين.

أربع سنوات تمرّ على هذه المجزرة البشريّة، وهي كافية لعودة ألمانيا إلى الوجود السّياسيّ، وظهورها على مسرح السّياسة العالميّة من جديد؛ كأنّها لم تذق مرارة الهزيمة، ولم يأت العدوّ أرضها ينقصها من أطرافها. فما ذا صنعنا نحن؟ وكيف مرّت علينا هذه السّنوات الأربعُ سِراعاً؟

اللّهمّ إنّ الجواب عن هذا كلّه صعب وعسر علينا.

أربعُ سنوات تمرّ على سقوط أربعين ألفاً من أبناء الجزائر الأبرياء، وذهابهم ضحيّة الاستعمار الغاشم الذي يتحيّن الفرص، ويرقب السّوانح لصبّ سوط عذابه كرّة أخرى على هذه الأمّة، حتّى لا تنسى أنّه لها دائماً بالمرصاد، فكانت حوادث معسكر الدّامية التي في نفس الزّمن؛ لتكون أبلغ في الوفاء بالمراد، وأفصح في التّذكير والإرشاد.

إنّ ذكرى ثامن ماي ثروة[28] قوميّة حمراء دامية إذا لم نودعها قرارة نفوسنا، ونستضيء بنورها، أوشكت أن تضيع وتتبدّد فلا يتّعظ بها أحدٌ كما ذهب ما قبلها

---

[27] كذا، ولعله «نفوذه».

[28] إنّ أقل القرّاء ذكاء يدرك أنّ الكاتب هنا عمّى في التّعبير بقلب اللّفظ من «ثورة» إلى ثروة، والآية على أنه كان يريد إلى الثورة فقلب خشية المتابعة القضائيّة من الفرنسيّين أنّه اصطنع فيما بعد الجمع لكنّه فسّره بكل معاني الثّورة بقوله: «كما ذهب ما قبلها من الثروات الوطنيّة التي أزهقت فيها الأرواح، وسالت الدّماء،

من الثروات الوطنيّة التي أزهقت فيها الأرواح، وسالت الدّماء، وتناثرت في ساحتها الأشلاء وتطايرت الرّؤوس من كلّ جانب.

إنّ مشهداً من مشاهد السوة والجبروت تجلّت فيه غطرسة الجنديّ الاستعماريّ وغلظ كبده حين اجتاح القرى وفتك بأغلى شيء فيها؛ وأنزل العذاب بساحتها على الآمنين من الشّيوخ والأطفال والفتيان والفتيات لمشهد لا يمكن أن تطويَه الأيّام عبثاً.

وبعد، فقد سوّت هذه الغطرسة بين النّاس في هذا اليوم المشئوم فلم ترحم منّا أحداً، صغيراً كان أو كبيراً، رجلاً كان أو امرأة، موظّفاً [29] كان أو عاملاً؛ فهل تسوّي اليوم بيننا ذكرى أولئك جميعاً فنرى الاستعمار أنّ عُودَنا الذي عجمه فوجده صلباً لا يزال كذلك؟ كما أنّ مبدأنا لا يزال أثبتَ من الصّخر. فإن فعلنا، ولا إخالنا إلاّ فاعلين، كانت هذه الذكرى منّا تحيّة عاطرةً لأرواح شهدائنا الأبرار، ونوراً لأبصارنا، وناراً لأعداء اللّه والوطن».[30]

<><><><><><><>

الثّورة بقوله: «كما ذهب ما قبلها من الثروات الوطنيّة التي أزهقت فيها الأرواح، وسالت الدّماء، وتناثرت في ساحتها الأشلاء، وتطايرت الرّؤوس من كل جانب». أم يُعقل أنّ الثرواتِ تُزهق فيها الأرواح وتسيل الدّماء وتتناثر الأشلاء؟ إنّها لفتة ذكيّة من الكاتب حين ورّى بطريقته الخاصّة فقلب لفظ الثورة إلى ثورة...

[29] كتب اللّفظ في أصل البصائر «موظفاء»، وهو خطأ مطبعيّ وقع السّهو عن تصحيحه.

[30] البصائر، ع. 79 الصّادر في 9 مايو 1949، المقالة الافتتاحيّة (الصفحة الأولى بكامل أعمدتها الأربعة).

الفصل السّادس

صورة المقاومة الفكريّة للاحتلال الفرنسي
في الصّحافة الوطنيّة

سبق لنا في الجزء الأوّل، من هذا الكتاب، أن كنّا تحدّثنا عن أهمّيّة الإعلام في التّعريف بالقضيّة الوطنيّة، والتّمكين لها في نفوس الوطنيّين الجزائريّين؛ وكيف أنّ المثقّفين والمفكّرين والأدباء الجزائريّين لجئوا إلى أهمّيّة دور الإعلام في مقاومة الاِحتلال الفرنسيّ بالكلمة والرّأي والفكرة والموقف فعمدوا إلى إصدار صحف كثيرة معظمها باللّغة العربيّة؛ فكانت مقاومتُهم الفكريّة مزدوجة: التّوكيد على أنّ اللّغة العربيّة هي اللّغةُ الوطنيّة للشّعب الجزائريّ، لا لغة المحتلّ: الفرنسيّة من وجهة، وعلى أنّ الجزائريّين لم يموتوا ولم ينتهوْا؛ وهم مُزمعون على مقاومة الاِحتلال بكلّ الوسائل التي يمتلكون، من وجهة أخراة.

ولذلك نجد إبراهيم أبا اليقظان، مثلاً، وهو عميد الصّحفيّين الجزائريّين، يُصدر ثمانيَ صُحُفٍ تَتْرَى، الواحدة تلو الأخرى! فابتدأ مسيرته الصّحفيّة بجريدة «وادي ميزاب» وأنهاها بجريدة «الفرقان»، مروراً بستّة عناوينَ أخراةٍ. ومع أنّ الأفكار المتناوَلَةَ، والمبادئ المعلَنة، كانت هي هي، في الجريدة المعطّلة، وفي الجريدة الصّادرة مكانَها؛ إلاّ أنّ الاِستعمار كان، فيما يبدو، يَسعد بإزعاج الصّحفيّين الوطنيّين في الجزائر، ويتلذذ بعرقلة نشاطهم الإعلاميّ لعلّهم أن يضجَروا فيغادروا هذه المهنة المزعجة للمحتلّين.

كما نجد جمعيّة العلماء تُصدر أسبوعيّة «السّنّة » فيعطّلها الفرنسيّون، فتصدر «الشّريعة» فيعطّلها الفرنسيّون، فتصدر «الصّراط » فيعطّلونها أيضاً؛ فتصدر أخيراً أسبوعيّة «البصائر» في دوّامة تشبه دوران الزّمن، وفي محنة تشبه محنة الأشقياء من العُصاة يوم الحشر!

ومن غير المنصف أن يتحدّث متحدّث عن أدب المقاومة الوطنيّة في الجزائر، ولا يتحدّث عن نضال هذه الصّحافة وما كابدته من اضطهاد، وعن مقاومتها الاِحتلال الفرنسيّ بكلّ ما كانت تمتلك من كلمة صادقة، ولهجة حارّة، ووجدان

وطنيّ فيّاض؛ وهو النّضال الصّحفيّ الذي كـان الأسـتاذ محمّـد علـيّ دبّـوز لا يـزال يُطْلق عليه، في كتاباته الثقافيّة والتّاريخيّة، «الجهاد»[1].

ونودّ أن نعرض فيما يلي لأهمّ الصّحف الوطنيّة، ذات اللّسان العربيّ، انطلاقاً من نـهاية القرن التّاسع عشر إلى قيام ثورة التّحريـر (نوفمـبر 1954)؛ لنحـاول تِبيـانَ دورهـا في إيقـاظ الوعـي، وتـأجيج الوطنيّـة، وبلـورة الشّخصيّة الجزائريّـة بثوابتـها الأساسيّة، وتوعية الرّأي العامّ الجزائريّ وتنويره.

وعلى أنّنا لن نتّبع في ذلك الطّريقة الأبجديّـة في ترتيـب هـذه الصّحـف؛ لأنّ ذلك سيجعلنا ربما نتحدّث عن صحيفة ظهرت بعـد الحـرب العالميّـة الثانيـة، قبل صحيفة ظهرت بُعيد الحرب العالميّة الأولى. بالإضافة إلى أنّـه مـن غـير اللاّئق فصْلُ صحفِ شخصيّة واحدة، بعضِها عن بعض، كما هو الشّأن بالقيـاس إلى إبراهيـم أبـي اليقظـان، ومحمّـد السّعيد الزّاهـريّ، والطّيّـب العقبيّ، وجمعيّـة العلمـاء المسـلمين الجزائريّين، وهلمّ جرّاً...

1.الإقدام (الجزائر، 1920-1923).

أصـدر هـذه الجريـدةَ، النّاطقـة بالفرنسـيّة في فـبراير 1919؛ ثـم بالعربيّـة والفرنسيّة جميعا في سـبتمبر 1920 الأمـير خـالد، والصّـادق دنـدان، والحـاج عمّـار. وتُعدّ «الإقدام» من الجرائد الوطنيّة الـتي أثّـرت تأثـيراً عميقـاً في الحيـاة السّياسيّة والفكريّة بالجزائر في مطلع العِقد الثالث، من القرن العشـرين. فقـد أسـهمت إسـهاماً مشرقاً في ترقية الوعي الوطنيّ وبلْورته في الأذهان، والتّمكين لـه في القلـوب. وكـانت تصدر أسبوعيّاً بالعربيّة والفرنسيّة معـاً. وكـان الأمـير خـالد لا يـزال ينـادي في هـذه

[1] يراجع الأستاذ دبّوز في كتابه نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، مواطن مختلفة.

الجريدة «بوجوب إصلاح الحالة في قطر الجزائر على قاعدة تسوية الجزائريّين بالفرنسيّين في كلّ شيء، ودخول الجزائريّين لمجلس النّوّاب».[2] وقد ظلّت تصدر إلى شهر مارس سنة 1923، بعد أن صدر منها زهاء120 عدداً[3]، وذلك بع أن حوكم الأمير خالد على أفكاره ومبادئه التي كان يروّج لها فيها، فنُفي الأمير، وأوقفت الجريدة. وكانت تنشر قصائدَ شعريّةً للشّعراء المعروفين على عهدها، كما كان ينشر فيها الأمير خالد نفسُه قصائده الوطنيّة. كما كانت تنشر مقالات أدبيّةً جميلة.

2.النّصيح (الجزائر، 1921-1921).

أصدر هذه الجريدة الأسبوعيّة، النّاطقة بالعربيّة والفرنسيّة معا، هيئة سياسيّة، بقيادة شخص مغمور، غير وطنيّ، كان يقال له صوالح. وكانت هذه الجريدة تناوئ الأمير خالد في برنامجه السّياسيّ الوطنيّ.[4] ولعلّها أوّل جريدة جزائريّة تختار المعارضة السّياسيّة المناوئة للاتّجاه الوطنيّ التّحرّريّ. ولم يصدر منها إلاّ أربعة أعدادٍ. وتوقّفت في سبتمبر 1921.[5]

وكانت تنادي، وقبلها ورقة كانت تسمّى «الاستقبال الجزائريّ» (1920-1920)، والتي قال فيها الأمير خالد: «تلك الجريدة السّوداء التي ما نشأت إلاّ لزرع الشّقاق وسبّ الرّجال الأحرار الذين صدعوا بالحقّ...»[6] بإباحة التّجنّس المقيت.

---

[2] المدنيّ، هذه هي الجزائر، ص.163. وينظر أيضا مقالة تفصيليّة كتبها محفوظ قدّاش، في مجلّة كلّيّة الآداب، جامعة الجزائر، ع.4، يناير 1968، ص.19-39؛ وطالبي، م.م.س.، 1. 57. وقد زعم دبّوز أنّها صدرت عام 1920، م.م.س.، 2. 8. وهو يقع بذلك في تناقض شديد حين قال في الموقع نفسه من كتابه: «دامت (يريد: عُمِّرت) خمسَ سنين إلى أن نُفِيَ الأمير خالد إلى فرنسا في سنة 1923». وتابعه مروة، م.م.س.، ص.395.

[3] محمّد ناصر، الصّحف العربيّة الجزائريّة، ص.50.

[4] المدني، كتاب الجزائر، 345، طالبي، م.م.س.؛ تركي رابح، م.م.س.؛ دبوز، م.م.س. ومن المصادر من أطلق على هذه الجريدة «النّاصح».

[5] محمّد ناصر، م.م.س.

[6] الأمير خالد، الإقدام، ع.7، في أكتوبر 1920. وانظر محمد ناصر، م.م.س.، ص.50.

3.النّجاح (قسنطينة 1919-1956).

تُعَدُّ «النّجاح» من الجرائد الوطنيّة المعتدلة الاِتّجاه، أو قل: من الجرائد الحكوميّة الهوى، والتي كان لها شأنٌ لا يُنكر في مسار الحركة الإعلاميّة بالجزائر، من الوجهات الثقافيّة، والسّياسيّة، والفكريّة، والدّينيّة. وقد أسّسها عبد الحفيظ بن الهاشميّ، وإسماعيل مامي الذي كان صاحب امتيازها. ويقال: إنّ عبد الحميد بن باديس أسهم في تأسيسها؛ ولكنّه برِئَ منها فنبذها حين غيّرت مسارها الإعلاميّ الوطنيّ[7]. وقد ابتدأت «النّجاح» أسبوعيّة، ثمّ أصبحت يوميّةً (وهي الجريدة الوطنيّة العربيّة الوحيدة التي تسري عليها هذه الصّفة طوال وجود الاحتلال الفرنسيّ بالجزائر)... غير أنّها كانت في عام 1950 لا تصدر إلاّ مرّتين في الأسبوع، لا يوميّاً كما قيل. وكانت تصدر في صفحتين اثنتين فقط، أي في ورقة واحدة؛ وذلك طبقاً لِمَا نمتلكه من أعداد منها في مكتبتنا. وكان عدد قرّائها يوميّاً عام 1930 خمسة آلاف قارئ.[8]

ويذكر عبد الحميد بن باديس هذه الجريدة بخير فيقول: «كما كانت هذه الزّميلة أوّل جريدة عربيّة أسبوعيّة بالجزائر صدرت بانتظام، ودامت. كذلك كانت أوّل جريدة نصف أسبوعيّة. ولذلك كانت أوّل جريدة يوميّة. وكانت في ذلك كلّه تنمو نموّاً طبيعيّاً، وتتدرّج بتبصّر إلى الغاية التي وصلت إليها».[9]

---

[7] ينظر الشّهاب، ج15. م.5، في نوفمبر 1929، ص.38.

[8] أورد أحمد توفيق المدنيّ إحصائيّة عن المقروئيّة الصّحافيّة باللّغة العربيّة عام 1930 حيث كانت تبلغ مائة وأربعة وثمانين ألف قارئ في الشّهر موزّعين على النّحو الآتي: 150.000 قارئ لجريدة النّجاح في الشّهر (5000 قارئ في اليوم)، والبلاغ الجزائريّ 10.000 قارئ في الشّهر، والمغرب لأبيّ اليقظان 10.000 قارئ أيضاً في الشّهر، ومجلة الشّهاب 2000 قارئ في الشّهر، والإصلاح 12000 قارئ في الشّهر، كتاب الجزائر، ص. 348.

[9] ابن باديس، الشّهاب، ج1. م.6، ص.59-60.

غير أنّ الطّيّب العقبيّ يذكرها بسوء فيصفها بأنّـها كـانت مسيَّرة لا مخيَّرة، وأنّها اشتهرت «بمحاربتها للأمّة في شخص علمائها وزعمائـها المخلصين كلّما كـان دخْلٌ للفرنك في هذه المحاربة، وسبيلٌ إلى ما في الجيوب».[10] كما كـان رأي جريـدة «صدى الصّحراء» فيها سيّئاً أيضاً.[11]

وكانت «النّجاح» تنشر قصائدَ من الشّعر التّقليديّ الرّكيك الذي يمكن تصنيفُه في النّظْم.[12] كما توسّط ابن الهاشمي، مِنْ على أعمدة صحيفته بين ابن بـاديس وابـن عليوة الذي نسب رواية حديث الأنينَ إلى البخاري ومسلم والتّرمذي سـهواً، فـانتقده الأستاذ ابن باديس في الشّهاب؛ فضَرِيَتْ عواطـفُ أتبـاع ابـن عليـوة ولم يتورّعـوا في مهاجمة ابن باديس ولم يكونوا موضوعيّين.[13] ولذلك رفض مريدو ابن عليوة المصالحة التي اقترحها مدير «النّجاح»، وظلّوا يشنّون الحرب على العلاّمة ابن باديس لمجـرّد أنّه صحّح لابن عليوة مسألة علميّة سها في توثيقها! بل عدّو ذلك من الطّوائل!

وأيّاً ما يكن الشّأن، فنحن لم نذكر «النّجـاح« هنـا علـى أسـاس أنّـها كـانت تقاوم الاستعمار؛ فقد كان يُرخي لها في الطِّوَل؛ ولكنّنـا ذكرناهـا لأنّـها كـانت تعمـل ضدّ الذين يقاومون ولو بالصّمت وعدم الاكتراث.

ذلك، وقد كنّا ونحن طلاّب بمعهد ابن باديس بقسنطينة (1954–1955) نتجنّب قراءة «النّجـاح» الحكوميّـة الهوى، بمقدارِ ما كنّا نحرص على قراءة الجرائد الوطنيّة الأخرى، وخصوصاً البصائر؛ علـى الرّغـم مـن أنّـها لم تكن تصدر إلاّ مرّة في الأسبوع.

[10] العقبي، البصائر 1، ع. 26، في 3. 7. 1936

[11] ينظر العدد 10 في 8. 2. 1926.

[12] راجِع بعض هذه النّصوص الشّعريّة التي كانت تنشر فيها في: عبد اللّه حشلاف، سلسلة الأصول، في شجرة أبناء الرّسول، ص. 156–165، طبع الكتاب بتونس ووزّع بالجزائر عام 1930.

[13] راجع الفصل الذي كتبناه عن الصّراع الفكري (الفكر الصوفي) من كتابنا هذا.

4.الصّدّيق (الجزائر، 1920- 1922).

وقد أصدرها، وهي أسبوعيّة، محمّد بن بكير الميزابيّ المتوفّى عام 1929 ببوفاريك في 12 غشت 1920؛ وقد كان مثقّفاً متعلّماً، زاول التّدريس بالجامع الأعظم بمدينة الجزائر، وشاركه في إصدارها عمر بن قدّور، صاحب جريدة «الفاروق»، ورأس تحرير «الصّدّيق» إلى العدد السّابع، ثمّ بدا له فأعاد إصدار جريدته القديمة «الفاروق»؛ فتولّى رئاسة تحرير «الصّديق» الشّيخ المولود الزّريبيّ، الأزهريّ،[14] الذي كان ينشر فيها أفكاره الإصلاحيّة.[15] وكانت تعرّف نفسَها على أنّها «جريدة علميّة أدبيّة سياسيّة اقتصاديّة». ويقال: إنّ صاحبها أطلق عليها «الصّدّيق» تيمّناً بأبي بكر الصّدّيق رضي اللّه عنه.

غير أنّ جريدة الصّدّيق»، فيما يبدو، لم تُعَمَّر، هي أيضاً، إلاّ قليلاً. ولم يذكر أيٌّ ممّا يوجد من مصادر في مكتبتنا تاريخاً لتوقّفها غير محمّد ناصر. وقد فات المدنيّ[16]، وطالبي[17]، وتركي رابح[18]، ذكْر تاريخ صدورها أيضاً. وقد انفرد أديب مروة بذكْر تاريخ هذا الصّدور وحدَه، فذكر أنّها صدرت في عام 1920.[19] وكنّا نحن أيضاً سكتنا من قبل عن ذلك لَمّا سكتوا وقد كانوا مصادرَ لنا.[20]

---

14 كان وجهاً من الوجوه العلميّة في مدينة الجزائر في بداية القرن العشرين، مع الشّيخ عبد الحليم بن سماية، والشّيخ أبي القاسم حفناوي هالي، صاحب كتاب: «تعريف الخلف، برجال السّلف»، والشيخ إبراهيم بن الحسن البوزيّاني (أخذنا هذا من وثيقة عبد الرّحمن الجيلالي المرسلة إليّ في 1. 12. 1974.

15 طالبي، م.م.س.، 1. 57–58. ويؤخذ من رسالةٍ خطّيّة بعث بها إليّ من الجزائر إلى وهران، الأستاذ عبد الرّحمن الجيلالي في 1. 12. 1974 أنّ صاحب جريدة «الصّديق» هو الشّيخ عمر بن قدّور الجزائريّ وحده: «الصّحافي المشهور الشّيخ عمر بن قدور الجزائريّ صاحب جريدة «الصّديق»، ثمّ «الفاروق». (رقم الصّفحة في رسالة الجيلالي، 10. وتقع هذه الوثيقة التي توجد بمكتبتنا في أربعَ عشرةَ صفحة.

16 م.م.س.، 364.

17 م.م.س.، 1. 27، 57، 58.

18 م.م.س.، 111.

19 مروة، م.م.س.

20 ينظر عبد الملك مرتاض، م.م.س.، ص.109.

وقد ذهب المدنيّ حين ذكر «الصّديق»، وقد ذكّرها فراعَى، فيما يبدو، ظاهر اللّفظ فقال: «لم تطلْ حياته كثيراً».[21] وهو ذاك. فقد اضطُرّت إلى التّوقّف من تلقاء نفسها في 22 مارس 1922.[22]

5. الجزائر (الجزائر، 1925-1925).

أصدر الزّاهريّ ثلاثَ صحائفَ شخصيّةٍ، وأشرف على تحرير رابعةٍ. وصدرت «الجزائر» في يوليو سنة 1925. ولم يصدر منها إلاّ عددان اثنان وعطّلها المحتلّون الفرنسيّون حنقاً عليها، ونكاية بها. ووقع لنا نحن منها العدد الثاني الذي يوجد بمكتبتنا، وهو الصّادر في عاشر غشت 1925؛ والذي نُشرتْ فيه أوّل قصّة وطنيّة تفضح انعدامَ المساواة بين الجزائريّين والفرنسيّين، مجسّداً ذلك في قصّة فرانسوا الفرنسيّ، وشخصيّة رشيد، الشّابّ الجزائريّ الذي كان يعتقد أنّ ما كان لُقّنه في المدرسة الفرنسيّة من المساواة بين كلّ المتساكنين في مجتمع واحدٍ هو حقٌّ؛ لكنّه لدى التحاقه بالجنديّة الفرنسيّة الإجباريّة[23] رأى ما صدَمه صدْماً شديداً...[24]

وتُعَدّ «الجزائر» أشهر الجرائد الجزائريّة التي ظهرت بهذا الإسم طوال النّصف الأوّل من القرن العشرين. غير أنّ يد الإضطهاد والحقد على اللّغة العربيّة، والنّزعة الوطنيّة الجزائريّة، طاولت هذه الجريدةَ التي كان لها أشياعٌ كثيرون، وذلك على الرّغم من قِصر عمرها الذي لم يبلغ شهراً واحداً! وكذلك حُرِمتِ الحركة الصّحفيّة الوطنيّة من جريدة كان يمكن أن يكون لها شأنٌ أيُّ شأنٍ في حقول السّياسة

---

21 المدني، م.م.س.
22 ناصِر، م.م.س.، ص.46.
23 نذكر بأنّ قانون نظام التّجنيد الإجباريّ في الجيش الفرنسيّ بالقياس إلى الجزائريّين حُدّد بثلاثِ سنواتٍ، على حين أنّ المدّة كانت تُختصَرُ إلى عامين اثنين فقط بالقياس إلى الشّبّان الفرنسيّين!
24 نفضّل أن نترك تفصيل الحديث عن هذه القصّة إلى حين تناول صورة المقاومة الوطنيّة في الكتابات القصصيّة.

والثقافة والأدب؛ ولكنّ عين الاِستعمار كانت لا تنام عن مثل هذه الأمور فسارعت إلى خنْق صوتٍ كان يمكن أن يدوّيَ بالمطالبة بالحقّ الضّائع...

ويبدو أنّ السّلطات الاِستعماريّة كانت وجدتْ على هذه الجريدةِ منذ أن ظهرتْ باسْم «الجزائر»؛ فكان ذِكْرُ الجزائر في حدّ ذاته، تحت دائرة الدّلالة الوطنيّة، يعني ثورةً على الاِستعمار غيرَ مُعلَنَةٍ. غير أنّ ذلك كلّه كان يمكن للاحتلال الفرنسيّ أن يحتمله فيتغاضى عنه ولو إلى حين؛ لوْمَا ظهورُ شعار «الجزائر للجزائريّين!» على صدر تلك الجريدة. وقد كان يمكن احتمال ذلك كلّه أيضاً لَوْمَا ظهورُ تلك القصّة المبكّرة (المحاولة القصصيّة الأولى في الأدب الجزائريّ الحديث)[25] التي فضحت أحد أسس الشّعار الفرنسيّ الثلاثيّ، وهو «المساواة» التي لم تكن تطبَّق، في حقيقة الأمر، إلاّ لصالح الفرنسيّين وحدَهم. وانضاف إلى كلّ تلك الأسبابِ، تَالِكَ القصيدةُ الجريئة المتدفّقة وطنيّةً، والفيّاضة حماسةً، والمتوقّدة تطلّعاً إلى الحرّيّة، والتي كتبها الزّاهري تحت عنوانٍ صحَفيّ مثير، هو: «الجزائر» تُحَيّي «الجزائر!»[26]

ولذلك عمَد الاِستعمارُ الفرنسيّ إلى هذه الجريدة فعطّلها وحِيّاً!

وممّن حيّى هذه الجريدةَ التي كانت كالرّمز الوطنيّ، محمّد اللّقانيّ بن السّايح بقصيدة بلغت أبياتها أربعةً وأربعين بيتاً مطلعها:

حيِّ الجزائرَ حيِّها! — من عاشقٍ كلِفِ الفؤادِ
واذكرْ مفاخرَ مجدِها — فالفخرُ في شَرف البلاد[27]

---

[25] القصّة، كما سلفت الإشارة، هي بعنوان: «فرانسوا والرّشيد»، وهي من تأليف محمّد السّعيد الزّاهريّ. وسنرى كيف أنّ هذه القصّة أحدثت ضجّة أدبيّة وسياسيّة كبرى.

[26] نشرت هذه القصيدة بكتاب شعراء الجزائر، في العصر الحاضر، 1. 68-72.

[27] م.س.، 1. 42.

على حين أنّ عبد الحميد بن باديس كان قرّظها هو أيضاً في كلمة نشرها بجريدة المنتقد يقول في بعضها: «وجدير بها (بجريدة «الجزائر») إذا كان السّعيد واضعَها، أن يكون السّعدُ طالعَها».[28]

6.البرق (1927- 1927).

إنّا لا نعرف، في الوقت الرّاهن، كبير شيء عن هذه الجريدة التي شأنها دون شأن صِنْوتِها «الجزائر» حتماً. وقد يُفهم من كتابة لعمّار طالبي أنّ «البرق» للطّيّب العقبيّ، لأنّه ذكرها بين جريدتين للعقبيّ[29]. غير أنّ «البرق» من إصدار محمّد السّعيد الزّاهريّ يقيناً. ودلّ على ذلك مقالة الإبراهيمي التي كان يخاطب بها الزّاهريّ. وكان الإبراهيميّ يخاطب الزّاهريّ في معرض الخصومة بين أديبين كبيرين؛ فقال له: «أتذكر، يا شيخُ، ماضِيَكَ الصّحافيّ، وصحائفك الماضية التي تهاوتْ في مثل عمر الزّهر، من «الجزائر»، إلى «البرق»، إلى «الوفاق»؛ وقد ماتت كلّها بالهُزال والتّسمّم! ولو كانت ممّا ينفع النّاس لمكثتْ في الأرض!»[30]

والحقّ أنّ هذه الجريدة تضاربت من حولها الآراء حتّى كأنّها كانت تصدر في المرّيخ، وكان الأوّلون أوقعونا نحن أيضا في هذا التّيه؛ مع أنّها بكلّ بساطة أصدرها الزّاهري بقسنطينة في سابع مارس سنة 1927. وكانت تطبع أوّلَ أمرها بالمطبعة الجزائريّة الإسلاميّة بقسنطينة. غير أنّ خلافاً نشب بين صاحب الجريدة والمطبعة اضطرّ الزّاهري إلى أن يطبعها بتونس؛ وذلك ابتداءً من العدد السّابع عشر.

---

28 ابن باديس، المنتقد، ع.5، في 30 يوليو 1925.
29 طالبي، م؟م.س.، 1. 59.
30 الإبراهيميّ، إلى الزّاهري، في البصائر الثانية، ع.61 الصّادر في 27 ديسمبر 1948، ص.3.

وكـانت «الـبرق» تعـرّف نفسـها بأنّـها «صحيفـة اجتماعيّـة أدبيّـة انتقاديّـة سياسـيّة اقتصاديّـة فكاهيّـة شـعارها: «خدمـة الوطـن والمصلحـة العامّـــة واسـتثمار المال». [31] وكانت تصدر يوم الاثنين من كلّ أسبوع. وكـانت تحيـط بعنوانـها بسـهام منكسرة دلالة على معنى البرق المُومِض الخاطف.

ومن كتّابها الزّاهري شخصيّاً، وكان يوقع باسم مستعار هـو: «تـأبّط شرّا»، ومحمّد ألمين العمّودي الذي كان يوقعَ باسم: «سمهريّ»، ومبارك الميلـي الـذي كـان يوقّع باسم: «بيضاويّ»، والطّيب العقـبيّ الـذي كـان يـزاوج بـين التّوقيـع الصّريح باسمه، والتوقيع باسم مستعار هو: «السّلفيّ»، والمولود الحافظيّ الأزهريّ. [32]

وقد يتبيّن من خلال هذه الأقلام الثقيلة التي أتينا عليها ذكراً، أنّ «البرق» لم تكن كأيّ جريدة، بل ربما لم تسبقها أيّ جريدة إلى هـذا المستوى الأدبـيّ الصّحـافيّ الثقافيّ السّياسيّ الرّفيع، ممّا حمل المحتلّين على التّربّص لها لتعطيلها بقـرار صـادر في سبتمبر 1927.

7.الوفاق (وهران، 1938- 1940).

زعم أديـب مـروة أنّ جريـدة «الوفـاق» صـدرت في عـام 1927، وهـو محـض وهم. [33] وذكر لنا محمّد الصّالح رمضان أنّ الزّاهـريّ «أنشـأ جريـدة في وهـران باسم «الوفاق»، ولم يُوَفَّقْ فيها للدّعوة إلى الوفاق بين الهيئات والأحـزاب». [34] ولم يذكـر، كما ترى، محمّد الصّالح رمضان تاريخ صدور هذه الجريدة، ولا تـاريخ توقّفـها. غير أنّنا نفهم من كـلام الإبراهيمـيّ، مـن أنّ صحـائف الزّاهـريّ كـانت تتـهاوى في عمر

---

31 أخذ هذا التّعريف من أحد أعدادها.
32 استقينا هذه المعلومات الدّقيقة من محمّد ناصر، م.م.س.، ص.83-85.
33 مروة، م.م.س.، 395.
34 من رسالة خطّيّة مطوّلة كتبها إليّ من القبّة (الجزائر) في 6 أكتوبر 1973، ص.5.

الزّهر، ثمّ من كلام رمضان أنّ الزّاهريّ لم يوفّق في الدعوة إلى الإصلاح، أنّها لم تعمّر إلاّ قليلاً.

والحقّ أنّ العدد الأوّل من هذه الجريدة صدر في 23 مارس 1938. وكانت «جريدة أسبوعيّة سياسيّة تخدم العروبة والإسلام». وكانت هذه الجريدة توزّع في كثير من البلدان العربيّة مشرقاً ومغرباً؛ كما كانت تنقل مقالات وأحاديث عن أكبر الجرائد المشرقيّة والمغاربيّة معاً.

وممّا يذكر أن الزّاهريّ لم يكن يتورّع في مهاجمة أعضاء جمعيّة العلماء ابتداءً من رئيسها إلى الإبراهيمي إلى مبارك الميليّ. وتوقّفت في 30 يوليو 1940 بعد أن صدر منها سبعة وثلاثون عدداً.[35]

8.الحقّ (بسكرة 1926- ؟)

وأمّا هذه «الحقّ» الثالثة بعد الذي كنّا رأينا من الحقّين العنّابيّة، والوهرانيّة، في فصل سابق، من الجزء الأوّل؛ فإنّه نشب من حولها خلاف أكثر؛ فأمّا أديب مروة فيزعم أنّ الذي أصدر «الحقّ» البسكرية إنّما هو عليّ موسى العقبيّ، وأنّها صدرت في عام 1926.[36] على حين أنّ عمّار طالبي يرى أنّها صدرت ببسكرة في عام 1936، وأنّ الذي أصدرها إنّما هو الشّيخ الطّيب العقبيّ.[37] ويُبْعد رأي عمّار طالبي، في نظرنا الذي ينهض هنا على اصطناع الجدل المنطقيّ في غياب الوثائق، أنّ الطّيّب العقبيّ كان خلال سنة 1936 رئيساً لتحرير جريدة «البصائر» الأولى، بمدينة الجزائر؛ فكيف كان يتأتّى له إصدار جريدة أخرى ببسكرة، في الوقت نفسه، مع بُعد المسافة بين المدينتين، وبدائيّة المواصلات وبُطئها على ذلك العهد؟ كما يُبعد

---

35 انظر ناصر، م.م.س.، ص.216-221.
36 مروة، تاريخ الصّحافة العربيّة، ص.396.
37 ينظر عمّار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، 1. 59. ويذهب تركي رابح المذهب نفسه، الشيخ ابن باديس، ص.112.

رأي عمّار طالبي أيضاً أنّ الأستاذ دبّوز، وهو أغنى المصادر التي كتبت عن الطيّب العقبيّ، لم يذكر من صحفه التي أسّسها إلاّ الإصلاحَينِ الإثنتين.[38]

والحقّ أنّ الذي أصدرها هو فعلاً علي بن موسى العقبيّ -الطّولقيّ الميلاد- وقد صدرت في شهر أبريل 1926. وتوقّفت من تلقاء نفسها، وبعد أن صدر منها زهاء ثلاثين عدداً.[39]

ولذلك نؤْثر عدم ترجيح قول على قول، بالقياس إلى تاريخ صدور هذه «الحق» وتاريخ توقّفها أيضاً، إلى حين العثور على وثيقة تاريخيّة دقيقة.

9.وادي ميزاب (1926-1929)

ربما يكون إبراهيم أبو اليقظان، أكبر الصّحفيّين الجزائريّين، وأشدّهم مقاومة، وأقواهم عناداً، وأكثرهم تصبّراً أيضاً، على اضطهاد الاِحتلال الفرنسيّ لجرائده؛ فكان كلّما أصدر جريدة جاء إليها الاستعمار فعطّلها تعطيلاً؛ فكان هو لا يلبث إلاّ قليلاً حتّى يُصدر جريدة أخراةً مكانَها؛ حتّى كاد يستنفد ألفاظ اللّغة التي يتّخذها لها عناوين! وقد استمرّت مسيرته الصّحفيّة قريباً من خمسة عشر عاماً دون انقطاع، بعد أن أصدر ثمانِيَ صحائفَ؛ فلم تسلَمْ أيٌّ منهنّ من مصادرة الاِحتلال الفرنسيّ؛ وكلّ ما في الأمر أنّها كانت تتفاوت في الأعمار؛ فعلى حينَ كانت الواحدة ربما لا تعمّرُ إلاّ أسبوعاً واحداً (مثل ميزاب)، كان بعضها تتغاضَى عنه عين الاِستعمار قليلاً. وقد كانت جرائده كلّها أسبوعيّة.

---

38 كنّا نحن أيضا ذهبنا في كتابنا نهضة الأدب العربيّ المعاصر في الجزائر، ص.109 مذهب الدكتور طالبي الذي كنّا نقلنا عنه ذلك، لكن أمام ما ذكرنا من معطيات، فإنّنا نتحفّظ حول التّاريخ الحقيقيّ لصدور هذه الحق التي ضاع حقّها في التّاريخ !

39 ينظر محمّد ناصر، م.م.س.، ص.79-80.

وكان أبو اليقظان، إلى ذلك، شاعراً مُفلقاً، وكاتباً مغزاراً؛ فكان ربما كتب في صحف عربيّة أخراة بالجزائر إلى جانب استقطابه لأهمّ الأقلام الأدبيّة في الجزائر؛ فقد كان يكتب في جرائده مفدي زكرياء، ورمضان حمّود، وحمزة بوكوشة، ومحمّد العيد آل خليفة، وسَواؤُهم من كبار الشّعراء والكتّاب...

وصدرت جريدة «وادي ميزاب» في فاتح أكتوبر 1926، وعُطِّلتْ في ثامن عشر يناير سنةَ تسعٍ وعشرين وتسعمائة وألفٍ بعد أن صدر منها مائة وتسعة عشرَ عدداً[40]، وكانت تُطبع بتونس، وتوزّع بالجزائر قبل أن يؤسّس أبو اليقظان مطبعته الشّخصيّة، تحت اسم «المطبعة العربيّة[41]» في مدينة الجزائر.

10.ميزاب (1930-1930)

ولَمّا ظهر العدد الأوّل من هذه الجريدة التي صدرت في خامس وعشرين يناير عام ثلاثين وتسعمائة وألفٍ؛ وهي التي لم يصدر منها سوى عددٍ واحدٍ فقط، تحدّثتْ عنه مجلّة «الشّهاب» الشّهريّة فقالت: «جاءنا العدد الأوّل من هذه الرّصيفة، الخلَف الطيّب لسابقتها. وقد حُلِّيَ صدرُها بمقال ضافٍ بقلم صاحبها الكاتب البارع الشّيخ أبي اليقظان؛ فعرفنا منه ما لم نكن نجهل من مقاصد الشّيخ في

[40] أنور الجندي، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، ص. 216. وانظر أيضا المدنيّ، م.م.س.، 346؛ وطالبي، م.م.س.، 1. 59؛ والمجاهد الأسبوعيّ، ع. 388، في 8. 10. 1967، ص.23.

[41] من أهمّ المطابع التي كانت معروفة في الجزائر، والتي كان يملكها الجزائريّون، من لدن الحرب العالميّة الأولى إلى قيام ثورة فاتح نوفمبر عام أربعة وخمسين وتسعمائة وألف: مطبعة النّجاح بقسنطينة (مطبعة جريدة النّجاح للشيخ ابن الهاشمي)، والمطبعة الإسلاميّة الجزائريّة بقسنطينة (مطبعة الشّهاب، لا بن باديس)، والمطبعة العربيّة بمدينة الجزائر لإبراهيم أبي اليقظان، ومطبعة الزّاوية العليويّة بمستغانم، ومطبعة البلاغ بالجزائر، ومطبعة البصائر (الثانية) بالجزائر، ومطبعة ابن خلدون بتلمسان. وكان للزّاهري أيضا مطبعة ساومه عليها الإبراهيمي (انظر البصائر، ع. 61 في 27 ديسمبر 1948 ص.3)، وينظر المدنيّ، م.م.س.، ص. 373.

خدمة الدّين والوطن والعلم والأدب».[42] لكنّه كان العدد الأوّل منــها والأخـير، حيث عطّلها الاستعمار مجرّدَ ميلادها![43]

11.المغرب (الجزائر، 1930-1931)

جريدة أسـبوعيّة أسّسـها إبراهيـم أبـو اليقظـان؛ وقـد صـدرت خلفاً لجريـدة «ميزاب» المعطّلة. وصدر العددُ الأوّل منها في تاسع وعشرين مايو سنة تسعٍ وعشـرين وتسعمائة وألفٍ، وعُطّلت في تاسع مارس سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة وألـفٍ، بعد أن صدر منها ثمانية وثلاثون عدداً.[44]

وهذه «المغرب» غير جريـدة «المغـرب» الـتي كـانت تُصدرهـا مطبعـة فونتانـا بالجزائر في مطلع القرن العشرين.[45]

12.حرز مرجانة (الجزائر، 1931-1931)

وهو عنوان يوحي بالسّخريّة من الاستعمار الفرنسيّ؛ فلمّا كـان بالمرصـاد لكلّ جريدة يُصدرها أبو اليقظان، اتّخذ هذا العنوانَ لجريدته هذه لعلّ عين الاستعمار أن تتغاضى عنها فلا تصيبها، كما يعتقد ذلك العوامّ من البركة والحماية لكلّ من يحمل حرز مرجانة؛ ولكن هيهات!

---

42 الشّهاب، ج.1، م.6، فبراير 1930، ص.60.
43 ينظر المدني، م.م.س.، ص.346؛ مجلّة المعرفة، الجزائر، غشت 1964، ع. 14.
44 ينظر المدني، م.م.س.، ص.346؛ ملحق الشّعب، الجزائر، الذكرى السّابعة والعشرون لوفـاة ابـن بـاديس، ص.5؛ أنور الجنديّ، م.م.س.، ص.216.
45 كانت تصدر عام 1903. وكانت حكوميّة الهوى. وقد زعموا أنّ محمّداً عبده قال فيها حين زار الجزائر بأنّ هذه الجريدة مفيدة للجزائريّين على الرّغم من أخطائـها، ينظر طـالبي، م.م.س.، 1. 59، وأبـو القاسم سعد الله، م.م.س.، ص.157.

13.النّور (الجزائر، 1931-1933)

صدرت هـذه الأسبوعيّة في 15 سـبتمبر 1931، وعُطِّلت في ثـالث مـايو سـنة ثلاثٍ وثلاثين وتسعمائة وألفٍ، بعد أن صدر منها ثمانيةٌ وسبعون عدداً.[46]

14.البستان (الجزائر، 1933-1933)

صدر العدد الأوّل مـن هـذه الجريـدة اليقظانيّـة في 27 أبريـل 1933، وعطّلـها الفرنسيّون في 13 يوليو 1933، بعد أن صدر منها عشرة أعدادٍ.[47]

15.النّبراس (الجزائر، 1933-1933)

صـدر العـدد الأوّل مـن «النّـبراس» في 21 يوليـو 1933، وعطّلــها المحتلّــون الفرنسيّون في 23 غشت 1933. ولم يصدر منها سوى ستّةِ أعدادٍ.[48]

16.الأمّة (الجزائر، 1933-1938)

وهـذه «الأمّـة» غـير جريـدة «الأمّـة» (1930–1934؟) الـتي كـانت تصـدر بباريس؛ فإنّ أمّة أبي اليقظان صدرت في ثامن سبتمبر سنة ثلاثٍ وثلاثـين وتسعمائة

---

46 ينظر المدنيّ، م.م.س.، 347؛ والجنديّ، م.م.س.، 216؛ والشّهاب، غشت 1932، ص.401-409؛ وطالبي، م.م.س.، 4.322.

47 الجندي، م.م.س.

48 انظر كلمة كتبها الأستاذ لإبراهيم أبو اليقظان في: أنور الجنديّ، الفكر والثّقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، ص.216.

وألفٍ، وعَطّلها الفرنسيّون سنة ثمانٍ وثلاثين وتسعمائة وألفٍ.[49] وهي من أطول جرائده عمراً.

17.الفرقان (الجزائر، 1938-1938)

يبدو أنّ جريدة «الفرقان» هي آخر جرائد أبي اليقظان الذي أتعبه الفرنسيّون، بهذه التّعطيلات المتوالية التي كأنّها كانت ضرْباً من الهزل الاستعماريّ الجادّ؛ فكان الفرنسيّون أصرّوا على إزعاج الرّجل وإخماد صوته الجهير، ومحاولة كبْح جماح عزيمته الجريئة، ونخوته النّبيلة. فكان إزعاج، نشأ عنه انزعاج! وضرْبٌ عدوانيّ، تولّد عنه اضطراب!

وقد صدرت عُجْزَةُ صحفِه في خامس مايو 1938، وعطّلها الفرنسيّون في ثالث غشت 1938، فلم يصدر منها إلاّ ستّة أعدادٍ.

18.صدى الصّحراء (1925-1926، ثم 1934)

أصدر هذه الجريدةَ الأسبوعيّة أحمد بن العابد العقبيّ، على الأصح، وليس الطّيّب العقبيّ. وصدر العدد الأوّل منها في ثالث وعشرين نوفمبر 1925[50]، وتوقّفت من تلقاء نفسها عام 1926. وإنّما قلنا: «على الأصحّ»، لأنّ طالبي كان ذهب إلى أنّ الذي أصدرها إنّما هو الشّيخ الطّيب العقبي، وهو سهو منه؛[51] لأنّ المصادر الأخرى أجمعت كلّها على أنّ الذي أصدرها إنّما هو أحمد بن العابد العقبيّ.[52] غير أنّ

---

49 يراجع المدنيّ، وطالبي، وتركي رابح، وأنور الجندي، ومحمّد عليّ دبّوز، وأديب مروة، وعبد الملك مرتاض، في المصادر السّابقة.

50 دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، وثورتها المباركة، 2. 111.

51 انظر عمار طالبي، م.م.س.، 1. 59.

52 انظر المدنيّ، م.م.س.، ص. 204 (وفات المدنيّ ذكر تاريخ صدورها، كما لم يكتب عنها شيئاً)؛ ومروة، م.م.س.، ص.396؛ ودبّوز، م.م.س.، 2. 112 (وهو أغنى مصدر للمعلومات التّاريخيّة المتمحّضة لهذه الجريدة، غير أنّه سكت عن التّاريخ الدّقيق لتوقّفها مجتزئا بأنّها تعطّلت «بعد سنة من صدورها» وقد ضبطنا

الطّيّب العقبي كان يكتب فيها.[53] كما شارك في تأسيسها كلٌّ من الطّيب العقبي، ومحمّد الأمين العمّودي، ومحمّد العيد آل خليفة. وكانت تطبع بقسنطينة.[54]

وكانت: «نشرة إسلاميّة علميّة أدبيّة اجتماعيّة إصلاحيّة انتقاديّة شعاره العمل على درءِ المفسدة، قبل جانب المصلحة».[55]

وقد حيّى صدورَ هذه الجريدةِ كثير من الشّعراء المعاصرين لها منهم محمّد العيد آل خليفة بقصيدة تقع في ثلاثين بيتاً، منها:

صفا العيش لي وامتدّ ريف ظِلالي

فما لتكاليف الزّمان، ومالي؟

صفا العيش لي وازدان روض مواهبي

وأينع فضلي، واستبان كمالي

وكنت «صدى الصّحراء» أدْعَى لأنّني

بسطت على الصّحراءِ نور هلالي[56]

وممّن حيّاها أيضاً الشّاعر محمد اللّقّانيّ بن السّايح بقصيدة طويلة تقع في ستّة وخمسين بيتاً، نورد منها هذين البيتين:

وهاهِي «صدى الصّحراء» جاءتك تنثني

بثوب قشيب من طروس وميداد

نحن، مع ذلك، تاريخ صدورها وتعطّلها، بناء على ما أورد الشّيخ دبّوز؛ وصالح خِرفي، المجاهد الأسبوعيّ، عدد 388 في 8. 10. 1967، ص.23؛ وعبدِ الرّحمن الغريب، المجاهد الثقافي، ع. 16، أكتوبر 1970، ص. 51؛ وتركي رابح، م.م.س.، 112، وذكرها عرَضاً في أقل من سطر واحد؛ الصّحافة الجزائريّة بين الأمس واليوم (وثيقة أصدرتها سفارة الجزائر ببيروت)، ص. 15، ولم تذكر من هذه الجريدة إلاّ عنوانها، وتاريخ صدورها.

53 انظر دبوز، م.م.س.

54 ينظر ناصر، م.م.س.، ص.62.

55 م.س.

56 شعراء الجزائر في العصر الحاضر، 1. 27–29.

تناديك والآمال فيك قويّـــــــــة

إلى العلم والتّقوى إلى الحزم والزّاد[57]

وقد توقّفت بسبب خلاف وقع بين أعضاء إدارتها، بعد أن صدر منـها ثلاثـة عشر عدداً، وذلك في 29. 9. 1926.[58]

19. المنتقد (قسنطينة، 1925-1925).

أصدرها عبد الحميد باديس «في يوم النّحر من ذي الحجّة، خاتمة شهور عام ثلاثة وأربعين وثلاثمائة وألف».[59] ولم يصدر منها سـوى ثمانيـة عشـر عـدداً، مثـل مجلّة «العروة الوثقى».[60] ويبدو أنّها تعطّلت في شهر نوفمبر من السّـنة نفسـها التي صدرت فيها.[61]

وكـانت تكتـب علـى صدرهـا بأنّـها «جريـــدة سياسـيّة تهذيبيّــة انتقاديّـة شعارها: الحقّ فوق كلّ أحد، والوطن قبل كلّ شيء».[62] وكـانت تصـدر صبيحـة كـلّ يوم خميس. وكان من كتّابها المولود بن الصّدّيق الحافظي، وقد نشر في العـدد الرّابـع مقالـة افتتاحيّـة عنوانـها: «في عـالم الصّحافـة»[63]. علـى حـين كتـب فيـها الشّـاعر المعروف، محمّد الصّالح خبشاش، مقالة عنوانها: «نكبات الأمّة الجزائريّة».[64] وقـد لاحظنا أنّ الصّفحة الرّابعة والأخيرة خُصّصت للإشهار ممّا قد يعني أنّ المـادّة القيّمـة

---

[57] م.س.، 1. 45–50. ويبدو لنا أنّ في قصيدة اللّقاني نثريّة ونظميّة.

[58] ناصر، م.م.س.، ص.63.

[59] ابن باديس، الشّهاب، ج.1، م.11، الافتتاحيّة. ويوافق هذا التّاريخ الهجري: 2. 7. 1925.

[60] م.س.

[61] وقد زعم أبـو القاسـم سـعد اللّـه أنّـها صـدرت في سـنة 1921، وهـو محـض وهـم!، انظـر الحركـة الوطنيّـة الجزائريّة، ص.455. وانظر طالبي، م.م.س.، 1. 58.

[62] أخذنا هذا التّعريف من العدد الرابع من «المنتقد» الصّادر في 23 يوليو 1925. وكانت تصدر في حجم كبير جدّاً يبلغ مقاسه: 57×39، أي ضعف حجم جريدة لسان الدّين، فإنّها من هذه النّاحية كانت تصدر في ثماني صفحات، لا في أربع.

[63] المنتقد، ع. 4، في 23. 07. 1925، ص.1–2.

[64] م.س.

التي كانت ترد على «المنتقد» لم تكنِ كافية. هذا أمر. والأمر الآخر، أنّ ابن باديس لم يكتب أيّ مقالة في هذا العدد ممّا قد يدلّ على أنّ التّدريس كان يأخذ منه معظم وقته.

وقد كان الهدفُ العامّ من إصدار «المنتقد» حسب ابن باديس نفسه هو لَفْتَ «الجزائريّين المسلمين إلى حقيقة وضعيّتهم بين الأمم: بأنّهم أمّة لها قوميّتها، ولغتها، ودينها، وتاريخها؛ فهي لذلك أمّة تامّة الأمميّة، لا ينقصها شيءٌ من مقوّمات الأمم»[65].

وقد زعمت جريدة «النّجاح» أنّ «سبب تعطيل «المنتقد» هو نشرهُ فصولاً ضدّ الجمهوريّة الفرنسيّة، بعد الإنذار»![66]

ذلك، وقد حيّى صدور «المنتقد» على دأب الشّعراء الجزائريّين على ذلك العهد، مجموعة من الشّعراء، منهم محمّد الهادي السّنوسيّ، نشرت في العدد الأوّل من الجريدة، مطلعها:

أتيتكَ بالبشرى تهيّأ لإقبالي   وكبّر على التّشريق[67] تكبير إجلال
وخلّ الكَرى واتِ النّسيمَ على الرُّبَى   بكوراً ففي ريّاهُ منتعَشُ البال
إليكم بني القطر العزيز تحيّة   ليوم به الآمالُ في حينِ إقبالِ
وللشّعب أبغي رشده ورقيّه   جعلت حياة النّشر مهبط أعمالي
أهيبُ بشبّان الجزائر كلّهم   فهم قادة الأفكار ركّاب أهوالِ[68]

---

65 ابن باديس، م.م.س.

66 شعراء الجزائر في العصر الحاضر، 1. 25. (ذيل). (صدر في سنة 1926).

67 «أيّام التّشريق: ثلاثة أيّام بعد يوم النّحر؛ لأنّ لحم الأضاحي يشرّق فيها للشّمس، أي يشرّر» ابن منظر، لسان العرب، شرق. لأنّ الجريدة صدرت في صبيحة عيد النّحر من سنة 1343 للهجرة. وقد شُرحت عبارة «أيّام التّشريق» في شعراء الجزائر على أنّها أيّام عيد النّحر، وذلك مُحتاج إلى تدقيق، فأيّ أيّام؟

68 م. هـ. السنوسيّ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، 1. 191-195.

20.البلاغ الجزائريّ (مستغانم، ثم الجزائر، 1926- 1943)

هي جريدة أسبوعيّة «علميّة إرشاديّة دفاعيّة».[69] وقد صدرت «عن الزّاوية العلويّة بمستغانم، ثـمّ انتقلت إلى عاصمة الجزائـر حيث قويت واشتدّ ساعدها، وأسّست مطبعة خاصّة بها. وهـي ذات برنـامج ديـنيّ وطـنيّ، تدافع عـن التّصوّف والطّرقيّة. إنّما تحمل على البدع والأضاليل التي يرتكبها شيوخ الطّرُق ومريدوهـا»[70]. وقد أسّسها الشّيخ أحمد ابن عليوة. وصدرت في 17 جمادى الآخرة 1345 للهجرة، الموافق 24 ديسمبر 1926.

وقرّضها عدد كبير من الشّعراء الطّرقيّين منهم عبد الأحدُ بن الشّيخ عبد الحيّ الكتّانيّ، صاحب الزّاوية الكتّانيّة بفاس[71] الذي كتب قصيدةً مطلعها:

شيوخَ الأمّةِ اقتعِدوا السّناما سنامَ العزّ وامتلكوا الزّماما

ونجد من بين هؤلاء الشّعراء المقرّظين، إلى جانب المغاربة، تونسيّين ومصريّين ويمنيّينَ، بالإضافة إلى الجزائريّين.[72]

وقد أهمل الأستاذ أحمد توفيق المدنيّ تاريخ صدور هـذه الجريـدة،[73] وذهـب مذهبَه كلٌّ من علاّل الفاسي،[74] وتركي رابح.[75] ولم نأتِ نحـن شيئاً غير ذلك، في كتابة لنا سابقة؛[76] وقد كنّا نقلنا يومئذ عن عمّار طالبي الذي كان نقل هو أيضاً، فيما يبدو، عن توفيق المدنيّ الذي أهمَل، هو أيضا، تاريخ صدور هذه الجريدة.

وكـانت «البلاغ الجزائـريّ»، وذلـك علـى الرّغـم مـن اعتدالهـا أوّلَ الأمـر، وتعاطفها مع حركة الإصلاحيّين، إلاّ أنّها لم تلبث أن ناصبتهم العداء، وكشرت لهم

---

69 نقلنا هذه العبارة من أحد أعدادها.
70 المدنيّ، م.م.س.، ص.346.
71 الرّوضة السّنيّة، في المآثر العلويّة، 1. 60-61.
72 م.س.، 1. 59-66.
73 م.س.
74 علاّل الفاسي، م.م.س.، ص.11.
75 تركي رابح، م.م.س.، ص.112.
76 عبد الملك مرتاض، م.م.س.، ص.110.

عن البغضاء. وقد ألفينا ابن باديس يردّ على الحافظي الذي كان نشر مقالةً في هذه الجريدة حول مفهوم العبادة، برسالة عنوانها: «أيّهما أكمل: آلعبادةُ مع رجاء الثواب وخوف العقاب، أم العقاب دونهما»؟[77]

وقد أثنى المدنيّ على هذه الجريدة الطّرُقية وذكرها بخير؛ لأنّها كانت طلبت إلى جمعيّة العلماء أن تنظر «في أحوال الاِحتفالات التي تقع على بعض الضّرائح، ويحصل بها من اختلاط النّساء بالرّجال، وغير ذلك ممّا شأنه أن يفتك بالأخلاق».[78]

وقد كان زعم أديب مروة[79] أنّ هذه الجريدة لمحمّد بن محي الدّين، وهو محضُ باطل! وإنّما أصدرتها هيئة دينيّة طرقيّة، هي الزّاوية العلويّة بقيادة الشيخ أحمد بن مصطفى بن عليوة المستغانميّ.[80] وكانت البلاغ تصدر يوم الجمعة من كلّ أسبوع. وربما كان مديرها، في حقيقة الأمر، يتغيّر بين حين وحين؛ فقد كان حدوني محمّد محي الدّين، ثمّ أصبح بعده الأخضر عمروش، باعتبار طول عمر هذه الجريدة من وجهة، وانتمائها إلى هيئة، لا إلى شخصٍ بعينه من وجهة أخراة.

وقد كانت «البلاغ الجزائريّ» ترفع شعار «نحن مسلمون قبل كلّ شيء».[81] وقد كانت تغيّر غايتها بين حين وحين آخر أيضاً؛ فقد أمست هذه الغاية قُبَيلَ الحربِ العالميّة الثانية أنّها «جريدة دينيّة علميّة إرشاديّة إخبارية».[82]

وأمّا نحن فقد وقع لنا من هذه الجريدة أعداد كثيرة، غير أنّها متفرّقة لا متتابعة، منها ما يعود إلى السّنين الأولى من حياتها، ومنها ما يعود إلى ما بعد

---

77 الشّهاب، ج.11، م.8. في نوفمبر 1932، ص. 552-564.

78 المدني، م.م.س.، ص. 352. ويبدو أنّ ذلك في أوّل أمرها، وقبل احتدام الصّراع بين العلويّين والباديسيّين.

79 مروة، م.م.س.، ص. 395.

80 راجع جريدة «الذكرى»، تلمسان، ع.2، في 15 يناير 1955، ص.2.

81 انظر، مثلاً، ع. 204 في 4. 8. 1933.

82 انظر البلاغ الجزائري، ع. 467 في 30 يونيو 1939.

الحرب العالميّة الثانية. وقد لاحظنـا، في معظم أطوارها، أنّـها كـانت تنشر هجواً شنيعاً تصبّه على ابن باديس وصحْبه، وذلـك قبـل تأسيس جمعيّـة العلمـاء نفسِها! وكان الهاجون البلاغيّون يتّخذون في ذلك الشّعر والنّثر معـاً. والـذي يعود إلى العدد الثامن والعشرين، مثلاً، من هذه الجريدة يقتنع بذلك اقتناعاً.[83] وعلى حين كـانت أعداد السَّنة الأولى لا تشتمل إلاّ على أربعِ صفحات فقط، فإنّ أعدد السّنة الخامسة، مثلاً، ألفيناها تشتمل على ستٍّ، ثـمّ عـادت في نهايـة أمرهـا إلى الاِجـتزاء بـالأربعِ الصّفحاتِ.

والذي لاحظنـا أنّ كتّاباً مغاربـة كـانوا يكتبـون في هـذه الجريـدة باستمرار؛ وكانت مقالاتهم تردُ من فاس وطنجة، والرّباط خصوصاً. وكان أولئك الكتّاب يمثّلون الاتّجاه المحافظ في المغرب الأقصى أيضاً؛ فقد كانوا في معظمهم إمّا طرقيّين، وإمّا متعاطفين مع الطّرقيّة.

ولقد بدا لنا بعد تصفّح أعداد كثيرة مـن هـذه الجريـدة أنّـها كـانت تنـاوئ الإصلاحيّين حيث ثُقِفُوا، وربّما كانت تتّهمـهم بالإلحـاد والشّرك والضّلال.[84] كما كانت لا ترعوي أن تصفهم بصفـات نعتقـد أنّـهم كـانوا عنـها بُعدانـاً، مثـل صفات الطّيش، والعَمَى، والصَّمَم![85]

وإنّا لا نرى وجهاً من الحقّ لِمَا قال الأستاذ المدنيّ عـن العلاقـة الطّيّبـة التي كانت قائمة بين البلاغ والإصلاحيّين بعد أن ألفيناه هـو نفسُـه يكتـب مقالـة يلتمس فيها من مدير هذه الجريدة أن يجنح هو وأصحابه للتّسامح والتّأدّب والـتزام اللّـين في الحِجاج، لأنّ المدنيّ رأى أنّ الشّحناء كانت بلغت بين بعـض الكتّـاب الإصلاحيّين

---

83 ينظر البلاغ الجزائريّ، ع. 28 في يوم الجمعة 15 محرّم 1346 (يوليو 1927). وانظـر أيضاً العدد 216 في 26.6.1931.

84 راجع مثلاً ع. 25، 28.

85 راجع مقالة نشرت في البلاغ دون إمضـاء عنوانـها: «التّعليـم في المسـاجد والمعـاهد»، ع. 467 في 30 يونيو 1939، ص.1 و4. حيث يتهجّم فيها صاحبها بعنف شديد على العلماء الإصلاحيّين.

والطّرقيّين «حدّاً فاحشاً، وخرجت عن دائرة البحث النّزيه، والجدال بالحجّة والبرهان، إلى دائرة الشّتم والقذف والتّنابز بالألقاب».[86]

وكانت البلاغ تتلقّى صدور الجرائد الإصلاحيّة بالاستهزاء والسّخريّة، والتّفظيع والتّشنيع؛ كما هي الحال بالقياس إلى ردّ فعْلها حين أصدرت جمعيّة العلماء جريدة «الشّريعة»، فقد كتبت أنّ العلماء «اخترعوا ورقة سمّوها بالشّريعة، فجاءت كالشّنيعة! ونحن نرجو لها رواجاً على كلّ حال، ولكن تحت السّماوات السّبع، وفوق قرن الثور»![87]

وكانت البلاغ الجزائريّ صحيفة راقية، على الرّغم من اصْطراعها مع جمعيّة العلماء، وكان يكتب فيها كتّاب كبار نسبيّاً مثل المولود بن الصّدّيق الحافظي، والنّاصر معروف، وأحمد سكيرج. وقد كتب الحافظي مقالة نبيلة يعترض فيها على تجنيس الجزائريّين بالجنسيّة الفرنسيّة عنوانها: «احتجاج ضدّ التّجنيس».[88] ولعلّ هذه المقالة أن تكون من أرقى مقالاتها وأنبلها وألصقها بالوطنيّة، وأقربها إلى مقاصد الدّين... وتكاد تكون وحيدة موضوعها في هذه الجريدة...

كما نُشرت مقالة جيّدة من حيث مستواها الفكريّ، وطريقة المعالجة، حول الإعتراض على الدّكتور تقيّ الدّين الهلاليّ الذي كان نشر مقالة تهجّم فيها على التّصوّف.[89]

وتعدّ جريدة البلاغ الجزائري، من الوجهة التّاريخيّة، عظيمة الشّأن، لأنّها تُرينا كيف كان قادة الفكر الجزائريّون يتصارعون ويتصاولون، بالطّريقة الجزائريّة! كما تُعطينا صورة حيّةً للنّشاط الثقافيّ، والصّحافيّ، والدّينيّ، والطّرقيّ أيضاً في

---

86 المدنيّ البلاغ الجزائري، ع.25 في 23 ذي الحجّة 1345، ص.2.
87 البلاغ، ع. 402، في 4. 8. 1933، ص.4، عمود 3، تحت عنوان: «الاختراعات العجيبة».
88 البلاغ، ع. 339 في 16. 8. 1935، ص.1.
89 انظر البلاغ، ع. 104، في 25 يناير 1929، ص.1-2.

الجزائر خلال العهد الطّويل الذي ظلّت تصدر فيه. وإنّا لا نحسب أنّ الإستغناء سيكون بسهولة عنها بالقياس إلى مؤرّخ الحياة الثقافيّة والفكريّة والسّياسيّة والاجتماعيّة في تاريخ الجزائر الحديث.

21.الإصلاح1 (بسّكرة، 1927-1930)

أصدرها الشّيخ الطّيّب العقبيّ بمدينة بسكرة في يوم الخميس ثامن سبتمبر 1927. وكان يطبع أعدادها الأولى بتونس، ويوزّعها بالجزائر قبل أن يشتري مطبعة من مدينة قسنطينة، فيؤسّسها بمدينة بسكرة. فكانت أوّل مطبعة عربيّة تغرس في هذه المدينة التّاريخيّة الجميلة. وقد استقدم لها مصفّفاً من تونس. وزعم علي محمّد دبوز أنّها لم تُعَمَّرْ إلاّ ثلاثَ سنواتٍ.[90] غير أنّنا وقعنا على نصٍّ في مجلّة «الشّهاب» [91] يُثبت أنّ جريدة «الإصلاح» -الأولى- كانت لا تزال تصدر في سنة 1930.

لكنّ أحمد توفيق المدنيّ الذي أصدر «كتاب الجزائر» في سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة وألف، يقرّر، لدى حديثه عن الصّحافة الوطنيّة العربيّة اللّسان في الجزائر، أنّ «الإصلاح» -الأولى- كانت توقّفت حين يقول: «وتعطّل الإصلاح في ساعة تؤكّد الحاجة إليه، وشدّة الإعتماد عليه».[92] كما يذكر المدنيّ أيضاً أنّ جريدة «الإصلاح» -الأولى- توقّفت عاماً كاملاً بقرار من السّلطات الإستعماريّة في الجزائر حيث رفضت أن تُطبعَ بتونس؛[93] فاضطرّ العقبيّ إلى تأسيس مطبعة عربيّة ببسكرة.

---

90 انظر دبوز، م.م.س.، 2. 111، 112؛ والمدني، م.م.س.، ص.347؛ ومروة، م.م.س.، ص.396؛ وصالح خرفي، المجاهد الثقافي، ع. 16 أكتوبر 1970، ص.51؛ وعبد الرّحمن الغريب، المجاهد الأسبوعي، ع.3888، في 10.8. 1967، ص.23.

91 انظر ج.12. م.6. يناير 1930.

92 كتاب الجزائر، ص.347، ط.2.

93 م.س.، ص.34، ط.2.

فلعلّ النّصّ الذي نقلته «الشّهاب» في يناير 1930 كانت نقلته من آخر عدد صدر في نهاية تسعٍ وعشرين وتسعمائة وألفٍ. وببعض ذلك قد تكون الإصلاح عاشت، فعلاً، ثلاث سنوات فقط. ويذكر الدّكتور محمّد ناصر أنّ أفصلاح الأولى توقّفت في 25 سبتمبر 1930.[94]

ذلك، وإنّ من بين كُتّابها نذكر الأمين العمّوديّ، ومحمّد العيد آل خليفة، ومحمّد خير الدّين، ومحمّد السّعيد الزّاهريّ، ومبارك بن محمّد الميليّ، وأحمد توفيق المدنيّ.[95]

وكانت الإصلاح ذات اتّجاه إصلاحيّ شديد اللّهجة، قويّ الاِقتناع بوجوب قيام الحركة الإصلاحيّة في الجزائر؛ وقد يدلّ على ذلك الأقلام المرموقة التي كانت تكتب فيها. ويزعم الشّيخ دبّوز أنّها مهّدت لقيام جمعيّة العلماء،[96] وهو الذي كان يعلم من أمر فكرة جمعيّة الإخاء ما يعلم...!

22.المرصاد (الجزائر، 1931-1933)[97]

أصدر هذه الجريدة الأسبوعيّة، ذات اللّسان العربيّ، شاعر الملحون السّيّد محمّد عبابسة الأخضريّ. وكانت هذه الجريدة «سلفيّة المشرب، معتدلة اللّهجة، شريفة الغاية».[98] غير أنّ الفرنسيّين لم يلبثوا أن عطّلوها؛ وذلك على الرّغم من أنّ صاحب امتيازها كان الفرنسيّ المسلم: السّيّد محمّد الشّريف جوكلاري.

---

[94] ناصر، م.م.س.، ص.91.

[95] راجع الشّهاب، ج.12. م.6. شعبان 1349هـ/ يناير 1930؛ والمجاه الثقافيّ، ع.1. ص.54 الصّادر في يونيو 1967.

[96] دبذوز، م.م.س.، 2. 112.

[97] أفادني تاريخ الصّدور الأستاذ حمزة بوكوشة، من رسالة أرسلها إليّ في 23. 12. 1973، ص.7.

[98] مجلّة الشّهاب، ج.1، م.8، ص.60، في يناير 1932.

وصدرت في 27 ديسمبر 1931. وقد أفلحت «المرصاد» في استقطاب أقلام جزائريّة كبيرة مثل الأمين العمّودي، ومحمّد العيد، ومفدي زكرياء. وقد كانت خطّتها إصلاحيّة اجتماعيّة وطنيّة؛ ممّا ألّب عليها السّلطات الاستعماريّة التي وَقَفتها بقرار صادر في ثامن نوفمبر من سنة 1933؛ وذلك بعد أن صدر منها أربعة وستّون عدداً.[99]

والحقّ أنّ هذه الجريدة قاومت الاحتلال بالكلمة الطّيّبة، والعبارة المشرقة، والفكرة النّيّرة؛ ممّا يجعلها جريدة مناضلة من أجل الحرّيّة؛ وممّا يجعل منها مصدراً من مصادر الثقافة والأدب الجزائريّين في بداية الأعوام الثلاثين من القرن العشرين.

23.الثبات (الجزائر، 1934- 1935)

«كانت تصدر بالجزائر. مديرها [محمّد] عبابسة الأخضري. صدرت سنة 1934 خلفاً عن جريدة «المرصاد» التي يصدرها عبابسة المذكور سنة 1931، فعطّلتها الحكومة».[100] وكانت «جريدة سياسيّة اجتماعيّة أخلاقيّة تصدر يوم الجمعة من كلّ أسبوع».[101]

وكانت «الثبات» تحلّي صدرها بقوله تعالى: «يثبّت اللّه الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدّنيا وفي الآخرة[102]». وأمّا شعارها فكان: «الثبات على المبادئ الحقّة، مع السّير بحكمة يضيء السّبيل، ويضمن النّجاح»[103].

---

99 ينظر ناصر، م.م.س.، ص.119 وما بعدها.
100 حمزة بوكوشة، من رسالة خطّيّة كتبها إلينا في 23. 12. 1973، ص.7.
101 أخذنا هذا التّعريف من عددها السّادس والعشرين الصّادر في 1 أكتوبر 1934.
102 سورة إبراهيم، من الآية 27.
103 انظر العدد: 26.

وكانت «الثبات» تصدر في صفحتين اثنتين فقط، وذلك حسب ما وقع لنا من بعض أعدادها القليلة، التي تقع قبل العدد السابع والعشرين. وكانت مقالاتها سياسية خالصة، تعنى بقضايا الانتخابات وما يشاكل ذلك من قضايا السياسة. وأما عربيتها فكانت ضعيفة بحيث لم تكن تخلو من أخطاء وهنات.

24.الإخلاص (الجزائر، 1932-1933)

هي «جريدة علميّة دينيّة إرشاديّة إخباريّة مِلِّيَّة وطنيّة حرّة، يحرّرها نخبة من العلماء العاملين المعتدلين تحت إشراف الأستاذ المولود بن الصّدّيق الحافظي الأزهريّ، وإدارة السّيّد عمر إسماعيل».[104]

ووجدناها تعرّف نفسها في أعداد أخرى بأنّها «مجلّة علميّة دينيّة إرشاديّة إخباريّة يحرّرها نخبة من العلماء العاملين المعتدلين في عاصمة الجزائر تحت إشراف الأستاذ المولود بن الصّديق الحافظي...».[105]

وكانت هذه الجريدة المحافظة، ذات الاِتّجاه الطّرُقيّ، تصدر يوم الأربعاء من كلّ أسبوع.[106] وكانت «الإخلاص» في حجم «الإصلاح». وقد كانت أوّلَ أمرها تصدر في أربعِ صفحات، ثمّ تطوّرت فبدأت تصدر في ثمانِي صفحاتٍ، ولكن في حجم صغير. وكانت ترصّع صدرها بآيات قرآنيّة مثل قوله تعال: «كنتم خيرَ أمّةٍ أخْرِجَت للنّاس؛ تأمرون بالمعروف، وتَنهَون عن المنكر، وتؤمنون بالله».[107]

---

104 أخذنا هذا التعريف من أحد أعدادها الموجودة بمكتبتنا.

105 ينظر الإخلاص، ع. 50 في 27. 12. 1933، والعدد 52، في 17. 01. 1934. ووقع لنا مجموعة من أعدادها، منها العدد الثامن عشر الصادر في في ثالث مارس من سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة وألف، والعدد التاسع عشر الصادر في في عاشر مارس من السنة نفسها.

107 سورة آل عمران، من الآية: 110. غير أن هذه الجريدة كانت لا تزال تغير تلك الآيات القرآنية فتعوض بعضها ببعض...

وصدر العدد الأوّل منها في 14 ديسمبر 1932، وكانت يصدر منها ألف نسخة من كلّ عدد، وتوقّفت من تلقاء نفسها لصعوبات ماليّة غالباً.[108]

وقد رأيت مجلّة «الشّهاب» تتحدّث عن هذه الجريدة في شهر يوليو من سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة وألفٍ. وقد كان صدر منها ثلاثة وثلاثون عدداً. ويُفهم من ردّ مجلّة «الشّهاب» أن جريدة «الإخلاص» كانت مناوئةً للحركة الإصلاحيّة بقيادة جمعيّة العلماء.[109]

وقد كانت «الإخلاص» في آخر أمرها تُحلّي صدرها بهلال ونجمة فوقه. وكانت تضيف تحت عنوانها الكبير الذي هو «الإخلاص» هذه العباراتِ الثلاثَ: «للّه، للأمّة، للوطن».[110]

وقد كانت تصف نفسها بأنّها «لسان حال جمعيّة علماء السّنّة الجزائريّين».[111] ويفهم من هذه الصّفة التي وَصفت بها نفسَها أنّها كانت تعرّض بجمعيّة العلماء وأعضائها.

وكانت «الإخلاص» تتجانف عن الموضوعات السّياسيّة غالباً؛ من حيث كانت تُقْبل على الموضوعات الدّينيّة والصّوفيّة فتعالجها بإطناب.

25. السّنّة (قسنطينة، 1933-1933)

هذه أوّل جريدة أصدرتها جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين.

---

108 ينظر ناصر، م.م.س.، ص. 124 وما بعدها.

109 توجد مجموعة من هذه الجريدة في الخزانة العامّة بالرّباط تحت رقم K697. كما توجد منها مجموعات مختلفة في كثير من المكتبات الخاصّة الكبيرة.

110 الإخلاص، ع. 50 في 27 ديسمبر 1933.

111 م.س.

وصدرت هذه الجريدة في يوم الاثنين 8 ذي الحجّة 1351 للـهجرة. وهـي أوّل جريدة أسبوعيّة تصدرها هيئة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّيين التي كان يرأسـها، يومئـذ، الشّيخ عبد الحميـد بـن بـاديس. غـير أنّ الإدارة الاسـتعماريّة كـانت لهـا بالمرصاد فأنشبتْ فيها أظافرَها الحادّة فعطّلتها؛ فكان آخر عدد صدر منـها في ربيـع الأوّل 1352 للهجرة (3. 7. 1933)[112] . فيكون عمر هذه الجريدة زهـاء ثلاثـة أشـهر فقط.

وقد كتب ابن باديس يؤبّن جريدة «السّنّة»، ويعلن ميلاد «الشّريعة» في مجلّـة «الشهاب» فقال، ضمن مقالة طويلـة: «رُوِّعـت الأمّـةُ بنبأٍ تعطيـل جريـدة «السّـنّة» بقرار من وزارة الدّاخليّة، وتقاطرت على الإدارة رسائل الاستياء والتّعجّب؛ ولم يكـن تعجّب النّاس من تعطيل جريدة دينيّة بعيدة كلّ البعد عـن السّياسـة دون استيائهم من عرقلة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين عن عملها الدّينيّ التّهذيبيّ الذي ذاقت الأمّة حلاوته، وشاهدت جميل أثره.

أمّا نحن فقد شاركنا الأمّة في الاسـتياء، ولم نشـاركها في التّعجّـب؛ فقـد كنّـا توعّدنا بأشياء هذا التّعطيل (...)[113] فجاء ونحن له متوقّعون(...).

تأسست جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين وأسّست جريدة «السّنة» المعطّلة، وأسّسنا اليوم بدلها جريدة «الشّريعة ». وستقوم، إن شاء اللّه، مقامـها، وتحـلّ مـن القلوب محلّها. واللّه المستعان، وهو حسبنا، ونعم الوكيل»[114] .

وأمّا اتّجاه جريدة «السّنّة المحمّديّة» فإنّنا نعلـم أنّـه كـان هـو اتّجـاه جمعيّـة العلماء نفسِها مـن محاربـة للتّدجيـل الدّيـنيّ، والشّعوذة، والخرافـات، والطّرقيّـة،

---

112 ينظر عمّار طالبي، م.م.س.، 1. 87.
113 كذا بالأصل، ولعل في العبارة بتراً لم يقع التّفطّن لها لدى الطّبع.
114 الشريعة المطهّرة، في 17 يوليو 1933. وكتبت هذه المقالة التي لم نورد منـها إلاّ مـا لـه صلـة بـالجريدتين المعطّلة، والجديدة، في شكل افتتاحية لجريدة «الشّريعة».

ومعالجة كلّ القضايا الأخرى السّياسيّة الملفوفة في ثوب دينيّ... وهذا هدف عامّ ينطبق على كلّ الاتّجاهات الفكريّة لصحف جمعيّة العلماء.

ومن أهمّ كتّاب «السّنّة» وأبرزهم ابن باديس، ومحمّد السّعيد الزّاهريّ، والطّيّب العقبيّ.

26.الشّريعة (قسنطينة 1933-1933)

هي الجريدة الأسبوعيّة الثانية التي أصدرتها جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين خلفاً للسّنة المعطّلة. وقد صدر أوّل عدد منها في 24 ربيع الأوّل 1352 الموافق 17. 7. 1933. غير أنّها لم تُعَمَّر هي أيضاً إلاّ قليلاً حيث عطّلتها السّلطات الاستعماريّة في 28 غشت 1933[115]؛ فيكون عمرها أقصر من عمر «السّنّة»؛ إذ لم يجاوز واحداً وأربعين يوماً.

وكانت الشّريعة تحلّي صدرها بقوله تعالى: «ثمّ جعلناك على شريعة من الأمر فاتّبعْها»[116].

27.الصّراط (قسنطينة، 1933-1934)

وهي الجريدة الثالثة التي تصدرها جمعيّة العلماء، وذلك خلفاً للشّريعة الموقوفة. وقد صدرت في 11 نوفمبر 1933؛ غير أنّ الإدارة الاستعماريّة ما عتّمت أن وَقَفتها في 22 رمضان 1352[117]، فيكون عمر هذه الجريدة أطولَ من عمر سابقتيها حيث بلغ زهاء أربعة أشهرٍ. وكان يرأس تحريرها الطّيّب العقبيّ، ومحمّد السّعيد

---

115 م.س.

116 سورة الجاثية، من الآية 18.

117 م.س. وهو ما يوافق شهر يناير 1934.

الزّاهريّ؛ في حين أنّ صاحب امتيازها كان الشّيخ أحمد بوشمال. وكانت ناطقة باسم جمعيّة العلماء. وكانت تصدر في ثماني صفحات باستمرار. ولعلّها كانت أرقى جريدة على عهدها من حيث إخراجُها، وكتّابُها، وأسلوبها.

وكانت معظم مقالاتها تضطرب من حول الإصلاح، ومحاربة الطّرقيّة بلهجة في غاية العنف. وقد وقع لي من هذه الجريدة معظم أعدادها؛ فعنّ لي أنّ أكتبَ كتّابها كان الزّاهريّ. ولعلّ من أشهر ما كتب فيها تلك المقالة المتسلسلة التي نشرها تحت عنوان: «سيدي عابد».[118] وقد كتب الزّاهريّ تحت هذا العنوان الفرعيّ المثير: «معرض عظيم للخزي والفضيحة- إباحيّة تامّة في الأعراض والحرمات- كلّ ذلك تقرّباً إلى اللّه»! ومن مقالاتها الإصلاحيّة ما كتبه محمّد نمر تحت عنوان: «انتباه النّاس من مضارّ الطّرقيّة، وأقوال العلماء فيها».[119] بيد أنّ مقالات الزّاهريّ كانت أرقى لغة ونسجاً، وأكثر احترافيّة صحافيّة. وكانت المقالة التي يكتبها ربما تستغرق في الصّحيفة ثلاث صفحات كما نجد في العدد الأوّل من «الصّراط السّويّ» مقالة في غاية الإثارة بعنوان: «اعترافات طرقيّ قديم».[120]

وكان الزّاهريّ ينهج في كتاباته الصّحافيّة طريقة قصصيّة مشوّقة، ممتعة؛ إلى جانب ما كان استوى له من أسلوب رشيق، ونفَس طويل، وغرْب غزير.[121]

وكان كتّاب «الصّراط السّويّ» هم أنفسُهم الذين كانوا يكتبون في «السّنّة المحمّديّة».

---

118 ينظر الصّراط، ع.6، ص.2.

119 م.س.، ص.8.

120 الصّراط، العدد الأول، في 11 نوفمبر 1933، ص.4،5،6.

121 توجد أعداد قليلة من هذه الجريدة بالخزانة العامّة بالرّباط تحت رقم: K696. ومن المصادر التي ذكرت هذه الجريدة عرَضاً: البصائر2، ع.1. في 25. 7. 1947، ص.1؛ طالبي، م.م.س.، 1. 87، تركي، م.م.س.، ص.113؛ الصّحافة الجزائريّة بين الأمس واليوم، السفارة الجزائريّة ببيروت، ص.15، عبد الملك مرتاض، م.م.س.، ص.110، . نضال الصحافة العربية في الجزائر، ع. 39، 1977.

28.البصائر (قسنطينة 1935-1939)

هي رابعةُ صحف جمعيّة العلماء الأسبوعيّة، وأهمّها قبل الحرب العالميّة الثانية. صدرت في 27 دجنبر 1935. وهي جريدة أفلتت من التّوقيف حيث ظلّت تصدر بانتظام إلى سنة 1939. وسُمّيت «البصائر» بصائرَ تناصّاً مع قوله تعالى: «قد جاءكم بصائرُ من ربّكم؛ فمن أبصر فلنفسه ومَن عمِيَ فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ»[122] حيث وشّحت صدرها بهذه الآية الكريمة. غير أنّ هذه الآية حُذفت منها فيما بعد. ويصفها الإبراهيمي بأنّها «أحد الألسنة الأربعة الصّامتة لجمعيّة العلماء».[123]

وقد تولّى رئاسة تحريرها (1935–1937) الطّيّب العقبيّ ؛ فكانت تصدر كلّ يوم جمعة بمدينة الجزائر.[124] فلمّا انتقلت رئاسة التّحرير إلى الشّيخ مبارك الميليّ (1937–1939)، نقلت إدارتها إلى قسنطينة[125]؛ فكان الميلي يأتي من ميلية إلى قسنطينة أسبوعيّاً ليشرف على نشرها. وقد كان الشّيخ محمّد خير الدّين هو صاحبَ امتيازها. وكان ابن باديس هو الذي يكتب افتتاحيّاتها غالباً حين آل أمر رئاسة تحريرها إلى مبارك الميليّ بقسنطينة. ولعلّ أجمل ما كتب فيها ابن باديس مقالته: «أيتّها الحرّيّة المحبوبة! أين أنت في هذا الكون؟».[126]

وقد جاء في صدر نصّها: « تحتفل بأعيادك الأمم، وتُنصب لتمجيدك التّماثيل، وتتشادق بأمجادك الخطباء، وتتغنّى بمفاتنك الشّعراء، ويتفنّن في مجاليك

---

122 سورة الأنعام، 6.
123 البصائر2، ع.1، في 25. 7. 1947، ص. 1، عمود 3.
124 وكان عنوانها هو نادي التّرقّي الذي يشرف اليوم على ساحة الشّهداء.
125 كانت إدارتها بشارع لامبير، رقم 13.
126 البصائر1، ع.175، في 21. 7. 1939، ص.1.

الكتاب، ويتهالك من أجلك الأبطال، وتسفك في سبيلك الدماء، وتدك لسراحك القلاع والمعاقل. ولكن أين أنت في هذا الوجود؟!».[127]

ذلك، وقد حرف أديب مروة اسم هذه الجريدة من لفظ «البصائر» إلى لفظ «البشائر». وأين كان الشعب الجزائري من البشائر حتى تكون له جريدة بهذا الاسم المتفائل السعيد؟ وأسوأ من ذلك أنه زعم أنها صدرت عام 1933. بل لعل الأسوأ من ذلك أنه ذهب إلى أن الذي كان يشرف على تحريرها هو محمد البشير الإبراهيمي، رئيس جمعية العلماء؛ والحال أن الإبراهيمي لم يكن يومئذ رئيسا لهذه الجمعية[128]؛ وإنما الذي كان رئيسا لها، أول الأمر، هو عبد الحميد بن باديس. ثم إن الذي كان يشرف على تحريرها في السنتين الأوليين الشيخ الطيب العقبي، وفي السنتين الأخيرتين من عمرها الشيخ مبارك بن محمد الميلي. ثم إن هذه الجريدة إنما صدرت في أواخر عام 1935؛ وإنما «السنة» و«الشريعة» و«الصراط» هن اللواتي صدرن عام 1933. ثم إن هذه الجريدة توقفت عام 1939 لظروف الحرب العالمية الثانية، ولم تصدر مرة أخرى، ولكن بوجه وزي جديدين إلا عام 1947. وهذه هي «البصائر» التي أصدرها الإبراهيمي ناطقة باسم جمعية العلماء، فظل رئيسا لتحريرها طوال وجودها.

ومن كتاب «البصائر» الأولى: عبد الحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمي، ومبارك بن محمد الميلي، والطيب العقبي، وفرحات بن الدراجي، وأحمد ابن ذياب، وأبو يعلى الزواوي، وحمزة بوكوشة[129]، وعلي مرحوم[130]،

---

127 م.س. هذا، ويبدو أنه فات الدكتور طالبي أن يجمع هذه المقالة في آثار ابن باديس.

128 أديب مروة، م.م.س.، ص.395.

129 من رسالة لحمزة بوكوشة ذكر لي فيها أنه نشر فيها سنة 1936 قصيدة في رثاء الأمير خالد. كما نشر بها قصيدة أخراة سنة 1938. كتبت الرسالة المطولة في 23. 12. 1973، الرسالة الرئيسية.

130 ذكر لي ذلك علي مرحوم في رسالة أرسلها إلي في ثامن مارس 1974 من ثلاث صفحات، ص.2. وقد كان يحرر ركن «حديث المتجول» من سنة سبع وثلاثين إلى تسع وثلاثين، وهي السنة التي توقفت فيها البصائر على عهد ابن باديس.

وأحمد بن الدراجي، وعبد الحفيظ الثعالبي، والمكـي الشـاذلي، وإسمـاعيل بـن علي القلي. وأما من الشعراء فيمكن ذكر محمد العيد آل خليفة، وأحمد سحنون، ومحمد الشبوكي، وأحمد ابن ذياب، ومحمد جفال التبسي، والعباس بن الحسين الذي نشر قصيدة حول فلسطين جميلة، منها هذه الأبيات:

جرت عيني بأدوية طـــوام   على الآماق فهي بها دوام

فقال العاذلون: أأنت صب؟   بكيت لهجر آرام سـوامي

أم القدس الشريف سطا عليه   بغاة السوء من نجس طغام؟[131]

ومن مقالات «البصائر» السياسية الإصلاحية معا: «أمن عاصمة الزيتونة يـذاع هذا الضلال؟»؛[132] و«التيجانية في أحضان الراديو»؛[133] و«يوم 8 مارس: يوم حزن وحداد على تعليم الإسلام، ولغة الإسلام».[134]

هذا، وقد تحدث كثير من البـاحثين عـن «البصـائر» الأولى لقيمتـها الأدبيـة، وآثارها الثقافية الغنية، وأهميتها السياسية والفكرية الكبيرة؛ بيد أن أحدا، إلى اليوم فيما نعلم، لم يقف لدى هذه الجريدة وقفتنا هذه، ولم يدرسها دراستنا هذه.[135] ومـن العسير حصر هؤلاء الباحثين وذكرهم هنا جميعا. غير أن ذلـك مـا كـان ليمنعنـا من الإحالة على بعضهم.[136]

---

[131] البصائر1، ع. 157، في 17 مارس 1939، ص.7.

[132] البصائر، ع.153 في 18. 2. 1939، ص.1.

[133] البصائر، ع.156 في 10. 3. 1939، ص.1.

[134] البصائر، ع.157 في 17. 3. 1939، ص.1.

[135] وقفنا بعد تحرير ما كتبناه عن البصائر على الكتابة القيمة للدكتور محمد ناصر حول هذه الجريدة وسوائها، فاستوجب منا التقدير والتنويه.

[136] ينظر محمد ناصر، م.م.س.، ص.190-198؛ ينظر طـالبي، م.م.س.، 1. 88؛ تركي رابح، م.م.س، ص. 113-114؛ عبد الملك مرتاض، م.م.س.، 100-101؛ الشهاب، ج.11، م.11، فبراير 1936، ص.636؛ البصائر الثانية (مقالة للإبراهيمي)، ع.1، في 25 يوليو 1947، ص.1، البصائر الثانية (مقالة لفرحات بن الدراجي)، ع.3، في 8. 8ز 1947، ص.5؛ العلم (الرباط) (بحث لعلال الفاسي)، ع. 4507 في 11. 9. 1971، ص.11، عمود 3 (وذهب إلى أنها صدرت في سنة 1936 بقيادة الإبراهيمي، وكلا الأمرين خطأ) ؛ البصائر الثانية (مقالة لصالح بوغزال)، ع.5، في 5. 9. 1947، ص.7، عمود 4.

29.الحارس (الجزائر، 1933-1933)

أصدر هذه الجريدة التي صدر العدد الأول منها في رابع غشت 1933 عبد الرحمن غريب. وصدر منها أربعة أعداد فقط، على حين أن العدد الخامس منها صودر وهو في المطبعة.

وقد وصف ابن باديس الأعداد الأولى منها فذهب إلى أنها كانت «تمثل روح اللطف، والنكتة الحلوة».[137]

ولم نعثر إلا على مصدر واحد تحدث عن هذه الجريدة هو شهاب ابن باديس. وذكرها، هنا، ليس من باب الدراسة، ولكن من باب التعريف الذي يشبه مجرد الإحصاء.

30.المعيار (الجزائر، 1933-1933)

هي «جريدة أدبية انتقادية فكاهية تصدر مرتين في الشهر».[138] وكان مديرها مصطفى هراس، ورئيس تحريرها جهينة بو مرزبة. وكان مقرها بشارع قسنطينة بمدينة الجزائر. وكانت المعيار تحلي صدرها، على طريقة معظم الصحافة الوطنية الدينية الاتجاه، بقوله تعالى: «إن الأبرار لفي نعيم، وإن الكفار لفي جحيم».[139]

هذا وتوجد مجموعات كاملة من هذه الجريدة في مكتبات شيوخ جمعية العلماء ممن لا يزالون أحياء. كما توجد منها مجموعة في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم: K97. وقد وقع لنا نحن أيضا من أعدادها طائفة هي التي يسرت لنا سبيل البحث حولها.

137 مجلة الشهاب، ج.11.، م.9. في أكتوبر 1933، ص.470.

138 نقلنا هذا التعريف من العدد التاسع منها.

139 سورة الانفطار: الآيتان: 13-14.

وواضح أنّ هذه الجريدة كانت حكوميّة الهوى، مناوئة للحركة الإصلاحيّة وجمعيّة العلماء. وكانت تصدر بالعربيّة، ولكنّ عربيّتها كانت ركيكة سقيمة. كما كانت صفحتها الأولى هي الأخيرة؛ لأنّها كانت تبتدئ ترقيم صفحاتها من اليسار نحو اليمين، كأنّها كانت تصدر بلغة غربيّة.

وكانت جريدة «المعيار» تنفث السّموم، وتنشر الشّرور، وتضرب الوطنيّين والمفكّرين الجزائريّين بعضَهم ببعض؛ ففي حين نجدها في العدد التّاسع الذي وقع لنا[140]، مثلاً، تتهجّم على جريدة «الجحيم» وأصحابها، نجدها تعرض بالسّوء لابن باديس، ومبارك الميليّ، من حيث تعوج على الشّيخ إسماعيل مامي، صاحب جريدة «النّجاح» القسنطينيّة فتتّهمه بالتّورّط في قضايا سياسيّة حاول أن يتبرّأ منها؛ فلم تترك أحداً ذا قلم عفيف إلاّ عرضت له بالسّوء والأذاة ! وكانت تزعم في هذا العدد أنّ جريدة «الجحيم» لعنت جريدة «السّنّة المحمّديّة» التي كانت تُصدرها جمعيّة العلماء!

وكانت المعيار معرضاً مخزياً لشتم الوطنيّين، ووصْم المصلحين بكلّ نقيصة، وقذفهم بكلّ قبيحة. ويرى حمزة بوكوشة أنّ «المعيار» عُمِّرت قريباً من ستّة أشهر؛ وقد أصدرها أعضاء من الحكومة.[141]

على حين أنّ محمّداً الصّالح رمضان يذكر في رسالة خاصّة وجّهها إليّ أنّ جريدة «المعيار» «جريدة ظهرت قبلها [قبل جريدة «الجحيم»] بلون أخضر، لونِ الجنّة، مهمّتها الحطّ من قيمة العلماء والمصلحين، وثلْب أعراض رجال جمعيّة العلماء، وهي طرقيّة استعماريّة تتكلّم باسم رجال الدّين، وأهل الزّوايا، ويدعمها الصّندوق الأسود من الولاية العامّة؛ فكانت «الجحيم»، فعلاً، جحيماً عليهم

---

140 صدر في 23 أبريل 1933.

141 من رسالة مطوّلة كتبها إليّ في 23. 12. 1973، ص.7.

أحرقتهم بنارها، ولم تدم سوى شهرٍ ونصفٍ حتّى قضت عليهم بنشر فضائحهم...».[142]

وكانت المعيار بالإضافة إلى انحطاط أخلاقها، منحطّة الأسلوب، سوقيّة اللّغة، ركيكة النّسج.

31. الجحيم (قسنطينة، 1933-1933)

صدر العدد الأوّل من هذه الجرِيدة العجيبة بقسنطينة في يوم الخميس 30 مارس 1933، وآخر عدد صدر منها كان في 11 مايو 1933.

وكانت الجحيم أسبوعيّة تصدر كلّ يوم خميس. وقد كانت حروف لفظ «الجحيم» مكتوبة على هيئة أفاعٍ وحيوانات مفترسة، لتكونَ أهيب في العين، وأرهب للقلب، وأخطف للعقل. وقد كتب في صدرها هذا التّعريف الطّريف: «جريدة حرّة مستقلّة تدافع عن الشّرف والفضيلة، تقوم بتحريها نخبة من شبّان الزّبانية».[143] وكان شعارها: «العصا، لِمَن عصى»!

ويذكر محمّد الصّالح رمضان، المعاصر للنّهضة الثقافيّة، والحركة الوطنيّة، والمُسْهم فيها أيضاً، أنّ جريدة «الجحيم» أنشأها الأمين العمودي، ومحمّد السّعيد الزّاهريّ[144] الذي قال في معرض الحديث عنه أنّه «اشترك مع الأمين العمّوديّ في إصدار جريدة الجحيم بلون أحمر (إشعاراً بجهنّم). وكان شعارها: «العصا، لمن عصى»! ويحرّرها نخبة من شبان الزّبانية (...). وكلّ ذلك للرّدّ على تهجّمات جريدة ظهرت قبلها بلون أخضر (لون الجنّة) مهمّتها الحطّ من قيمة العلماء المصلحين

142 من رسالة مطوّلة كتبها إليّ في 6 أكتوبر 1973، ص.4.

143 نقلنا هذا التّعريف من عددها الأوّل الصّادر في 30 مارس 1933.

144 غير أنّ العدد الأوّل منها مكتوب عليه أنّ صاحب امتيازها كان هو «جوكلاري (Juglaret) محمّد الشّريف». وقد لاحظنا أنّ هذه الشّخصيّة كثيراً ما كان الإلتحادُ يقع إليها فتقبل بتحمّل امتياز الجريدة، لأنّها فرنسيّة أسلمت...

(...). فكانت الجحيم، فعلا، جحيما عليهم أحرقتهم بنارها (...). فشكوا أمرها للحكومة فعطلتهما معا (الجحيم والمعيار). وأظهر الزاهري والعمودي براعة فائقة في الرد والهجوم لا طاقة لأحد بهما. وكان لهما كتاب ومخبرون في جميع أنحاء البلاد؛ ولذلك انتشرت بسرعة انتشارا هائلا مهولا. ووجد في الأوساط الطرقية والحكومية من يكتب فيها أو يقدم المعلومات الخطيرة عن الجهازين المتعاونين، ويكشف عما في الزوايا، من خبايا»!![145].

ويعد ما كتب به إلي محمد الصالح رمضان أوسع وأدق ما قرأت عن هذه الجريدة التي على الرغم من أنها لم تعمر إلا زهاء ستة أسابيع فإن شهرتها اخترقت الآفاق، وإن في العلماء الشيوخ من لا يزالون يحفظون نصوصا مما كان ينشر فيها.[146]

ونود أن نقدم صورة للغة الجحيم وأسلوبها في الثلب والغمز، وطريقتها في الهمز واللمز؛ وذلك بإدراج نص قصير من المقالة الافتتاحية للعدد الأول؛ وهي المقالة التي وقعت باسم: «رئيس الزبانية». (ورئيس الزبانية هنا إما أن يكون الزاهري، وإما أن يكون العمودي) جاء في النص:

« (...) وقد ظهر في هذه الأيام رهط ينتسبون إلى الجنس البشري، وهو يتبرأ منهم. هؤلاء الخنازير اتخذوا الشتم وثلب الأعراض حرفة، وقذف أهل العلم والفضل بضاعة روجوها؛ رغم الأزمة التي كسدت بسببها البضائع الأخرى.

وقد أسسوا ورقة عفنة سموها «المعهر»[147]. وهي، حقيقة، معهر من أقذر وأنجس المعاهر. وكتبوا في تلك الورقة ما أطربوا به بعض السفهاء أمثالهم، وما خوفوا

---

145 محمد الصالح رمضان، من رسالة خاصة مطولة أرسلها إلي من القبة، الجزائر في 6. 10. 1973.

146 وقد كنا أخطأنا في كتابنا نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر فزعمنا أن المعيار هي التي صدرت للرد على الجحيم؛ وقد أوقعنا في ذلك الخطأ الشيخ ابن يوسف داود، وقد كانت معلوماتنا ضحلة، في بداية عهدنا بالدراسات الجزائرية، فقد كان هو الذي زعم لنا ذلك.

147 إن من الواضح أن المقال يريد إلى جريدة «المعيار».

به بعض الجبناء؛ وأيقنوا أن الجو خلا لهم؛ وأن بلاد الجزائر لم يبق فيها إلا من يناصرهم أو يهابهم، وليس فيها من يحاربهم، أو يلعنهم، أو ينتقدهم (...).

وقد أسسنا هذه الجريدة المباركة الطاهرة النقية العفيفة النزيهة لا لغرض، سوى الانتقام للفضيلة، والدفاع عن الأعراض البريئة، وتطهير قطرنا من الجراثيم الخبيثة(...). وسنذيق أهل الزيغ والكفر والعناد ما اعتدوا به على السادة الأبرياء من عباد الله».[148]

ويبدو أن المعيار نطحت صخرةً برأسها؛ فالزاهري لم يكن على الأرض أهجى منه ولا أقذع لسانا؛ وقد ألفى فرصة ملائمة ليعبر عن موهبته العجيبة في الهجو وسلاطة اللسان؛ وهو الأمر الذي يؤكده الأستاذ أحمد ابن ذياب حين قال: «والأخ الزاهري لا تعرف حقيقته إلا بقراءة بعض مقالات من «وفاقه»؛ حتى يعرف على حقيقته في سلاطة لسانه، وطول باعه في الهجو».[149]

وقد زعم لي أحد شيوخ جمعية العلماء، ممن لا يزالون أحياء إلى يومنا هذا (2002)، أن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ربما كان هو أيضا يحرر بعض مقالاتها باسم مستعار، مخافة لوم الشيخ ابن باديس إياه ! وذلك لما كان ينشر في تلك الجريدة من فحش وألفاظ مقذعة.

وقد شرح لنا الشيخ حمزة بوكوشة ظروف نشأة «الجحيم» فقال: «كانت تطبع بقسنطينة، وإدارتها بالجزائر. صدرت 1933. والداعي إلى إصدارها أن جماعة من أعضاء الحكومة (يريد: الإدارة الاستعمارية) أصدروا جريدة تحت اسم «المعيار» لسب وشتم جمعية العلماء وأتباعها. ودامت هذه الجريدة الأخيرة ما يقرب من الستة

---

148 الجحيم، العدد الأول، في 30 مارس 1933، ص. 1. العمودان: الأول والثاني. ونحن حاولنا أن نختار نصا «نظيفا» وعفيفا، وإلا فمعظم كلام الجحيم لا يكتب، ولا يقال إلا في المجالس التي ترتفع منها المروءة!... فنصوصها كتابات مقذعة في غاية الفحش...

149 ابن ذياب، من رسالة من صفحتين اثنتين أرسلها إلي من مدينة البليدة في 21 فبراير 1977، ص.1.

أشهر. فاضطر أتباع العلماء إلى إصدار «الجحيم» لرد حملات «المعيار»، فعطلت الحكومة الجريدتين».[150]

32.الحياة (الجزائر، 1933- 1933؟)

هي جريدة مغمورة، كانت تصدر، فيما يبدو، باللغتين العربية والفرنسية، وكان صاحب امتيازها السيد جوكلاري محمد الشريف. وقد صدرت في فاتح أبريل 1933 في أربع صفحات. وكانت الصفحة الرابعة مخصصة للغة الفرنسية. ولاحظنا أن شخصية جوكلاري كثيرا ما كان يقع الفزع إليها لدى إرادة إصدار صحيفة بجعلها هي صاحبة امتياز الجريدة؛ وذلك لأن المسيو جوكلاري كان اعتنق الإسلام واحتفظ بجنسيته الفرنسية؛ فكان من هذه الوجهة محميا من أسواط الاضطهاد التي كان المحتلون الفرنسيون يصبونها على الوطنيين من أصحاب الصحف المعبرة باللغة العربية. فقد ألفيناه صاحب امتياز عدة جرائد مما كان يصدر في الأعوام الثلاثين من القرن العشرين، من ذلك «المرصاد» لعبابسة، و«الجحيم» للأمين العمودي، و«الليالي» لعلي بن سعد خيران، و«الحياة» التي صدرت عام 1933؛ وهي الصحيفة التي لا نعرف من الذي أصدرها في الوقت الراهن...[151]

وقد صدر العدد الأول من جريدة «الحياة» في فاتح أبريل سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة وألف. وقد حددت هذه الجريدة أهدافها فذكرت أنها كانت «أدبية

---

150 بوكوشة، من رسالة خاصة مطولة كتبها إلي من الجزائر في 23. 12. 1973، ص.4.

151 وقد كتبت وثيقة السفارة الجزائرية ببيروت «جوفلارت»، وهو تحريف بعيد للاسم الفرنسي (Juglaret).

اقتصاديّة اجتماعيّة».[152] وكانت الغاية من وراء إصدارها «حماية المصالح العامّة للتّجارة والصّناعة والفلاحة».[153]

ولا نعرف عن هذه الجريدة أكثر من هذا. وقد انفرد مصدر وحيد مكتوب بذكرها، وهو وثيقة السّفارة الجزائريّة ببيروت. وعلى الرّغم من أنّ هذا المصدر ليس أكاديمياً إلاّ أنّنا قبلناه على علاّته، إلى أن تكتمل معلوماتنا من سواه. ويدرك من تعريفها أنّها كانت لهيئة اقتصاديّة أو فلاحيّة، لا لحزب بعينه، ولا لشخص بعينه أيضا. ومن المحتمل أنّها لم تعمّر إلاّ قليلاً جداً، وإلاّ لكانت عُرفت أكثر.

33.أبو العجائب (قسنطينة، 1934-1934)

جريدة أسبوعيّة، أو «نشرة فكاهيّة نقديّة تهذيبيّة».[154] وقد أصدرها الأديب القاصّ محمد العابد الجَلاّلي في يوم الخميس في تاسع صفر 1353 للهجرة الموافق 24 مايو 1934. على حين أنّ العدد العاشر والأخير صدر في 13 ربيع الثاني 1353 للهجرة الموافق 26 يوليو 1934. وكانت تصدر صبيحةَ كلّ يوم خميس.

ويبدو أنّ أنبل مقالاتها، وأجملَها أسلوباً، وأنقاها لغةً ما كان يكتبه رئيس تحريرها نفسُه، محمّد العابد الجَلاّلي. ولعلّ من أرقى المقالات التي نشرت في هذه الجريدة تلك التي كتبها بعنوان: «خيبة المسعى».[155] فقد سلك فيها الكاتب مسلكاً أدبيّاً ساخراً بلغ مستوىً لائقاً من الجودة.

---

152 الصّحافة الجزائريّة بين الأمس واليوم، السّفارة الجزائريّة ببيروت، ديسمبر 1974، ص.19.

153 م.س.

154 أخذنا هذا التّعريف من عددها الأوّل. الصّادر يوم الخميس في تاسع صفر 1353 للهجرة الموافق 24 مايو 1934.

155 ع.2، في 31 مايو 1934، ص.1، عمود: 1-2-3.

وكانت «أبو العجائب» تنشر بعض النّصوص من الشّعر الشّعبيّ[156]، وبعض النّوادر والأخبار الطّريفة. كما كانت تصطنع العامّيّة في عرض بعض القضايا الاجتماعيّة. وكان انتقادها خفيفاً طريفاً، ولكنّه لا يخلو من لذع في الوقت ذاته؛ ومن ذلك هذه اللّذعة التي نشرتها «أبو العجائب» تحت عنوان: «تأويل الرُّؤى»: «أنا فقيه واسع الاِطّلاع، بحرٌ في المسائل الفقهيّة، فقد طالما دوّى ذلك المسجد الجميل بصوتي الرّنّان... وقد رأيت في المنام كأنّني مُسِخت حماراً؛ فبمَ تؤوّلون هذه الرّؤيا!؟»[157].

34.اللّيالي (الجزائر، 1935-1936؟)[158]

أصدر جريدة «اللّيالي» علي بن سعد خَيران عام 1935. وقد زعم لي الأستاذ حمزة بوكوشة أنّها صدرت عام 1936.[159] وكان شعار هذه الجريدة بيتاً من الشّعر:

واللّيالي من الزّمان حَبَالَى مثقلات يَلِدْنَ كلّ عجيبة[160]!

وكانت هذه الجريدة ذات اتّجاه فكاهيّ انتقاديّ معاً؛ فقد وصفها لي صاحبها بأنّها كانت «صحيفة انتقاديّة اجتماعيّة لا تنتسب لأحد».[161] وقد كتب علي

---

156 ينظر، مثلاً، العدد السّابق، ص.3.

157 م.س.، ص.2. وقد أعثرَنا الأستاذ محمّد الصّالح رمضان، الذي أقدّم إليه حميم الشّكر، على المجموعة الكاملة لجريدة «أبو العجائب»، ما عدا العدد التّاسع. وأعدادها عشرة.

158 أفادني بهذا التّاريخ صاحبها الشّيخ علي بن سعد خيران من الجزائر، في رسالة بعث بها إليّ في 28 يناير 1974، ص.1. (وهي وثيقة بخط يده، وتوجد بمكتبتي؛ فهل بعد هذه الحجّة من حجّة؟).

159 من رسالة بعث بها إلي في 23. 12. 1973، ص.7. هذا وقد خطّأنا الدكتور محمّد ناصر فزعم أنّها صدرت عام 1936 معتمداً على أجنبيّ وهو كلود كلو فوشقه، على حين أنّه خطّأ باحثاً جزائريّا تلقى المعلومة التّاريخيّة من مصدرها الأوّل. وأمام عدم العثور على العدد الأوّل من هذه الجريدة الذي يثبت تاريخها يقينا، فإنّه لا يمكن تكذيب صاحبها الشّيخ خيران الذي كتب إلينا رسالة فحدّد لنا تاريخ صدورها، وأنّه كان عام 1935؟ وعوض أن يتّخذنا الدكتور ناصر مصدراً وقد عوّلنا في ذلك على صاحب الجريدة نفسه، بناء على الوثيقة المخطوطة التي توجد بمكتبتنا، خطّانا الشّيخ واستراح!

160 وكان شعارها في الحقيقة مندمجاً مع عنوانها:

«اللّيالي... من الزّمان حبالى مثقلات يلدن كلّ عجيبه

161 من رسالة كتبها إلي الشّيخ علي بن سعد خيران من الجزائر، في 28 يناير 1974، ص.1.

خيران، صاحب الجريدة، مقالة ينتقد فيها مدير الشّؤون الأهليّة المسيو «ميّو» يومئذ. وما زال الشّيخ يتدرّج في حديثه إلى أن ربط بينه وبين مواء القِطط، من حيث إنّها حين تموء، تُحدث صوتاً على شاكلة: «ميّو! ميّو!!. وكان صاحب امتيازها، كما كتب إليّ بذلك صاحبها الأستاذ خِيران، هو «السّيّد محمّد الشّريف جكلاري المعروف. وهو فرنسيّ أسلم، وبقي يساند مشاريع الخير (...) عرضنا عليه ذلك فقَبِلَ لأنّه يتمتّع بالجنسيّة الأفرنسوية لنتّقيَ به شرّ الإدارة »[162].

وكانت اللّيالي تصدر «في أربع صفحات من الحجم المتوسّط، وكانت نصف شهريّة موقّتاً، مقرّها الجزائر العاصمة، طُبِعت في مطبعة لأحد الأجانب».[163] وقد صدر منها ما يقرب من عشرين عدداً (...) ثمّ توقّفت[164] » من تلقاء نفسها.

وممّن كان يكتب فيها حمزة بوكوشة، ومحمّد السّعيد الزّاهريّ، والطّاهر بوشوش، ومفدي زكرياء.[165]

35.الأمّة (باريس، 1930-1934؟)

كانت «الأمّة» «جريدة وطنيّة وسياسيّة للدّفاع عن حقوق مسلمي إفريقية الشّماليّة». وكانت تصدر بباريس باللّغتين العربيّة والفرنسيّة. وكان مديرها السّياسيّ الحاج أحمد مصالي. وكانت هذه الجريدة الوطنيّة تحلّي صدرها بقوله تعالى: «واعتصموا بحبل اللّه جميعاً، ولا تفرّقوا».[166]

---

162 م.س. ص.2.
163 م.س.، ص.1.
164 م.س.
165 م.س.
166 سورة آل عمران، من الآية: 103.

وكانت هذه الجريدة الواسعةُ الاِنتشـار في فرنسـا أثـيرةً لـدى العمّال والتجّار الجزائريّين الذين كانوا يقرءونها ويساعدونها بالأموال والهبات؛ لأنّـها كـانت لسان حال «حزب نجم إفريقيا الشّماليّة».

ذلك، وإنّا نجهل في الوقت الرّاهن متى تعطّلت، أو عُطّلت، هذه الأمّة؛ غـير أنّنا نعلم أنّها كانت لا تزال تصدر في سنة ثلاثٍ وثلاثين وتسعمائة وألف.

وإذا علمنـا بـأنّ حـزب نجـم إفريقيـا الشّماليّة تعـرّض للمحاكمـة ببـاريس، وأصدرت المحكمة أمرها بوقف نشـاطه؛ وكـان ذلـك سـنة أربـع وثلاثـين وتسعمائة وألف؛ تبيّن لنا أنّ هذه الجريدة الوطنيّة لا بد أن تكون قد توقّفت مع توقّـف نشاط هذا الحزب، خلال السّنة المذكورة.[167]

ولنذكُرْ أنّ «الأمّة» اسم لجريدتين جزائريّتـين: أمّـة نجـم إفريقيـا الشّماليّة، وأمّة أبي اليقظان.

36.لسـان الدّين (الجزائر 1923-1923؛مستغانم، 1937- 1939).

هي «جريدة دينيّة سياسيّة إخباريّـة»[168]. وكـانت أوّل أمرهـا، حـين كـانت تصـدر بـالجزائر «جريـدة دينيّـة سياسـيّة إخباريّـة أسـبوعيّة أسّـست لإعـلاء كلمـة الدّين».[169] وكانت تصدر مرّتين في الشّهر. وقد صدر العـدد الأوّل منـها يـوم الثلاثـاء رابع عشر جمادى الأولى سـنة 1341 للـهجرة (الموافـق فـاتح ينـاير 1923) بـالجزائر تحت مديريّة «الشيخ مصطفى حافظ مديـر المدرسـة القرآنيّـة بعاصمـة الجزائـر».[170] ويبدو أنّها توقّفت في السّنة نفسِها التي صدرت فيها.

---

[167] ينظر أبو القاسم سعد الله، م.م.س.، ص.426، 427؛ 437؛ 437. وانظر أيضاً علاّل الفاسي، جريـدة العلَم، الرّباط، في 11. 9. 1971، ص.11. ع.3.

[168] أخذنا هذا التّعريف من العدد التّاسع والسّتّين الصّادر في 20 فبراير 1939.

[169] لسان الدّين، ع.1 فاتح يناير 1923.

[170] عدّة بن تونس، الرّوضة السّنيّة، في المآثر العلويّة، 1. 50. ط.1، مستغانم، 1936.

ثمّ صدرت في سنة 1937 بمستغانم، وكان مديرها وصاحب امتيازها قادة بوجلال. وكانت تطبع بالمطبعة العلويّة بمستغانم.

والذي أسّس هذه الجريدة، أصلاً، هو الشّيخ أحمد بن مصطفى بن عليوة. وقد كتب افتتاحيّة العدد الأوّل فدلّ بذلك على أنّه كان ذا تفكير ثاقب؛ فقد أثار كثيراً من الأسئلة حول تأخّر الأمّة الجزائريّة يومئذ وركود الفكر فيها. كما حاول أن يقارن، في هذه الاِفتتاحيّة، بين الجزائر وسواها من بلدان العالم الثالث. وقد وقع لنا من هذه الجريدة أعدادٌ، منها العددُ التّاسع والسّتّون، فرأيناه في حجم «البصائر» تقريباً. وقد لاحظنا أنّ هذا العدد يشتمل على بعض المقالات المهمّة منها:

«وا أسفاه على فساد الأمّة»، لعبد اللّه البيضاوي؛ «الإمام عليّ كرّم اللّه وجهه يخطّئه الأستاذ الحجوي في القرن الرّابع عشر!!»؛ و«تحذير المهتدين من كتب الجامدين» (مقال انتقد فيه صاحبه (وهو من طنجة، ولم يوقّعه إلاّ باسمٍ مستعار هو: «مسلم غيور») المفكّرَ المغربيّ عبد اللّه كنّون، في كلمة كان ذمّ فيها كنّون أصحاب العمائم... ولم يتورّع الطّنجيّ، في تجهيل الأستاذ عبد اللّه كنّون، وأنّه «لا يزال في حاجة شديدة إلى الاِنخراط في سلك طلبة الدّروس النّحويّة!»[171]

ومن بعض هذه المقالة يستبين لنا أنّ هذه الجريدة كانت منغلقة لا تكاد تعرف إلاّ الزّوايا وشيوخها؛ بل إنّها كانت تستمتع بنشر أخبار الجزائريّين المنعَّمين ممّن أنعم عليهم المحتلّون الفرنسيّون بأوسمة. وناهيك أنّها كانت تكتب مثل هذه العبارة العجيبة ولا تستحِي: «أنعمت الحكومة الجمهوريّة الفرنسويّة الديمقراطيّة الفخيمة (كذا) ذات العدل والأخوّة والمساواة بأوسمة الفخر والشّرف على الآتية أسماؤُهم من أعيان الأمّة وأفذاذِها الأماجد...» (!)[172]

---

[171] تحذير المهتدين، من كتب الجامدين، في «لسان الدّين»، ع. 69، ص.5، عمود1، في 20 فبراير 1939.

[172] م.س.، ص.6، عمود 3.

37.الشّعب (الجزائر، 1937-1937)

أصدر هذه الجريدة الأسبوعيّة باللّغة العربيّة حزب الشّعب الجزائريّ في 27 غشت 1937 .وكان يرأس تحريرها مفدي زكرياء. ولكن بمجرّد صدور العدد الأوّل منها اعتُقل مفدي زكرياء، رئيس تحريرها، مع أربعة من مناضلي حزب الشّعب.[173]

ثمّ صدر العدد الثاني من هذه الجريدة فاعتُقل رئيس تحريرها الجديد وهو محمّد قنانيش مع مناضلين آخرين وأودعوا سجن بربروس.[174]

ويبدو أنّ هذه الجريدة تعطّلت، فلم يصدر منها، فيما يبدو، إلاّ عددان اثنان، نتيجة لاعتقال رئيسَيْ تحريرها الأوّل والثاني معاً، بالإضافة إلى اعتقال أكثر من عشرة مناضلين ممّن كانوا في الهيئة العليا لحزب الشّعب الجزائريّ.

38.الميدان (قسنطينة، 1937- 1938)

جريدة وطنيّة ذات اتّجاه سياسيّ يقترب من الاِحترافيّة في كيفيّة التّعامل السّياسيّ المعاصر. وقد صدرت في 27 يونيو 1938، وتوقّفت من تلقاء نفسها، فيما يبدو، ولكن تحت مضايقة اليهود والمعمّرين والمتجنّسين من خونة الجزائريّين، بعد أن صدر منها ثمانية وعشرون عدداً، في شهر فبراير 1939. وكان رئيس تحريرها هو حسن الوارزقي، وصاحب امتيازها الحاج الطّيّب بن حملة. وكانت تصدر يوم الأحد من كلّ أسبوع.

---

173 ينظر فرحات عبّاس، ليل الإستعمار، 1. 242.

174 م.س.؛ وانظر أيضاً علال الفاسي، م.م.س.

وكانت الميدان ناطقة باسم النّائب الجزائريّ الدّكتور ابن جلّول.

ذلك، وقد نشبت معركة سياسيّة بين البصائر النّاطقة باسم العلماء، وبين الميدان النّاطقة باسم جمعيّة النّوّاب؛ فكأنّ كلّ جمعيّة كانت تريد السّبْق إلى احتكار الأشياع والأنصار. غير أنّ ذلك ما كان له ليؤثر في الموقف الوطنيّ المتقدّم لجريدة الميدان التي كتبت يوماً مقالة تنعى فيها على فرنسا سوء معاملتها للجزائريّين الذين كانت تشبه معاملة السّادة للعبيد:

«إنّه لعارٌ على فرنسا أن يعيش تحت رعايتها المسلمون الجزائريّون في القرن العشرين على الحالة التي يعيش عليها أحقر العبيد في القرون الماضية المظلمة، وإنّه (كذا) لفضيحة لفرنسا أن يعيش تحت علَمها المسلمون الجزائريّون عيشة الذلّ والاحتقار، والمهانة والجهل... ».[175]

وتخاطب يوماً هذه الجريدة طبقة المتجنّسين المنحطّين، من الجزائريّين، قائلة: «إنّنا نقول بصراحة للمتجنّسين في هذا الوطن: اشتغلوا بشؤونكم الخاصّة؛ فشؤوننا لها من يشتغل بها. إنّه لا علاقة بيننا وبينكم يا هؤلاء! واشتغالكم بمسائلنا السّياسيّة يدنّس سمعتنا!...».[176]

فهذه اللّهجة السّياسيّة الوطنيّة الخالصة الحارّة الصّارمة لا نصادفها في كلّ الجرائد الوطنيّة على ذلك العهد؛ ممّا يحملنا على الجنوح لتصنيف جريدة «الميدان» في طليعة الصحافة الوطنيّة المقاومة للاحتلال الفرنسيّ. ونحن ندعو شباب الباحثين الجامعيّين إلى تخصيص بحث جامعيّ يلقي كلّ الأضواء على اتجاهها ومواقفها السّياسيّة، وخلفيات اختلافها مع جمعيّة العلماء: هل كان خلافاً مبدئيّاً، أم كان مجرّد خلاف قائم على تنافس المعاصرة؟...

---

175 الميدان، ع. 21 في 14. 11. 1937. وقد نقلنا هذا النّصّ من الدّكتور محمّد ناصر، م.م.س.، ص.209.
176 م.س.، ع. 2. في 4. 7. 1937.

39.الإصلاح2 (الجزائر، 1939-1948)

ما تأسّست جمعيّة العلماء في سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة وألف حتّى انضمّ إليها الأستاذ العقبيّ، وكان عضوا بارزاً قويّاً في صفوفها، وكان صحافيّا لامعاً ينشر في صحفها؛ بل تولّى رئاسة تحرير «البصائر» الأولى من سنة خمسٍ وثلاثين إلى سنة سبعٍ وثلاثين وتسعمائة وألفٍ. فلعلّ انضمامه إليها كان زهّده في إصدار صحيفة خاصّة به، ناطقة باسمه، معبّرة عن رأيه؛ كما كان يصنع قبل سنة إحدى وثلاثين حين كان يُصدر الإصلاح الأولى، طالما كان قادراً على التّعبير عن أفكاره الإصلاحيّة في جريدة «البصائر» الأولى، وغيرها من صحف العلماء. بيد أنّ العقبيّ لم يلبث أن انفصل عن صفّ جمعيّة العلماء، إثر خلافات وقعت بينه وبين أعضائها البارزين فيها عشيّة اندلاع الحرب العالميّة الثانية؛ فاعتزل تحرير جريدة «البصائر» الأولى، وأخذ يُعِدّ العدّة لإصدار «الإصلاح» تارة أخرى.

ولمّا وقع في خلاف مع أعضاء جمعيّة العلماء حول إرسال برقيّة تأييد إلى الحكومة الفرنسيّة في حربها مع ألمانيا، ورفض العلماء إرسال البرقيّة، وقرّروا إيقاف صحفهم، انفصل هو عنهم دون معاداتهم، كما فعل الزّاهريّ من قبل، وقرّر إصدار «الإصلاح» تارة أخرى. وقد طلب من بعض كتّاب جمعيّة العلماء أن ينضمّوا إليه ليساعدوه في تحرير الجريدة الإصلاحيّة الجديدة، ومنهم حمزة بوكوشة الذي يقول في وثيقة مكتوبة وحيدة بمكتبتنا: «وعند إعلان الحرب قرّرت جمعيّة العلماء تعطيل جرائدها وملازمة السّكوت. فأصدر الطّيّب العقبيّ بعد انسحابه من إدارة جمعيّة العلماء جريدة «الإصلاح» بالجزائر. وحاولني أن أعمل معه، كما حاول الشّيخ محمّد

العيد شاعر الجزائر، والشّيخ فرحات بن الدّرّاجيّ رحمه اللّه؛ فلم نعمل معه. فكبر عليه ذلك، وفترت العلاقة بيننا وبينه حتّى كادت أن تنفصم».[177]

ذلك، وإنّا لم نعثر إلاّ على باحثين اثنين تناولاها: الشّيخ محمّد عليّ دبّوز، والدّكتور محمّد ناصر؛ وذلك على الرّغم من طول عمرها، وشدّة تأثيرها في المجتمع الجزائريّ على امتداد قريب من عشرِ سنوات، وتألّق أسلوبها في الكتابة. وكانت «الإصلاح»، كما تعرّف نفسها، بنفسها: «جريدة إسلاميّة حرّة في مباحثها، وهي دينيّة قبل كلّ شيء».[178] وكان صدرُها يوشّح بقوله تعالى: «إن أريد إلاّ الإصلاحَ ما استطعت، وما توفيقيَ إلاّ باللّه، عليه توكّلت، وإليه أنيب».[179] وكانت تُطبع بالمطبعة العربيّة، لأبي اليقظان، بالجزائر. وكانت تصدر في أربع صفحات كبيرة الحجم بمقاس: 57×38.

ولقد وقع الشّيخ دبّوز في تناقض حين ذكر مرّةً أنّها صدرتْ «في آخر سنة 1939»،[180] ثمّ ما عَتَّمَ أن ناقض نفسه فزعم، في المصدر نفسِه، أنّها صدرت «في 18 ذي الحجّة 1358 هـ./ 1 يناير 1940».[181]

وإنّا لا ندري كيف وقع هذا التّاريخُ الدّقيقُ للشّيخ وبين يدنا العددُ السّابعَ عشرَ الذي صدر في ثامن عشر ذي الحجّة من سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة وألفٍ، الموافق 28 يناير 1940؛ والحال أنّ «الإصلاح» أسبوعيّةٌ، لا يوميّة؟ فإذا اقتنعنا بما ذهب إليه الشّيخ دبّوز من أنّ هذه الجريدةَ كانت تصدر نصفَ شهريّة،[182] ولاحظنا أنّ العدد السّابع عشر الذي يوجَد بين يدينا، والصّادر في التّاريخ الذي ذكرنا،

---

177 حمزة بوكوشة، في رسالة مطوّلة كتبها إليّ بخطّ يده في 23. 12. 1973، ص.4 –5.

178 نقلنا هذه العبارة من صدر العدد السّابع عشر (ضمن مجموعة من أعداد «الإصلاح » توجد بمكتبتنا: من العدد السّابع عشر إلى العدد الثالث والسّبعين).

179 سورة هود، من الآية 88.

180 دبوز، م.م.س.، 2. 12.

181 م.س. 2. 122.

182 م.س.

استبان لنا أنّها قد تكون صدرت في ربيع سنة تسعٍ وثلاثين وتسعمائة وألفٍ، لا في آخرها. ويدحض هذا الاستنتاج ما ذهب إليه الشّيخ دبّوز من أنّها صدرتْ في آخر سنة تسعٍ وثلاثين طوراً، وفي فاتح يناير من سنة أربعين وتسعمائة وألفٍ طوراً آخر.[183]

غير أنّ هذه الجريدة لم تكن، فيما يبدو، منتظمة الصّدور أسبوعيّاً؛ فقد وجدنا العدد السّابع عشر صدر في ثامن وعشرين يناير من سنة أربعين، على حين أنّ العدد الثامن عشر صدر في عاشر فبراير من سنة أربعين وتسعمائة وألفٍ. ويدلّ هذا التّحقيق على أنّها لم تكن أسبوعيّةً، ولا نصف شهريّة، كما ذكر الشّيخ دبّوز؛ ولكنّها كانت تصارع الزّمن، ككثير من الجرائد الوطنيّة الأخراة، وتتحدّى العقبات؛ فكانت كثيراً ما تجري الأمور كما يُرادُ لها، لا كما كانت تريدها هي...!

ومن مقالاتها دراسةٌ اجتماعيّة سياسيّة نشرتها مسلسلَةً تحت عنوان: «طبقات شعب الجزائر، وأحزابها الوطنيّة».[184]

وأمّا تاريخ توقّفها فليس لدينا أيّ نصّ قطعيّ، ولا مصدر موثوق لا يُخْطئ ولا يَوْهَم. غير أنّنا نميل إلى أنّها توقّفت خلال سنة ثمانٍ وأربعين. والعد الثالث والسّبعون (وهو آخر أعداد مجموعتنا الشّخصيّة) صدر في ثالث مارس من سنة ثمانٍ وأربعين وتسعمائة وألفٍ.

وأمّا لما ذا أصدر العقبيّ جريدة الإصلاح الثانية بعد أن كان رئيس تحرير جريدة «البصائر» الأولى، قبل مبارك الميليّ، وبعد أن غادر جمعيّة العلماء فلم يعدْ

---

[183] م.س.، 2. 122. صدرت في 28 ديسمبر 1939، وكانت تصدر نصف شهريّة. ولم تلبث أن توقّفت لظروف الحرب العالميّة في 22. 2. 1942، ثم استأنفت صدورها أسبوعيّاً في 10 مايو 1947، وتوقّفت من تلقاء نفسها في ثالث مارس 1948. انظر محمد ناصر، ´. 91.

[184] نشرت الحلقة الخامسة من هذه المقالة المتسلسلة في العدد الواحد والسّتّين، ص. 4. ونلاحظ أنّ المثقفين الجزائريّين كانوا يصطنعون الإضافة لا النّسبة في تخصيص شيء بالجزائر: شعب الجزائر مسلم (ابن باديس)، قطر الجزائر (توفيق المدني)؛ شعب الجزائر (مقالة الإصلاح الآنفة الذكر).

ينشط فيها، فلعلّه حاول أن يوفّق بين الإدارة الإستعماريّة وعلماء الدّين، وجمعيّة العلماء في الجزائر، كما كان حاول بعضَ ذلك قبله الزّاهريّ في جريدة «الوفاق»... ولذلك نجد الوالي العامّ، الذي كان يمثّل الدّولة الفرنسيّة في الجزائر، يكلّفه بقرار صادر في تاسع مارس سنة ستٍّ وأربعين وتسعمائة وألفٍ بالجمعيّات الدّينيّة؛ ولكن هيهات أن يُفلح مصلح في عمله مع الاستعمار الفرنسيّ!...

وقد كان الطّيّب العقبي، في هذه الجريدة، لا يزال يهاجم «الإستعمار ومكائده للدّين والعربيّة؛ وطالب بحرّيّة التّعليم العربيّ، وبفصل الدّين عن الحكومة (...). وناصر القضايا الإسلاميّة في العالم الإسلاميّ، ونشر أهمّ المقالات التي [كانت] تصدر في الصّحف العربيّة الشّرقيّة (...). [و]كتب في كلّ المواضيع التي طرقتها «البصائر» بعد الحرب العالميّة الثانية...».[185]

وممّا يجب التّنبيه إليه حول شخصيّة الطّيّب العقبيّ أنّه لم يكن مصلحاً دينياً فحسب، ولكنّه كان أديباً خطيباً، وكاتباً متألّقاً.[186]

40.الرّشاد (الجزائر، 1938-1939).

هي «جريدة دينيّة إرشاديّة دفاعيّة إخباريّة أسبوعيّة تقوم بتحريرها نخبة من علماء الدّين المعتدلين».[187]

وكانت هذه الجريدة هي «لسان حال جامعة اتّحاد الزّوايا والطّرق الصّوفيّة».[188] وكانت تحلّي صدرها بآيات قرآنيّة، وبعض الأحاديث النّبويّة. وكان

185 محمّد علي دبّوز، م.م.س.، 2.122-123.
186 يراجع الطّيّب العقبي، جريدة البرق الزّاهريّة، ع. 7، في 18 أبريل 1927، ص.1 وما بعدها.
187 أخذنا هذا التّعريف من صدر العدد السّابع منها الصّادر في 21. 7. 1938.
188 م.س.

مديرها هو الشّيخ عبد الحفيظ القاسميّ، أمّا صاحب امتيازها فكان هو محمّد بن البشير.

وكانت «الرّشاد» تصدر كلّ يوم خميس. ونلاحظ أنّها كانت تصدر، مثل الجحيم، يوم الخميس. كما استعملت عبارة شبيهة بما استعملت الجحيم، وهي: «يقوم بتحريرها نخبة من...». وأمّا وصفُها بأنّها دفاعيّة فكان يعني ذلك أنّها كانت موكَلة بالدّفاع عن وجود التّصوّف والزّوايا وشيوخها؛ حيث كانت جمعيّة العلماء لا تزال تهاجم الطّرُقيّين وتنعَى عليهم نعْياً شديداً...

وكانت «الرّشاد» هي رابعةَ الجرائدِ الصّوفيّة الكبرى: بعد «الإخلاص»، و«لسان الدّين»، و«البلاغ الجزائريّ».

وكانت الرّشاد لا تُخفي مقْتها للعلماء الإصلاحيّين وبصائرَهم، وخصوصاً ابن باديس. فقد نشرت كلمةً زعمت فيها أنّها رسالة جاءتها من مصرَ تأييداً لها، وإعجاباً بها، وحبّاً فيها. فقد فات «الرّشاد» أن تعزو هذه الرّسالة إلى أيّ شخصٍ. ولعلّ الجريدة جاءت ذلك حرصاً على التّأثير في العوامّ بحكم أنّ الرّسالة جاءت من بلد كبير كمصر؛ وممّا ورد في هذا النّصّ: «أمّا بعد فإنّا طالعنا جريدة «الرّشاد» الغرّاء، فوجدناها، والحمد للّه، على ثقة من الحقيقة وحسن إخلاص؛ بينما نرى جريدة «البصائر» تحمل حملة مغرض ليس له من السّعي إلاّ الحسد ودفن الحقيقة. فما لهم وهذا التّحامل الذي يأباه كلّ فردٍ من العالم؟»[189].

وواضح أنّ أيّ مستنير من النّاس يتكشّف له أنّ هذا النّصّ كاتبه جزائريّ، ولغته جزائريّة، ولهجته جزائريّة!... وما للمصريّين ولهذا؟ وإنّما هو صراع فكريّ داخليّ بين جزائريّين.

---

[189] الرشاد، ع.15 في 15. 9. 1938، ص.2.

ومع هذا، فإنّ ما أوردته «الرّشاد» يدلّ على أنّها كانت توزّع، ككثير من الصّحف الجزائريّة، بمصر.

ووقع لنا من هذه الجريدة الصّوفيّة كثيرٌ من أعدادها، وكانت ذات اتّجاه صوفيّ حتّى النّخاع. فقد زعم أحد كتّابها أنّ «مبايعة شيوخ الصّوفيّة، أو أخذ العهد الطّرقيّ، له أصلٌ في كتاب الله وسنّة رسوله، ثابت الأساس، لا يتزعزع رغم أنوف الجاحدين».[190]

وقد رمى الكاتب ابنَ باديس وأصحابَه بالخطأ الشّنيع في تأويل قوله تعالى: «إنّ الذين يبايعونك إنّما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم؛ فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه. ومن أوفى بما عاهدَ عليه اللهَ فسنؤتيه أجراً عظيماً».[191]

وزعم كاتب المقالة أنّ هذه الآية ليست بالضّرورة خاصّة بالنّبيّ صلعم؛ بل هي عامّة، على ما فيها من كاف الخطاب... ولذلك ألفينا رجال التّصوّف يحرصون على هذه البَيعة ويعضّون عليها بالنّواجذ «عملاً بما أوصاهم به نبيّهم عليه الصّلاة والسّلام».[192]

وأمام هذا الضّرْب من التّأويل الصّوفيّ لمضمون الآية الكريمة ومنطوقها، فقد كان من العسير أن يقع الإتّفاق بين الإصلاحيّين والمتصوّفة.[193]

وكانت هذه الجريدة تسير في خطّ جريدة «البلاغ الجزائريّ»؛ ولم تكن هذه الجريدة تلتفت إلى أيّ شيء ممّا ينفع النّاس في حياتهم الدّنيا؛ بحيث لا نجد فيها

---

190 م.س.، ص.3.

191 سورة الفتح، الآية: 10. ومن القرّاء من قرأ «فسيؤتيه».

192 ابن البشير العلقمي، في م.س.

193 إنّ الذي يعود إلى أوثق التّفاسير (القرطبي، ابن كثير مثلاً) لا يجد أثراً لهذا التّأويل الذي كان يذهب إليه أهل التّصوّف؛ فقد كانت بيعة الرّضوان التي بايعها الصّحابة تحت شجرة السّمر، وكانوا ألفاً وأربعمائة؛ في أشهر الأقوال: إمّا على الموت في رواية، وإمّا على عدم الفرار حين الهجوم على قريش لافتكاك عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي احتبسته قريش لديها بعد أن ذهب رسولاً في مهمّة كلفه بها رسول الله صلعم... فأين ذلك من هذا؟ وكيف تحرّف الآية من موقع الجهاد العظيم بالنّفس، إلى موقع التّربية والتّهذيب؟

أيّ عناية بالدّراسات الاجتماعيّة، ولا الثقافيّة، ولا أيّ مطالبة بأيّ حقّ من الحقوق الدّينيّة نفسِها؛ وإنّما هي مجموعة ضخمة من المقالات التي كانت تعالج التّصوّف وتمجّده دون عمقٍ. وكثيراً ما كانت تشنّ غارات على المصلحين؛ غير أنّ أسلوبها كان بعيداً عن أسلوب «البصائر» في نصاعة لغته، وجمال أسلوبه.

بيد أنّ «الرّشاد» كانت منبراً لكلّ كتّاب الطّرق الصّوفية من كلّ أقطار المغرب العربيّ؛ وعلى حين كانت «البصائر» تهاجم عبد الحيّ الكتّاني كانت «الرّشاد»، بطبيعة الموقف، تنشر مقالاته؛ وتصفه بأنّه العالم الذي لا يجارَى في فهم الحديث النّبويّ، والإلمام بجزئيّاته وكلّيّاته.[194]

وكان عبد الحيّ الكتّاني ربما ينشر من الكتابة في «الرّشاد» مُا لم يكن فيه نفْعٌ للنّاس؛ فقد كان، مثلاً، يذهب في بعض ما يكتب إلى تحقير عوامّ النّاس؛ وأنّ المفضول إذا طعَن في حقّ الفاضل عليه «بانتقاص ما علِم وما لم يعلم من الفضائل الشّرعيّة؛ فهو الظّالم المعتدي، فيجب ردْعه بما يليق لحاله».[195] وما الغَناء من هذا الكلام، وما الفائدة من وراء هذا الهراء؟ ألم يكن من الأولى لمثل هذا الرّجل لو أنّه كان يريد الخير حقّاً لقرّائه أن يعالج قضايا الحرّية التي كانت منعدمة، وقوت الخبز الذي لم يكن موجودا، والحدّ الأدنى من الكرامة الذي كان مفقودا، والحق في التّعليم الذي كان مَهْروداً!؟ أو لم يكن ذلّ الاستعمار كافياً حتّى يضاف إليه إذلال العلماء؟ أم لم يكن ذلك الفاضل المتحدَّث عنه إلاّ ممّن كانوا مع الاستعمار يتنعّمون؟!

وتكمن أهمّيّة «الرّشاد» في كونها سجلاً حافلاً للحركة الصّوفيّة بالجزائر التي كانت، يومئذ، في صراع حادّ، وحرب ضارية، مع جمعيّة العلماء. فلا يمكن فهْم حركة الإصلاح إلاّ بالاِستعانة بما كان يكتب في الصّحف التي كانت معارضةً لها،

---

[194] م.س.، ص.1، عمود: 3-4.

[195] م.س.، ص.1، عمود.3.

ومنها «الرّشاد». كما أنّه لا يمكن فهم الحركة الصّوفيّة في الجزائر وتطوّرها وانتشارها إلاّ بالاستعانة بما سجّل في الجرائد الإصلاحيّة، ودُوّن في صفحاتها.[196]

41.المساواة (الجزائر، 1944- 1928؟)

جريدة أسبوعيّة أصدرها حزب البيان الجزائريّ في خامس عشر سبتمبر 1944 باللّغة الفرنسيّة، ثمّ صدرت بالعربيّة في سنة 1947.[197]

وقد قالت عنـها مجلّة العبقريّة: «أصدر حزب البيان الجزائريّ جريدته «المساواة» باللّسانين العربيّ والفرنسيّ، بعد أن كانت فرنسيّة اللّسان فقط. وقد وصلتنا الأعداد الأولى، فوجدناها طافحة بالمقالات الهامّة في الدّفاع عن القضيّة الجزائريّة؛ فمرحباً بالزّميلة، وإلى الأمام».[198] ويبدو أنّها عُطّلت عن الصّدور في عام 1948.

42.الجزائر الجديدة (الجزائر، 1946-1950؟)

جريدة وطنيّة عربيّة اللّسان كانت تصدر شهريّاً. وكانت «لسان حال الحزب الشّيوعيّ الجزائريّ»[199]. وكان مديرها وصاحب امتيازها أحمد محمودي. وكانت هذه الجريدة تطبع بمدينة الجزائر. وكانت تصدر في أربعِ صفحات؛ ولكنّ طبعتها كانت أنيقة، من حيث كانت عربيّتها مقبولة. في حين أنّ إخراجها كان جيّداً

196 إنّا ندعو الجامعيّين الشّباب إلى الإلتفات إلى دراسة مثل هذه الصّحف الوطنيّة الكبيرة مثل البصائر، والشّهاب (في سنيها الأربع الأولى)، والبلاغ الجزائريّ، والرّشاد لاستخلاص ما يمكن استخلاصه منها فكريّاً وثقافيّاً ودينيّاً، وأدبيّاً، وسياسيّاً أيضاً.

197 ينظر علال الفاسي، م.م.س.،ص.11، عمود4.

198 مجلّة العبقريّة، ندرومة، العدد الثاني، في يونيو 1947، ص.59.

199 أخذنا هذه العبارة من أحد أعدادها.

بحيث كانت تحلّي صفحتيها الأولى والأخيرة ببعض الصّور، كما نجد ذلك في العدد السّابع والأربعين مثلاً.

ومن كتّابها العربي بوهالي كاتب الحزب الشّيوعيّ الجزائريّ يومئذ، وأحمد محمودي، ومحمّد حدابي. وكانت الجزائر الجديدة تخوض في الأمور الثقافيّة والسّياسيّة والتّربويّة كالتّعليم العربيّ الذي كانت تدافع عنه، وتنعى على ما كان يتعرّض له أهلُه من اضطهاد السّلطات الإستعماريّة وعَنَتِها.[200]

43.البصائر2 (الجزائر، 1947-1956)

إنّا نعتذر سلفاً للقارئ بأنّنا لن نَفيَ حقّ هذه الجريدة حقّها من الدّراسة والتّقديم؛ لأنّنا لو أردنا أن نأتيَ ذلك لكتبنا فيها مجلّداً ضخماً. ولذلك سنراعي التّوازن النّسبيّ الذي راعيناه في تقديم بقيّة الجرائد الوطنيّة الأخراةِ، مع مراعاة الأهمّيّة التّاريخيّة والثقافيّة والسّياسيّة، فلا نبالغ في التّفصيل؛ تاركين ذلك إلى حِينةٍ أخراة إن أتيحت لنا.

أصدرت «البصائرَ»، السلسلة الثانية، جمعيّةُ العلماء المسلمين الجزائريّين في يوم الجمعة 7 رمضان 1366 الموافق 25 يوليو 1947. وكان يرأس تحريرها محمّد البشير الإبراهيميّ، رئيس الجمعيّة يومئذ. وقد توقّفت عن الصّدور من تلقاء نفسها في 6 أبريل 1956. وذلك بعد أن وقع التّنكيل بكثير من القائمين عليها، والذين كانوا يكتبون فيها؛ وذلك بعد أن الْتَحد كثير منهم إلى الأقطار العربيّة مشرقاً ومغرباً، مثل محمّد البشير الإبراهيمي، وأبي محمّد (أحمد توفيق المدنيّ)، وحمزة بوكوشة، وعليّ مرحوم، ومحمّد خير الدّين. في حين اغتال الفرنسيّون، بعد الاختطاف، العربي

---

[200] تنظر الجزائر الجديدة، ع.47 في يونيو 1950، ص.3، عمودا: 1-2.

التّبسي، وأحمد رضا حوحو، وعبد الكريم العقون، والرّبيع بوشامّة؛ من حيث وضعوا محمّداً العيد تحت الإقامة الجبريّة...

وإذا كانت هذه الجريدة تُعَدّ أطول جرائد جمعيّة العلماء عمراً، وأعرضها شهرة، وأرقاها كتابةً؛ فإنّها، وبغضّ الطّرْف عن كلّ الاِعتبارات، قد تكون أرقى جريدة عربيّة عرفتها الجزائر في تاريخها الحديث إلى سنة توقّفها. فقد استطاعت أن تستقطب أهمّ الأقلام الجزائريّة وأكبرها شأناً، وأرصنها تفكيراً، وأجملها إبداعاً؛ وذلك مثل محمّد البشير الإبراهيمي، والعربيّ التّبسيّ، ومحمّد خير الدّين، وأحمد رضا حوحو، وأحمد ابن ذياب، وحمزة بوكوشة، وفرحات بن الدّراجي، وعليّ مرحوم، ومحمّد المنصوريّ الغسيريّ، وأبي يعلى الزّواوي، ومحمود بوزوزو، وأحمد توفيق المدنيّ، وعبد الوهّاب بن منصور، ومحمّد العيد آل خليفة، وعبد الكريم العقون، وأحمد سحنون، والرّبيع بوشامّة، وباعزيز بن عمر، وأبي بكر الأغواطيّ، وإسماعيل محمّد العربيّ، وجلّول البدويّ، وعبد اللّه كنون، وعلاّل الفاسيّ، وأحمد حماني، وعبد الرّحمن شيبان، وأحمد بن عاشور، والحفناوي هالي، ومحمّد الصّالح رمضان، وحسن حموتن، وعمر شكيري، وأبي بكر حسن اللّمتونيّ، وأبي القاسم سعد اللّه، ومحمّد الأخضر السّائحي (الكبير)، وسَواءِ هؤلاء كثير... فأيّ جريدة جزائريّة، على عهد «البصائر» الثانية، أو قبلها، كانت تستطيع أن تطمح إلى أن يكتب فيها أمثال هؤلاء الكتّاب المُجيدين، والشّعراء المفلقين؟ بل ربما لا نجد أيّ جريدةٍ جزائريّة معاصرة، حتّى على عهدنا هذا، تطمح إلى ذلك؟

فهذه الكوكبة من أدباء الجزائر والمغرب هي التي جعلت هذه الجريدة تتبوّأ مكانة أدبيّة أثيرة في نفوس عامّة المثقّفين في المغرب العربيّ كلّه...[201] وكان لأسلوب

---

[201] كنت طالباً بجامع القرويّين بفاس نهاية عام 1955، فكان طلاّب جامع القرويّين، مغاربةً وجزائريّين، يتبادلون قراءة هذه الجريدة فلا يفوت أحدَهم قراءتُها. وكنت أعرف حافظاً للقرآن مستنيراً في مسيردة يقطع مسافة طويلة تزيد عن عشرين كيلو متراً على حماره من أجل الحصول على هذه الجريدة ليقرأها...

«البصائر» في الكتابة، كما تصف نفسَها بنفسها، «طرَفانِ: أعلى؛ وهو معرِض العربيّة الرّاقية في الألفاظ والمعاني والأساليب؛ وهو السّوق الذي تُجلب إليه كرائمُ اللّغة من مأنوس صيّره الاِستعمال فصيحاً، وغريب يصيّره الاستعمال مأنوساً. وهو مجلَى الفصاحة والبلاغة في نمطهما العالي (...). ولهذا النّمط رجالُه المعدودون؛ وهو نمط إعجاب أدباء المشرق بهذه الجريدة.

وطرَفٌ أدنى، وهو ما ينحطّ عن تلك المنزلة، ولا يصل إلى درجة الإسفاف...».[202]

ولا نعتقد أنّه يمكن لباحث في الحياة السّياسيّة، والثقافيّة، والأدبيّة، وقضايا الحركة الوطنيّة في الجزائر بخاصّة، وفي أقطار المغرب العربيّ بعامّة، أن يضرب صفحاً عن «البصائر» فلا يعود إليها في بحثه؛ فقد نشرت عدداً ضخماً من المقالات والدّراسات والقصائد الجيّدة لبعض مَن ذكرنا مِن الأدباء والمفكّرين والمصلحين في شتّى حقول المعرفة الإنسانيّة.

كما كان لمعارك محمّد البشير الإبراهيميّ مع عبد الحيّ الكتّانيّ، ومحمّد السّعيد الزّاهريّ، ومحمّد العاصميّ، أثر كبير في نفوس القرّاء الذين كانوا يتابعون بشغف وتطلّع اصْطِراعَ أولئك الكتّاب الكبار اصْطِراعاً فكريّاً رصيناً. بل امتدّت سلاطة قلم الشّيخ الإبراهيمي إلى شخصيّة التّهاميّ الجلاويّ الذي استولى بغباء سياسيّ على غير حقّه؛ فشفَى غليله منه، وأشبع قلمه من ثلْبه، بما كان أهلاً له من الذمّ على كلّ حال[203]... كما لم يتواضع لمهاجمة الخاملين من بعض الكتّابيب (جمع كُتْبوب، وهو حرف من توليدنا قسناه على «شُعرور») من المغرب والجزائر. وقد كان للشّيخ طريقة عجيبة في الخصومة الأدبيّة يتّخذ لكلّ حال لَبوسها، ويُعِدّ

---

[202] البصائر، ع.68 في 11 يوليو1949، ص.5. عمود3، 4.

[203] الإبراهيمي، إبليس ينهى عن المنكر!، البصائر، ع.134 (الافتتاحيّة)، إبليس يأمر بالمعروف!، البصائر، ع. 144.

لكلّ رَكوبَةٍ حُلُوسَـها... وذلـك كما نجـده، مثلاً، يخـاطب شـخصاً خـاملاً، راسـل «البصائر» من مدينة فاس، فوقّع رسالته باسـم «تـهاميّ»، وكـان يزعـم أنّـه متمٍ إلى حزب الشّورى والاستقلال؛ فأرسـل رسـالة يتـهجّم فيـها علـى «البصـائر» ويتّهمـها بالانحياز لطرَف حزبيّ مغربيّ آخر، فأنهى الشّيخ مقالتـه غـير الطّويلـة الـتي لذعـه فيها:

«لا عفا اللّه عنك يا تهاميّ! لكأنّ واللّه فيك شُعبةً من سَمِيِّك[204]!... ولو كنتَ عاشرَ عشرةٍ ممّن يحمل هذا الاسمَ، وينطـق بـهذا الإثـم؛ لاطّـردتِ القاعـة، وتواتـر القياس؛ وهُجِر هذا الاِسمُ كما هُجر عبد العُزّى في الإسـلام؛ وانتقـل النّـاس بأبنائـهم من تِهامةَ إلى نجران!...

إنّنا لا نعلم منزلتَك في النّباهة، ودرجتَك في الحزب؛ فإن كنـت تسـتحقّ هـذا العتابَ فهو تأديبٌ لـك؛ وإن كنـت لا تسـتحقّه لخمـول قَـدْرك، وخسـوف بـدرك؛ فأرجعْه إلينا مشكوراً، واردُده علينا معذوراً».[205]

ولعلّ مثل هذا الشّأن في الكتابة هو الذي أفضى إلى إعجـاب قـرّاء «البصـائر» بذلك البيان السّاحر، والفيض الباهر، والعربيّة الدّافقة، والمعـاني المتألّقـة، والحكمـة المشرقة. فكنت تقرأ مقالة الشّيخ وكأنّك تقرأ من البيان فيضـاً، ومـن البلاغـة عِطْـراً؛ فكان حين يكتب كأنّه كان يشْتار مـن العربيّـة شـهْداً، أو يمتّـح مـن البيـان دَفْقـاً... فيفيض الغرْب، ويطفح الكيل، وينتشر العَرْف... وإذا ألفاظُ العربيّـة تجمُـلُ وتنضُـر، وتتألّق وتتأنّق؛ فتغتدي كالحِسان حين يَرْتَئِدْنَ بـين الرّيـاض، بكـلّ مـا فيـهنّ مـن سِحْر الجمال، وإغراء الدّلال؛ أو كالورود حـين يتفتّحـن، فيتضوّعـن مـا يتضوّعـن؛ بكلّ ما فيهنّ من الشّذى العابق، والنّشْر الفائق...

---

[204] إشارة إلى التهاميّ الجلاوي.

[205] البصائر، ع.149، في 2. 4. 1951، ص.3، عمود 4.

وأمّا المقالات الأخرى فقد برز في كتابتها معظم مَن جئنا على أسمائـهم ذِكْراً، لكن دون أن ترقى إلى طبقتها قطّ..

وقـد أتيـح لنـا أن نمتلـك مجموعـة صالحـة مـن هـذه الجريـدة الـتي توجـد بمكتبتنا: تقع مـا بـين العـدد الأوّل، والعـدد 179 الصّـادر في 7 ينـاير 1952. ولعلّ أعداد هذه الفترة هي التي تمثّل أزهى عهْدها، وأنفعَ عِهَادِها؛ ذلـك بـأنّ مستواها في الكتابة أنشأ يتدنّى قليلاً، قليلاً؛ منذ نزح عنها محمد البشير الإبراهيميّ إلى بـلاد المشرق، إلى أن انتـهتْ في سنة سِتٍّ وخمسين وتسعمائة وألـفٍ كأيّـة جريـدة، في رأينا، من الجرائد العاديّة، ليس إلاّ.

وأمّا القضايا الكبرى التي كانت تُعنَـى بـها «البصـائر» الثانيـة، فـهي «فصـل الدّين عن الحكومة»؛ و«التّعليم العربيّ في الجزائر»؛ «قضيّة الأمـلاك الموقوفـة» الـتي استحوذت عليها السّلطات الاِسـتعماريّة، ثـمّ قضايـا المغـرب العربـيّ (قضايـا تحرّر المغرب [وقد كتب الإبراهيمي حول ثورة الملك والشّعب من أجل التّحرّر من الاستعمار الفرنسيّ قريباً مـن ستّ مقالات هـي مـن أجمـل مـا نشـر في «البصـائر»] وتونـس، وليبيا)؛ وقضيّة فلسطين؛ وقضيّة توحيد الأحزاب الوطنيّـة، وقضيّـة وحـدة الرّأي، وتناسي الخلافات المذهبيّة والفكريّـة، لـدى تعـرّض الأمّـة للملمّـات المدلهمّـة[206]؛ والقضاء في الجزائر... بالإضافة إلى القضيّة التّقليديّة في مسار كلّ حركة إصلاحيّة وهي محاربة الطّرقيّة وشيوخها في الجزائر...

---

[206] الحق أنّ هذا المبدأ تكرّسه المادّة العشرون من القانون الأسيّ لجمعيّة العلمـاء حيث تقول: «عند المصلحة العامّة من مصالح الأمّة، يجب تناسي كل خلاف يفرّق الكلمة، ويصدّع الوحدة، ويوجـد للشّرّ الثغرة. ويتحتّم التّىزر والتّكاتف حتّى تنفرج الأزمة، وتزول الشّدّة، بإذن الله ثمّ بقوّة الحقّ، وادّراع الصّبر، وسلاح العلم والعمل والحكمـة». أبـو القاسم سعد اللـه، م.م.س.، ص. 456. ويمكـن أن يلاحـظ المـرء أن زوال الشّدّة هـو زوال الاستعمار، وانفراج الأزمة هو الاستقلال، وادّراع الصّبر هو النّضال، وقـوّة الحـقّ هـي الإيمـان بالقضيّة والدّفاع عنها...أم لهذا الكلام من تأويل غير هذا؟

ونحن نرى أنّه كان لهذه الجريدة أثر على غاية الأهمّيّة في تطوّر النّهضة الوطنيّة على جميع مستوياتها.[207]

44.الوطن (الجزائر، 1948 - ؟)

جريدة نصف شهريّة أصدرها فرحات عبّاس باللّغة العربيّة. ونفترض أنّها أصدِرت خلفاً للمساواة المُوْقَفَة. ويوجد منها مجموعة أعداد بالخزانة العامّة بالرّباط. وقد صوّرتُ كلّ أعداها سنة 1973 من المكتبة المذكورة ثمّ ضاعت منّي. وإنّا نجهل تاريخ توقّفها.

45.الشّعلة (قسنطينة، 1949-1951)

لقد أتيح لنا، بفضل المجموعة الكبيرة التي وقعت لنا من أعدادها، أن نعرف أهمّ ما ينبغي أن يُعرف عنها؛ فهي كانت تصدر بقسنطينة وتُطبع بالمطبعة الإسلاميّة الجزائريّة بها. وكان الصّادق حماني هو صاحب امتيازها، من حيث كان رئيس تحريرها أحمد رضا حوحو، وصاحب شؤونها الإداريّة أحمد بوشمال. وقد زعم علاّل الفاسي، خطأً، أنّ جريدة «الشُّعْلة» ممّا أصدرتْه جمعيّة العلماء![208]

وقد صدر العدد الأوّل من «الشّعلة» في يوم الخميس الثاني والعشرين من صفر عام تسعةٍ وستّين وثلاثمائة للهجرة، الموافق 15. 12. 1949. وصدَر آخرُ عدد منها،

207 ينظر عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربيّ المعاصر في الجزائر، ص.102-105، 112-113.

208 علال الفاسي، م.م.س. كما زعم أنّ هذه الجريدة صدرت في سنة إحدى وخمسين؛ وهي السّنة التي تعطّلت فيها.

وهو الرّابع والخمسون، في يوم الخميس فاتح جمادى الأولى سنة سبعين وثلاثمائة وألف للهجرة الموافق ثامن فبراير 1951.

ومن مقالات العدد الأخير: «عدت من الاِتّحاد السّوفييتي»؛ و «أحاديث الحرب في باريس».

ومن مقالات العدد الأوّل ركن عنوانه: «المسامير»؛ وركن آخر عنوانه: «أمّا بعد»؛ و «وحدة إفريقيا الشّماليّة تتحقّق»؛ و«على رسْلِك أيّها السّياسيّ»!؛ و«أغنياؤنا في شهواتهم الجائعة»؛ و«الطّرقيّة عدوّة الشّعب».

وكانت الشّعلة تصدر في أربعِ صفحات من القطع المتوسّط.

وكانت المقالات فيها لا تُعْزَى إلى كتّابها؛ ويعدّ ذلك خطأً تاريخيّاً كبيراً كان يجب أن لا يكون! فحتّى القصائد الشّعريّة لم يكن أصحابها يوقّعونها بأسمائهم، كما يلاحَظُ ذلك، مثلاً، في العدد الثّاني والعشرين.[209] وإذا كانت «الشعلة» تشذ أحياناً عن هذه القاعدة، كما ورد ذلك في بعض مقالات العدد الرّابع والعشرين[210]، فإنّ ذلك لم يكن إلاّ استثناءً.

وكانت «الشّعلة» تنقل من بعض الجرائد العربيّة مثل «العلم» المغربيّة، و«المصوّر» المصريّة. وكانت مقالاتها اجتماعيّةً وسياسيّة وأدبيّة ورياضيّة أيضاً. غير أنّ الاِتّجاه الإِجتماعيّ هو الذي كان يغلب عليها. ومن أحسن ما نشرته من أقاصيص تلك التي كُتبت تحت عنوان: «شرط الزّواج»،[211] غير أنّ صاحبها لم يوقّعها باسمه؛ ولعلّها أن تكون لأحمد رضا حوحو نفسِه.

---

[209] صدر في 11. 5. 1950.
[210] صدر في 25. 5. 1950.
[211] تنظر الشّعلة، ع. 27 في 15. 6. 1950، ص. 2، عمود 4.

46.الجزائر الحرّة (الجزائر، 1950- ؟)

أصدرها حزب انتصار الحرّيّات الدّيمقراطيّة، في نهاية العِقد الخامس من القرن العشرين، بعد احتجاب جريدة «المغرب العربيّ» التي كانت تصدر باللّغتين: إحداهما بالعربيّة وهي الواسعة الإنتشار القويّة، وإحداهما الأخراة بالفرنسيّة، وكانت بمثابة الملخّص لها.

ولا نكاد نعرف عن هذه الجريدة شيئاً ذا بال؛ وكلّ ما نعرف أنّها كانت لا تزال تصدر في 29 مارس 1952. وقد علّقت على القضيّة التّونسيّة يومئذ قائلة: «إذا تمادى الفرنسيّون في سلوك سياسة القوّة، فكيف يمكنهم حلّ الأزمة؟...».[212]

ويبدو أنّ رئيس تحريرها في نهاية ديسمبر من عام 1950 كان هو الدّكتور شوقي الذي استقبل الوفد الصّحافيّ المصريّ مع صحافيّين جزائريّين آخرين.[213]

47.المنار (الجزائر، 1951-1953)

أصدر هذه الجريدة، وكانت نصف شهريّة، محمود بوزوزو في مارس 1951، وتوقّفت في نوفمبر 1953. ويبدو أنّها كانت موالية لحزب انتصار الحرّيّات الدّيمقراطيّة في بداية أمرها، ثمّ استقلّت من بعد ذلك عن هذا الحزب.[214] وكانت تُطبع بالمطبعة العربيّة بمدينة الجزائر.

وكانت «المنار» جريدة «سياسيّة ثقافيّة دينيّة حرّة».[215] وقد تصفّحنا العدد الأوّل من السّنة الثانية فألفيناه يشتمل على بعض هذه المقالات: «المنار على أعتاب

---

212 نقلاً عن جريدة المنار، عدد 1، السّنة الثانية، في 11. 4. 1952، ص.2. كما علّقت «الجزائر الحرّة» على القضيّة المغربيّة أيضا. (م.س.).

213 ينظر باعزيز بن عمر، البصائر، ع.134، في 11. 12. 1950، ص.1، عمود1.

214 إحسان حقي، الجزائر العربيّة، ص.238.

215 أخذنا هذا التّعريفَ من العدد الأوّل، الصّادر في 11 أبريل 1952 (السّنة الثانية).

السّنة الثانية» لمحمود بوزوزو؛ و«إكراهُ يزيد الطّينَ بلّة» لمحمّد المْتيجي؛ و«الإفلاس الاستعماري» (مقالة تنتقد سياسة الاستعمار الفرنسيّ في إفريقيا الشّماليّة لمحمّد الطّاهر السّمغوني)؛ و«سنّة اللّه» (وهي نشيد كتبه أبو بكر مصطفى بن رحمون)؛ و«من وحي الرّبيع» (قصيدة قصيرة في وصف الرّبيع لأحمد بوعدّو)؛ و«في بلاد الأحلام والذكريات»؛ و«معرض الصّحافة المغربيّة»؛ و«نداء لإنقاذ فلسطين»؛ و«الإستعمار في حربه للعربيّة» يقول في بعضها صاحبُها الذي لم يوقّع باسمه، ولعلّه أن يكون بوزوزو نفسُه: «أرأيت كيف يُعطَى الجزائريُّ الجنسيّةَ الفرنسيّة وهو بها كافر، ولها كاره، تبريراً لحرب العدوان الذي يشنّها (كذا) الإستعمار على اللّغة العربيّة والدّين الإسلامي؟ إنّ القوانين الاستعماريّة ناطقة باعتبار اللّغة العربيّة لغة أجنبيّة، مُغرية بتحجير تعليمها وعدمِ السّماح بفتح مدارس لتعليمها كلغة قوميّة؛ مع أنّ هذه المدارسَ لا تطلب من الحكومة الفرنسيّة أكثر من كفّ عدوان شرطتها عنها، وعدم التّعرّض للقائمين بأمرها من معلّمين وأنصار.

مَن الذي ينسى قانون 7 مارس (كذا، والمعروف أنّه 8 مارس) 1938 القاضي بجَبر كلّ متعاطٍ للتّعليم العربيّ الحرّ بطلب رخصة؟ ثمّ إنّ هذه الرّخصة لا تُمنح إلاّ لمن تشهد له تقارير شرطة الإستعلامات بحسن الولاء للاستعمار».[216]

48.الحرّيّة (الجزائر، 1954 ؟)

جريدة أسبوعيّة عربيّة اللّسان، كان الحزب الشّيوعيّ الجزائريّ هو الذي يصدرها. ولا نعرف الآن عنها كبير شيء. وممّا نعرف، أنّها كانت لا تزال تصدر في

[216] م.س.، ص.4، عمود2. والمقالة طويلة تنتهي في الصفحة الثالثة.

شهر أبريل 1952، وقد حجزت السّلطات الاستعماريّة الفرنسيّة نسخاً من أحد أعدادها.

فقد قالت جريدة المنار بهذا الصّدد: «حُجزت عدّة أعداد من جريدة «الحرّيّة» لسان الحزب الشّيوعيّ الجزائريّ. وقد وقعت مظاهرة احتجاجاً على هذا الحجز، خرج فيها عدّة أشخاص. ونحن لا يسعنا إلاّ أن نحتجّ على هذه التّدابير الرّامية لخنق حرّيّة التّعبير بالقطر الجزائريّ» .[217]

ولم نعثر على أيّ مصدر آخر مكتوب يتحدّث عن هذه الجريدة.

49.الذكرى (تلمسان، 1954-1955)

جريدةٌ أصدرها الشّيخ فندي عبد العزيز البوديليميّ. وكانت هذه الجريدة تطبع بمطبعة ابن خلدون بتلمسان. وصدر العدد الأوّل منها في 15 ديسمبر 1954.[218] وتعطّلت في أواخر سنة 1955، فيكون عمرها عاماً واحداً. وكانت «الذكرى» تصدر شهريّاً، موقّتاً، في انتظار أن يغتديَ صدورُها أسبوعيّاً. وكان كلّ عدد منها يحلّى بآيات قرآنيّة؛ كما حُلّي صدر العدَدَيْن الثاني والثالث بهذه الآيات الثلاثِ: «وذكِّرْ، فإنّ الذكرَى تنفع المؤمنين[219]»؛ ثمّ «سيذكّرُ مَن يخشى؛ ويَتَجنّبها الأشقَى».[220]

وكان حجم «الذكرى» يقترب من حجم جريدة «البصائر»، وكان عدد صفحاتها ستّاً.

---

[217] م.س. ،ص.4، عمود1.

[218] أخذنا هذا التّاريخ من صدر عددها الأوّل الذي وقع لنا مع مجموعة أخرى من هذه الجريدة الدّينيّة الطّرقيّة.

[219] سورة الذاريات، الآية: 55.

[220] سورة الأعلى، الآيتان: 10، 11.

ووقع لي كثير مـن أعدادها فلاحظت أنّها كانت تُعنى بالقضايا الدّينيّة، والوعظ والإرشاد. وكانت، مع ذلك، تنشر كثيراً مـن القصائد، ولا سيّما تلك التي كان ينشئها أصحابها مدحاً وتكريماً لجريدة «الذكرى». وكانت هذه الجريدة توزّع في المغرب والمشرق، كما أخبر بذلك الشّيخ البودليمي في جلسة له خاصّة بتلمسان في شهر فبراير 1973.

<><><><><><><>

الفصل السّابع

صورة المقاومة الفكريّة للاحتلال الفرنسيّ

في الدّوريات الوطنيّة

لقد رأينـا أن نختـم هـذا الجـزء الثـاني مـن الكتـاب بإضافـة متابعـة تتنـاول الدّوريّات الوطنيّة؛ وذلك لأنّها دوريّات وليست جرائد يوميّة أو أسـبوعيّة؛ فـاقتضى الأمر أن نخصّها بفصل خاصّ لننظر كم قـاومت الدّوريـات الاسـتعمار الفرنسـيّ كمـا قاومت الجرائـد الأسـبوعيّة الوطنيّـة الـتي وقفنـا صـورة المقاومـة فيـها علـى الفصـل السّادس من هذا الكتاب.

وإذن، فإن كنّا قد ميّزنا بين الصّحف والمجلاّت، فتناولنا كُلاًّ منهما في فصـل قائم بذاته، فذلـك كـان مـن بـاب التّيسـير الإجرائـيّ لتقسيم المـادّة. ثـمّ إنّ طبيعـة الدّوريّات ومواصفاتها الإعلاميّـة والفكريّـة غـير مواصفـات الصّحافـة السّيّارة. وممّـا يلاحظ أنّ الدّوريّات كانت تنجو غالباً مـن المتابعـات القضائيّـة التّعسّفية الـتي كـان الاستعمار الفرنسيّ يصبّها أسواط عقاب على الصّحـف الوطنيّـة الأسـبوعيّة. غـير أنّ هذه الدّوريّات كانت لا تزال تكابد من نقصٍ في الورق، ومحدوديّة في التّوزيـع، وقلّـة في عدد القرّاء؛ فالشّهاب تعدّ أرقى الدّوريات الوطنيّة على عهد الإستعمار الفرنسـيّ، وأكثرهنّ مقروئيّة؛ ومع ذلك لم تكن تطبـع إلاّ ألْفَيْ نسخةٍ في الشّـهر... وستنصرف المتابعة إلى ما صدر من هذه الدّوريّـات فيمـا بعـد الحـرب العالميّـة الأولى؛ إذ سبقتْ متابعةُ هذه الإعلاميّات التي صدرت فيما قبل الحرب العالميّة الأولى، في الجـزء الأوّل من هذا الكتاب.

1.الشّهاب (قسنطينة، 1925-1939)

جريدة أسبوعيّة أصدرها عبد الحميد بن باديس بمدينة قسنطينة في ثاني عشر من شهر نوفمبر عام خمسة وعشرين وتسعمائة وألف؛ وذلك بعد أن عطّلت السلطات

الاستعماريّة جريدة «المنتقد» التي ظلّ ابن باديس يحِنّ إليها حنيناً عارماً[1]. وقد ظلّت «الشّهاب» تصدر أسبوعيّاً، ثم مرّتين في الأسبوع، طوال أربع سنوات. ولكنّ ابن باديس اضطُرّ، لأسباب مختلفة ومنها اشتغاله المرهِق بالتّدريس، وربما الضائقة الماليّة أيضاً[2]، إلى أن يُصدرها شهريّاً ابتداءً من شهر فبراير 1929. وظلّت تصدر بقسنطينة شهريّاً إلى شهر غشت 1939[3].

وتُعَدُّ مجلّة «الشّهاب» «أشهر المجلاّت في المغرب العربيّ، في النّصف الأوّل من القرن العشرين، وأطولهنّ عمراً، وأعظمهنّ خطراً، وأبعدهنّ أثراً، وأغناهنّ فائدةً ونفعاً»[4].

ولم تكثر حول هذه المجلّة الأخطاء التّاريخيّة، وتضافرت لها الإشارات المختلفة في الدّراسات الجزائريّة المعاصرة؛ وذلك على الرّغم من أنّ أحداً لم يعرض لها بالدّراسة قبلنا، في حدود ما بلغناه من العلم[5].

لقد أنشِئتْ مجلّة «الشّهاب» خلَفاً لجريدة «المنتقد» المعطّلة، وذلك في عام 1343 للهجرة (1925م.). ولمّا كانت «المنتقد» أسبوعيّة، فقد سارت «الشّهاب» في دربها، واقتفت شيئاً من آثارها؛ إلى أن بلغ بها المطاف إلى شهر فبراير من سنةِ تسعٍ وعشرين وتسعمائة وألفٍ حيث عجزت عن الصّدور أسبوعيّاً، فعدلتْ عنه إلى الصّدور الشّهريّ[6]. وكان حجمها يتراوح ما بين خمسين وستين صفحة من القطع

---

[1] ابن باديس، الشهاب، ج1 م14 ص.2.
[2] ينظر عبد الحميد بن باديس، مجلة الشهاب، ج1. م.11، ص.2.
[3] ذكر عمار طالبي أنّه لم يعثر إلاّ على ملزمة واحدة من عدد سبتمبر 1939، آثار ابن باديس، 1. 59 (إحالة رقم 1).
[4] عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربيّ المعاصر في الجزائر، ص.91.
[5] كنّا عرضنا لهذه المجلة بالدّراسة في كتابنا نهضة الأدب العربيّ المعاصر الصّادر في الجزائر عام 1969، ص.91-100.
[6] ينظر ابن باديس، الشهاب، ج1، م11، ص.2.

المتوسّط وكان عدد سطور الصّفحة الواحدة منها يضطرب من حول اثنين وعشرين سطراً، من حيث كان متوسط عدد كلمات السّطر الواحد: إحدى عشرة كلمةً.

وكانت «الشّهاب» ملكاً خالصاً لابن باديس وحده، وما كانت قطّ في ملك هيئة سياسيّة كما ذهب إلى ذلك أنور الجنديّ[7]، وكما ذهب إلى ذلك أيضاً أبو القاسم سعد الله في موطنين إثنين من كتاباته[8]. وقد مالأهما على هذا الخطأ علاّل الفاسي حين ذهب في مقالة نشرها بجريدة «العَلَم» المغربيّة إلى أنّ مجلّة «الشّهاب» كانت لسان حال جمعيّة العلماء[9].

وإنّا لا ندري كيف ذهب هؤلاء إلى ما ذهبوا إليه؛ مع أنّ القضيّة هي من الوضوح كالشّمس؛ فجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين تأسّست في أواخر مايو من عام واحد وثلاثين وتسعمائة وألف، في حين أنّهم يعلمون أنّ «الشّهاب» كانت صدرت في أواخر عام خمسةٍ وعشرين وتسعمائة وألف، أي بستٍّ سنوات قبل تأسيس جمعيّة العلماء؟

ومِن المؤرّخين مَن ذهب غير ذلك فقدّم تاريخ صدور هذه المجلّة كالوثيقة التي أصدرتها السّفارة الجزائريّة ببيروت[10] حيث ذهبت إلى أنّها صدرت عام 1924[11]، وهو مذهب غريب وفائل في التّاريخ!

ولقد ظلّت «الشّهاب» تصدر طَوال حياتها بمدينة قسنطينة. وكانت تُطبع بالمطبعة الجزائريّة الإسلاميّة التي كانت تُعرف أيضاً باسم «مطبعة الشّهاب»، وكانت هذه المطبعة ملكاً خالصاً، هي أيضاً، لابن باديس. وكانت الموضوعات التي

---

[7] الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، ص.204.
[8] يراجع أبو القاسم سعد الله، محمّد العيد آل خليفة، ص.24؛ الحركة الوطنيّة الجزائريّة، 453.
[9] علاّل الفاسي، العلم، (الرّباط)، العدد الصّادر في 11. 9. 1971 ص.11 عمود 3.
[10] عنوان هذه الوثيقة التي وردت في حجم كرّاسة: «الصّحافة الجزائريّة بين الأمس واليوم».
[11] م.س.، ص.15و17.

تعالجها المجلّة تنحصر في عشرة محاور لا تكاد تعدوها. ونضرب مثلاً بالموضوعات المعالَجَة بعدد مايو من سنتها الأولى الشّهريّة[12] حيث نقرأ فيه:

1.مجالس التّذكير (وهي مقالات دينيّة منتظمة لابن باديس)؛ 2.رسائل ومقالات؛ 3.مجتنيَات من الصّحف والكتب؛ 4.المباحثة والمناظرة؛ 5.قصّة الشّهر[13]؛ 6.نظرة عالميّة؛ 7.في المجتمع الجزائريّ؛ 8.صفحة القرّاء.

ونُشر في العدد الأخير من مجلّة «الشّهاب»:

1.مجالس التّذكير، 2.ختم موطّأ مالك بن أنس؛ 3.درْس ختْم الموطّأ؛ 4.الإسلام دين الحياة والعلم والفنّ؛ 5. المسجونون من العلماء؛ 6.المُجْتَنَيات (العرب ثمانون مليوناً، مقالة لإبراهيم المازني)؛ 7.موقف العرب من الديموقراطيات؛ 8.في الشّمال الإفريقيّ؛ 9.الشّهر السّياسيّ؛ 10.ثمار العقول والمطابع[14]؛ إلخ...

ويبدو من هذه العناوين أنّ مجلّة «الشّهاب» كانت متفتّحةً متسامحة في التّفتّح، محافظةً حريصة على هذه المحافظة في الوقت ذاته؛ فمجالس التّذكير التي كان الشّيخ ابن باديس يكتبها باستمرار كانت تعالج غالباً تفسيراً لآيات من القرآن الكريم، أو تأويلاً للحديث النّبويّ الشّريف، أو معالجة لسيرة من سير الصّحابة الكبار، على الطّريقة الإصلاحيّة.

في حين أنّ ركن الرّسائل والمقالات كان يعالج قضايا ثقافيّة وسياسيّة عامّة؛ من ذلك، مثلاً، ما نجده في كتابة أحد أعداد الشّهاب تحت هذا العنوان: -رسائل

---

12 الشّهاب، مايو 1929، ص.2 (الفهرس).

13 لم تكن قصّة الشّهري، نشر قصّة فنّيّة بالمفهم المتعارف عليه في نظريّة الأجناس الأدبيّة، ولكن ربما كان يكتب تحت هذا العنوان إدراج سيرة شخصيّة سياسيّة كبيرة؛ فقد أوردت المجلّة، بالقياس إلى هذا العدد، سيرة تفصيليّة لحياة الملك عبد العزيز، عاهل المملكة العربيّة السّعوديّة.

14 الشهاب، ج7 م 15، الصّادر في يوم الخميس 1رجب 1358 الموافق 17 أوت 1939. ، ص.2.

ومقالات-: «من لم يشكر النّاس لم يشكر اللّه» لأبي العبّاس أحمد بن الهاشمي[15]. وأصلُ هذه الكلمةِ التي اتّخذ منها ابنُ الهاشميّ عنوانَ مقالتِه حديثٌ نبويّ شريف[16].

ونمضي إلى المحور الثابت الثالث، وهو «مجتنيات من الصّحف والكتب»[17] فنُلفيه ثابتاً واضحاً بحيث تختار مقالة من إحدى دوريات الشّرق الكبيرة لتنشر في الشّهاب.

وأمّا محور «المجتمع الجزائريّ» فكان يحرّره محمّد العاصميّ على امتداد ستّ سنوات[18] طوراً، وغيره طوراً آخر.

على حين أنّ محور «النّظرة العالميّة» تعني الاهتمام بالقضايا السّياسيّة التي كانت تشغل أذهان الرّأي العامّ الجزائريّ كلّ شهر.

وأمّا محور «المباحثة والمناظرة» فكانت «الشّهاب».تُدرج تحته ألواناً من الجدليّات في الدّين والأدب والأخلاق.

وكان هناك ركن غيرُ ثابتٍ هو الفتوى والمسائل؛ فكان إمّا ابن باديس، وإمّا غيره من العلماء، يجيبون فيه عن أسئلة تتعلّق بالقضايا الدّينيّة: أصولاً وفروعاً.

وممّا يذكر أنّ «قصّة الشّهر» لم يكن الشّيخ، ولا رئيس تحرير مجلّته الأستاذ أحمد بوشمال، يريدان بها إلى القصّة بمفهومها الأدبيّ المعروف؛ وإنّما كانا يريدان

---

15 الشهاب، ج.9م9، غشت 1933، ص.359-363.

16 ينظر الجامع الصّغير، 180. ورد هذا الحديث، بمتون مختلفة قليلاً، بالإضافة إلى الجامع الصّحيح للتّرمذي، ج.4. 339 في مجمع الزّوائد، ومنبع الفوائد لعلي بن أبي بكر الهيثميّ المتوفى سنة 807 للهجرة، ج.8. 1:181 : 1) لا يشكر اللّه من لا يشكر النّاس؛ 2) من لم يشكر للنّاس، لم يشكر للّه؛ 3) من لم يشكر النّاس لم يشكر اللّه. وورد بهذا النّصّ نفسه في مسند أحمد، للإمام أحمد بن حنبل بن عبد اللّه الشّيباني المتوفى 241 هـ. 3. 32.

17 يقدّم هذا المحور في بعض الأطوار مختصراً تحت عبارة: «المجتنيات»، الشّهاب، العدد الأخير (ج7م15)، ص.2.

18 انظر مجلّة صوت المسجد، (عدد 3، في ديسمبر 1948 الصّفحة الدّاخليّة للغلاف حيث يقول في معرض حديثه عن الشّيخ ابن باديس بالتّقدير والتّبجيل: «وهو نفسه قد أطلق لقب «الكاتب الكبير» على صاحب هذه المجلّة الذي ظلّ محرّر الفصلين: «المجتمع الجزائريّ»، و«آراء وأفكار» في مجلّة «الشّهاب» مدّة تتجاوز ستّ سنينَ».

بها إلى عرْض نبذة من حياة صحابيّ من الصّحابة، أو تابعيّ من التّابعين، أو شخصيّة إسلاميّة من الشّخصيّات الكبيرة، وذلك على الرّغم من أنّ «الشّهاب» كانت تنشر في بعض الأطوار النّادرة بعض المحاولات القصصيّة، ولا سيّما محاولات محمّد بن العابد الجَلاَلي الذي كان يوقّعها باسم مستعار هو «رشيد»[19].

وأمّا محور «ثمار العقول والمطابع» فإنّ «الشّهاب» كانت تعالج فيه آخر ما هبط إلى سوق الأدب من الكتب والدّوريات.

وعلى أنّ «الشّهاب» كثيراً ما كانت تخرج عن هذه الأبواب التي التزمت بها مع نفسها ومع قرّائها، تبعاً للمادّة الصّحفيّة المتاحة.

الاتّجاه الفكريّ لمجلّة «الشّهاب»

إنّ «الشّهاب»، كما هو معروف، مجلّة فكريّة إصلاحيّة سياسيّة، من شعاراتها: «لا يصلُحُ آخِرُ هذه الأمّةِ إلاّ بما صلَح به أوّلُها»[20]. ومن شعاراتها أيضاً: «الحقّ والعدل والمؤاخاة، في إعطاء جميع الحقوق، للذِين قاموا بجميع الواجبات»[21].

وقد كانت «الشّهاب»، بحكم اتجاهها الإصلاحيّ، تحارب الطّرُقيّة في شتّى مظاهرها، من زيارة القبور، وإقامة الطّقوس الفلكلوريّة، والمظاهر المعتقداتيّة من حول الضّرائح... كما كانت تُعنَى عناية شديدةً بالإصلاح الاجتماعيّ، في ردّها على الطّرقيّين؛ فكان النّهيُ فيها عن التّبذير، والمبالغة في الإنفاق في الحفلات والمناسبات الاجتماعيّة المختلفة التي لا تزال تثقل كواهل الجزائريّين فيكلّفون أنفسهم في إقامتها

---

[19] لعلّ هذا الاسم المستعار أن يكون مستوحى من أوّل محاولة قصصيّة نشرها محمّد سعيد الزّاهري عام 1925 بعنوان: «فرانسوا والرّشيد». فرشيد اتّخذ رمزاً لأوّل قصّة جزائريّة في التّاريخ.

[20] تعزى هذه الكلمة إلى مالك بن أنس رضي الله عنه.

[21] هذا الشّعار من إبداع ابن باديس.

ما لا يُطيقون. فكانت «الشّهاب » إصلاحيّةَ المبدأ، سلفيّة العقيدة، مالِكيّة المذهب؛ فلا أزعم أنّها كانت عبدويّة من حيث إنّ ابن باديس نفسَه لم يكن يعترف بعبدويّته، ولا بوهّابيّته[22]. والحقّ أنّ الشّيخ كان من النّضج الفكريّ ما كان جديراً بأن يحمله على التّفكير الأصيل النّابع من نفسه، المستوحى من قضايا شعبه، الملهَم من آثار الحكمة التي كان يقتبسها من القرآن العظيم الذي كان يفسّره لطلاّبه ولعامّة النّاس إلى أن ختمه، ومن الحديث النّبويّ الذي كان يشرحه ويحلّله من خلال تدريسه كتاب الموطّأ للإمام مالك إلى أن ختمه... كلّ أولئك عوامل تجعلنا نعتقد أنّ

---

[22] ذكر ابنُ باديس محمّد بن عبد الوهّاب مرّة واحدة، في كتاباته المعروفة، كما لم يتناول محمّداً عبده إلاّ في مقالة واحدة، وعرَضاً. وعلى أنّ ابن باديس ذكر محمّد ابن عبد الوهّاب تحت عبارة: «ابن عبد الوهّاب»؛ وتحدّث ابن باديس عنه حين أطلقوا عليه لقب «وهّابيّ»، بعد أن كانوا أطلقوا عليه لقب «عبداويّ»؛ فأقسم بالله إنّه لم يقرأ كتاباً واحداً لابن عبد الوهّاب قائلا: «(...) ولا والله ما كنت أملك يومئذ كتاباً واحداً لابن عبد الوهّاب، ولا أعرف من ترجمة حياته إلا القليل. ووالله ما اشتريت كتاباً من كتبه إلى اليوم (كتبت المقالة في عام 1351 هـ). (نشرت المقالة بجريدة السّنّة، ع. 3، الافتتاحية، في 29 ذي الحجّة 1351هـ). غير أنّ الغايات الإصلاحيّة كثيراً ما تتلاقى على بعد الدّار، وانعدام العلاقة المباشرة. ونحن نتساءل لِمَ كل هذا الاحتياط من الاحتراز من علاقة جمعيّة العلماء بالحركة الوهّابيّة التي هي أيضاً حركة إصلاحيّة إسلاميّة قبل كل شيء، وأنّهما تمجّدان معاً فكر ابن تيمية وتقومان عليه تنظيراً وانطلاقاً (كما يذكر ذلك الإبراهيمي نفسه في كتاب سجل مؤتمر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، ص.40؛ وذلك في معرض حديثه عن عوامل نشأة جمعيّة العلماء: « ويضاف إلى هذا العامل (العامل الأوّل أفكار محمّد عبده) قراءة المنار على قلّة قرّائه في ذلك العهد واطلاع بعض النّاس على كتب المصلحين القيمة ككتب ابن تيمية، وابن القيم، والشّوكاني...». غير أنّنا نجد الإبراهيمي ينفي، هو أيضا، علاقة جمعيّة العلماء بالحركة الوهّابيّة، فيقول في معرض حديثه عن العامل الرّابع لنشأتها: « وإنّ هذه الفئة التي رجعت من الحجاز بالهدي المحمّديّ الكامل قد تأثرت بالإصلاح تأثراً خاصّاً مستمداً قوّته من وحرارته من كلام الله وسنّة رسوله مباشرة، ولم تكن قطّ متأثرة بحال غالبةٍ في الحجاز (والحال الغالبة في الحجاز إذ ذاك هي الحركة الوهّابيّة) إذ ذاك لم يكن للإصلاح في ذلك الوقت شأن يذكر في الحجاز، إلاّ في مجالسَ محدودة، وعند علماء معدودين» (م.س.، ص.42).
لكنّا نجد إشارة أخراةً قد تكون أوضح، وتتّصل بعلاقة جمعيّة العلماء بالحركة الوهّابيّة، فقد نقلت الشّهاب مقالاً نشر بمجلّة «السّمير» لإيليا أبي ماضي، أومأ فيه كاتب المقال إلى الحركة الإصلاحيّة فوصفها بالوهّابيّة. ولما نقلت مجلّة «الشهاب» هذا المقال لإعادة نشره علّقت على مصطلح «الوهّابيّة» بهذه العبارات:
« سبق الشّيخ محمّد عبد الوهاب في هذا العصر الأخير غيره إلى الدّعوة إلى الكتاب والسّنّة، وهدي السّلف الصّالح من الأمّة، وإلى محاربة البدع والضلالات فصار كل من دعي إلى هذا يقال فيه «وهابي». فلذا سمّى الكاتب الحركة الإصلاحيّة (يريد إلى جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين) بالوهّابيّة، مع العلم بأنّه لم يكن بينها وبين نجد أدنى اتّصال». (الشّهاب، ج6، م10 10 مايو1934). وانظر أيضاً صالح خرفي، الشّعر الجزائري الحديث، 69، إحالة رقم: 2.
ويعلّق صالح خرفي على رأي الشّهاب، الذي هو رأي ابن باديس قائلا: «إنّ الحركة الوهّابيّة كانت محصورة في نجد إبّان وجود الجزائريّين في الحجاز، ويوم دخل عبد العزيز مكّة كان هؤلاء قد انتقلوا إلى الجزائر».

ابن باديس في كتاباته بعامّـة، وفي مقالاتـه الافتتاحيّـة الـتي كـان يصـدّر بـها مجلّـة الشّهاب بخاصّة، لم يكن عبدويّاً، ولا وهّابيّاً؛ بمقدار ما كان مسـلماً قـويّ الإيمـان، مفكّراً عميق التّفكير في القضايـا الإسـلاميّة، التّراثيّـة والمعـاصرة، عالمـاً دينيّـاً شـديد النّزوع إلى الاجتهاد في معالجة القضايا التي كانت تساور سبيله من حيث كان فقـهاء آخرون يريدون أن يجمّدوا كلّ شيء في مكانه...

إنّ مجلّـة «الشّـهاب» مدرسـة فكريّـة إصلاحيّـة عظيمـة القيمـة، تحتـاج إلى دراسة أكاديميّة معمّقة قائمة على المقارنـة والمدارسَـة المتأنّيـة. ولم تَـكُ هـذه المدرسـة الفكريّة مبتورة الجذور، ولا جامدة الاتّجاه؛ ولكنّها كانت متحرّرة، متفتّحة، ثائرة، مستشرفةً أبداً المستقبلَ الكبير الذي كان ينتظر الشّعب الجزائريّ العربيّ المسلم. فقـد كانت تُعنَى بالاقتصاد، والسّياسة، والإصلاح الدّيـنيّ، والتّربيـة الوطنيّـة، والسّلوك الاجتماعيّ الأمثل، كمـا كـانت تُعنَـى في الوقـت ذاتـه بموضوعـات العلم والتّعليم، والأدب والتّاريخ، والحضارة والفلسفة، والاجتماع والأخلاق.

إنّنا لسنا أمام مجلّة عاديّة، من هذه المجلاّت التي لم تكن تكـاد تبـدو حتّى تختفي، لسبب أو لآخر؛ ولكنّنا نحن أمام مجلّة نَعُدّها مدرسة رباعيّة الاتّجاهـات: دينيّة إصلاحيّة، وسياسيّة متحرّرة، وفكريّة متطلّعة، وتربويّـة متأصّلـة. فكـأنّ هـذه الاتجاهات الأربعة، بأوصافها، هي التي تكوّن الاتّجاه المركزيّ لفكر ابن باديس.

السّرّ في طول عمر «الشّهاب»

لعلّ من الحقّ لكلّ باحث أن يلتمس تعليل الأشياء، ويتسـاءل عـن شـأنها؛ فيتساءل عن السّرّ الـذي كـان وراءَ طـول عمـر «الشّـهاب» مـن حيـث كـانت أعمـار الصّحف والمجلاّت العربيّـة الأخـراةِ في الجزائـر لا تبـدو إلاّ لتختفـي، ولا تولـد إلاّ

لتموت: أهو اتّجاهُها السّياسيّ المعتدل؟ أم هو اجتنابُها الخوضَ فيما كان يضايق الاستعمار ويزعجه إزعاجاً؟ وما ذا يقال في مقالة الإستقلال التي ردّ بها على فرحات عبّاس، حين قال: «فرنسا هي أنا»![23] أم كان ذلك لعلل أخراة؟

إنّ موقف هذه المجلّة مع ما كان يبدو فيه من تحفّظ في معالجة الأمور السّياسيّة في الجزائر، فإنّه كان وطنيّاً صريحاً جريئاً لم يزل يشرئبّ إلى الحرّيّة، ويستشرف السّيادة الوطنيّة، بضرْب من التّعبير أو بآخر، وبشكل من التّصريح أو بآخر. فلطالما رفع ابن باديس عقيرتَه منادياً بلعْن الاستعمار ووصْفه بالأوصاف السّيّئة التي كان أهلاً لها. ولطالما رفع سَواؤُهُ من كتّاب هذه المجلّة المجيدة أصواتهم صارخين صرخاتٍ وطنيّةً مدوّيّة كالرّعد القاصف؛ ومع ذلك فإنّ الاستعمار كان ربما غضّ الطّرْفَ عن ذلك غضّاً، وتصامّ عن تلك الأصوات، وتعامَى عن تلك الحركات، وتغابَى عن فهم غاياتها: لعلّة واحدة مركزيّة تمثّلُ في شخصيّة السّيّد محمّد بن مصطفى بن باديس، أبي الشّيخ عبد الحميد صاحب المجلّة، الذي «كان موظفاً مرموقاً في الدّولة، جعله في حصْن حصين من الضربات المباشرة»[24]. وقد كان أكّد ذلك قبله الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي فقال حول هذا الموضوع: «وكان له من وجود والده درعٌ واقية من بطش فرنسا التي لا تصبر على أقلّ من هذه الحركات. وكان لوالده مقام محترم عند حكومة الجزائر؛ فسكتت عن الابن احتراماً لشخصيّة الوالد»[25].

---

[23] ينظر ابن باديس، الشّهاب، ج1، م. 12، أبريل 1936، ص.45-46.
[24] صالح خرفي، الشّعر الجزائريّ، 76.
[25] الإبراهيمي، مجلّة مجمع اللغة العربيّة، القاهرة، ع.21، ص.141.

وعلى أنّ محمّد بن مصطفى لم يكن ثريّاً كهؤلاء الأثرياء الذين لا يسخّرون ثرواتهم إلاّ في أغراضهم الشّخصيّة؛ بل كان محمّد بن باديس وطنيّاً سريّاً، وسخيّاً حظيّاً؛ فكان بمثابة الحصن الحصين لولده وحملته الإصلاحيّة[26]...

لقد كان الشيخ الأب بالقياس إلى ابنه جُنّةً من كلّ خطر، وحجاباً من كلّ بأس. فلا عجب إذا رأيت ابن باديس يتمتّع بشيء من حرّيّة العمل، وحرّيّة القول، وحرّيّة الحركة؛ فتؤتِي حركتُه أكلَها الطّيّب، وتُعَمَّرُ مجلّته عمراً تحسده عليه صِنْواتُها اللّواتي كنّ لا يَبدُون إلاّ ليتوارَيْن وراء ظلام العدم[27].

2.التّلميذ (1931-1933؟)

كانت «التّلميذ» «مجلّة شهريّة أدبيّة أخلاقيّة».[28] وكان رئيس تحريرها بوعلام علواش، أمّا صاحب امتيازها فكان السّيّد علي سلمِي فاتح. وكانت مجلّة «التّلميذ» لسان حال الجمعيّة الوداديّة للتّلاميذ المسلمين بإفريقية الشّماليّة، التي

---

[26] يراجع ما كتبه الأستاذ محمد علي دبوز حول شخصيّة والد ابن باديس في كتابه: «نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة»، 2. 49-57. وقد فصّل الشيخ دبوز حديثه تفصيلا حول هذا الموضوع، عن هذه الشّخصيّة الفذة. وانظر أيضا حول هذه المسألة، الشّهاب، ج4، م 14، ص. 289.

[27] هناك مصادر جزائريّة، وغير جزائريّة، كثيرة تناولت مجلّة الشّهاب إمّا بالدّراسة المستفيضة، وإمّا بمجرّد الإشارة العابرة، لعل من أهمّها:
تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، 111-112 (ومواطن أخرى)؛ أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة الجزائريّة، 453؛ محمّد العيد آل خليفة، 24؛ أنور الجندي، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، 204؛ علال الفاسي، جريدة العلم، الرّباط، = 11. 9. 1971، ص.11؛ عمّار طالبي، آثار ابن باديس، مقدّمة، 1. 84-87؛ ابن باديس، الشّهاب، ج1، م 11 (الافتتاحيّة)؛ الصحافة العربيّة بين الأمس واليوم، وثيقة رقم 9، السّفارة الجزائريّة، بيروت، دجنبر 1974، ص.15و17؛ عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربيّ المعاصر في الجزائر، 91-100.

[28] أخذنا هذا التّعريف من العدد الثاني، السّنة الأولى، والصّادر في 31 ديسمبر 1931. غير أنّ المقدّمة التي كُتبت لهذا العدد تتحدّث عن أنّه العدد الأوّل، لا العدد الثاني، وهو ما كتب عليه، فالمجلّة تقول في المقدّمة بعد أن تتحدّث عن نشريّة سابقة فشلت الجمعيّة التي تأسّست عام 1918 في تسويقها: «...ففكرنا في إصدار مجلّة شهريّة تكون أرخص وأنفع؛ وها نحن نشرع في العمل، متكلين على الله وعلى إخواننا الجزائريين» العدد الثاني؟، ص.1، من القسم العربيّ. ونحن نفترض أنّ العدد الأوّل صدر بالفرنسيّة فقط، ولعل هذا الافتراض أن يحل الإشكال الذي أومأنا إليه.

كان مقرّها بنادي التّرقّي التّاريخي[29]، والتي كـان رئيسـها الشّرفيّ فرحـات عبّاس[30]. وكان شعارها: «اطلبوا العلم ولو بالصّين». وكانت تُطبع بالمطبعة العربيّة في الجزائر. وكانت تصدر بالعربيّة والفرنسيّة في مجلّد واحدٍ. وكان طبعها أنيقاً، وورقها صقيلاً.

ويستميز العدد الأوّل من هذه المجلّة بنشر قصيدة لمصطفاي عبـد الرّشـيد كـان ألقاها بنادي السّعادة بتلمسان، وهي بعدُ في وصف تلمسـان تقـع في أربعـة وخمسـين بيتاً، مطلعها:

مالي أحِنّ لكم شوقاً، تلمسانُ؟ كما يحنّ إلى الفردوس رُهبانُ[31]

ويختمها بقوله:

وعْدٌ من اللّهِ ليس اللّه يُخلفه أم هل عراكُم لأمر اللّه نِسيانُ؟

إن تنصروه فإنّ اللّه ينصركم وليس للمرء دون اللّه مِعْـوانُ[32]

وكانت هذه المجلّة لا تزال تصـدر، (وقـد رأينـا منـها العـدد السّـادس، بعـد الثاني)، والتّاريخ يكتب شهر أبريل 1933: فكم عُمِّرت؟ ومتى توقّفـت؟ ليـس لدينـا الإجابة في الوقت الرّاهن.

3. الفضيلة (البليدة، 1935)

مجلّة شهريّة مغمورة قصيرة العمر، وقد صدرت في 14 أكتوبـر 1935. وكـانت مجلّة تعنى بالقضايا الاجتماعيّة والاِقتصاديّة. وقد أصدرهـا موسـى خـدّاوي. ولعلّـها

---

[29] عثرنا على إشارة نشرت في مجلّة التلميذ، ع.2، ديسمبر 1931، ص.7 أنّ رئيس نـادي التّرقّي إلى نهاية سنة 1931 كان يسمّى: الحاج امحمّد المانصالي. وقد نُعِيَ لقرّاء التلميذ.

[30] م.س.

[31] التلميذ، ع.2، ديسمبر 1931، ص.5،6،7. عن ناصر، م.م.س.، ص.188-189.

[32] م.س.، ص.7.

كانت طرقيّة الاتّجاه؛ ويدرَك ذلك من تهنئة جريدة «البلاغ الجزائريّ» إيّاها بالصّدور.[33]

والحقّ أنّ مقدّمة العدد الأوّل تدلّ على أنّ هذه الجريدة كانت دينيّة محافظة قبل كلّ شيء. ولا نعرف متى توقّفت. غير أنّ خمول ذكْرها يدلّ على أنّه لم يصدر منها إلاّ قليل من الأعداد.

4.العبقريّة (ندرومة، 1947-1947)

مجلّة شهريّة أصدرها عبد الوهّاب بن منصور بمدينة ندرومة في شهر جمادى الآخرة 1366 للهجرة الموافق شهر مايو 1947. وهو الذي كان مديراً لمدرسة جمعيّة العلماء بمدينة ندرومة إلى أن التحق بالمغرب في سنة 1956. وقد وقع لنا منها ثلاثة أعدادٍ (الأوّل، والثاني، والثالث). وقد يكون العدد الثالث هو الأخير. ولعلّ عبد الوهّاب بن منصور أصدر مجلّة «العبقريّة» حين لم تكن أيّة جريدة لجمعيّة العلماء تصدر في تلك الأثناء؛ فلمّا استأنفت «البصائر» صدورها في خامس وعشرين يوليوز 1947 وَقَف ابن منصور مجلّته ليتفرّغ للكتابة في جريدة الجمعيّة (ولعلّ ذلك كان بتكليف من الإبراهيميّ رئيس الجمعيّة ورئيس تحرير »البصائر») حيث كان عضواً نشيطاً فيها بالتّدريس في ندرومة، وبالكتابة التّاريخيّة والأدبيّة، وبنشر القصائد الشّعريّة أيضاً في «البصائر» حيث نلفي له كثيراً من الإسهامات.[34]

وكانت الغاية من تأسيس هذه المجلّة الجميلة نشر «الآداب والعلوم والفنون». وكانت تطبع بمطبعة ابن خلدون بتلمسان. وكانت موضوعاتها متنوّعة، غير أنّها لم

33 انظر جريدة البلاغ، ع. 343 في 15. 11. 1935.

34 أخبرني الدّكتور محمّد مصايف أنّ الإبراهيمي حين جاء إلى مغنية ليفتتح مدرسة جمعيّة العلماء، في أواخر العقد الخامس من القرن العشرين أنشد عبد الوهاب بن منصور قصيدة طويلة جداً بالمناسبة، فخاطبه الإبراهيمي وقد خفض صوته: أوجز، أوجز!

تكن تبتعد عن الموضوعات الأدبيّة. خذ لذلك مثلاً موضوعات العدد الثاني (يونيو 1947) نجدها تعالج: «خطاب جلالة سلطان المغرب بطنجة»، «على هامش الذكرى لعبد الوهاب بن منصور»، «العقيدة الإسلاميّة» لعبد الحميد بن باديس (إعادة نشر؟)، «ذكريات من بعيد» لأبي مدين الشّافعيّ، «أين البقاء»؟ (قصيدة لبكر بن حمّاد)، «شبل ابن باديس» لمحمّد الصّالح رمضان، «حيّ الجزائر» لمصطفى خريف...

وكان ابن منصور يتّبع في ترقيم صفحاتها طريقة ابن باديس في الشّهاب؛ بحيث كان يبتدئ ترقيم صفحات العدد الثاني من حيث ما كان انتهى إليه العدد الأوّل، والعدد الثالث من حيثما كان انتهى إليه العدد الثاني. وكان عدد صفحات العدد الأوّل اثنتين وثلاثين صفحة، وانتهى التّرقيم بالقياس إلى العدد الثاني في صفحة أربعٍ وستّين. وانتهى عدد صفحات العدد الثالث في ستٍّ وتسعين.

5. إفريقيا الشّماليّة (الجزائر، 1948-1949)

مجلّة شهريّة أصدر العدد الأوّلَ منها إسماعيل العربيّ في شهر مايو من عام 1948 بالجزائر.[35] وأمّا تاريخ توقّفها فإنّنا نجهله بالتّدقيق، بالقياس إلى الشّهر، ولكنّنا نعرفه بالقياس إلى السّنة، وهي سنة تسعٍ وأربعين وتسعمائة وألفٍ.

وقد أتيح لنا الاتّصال بصاحبها الأستاذ إسماعيل العربيّ في صيف سنة 1973 بمدينة تيزري وزو فأكّد لنا بأنّ ما صدر منها لا ينبغي أن يجاوز خمسة أعداد، على أقصى تقدير. وأكّد لنا ذلك تارة أخراةً بوهران، وأحسب ذلك كان إمّا عام 1985، وإمّا عام 1986.

---

[35] كنّا من قبل ذهبنا في كتابنا «نهضة الأدب العربيّ المعاصر في الجزائر»، ص.106 إلى أنها صدرت في سنة تسعٍ وأربعين، وهو خطأ أوقعنا فيه قلّة المصادر الكافية حين تحرير مادّة ذلك الكتاب.

وقد بدا لنا، من خلال الأعداد الثلاثة (الأوّل، والثالث، والرّابع) التي وقعت لنا أنّها لم تكُ منتظمة الصّدور، وأنّها لم تكن تصدر قطّ شهريّاً؛ بل كانت تصدر فصليّاً. أرأيت أنّ العدد الأوّل منها صدر في مايو 1948، ولم يصدر العدد الرّابع إلاّ في مايو أيضاً من سنة تسع وأربعين.

وقد بدا لنا أيضاً أنّ العدد الأوّل كان أرقى وآنق من العدد الرّابع الذي أخذت الشّيخوخة المبكّرة تدبّ إليه، وتزحف نحوه؛ لتُذويَ عمرَ هذه المجلّة الثقافيّة. وقد يدلّ ذلك على أنّ مجلّة «إفريقيا الشّماليّة» ظلّت تكابد الضّائقة الماليّة من لدن نشأتها إلى يوم اختفائها. وقد كانت السّلطات الاِستعماريّة تمنعها حقّها من الورق.[36] ولقد ازْدَفَّ إسماعيل العربيّ إلى قرّاء مجلّة «إفريقيا الشّماليّة» «نبأ قُرْبِ ظهور العدد الثالث، على أن تواليَ بعد ذلك صدورَها بشكل منتظم، وهي أكثر قوّةً ممّا كانت عليه في الماضي»[37].

والذي يعود إلى هذه المجلّة يقتنع بأنّها كانت تتوجّه توجّها ثقافيّاً عامّاً؛ وآيتُنا على ذلك ما ألفيناهُ من عناوينَ للمقالاتِ التي نشرتْها في عددها الأوّل؛ فمن تلك المقالاتِ:

* الحلقة المفقودة، لإسماعيل العربي؛
* حرب الثلاثمائة سنة، لأحمد توفيق المدنيّ؛
* موكب الرّبيع، لكاتب رمز لنفسه بحرف «س»، ومقالته جيّدة؛
* أدباء المظهر، لأحمد رضا حوحو (وهي مسرحيّة هزليّة)؛

بالإضافة إلى موضوعات أخراة مترجمة عن مالك بن نبيّ، وفكتور هيجو.

---

[36] راجع مقالة كتبها إسماعيل العربيّ، صاحب المجلّة، حول الصّعوبات التي كانت تساور طريق هذه المجلّة، ونشرها في البصائر الثانية، ع. 51 في 27. 9. 1948، ص.8. وأمّا عن الصّعوبات الماليّة فيمكن مراجعة إفريقيا الشّماليّة، ع.4 في مايو 1949 (ظهر الغلاف الأخير).

[37] م.س.

وقد بلغ عدد صفحــات العـدد الأوّل اثنتـين وستّين، وعـدد صفحـات العـدد الرّابع ستّاً وأربعين فقط.

غـير أنّ كتّابـها ظلّوا في المستوى الأوّل؛ فبالإضافـة إلى صاحبــها إسمــاعيل العربيّ، وحوحو، والمدنيّ، فقد ألفينا أحمد سحنون هو أيضاً ينشر فيها. وكان هؤلاء جميعاً ينشرون في جريدة «البصائر» التي كانت أرقى جريدة عربيّة تصدر بـالجزائر في تلك الأثناء.

ويعرض إسماعيل العربيّ للأسـباب الـتي حملتـه علـى إصدار هـذه المجلّـة، والظّروف التي نشأت فيها فيكتب في مقدّمة العـدد الأوّل، تحـت عنـوان: «الحلقـة المفقودة»، قائلاً:

«(...) أمّا بعد، فإنّ هذه المجلّة هي وليدة الظّروف النّفسيّة والاجتماعيّة الـتي تمرّ بها بلادنا؛ وهي لذلك وليدة الضّرورة. لم يكـن مـن الممكـن أن تولـد قبـل الآن؛ ونعتقد أنّها لو ولدت بعد الآن، لجـاءت متـأخّرةً لسـدّ فـراغ محسـوس في الصّحافـة العربيّة في الجزائر. وهذا الإعتبار الأخير هو الذي دفعنا إلى تنفيــذ الفكـرة الخـاطرة، وإبراز هذه المجلّة إلى حيّز الوجود بحماسة أو شكتْ أن تكون إسرافاً في التّفاؤل»![38]

وقد كان الأستاذ محمّد البشـير الإبراهيمـي قـرّظ هـذه المجلّـة فلاحـظ انعـدام المجلاّت العربيّة أو قلّتها في الجزائر منذ احتجبت مجلّة «الشّهاب» الباديسـيّة عـن الصّدور؛ يقول الأستاذ: «لم يزل مكان المجلاّت العربيّــة في وطننـا فارغـاً؛ ولم يـزل تطلّع القرّاء إليها شديداً؛ منذ احتجبت مجلّة «الشّهاب» وضعف الرّجاء في عودتـها إلى الظّهور؛ حتّى صدرت مجلّة «إفريقيا الشماليّة» فسدّتْ بعـض الفـراغ، وأنعشـت

[38] إسماعيل العربي، إفريقيا الشّماليّة، ع.1، ص.1.

بعض الأمل وأرتنا مثالاً من تغلّب الهمّة على الصّعوبة، وانتصار العزيمة على القنوط».[39]

وقد لاطف الإبراهيمي هذه المجلّة وصاحبها الذي كان أحد أعضاء جمعيّة العلماء فقال: «صدر من المجلّة الجزءان الأوّل والثاني في هيأة لطيفة، وروح أدبيّة خفيفة، وبداية تدلّ على أنّها سائرة إلى غايات شريفة».[40]

6.صوت المسجد (الجزائر، 1948-1949)

«مجلّة شهريّة دينيّة علميّة أدبيّة اجتماعيّة تاريخيّة أخلاقيّة».[41] وكانت هذه المجلّة «لسان حال رجال الدّيانة الإسلاميّة في القطر الجزائريّ»[42]. وكان مديرها وصاحب امتيازها المسؤول عنها ورئيس تحريرها، جميعاً، هو محمّد العاصميّ رئيس الجمعيّة الوداديّة لرجال الدّيانة الإسلاميّة في الجزائر.

وقد صدر العدد الأوّل من هذه المجلّة الدّينيّة في مطلع ذي الحجّة سنة 1367 للهجرة الموافق فاتح مايو 1948. وكانت تُحلّى بآيات قرآنيّة مختلفة مثل قوله تعالى: «في بيوتٍ أذِن اللّهُ أن تُرفعَ ويُذكَرَ فيها اسمُهُ يسبِّحُ له، بالغدوّ والآصال، رجالٌ لا تُلْهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر اللّه وإقَامِ الصّلاةِ وإيتاءِ الزّكاة».[43]

وكانت تُطبع بالمطبعة العربيّة بالجزائر، وهي التي أسّسها إبراهيم أبو اليقظان في سنة 1931. وقد وقع لنا من هذه المجلّة زهاء عشرة أعداد فتأمّلناها كلّها، فألفيناها تنتهج نهجاً دينيّاً في اتّجاهها؛ ولكن بطريقة تمالئ المحتلّين

---

39 البصائر الثانية، ع.64 في 23 أوت 1948. (وكُتِب هذا التّقريظ دون إمضاء).

40 م.س.

41 كانت هذه الأوصاف كلّها تُكتب في صدر غلافها.

42 كانت هذه العبارة تكتب، هي أيضاً، بين مزدوجين تحت عنوانها أيضاً.

43 سورة النّور، الآية37.

الفرنسيّين، وتنضح عنهم، بل لم تجد غَضاضة في اعتبارهم حُكّاماً شرعيّين يقارَنون بأيّ حاكم عربيّ مسلم شرعيّ![44] وكان أصحاب هذه المجلّة يحرصون على مناوأة جمعيّة العلماء على أساس أنّها تحسدهم ما كانوا فيه من آلاء في وظائفهم الدّينيّة التي عيّنتهم فيها السّلطات الاِستعماريّة، حيث كانوا يمارسون الدّين بحكم الوظيفة...[45]

غير أنّ هذه المجلّة، مع ذلك، تكتسي أهمّيّة تاريخيّة كبيرة؛ وذلك من حيث إنّها تُبرز لنا الوجه المخفيّ من نشاط العلماء؛ فقد كانت تقفو خُطواتهم، وتَقُصُّ آثارهم في كلّ ما كانوا ينهضون به؛ لتنصبَّ عليهم، من بعد ذلك، بالانتقاد الذي يبدو لنا أنّه ربما لم يكن نزيهاً. وأكثر من ذلك أنّهم كانوا يعتقدون أنّهم يستطيعون مباراة الإبراهيميّ في الكتابة، فلم يكونوا موضوعيّين! وكان العاصميّ يكتب مقالات، في «صوت المسجد»، عنيفة، يتهجّم فيها على الإبراهيمي؛ فكان كثيراً ما يزعم أنّ الشّيخ كان يُحسن فنّ التّهريج! ولكنّه كان يعترف بأدبيّة أسلوب الإبراهيمي. وكان العاصمي يزعم أنّ الإبراهيميّ «يستعمل في ميدان النّقد (يريد الشّيخ إلى الانتقاد) أسلوبه الأدبيّ الرّوائيّ الذي يطلق فيه العنان لخياله، وهو فنّ يلتجئ إليه محرّرو الأشرطة (الأفلام) السنيمائيّة» (كذا كُتبت)[46]. وكانت لغة الشّيخ العاصميّ الذي كان يُعْنت نفسه أشقّ الإعنات في استعمالها في مقالاته لا ترقى، في رأينا، إلى مستوى الأدبيّة الطّافحة التي كانت تنضح من لغة الإبراهيميّ، فكانت الرّدود عليه خاسرة من أصلها، وقاصرة من أساسها[47]!

---

[44] ينظر محمّد العاصميّ، صوت المسجد، ع. 3، ديسمبر 1948، ص. 4؛ وانظر الإبراهيمي في ردّه عليه، البصائر، ع.87، في 18. 7. 1947، الافتتاحيّة.

[45] العاصمي، م.س.

[46] العاصمي، صوت المسجد، ع. 3، ديسمبر 1948، الصّفحة الباطنة للغلاف، العمود الثاني.

[47] ينظر صوت المسجد، ع.3، ص.1-8.

وهاك نموذجاً لنوع الموضوعات التي كانت هذه المجلّة تنشر، مُسْتَنْسِخينَها من عددها الأوّل:

1.الفاتحة، بقلم محمّد العاصمي (رئيس التّحرير)؛ 2.تفسير القرآن العظيم، (بقلمه أيضاً)؛ 3.شرح الحديث الشّريف (بقلمه أيضا)؛ 4.العلْم والقرآن (الإدارة!)؛ 5.مساجلات رجال الدّين؛ 7.قصيدة في تحيّة المجلّة لأبي النّصر؛ 8.نبذة عن تاريخ مسجد رمضان بمدينة الجزائر (بقلم «شابّ»).

وقد تطوّرت هذه المجلّة حين دخلت سنتها الثانيةَ حتّى في شكل كتابة عنوانها؛ ثمّ تضخّمت موادّها نسبيّاً، فأصبحت تنشر شيئاً تسمّيه «قصّة الشّهر»، وإن كنّا نجد ذلك في العددين: الثامن والتّاسع أيضاً.

وكان محمّد العاصميّ، مارَسَ مهنة الصّحافة قبل أن يؤسّس «صوت المسجد»؛ فقد كان يحرّر موضوعي «المجتمع الجزائريّ»، و«آثار وأفكار» في مجلّة «الشّهاب» لابن باديس لمدّة ستّ سنوات.[48]

وكانت هذه المجلّة مجالاً خصيباً لأقلام أدباء جمعيّة العلماء تعمل فيها بالانتقاد، وتنصبّ عليها بالسّخريّة، وتقذفها بالحُمم، وترميها بالشّظايا المحرقة. وقد كتب حولها الإبراهيميّ فلم يقصّر! كما كتب أحمد رضا حوحو مقالة نقديّة لاذعةً حول هذه المجلّة وصاحبها تحت عنوان: «حمار الحكيم و«صوت المسجد»!»[49].

وأهمّ ما كُتب في قدْحها مقالة الأستاذ الإبراهيمي الذي يقول في بعضها: «صوتٌ أذِنَ الله أن يُخفض، لأنّه مؤلّفٌ من غير مقاطع الحقّ، خارج من غير مخارج الصّدق؛ ناشز عن مجاريه الأصليّة، مندفع من غير حنجرته الطّبيعيّة.

[48] ينظر محمّد العاصميّ، صوت المسجد، م.3، دجنبر 1948، ص.2.
[49] راجع البصائر، ع.68 في 21. 2. 1949، ص.6.

وكما أن صاحب هذا الصّوت مترجَم من المالكيّة إلى الحنَفيّة، ومنقول من العامّيّة إلى الخاصّيّة، ومن الشّارع إلى الوظيفة؛ فإنّ كلمة «صوت»، هاهنا، مترجمة عن كلمة «لافْوا» (La voix) الشّائعة في أسماء الجرائد (...). ولا نشكّ في أنّ مآل هذا الصّوت هو مآل تلك الأصوات التي لم ترتفع إلاّ لتنخفض، ولم تتعالَ إلاّ لتتسفّل. ولأمرٍ ما يتهافت أقوام على هذه الكلمات التّقليديّة فلا يضيفون كلمة صوت، إلاّ لِما هو في سياق الموت!

ويختم الإبراهيميّ هذه المقالة الملتهبة بقوله: «وقد سمعت البارحةَ شيطان رؤبةَ يُنشد أرجوزةً في تقريظ المجلّة وصاحبها؛ وخانتني الحافظة فلم أحفظ منها، مع الأسف، إلاّ قوله:

ألم تَرَوا ما قالهُ في الأعرج؟[50] فكلّ ذاك خارجٌ من مخرَجي

فحسْب قرّاء المجلّة لذةً أنّ ما فيها خارجٌ من مخرج الشّيطان! فليذوقوا، أو فليتركوا!».[51]

7. المرشد (مستغانم، 1946-1950؟)

«مجلّة إسلاميّة دينيّة دفاعيّة إخباريّة تصدرها جماعة من المؤمنين على رأس كلّ شهر قمريّ».[52] وقد زعم أديب مروة أنّ هذه المجلّة كان يصدرها الشيخ زين محمد الهادي. وقد ظلّت تصدر حتّى تُوفّيَ صاحبها في سنة 1952

وقد صدرت هذه المجلّة البسيطة في لغتها التي تقترب من العامّيّة، وفي أفكارها التي تقترب من الأفكار الشّعبيّة، في نحو شهر غشت 1946.[53] وقد رأيت

[50] لعلّه يريد بقوله: «الأعرج» إلى شخصه نفسه، ولكنّه ربط قول خصمه بأنّه لم يخرج إلاّ من مخرج الشّيطان، وهذه صورة غاية في القبح، وبراعة في تبكيت الخصم.

[51] الإبراهيمي، البصائر، ع. 65، في 31 يناير 1949.

[52] أخذنا هذا التّعريف من عددها الثامن، مارس 47.

مجموعتها الكاملة، بواسطة أحد «فقراء» الطّريقة العلويّة أتى لي بها من مستغانم، ولكنّه كان عجلاً إلى إعادتها إلى الزاوية فلم يمكّني منها، فلم أفِدْ من ذلك إلاّ أنّه صدر منها ثمانيةٌ وأربعون عدداً.

وأمّا العدد الثامن الذي أمتلكه منها، فلاحظت أنّ الذي كان يُصدر هذه المجلّة على عكس العبارة التي كُتبت في صدرها، والتي أثبتناها بين علامَتَيِ التّنصيص، إنّما هو «إزارْد ألفونص» الملقّب عبد اللّه رضا.

وأمّا صاحبها فكان، كما حدّث بذلك الشّيخ البوديليميّ في جلسة له خاصّة بتلمسان في شهر فبراير 1973، مستشرقاً ألمانيّاً، وكان يُقيم بمدينة مستغانم. وكان قد اتّخذ لنفسه لحية طويلة بيضاء. وكان يحاول أن يجعل من نفسه شيخ طريقة صوفيّة. وكان كثير الاِتّصال برجال السّلطة الاِستعماريّة في كلّ من الجزائر، وشرقيّ المغرب حيث كان كثير الاِختلاف إلى مدينة وجدة...

وكانت هذه المجلّة البسيطة تصدر باللّغتين العربيّة والفرنسيّة. وكان طبعها رديئاً بحيث يعسر على القارئ قراءة ما كُتب لاِنْطمَاسِ الحروف.

وقد عدنا إلى العدد الثامن الذي أوقعنا عليه الشّيخ فندي عبد العزيز البوديليميّ بتلمسان، فتصفّحناه، فألفيناه ركيك الأسلوب، سقيم اللّغة، يعبّر بصدق عن هوى صاحبه ألفونص وحقده على العرب في المغرب العربيّ؛ والآية على ذلك تلك المقالةُ السّخيفة التي كُتبت في هذه المجلّة عن الأميرة عائشة، ابنة محمّد الخامس، تحت عنوان: «نتائج المدرسة العصريّة».[54] فقد انتقد فيها صاحبُها انتقاداً شنيعاً نهضة المرأة المغربيّة في شخص الأميرة!...

---

[53] انظر أديب مروة، تاريخ الصّحافة العربيّة، ص. 395. والعدد الذي بين يدينا صاحبه إزار ألفونص المدعو عبد الله رضا. كما أنّ الثّانية والأربعين عدداً تقابل في الزمان ثمانية وأربعين شهراً، ممّا يحمل على الافتراض بأنّ المجلة ربما تكون توقّفت في زهاء سنة 1950.

[54] انظر المرشد، ع.8، مارس 1947، ص.8-9.

وتحثّ هذه المقالة المرأة المسلمة على الإخلاد إلى الجهل، وعدم اختلافها إلى المدرسة، وذلك حتّى يظلّ الإسلامُ، في رأي صاحبها، إسلاماً حقيقيّاً!...

8.الحياة (الجزائر، 1950-1960؟)

كانت مجلّة «الحياة» تصدر عن هيئة الكشّافة الإسلاميّة الجزائريّة. وقد وصفت «البصائر» الثانية عدداً من هذه المجلّة فكتبت: «أهدت إلينا الكشّافة الإسلاميّة الجزائريّة عدداً ممتازاً من نشرتها «الحياة» فألفيناه حافلاً بالمواضيع القيّمة التي تتّصل بحياة الشّباب اتّصالاً متيناً، وتمَسّ حركاتِه ومنظّماته ونشاطَه، وإعدادَه لخدمة المجتمع إعداداً يَصله بماضيه المجيد، من غير أن يقطع به الصّلة بحاضره ومستقبله.

وإصدار النّشرة باللّغتين [العربيّة والفرنسيّة] لاشكّ أنّه تقاضى إدارة الكشّافة جهوداً جبّارة، وإنّا لنشكرها على جمعها في خدمتها للشّباب بين تربيته الجسميّة والفكريّة».[55]

وكانت هذه النّشرةُ «مجلّة كشّافيّة تصدر كلّ شهرين، لسان حال الكشّافة الإسلاميّة الجزائريّة».[56]

وكان رئيس تحرير هذه المجلّة الكاتب المعروف محمّد الغسيريّ. وكان يساعده في تحريرها محمّد الصّالح رمضان. وقد وقع لنا منها بضعة أعداد متفرّقة أعثرني عليها رجلٌ كريم زرتُه ببيته والأستاذ رمضان، بمدينة تيزي وزو، وذلك بمناسبة انعقاد أحدِ مؤتمراتِ الفكر الإسلاميّ هناك، ولكنْ ذهب عنّي اسمه وأنا لذلك حزين. وكان ذلك في صيف سنةِ ثلاثٍ وسبعين وتسعمائة وألفٍ. وكان محمّد

---

[55] البصائر، ع.165 في 30. 7. 1951، ص.7، عمود2، تحت عنوان: «بريد البصائر».
[56] نقلنا هذا التّعريفَ من عدد مايو- يونيو 1954.

الصّالح رمضان ينشر في هذه المجلّـة مقالات ومحـاولات قصصيّـة، منـها أقصوصتـه الرّمزيّة التي نشرها تحت عنوان: «القافلة».[57]

وقد تبيّن لنا أنّ هـذه المجلّـة تطـوّرت تطـوّراً كبـيراً؛ ففـي حـين نجـد أحـد أعدادها الذي صـدر في سـنة إحـدى وخمسـين محـرّراً في معظمـه باللّغـة الفرنسيّة، والجانب الذي خُصّص للعربيّة لا يشـتمل إلاّ علـى كتابـة ضعيفـة، وطبعٍ رديء[58]، نُلفي الأعداد التي صدرت بعد ذلك جميلة الإخراج، حسنة الطّبـع، راقيـة المستوى من حيث الطّرح، نقيّة اللّغة مـن حيـث الأسـلوب؛ وذلـك كـالعدد الـذي نجـد فيـه مقالاتٍ عالية القيمة، منها: «الجزائر بين عهدين» للشّيخ حَفْناوي هالي، و«الكشّافة الجزائريّة في مصر» لمحمّد الغَسِيري.[59]

ونأتي إلى العدد الذي صدر بعده فنلفيه على ما خرج عليـه الـذي سبقه مـن جمال الإخراج، ونقاوة اللّغة، وتنوّع الموضوعات، ورقـيّ مستوى الطّـرح. ولعـلّ مـن أحسن مقالاته: «انتباهة الضّمير في أحضـان الطّبيعـة» لحفنـاوي هـالي، و«شـهرزاد للأستاذ توفيق الحكيم» لمحمّد الجيجليّ. كما نجد في هذا العدد قصّة وطنيّـة رمزيّـة لمحمّد الصّالح رمضان عنوانها: «القافلة» (وقد سبقت الإيماءة إليها)؛ وقصيدة داليّـة لمحمّد الأخضر السّائحيّ الكبير بعنوان: «تحيّة الشّعر للفنّ». وهي قصيدة حـاول أن يصوّر فيها سروره وإعجابه بفرقة التّمثيل العربـيّ الـتي كـان يرأسـها محمّـد الطّاهر فضلاء، بعد أن كانت عرضت مسرحيّة بمدينة الجزائر في نهاية سنة ثلاثٍ وخمسين وتسعمائة وألفٍ.[60]

---

57 م.ص. رمضان، في الحياة، عدد مايو-يونيو 1954، رقم 2، ص.12-15.

58 ينظر العدد رقم 5 (سنة 1951-1952) حيث لا نصادف في هذا العدد إلاّ اثنتي عشرة صفحة مكتوبة بالعربيّة، وباقي المجلّة مكتوب بالفرنسيّة.

59 الحياة، عدد مارس-أبريل، 1954.

60 الحياة، عدد مايو-يونيو 1954.

وأمّا العدد الأخير في آخر المجموعة القليلة التي وقعت لنا، وقد صدر في مايو_يونيو 1955، (ولعلّه العدد الأخير في حياة هذه المجلّة) فإنّنا ألفيناه جميل الشّكل، بديع الهيئة. وأرقى منه مقالاتُه التي منها: «بين العقيدة والخبز» لحفناوي هالي؛ و«بين العمل، والأمل» لكاتب رمز لنفسه بحرفيّ: «ع. م»؛ و«حول رحلتنا إلى الشّرق» لمحمّد الطّاهر فضلاء، وقد عالج في هذه المقالة قضيّة الفن المسرحيّ في الجزائر وما كان يساوره في تلك الفترة من مشاكل وصعوبات.

يبقى علينا أن نتساءل: متى صدرت مجلّة «الحياة» بالتّحديد الزّمنيّ الدّقيق؟ لقد ألقينا هذا السّؤال على مجموعة من شيوخ العلماء، في الأعوام السّبعين من القرن العشرين، ومنهم محمّد الصّالح رمضان الذي اعتذر عن الإجابة عن ذلك بما أصاب ذاكرتَه من خَرَع، وأنّه لم يعُد يضبط الحوادث البسيطة بالأرقام الدّقيقة، مع أنّه كان أحد محرّري هذه المجلّة. غير أنّنا نستطيع أن نقول على سبيل الاِفتراض والاحتمال، لا على سبيل اليقين:

1. إنّها صدرت حَوالَ منتصف القرن العشرين؛

2. إنّها كانت تصدر أوّل أمرها سنويّة؛[61]

3. إنّها لم تكن منتظمة الصّدور على الرّغم من أنّنا نجد في صدر الأعداد الأخيرة أنّها كانت تصدر كلّ شهرين؛

4. إنّ صدورها كلّ شهرين، إنِ تحقّق، فكان يقع غالباً في فصل الرّبيع؛

5. إنّها توقّفت، غالباً، في سنة خمسٍ وخمسين، أو سِتٍّ وخمسين، على أقصى احتمال؛ وذلك على أساس أنّ كلّ الهيئات والمنظّمات والجمعيّات الوطنيّة، في الجزائر، توقّف نشاطها ابتداءً من ربيع سنة ستٍّ وخمسين بفعل تزايد اضطهاد الاِحتلال الفرنسيّ لها. يضاف إلى ذلك أنّ محمّداً الغسيري الذي كان يرأس

---

[61] انظر صدر العدد رقم6، السّنة 51–52.

تحريرها، ويشرف على شؤونها الإداريّة في الوقت ذاته، غادر الجزائرَ إلى فرنسا، ثمّ إلى دمشق خلال سنةِ سبعٍ وخمسين وتسعمائة وألف.[62]

ويبدو من بعض ما عرضنا من المقالات التي كانت تنشرها مجلّة «الحياة» أنّها استطاعت أن تُسْهم في إنعاش الثقافة الوطنيّة في تلك المرحلة؛ وأنّ اتّجاه هذه المجلّة كان تربويّاً أخلاقيّاً دينيّاً أدبيّاً معاً، ولم يكُ سياسيّاً. وأنّها كانت تشبه مجلّة «إفريقيا الشّماليّة»، وحاولت تعويضها من حيث لم تكن تريد. غير أنّ الحياة تمتاز عنها بكونها تُعنى بقضايا الشّباب، والرّحلات، بالإضافة إلى القضايا الأدبيّة التّقليديّة.

لقد استطاعت مجلّة «الحياة» أن تسدّ فراغاً ثقافيّاً، فتُحييَ نفوساً جامدة، وتوقظ مشاعرَ خامدة، على مدى قريب من سبعِ سنوات؛ وأن تظلّ، أثناء ذلك، منبراً للتّعبير، ومِشعلاً للتّفكير، وأداةَ تواصلٍ بين كهول الكتّاب، وشباب القرّاء.[63]

<><><><><><><>

62 استقينا هذا من وثيقة خطّيّة أرسلها إلينا الأستاذ محمّد الصالح رمضان، في 28 مايو 1974.

63 تعمّدنا الإسهاب في الحديث عن هذه المجلّة لأنّ أحداً لم يسبقنا إلى الحديث عنها، فيما نعلم، فقدّمنا كلّ ما استطعنا تقديمه عنها من معلومات.

مصادر ومراجع[64]

آل خليفة، محمد العيد، ديوانه، نشر الشّركة الوطنيّة للنشر والتّوزيع، وزارة التّربية الوطنيّة، الجزائر، 1967.

آمال، (مجلّة): الشّعر الجزائريّ المعاصر، رقم1، (شعر ما قبل الاِستقلال)، (د.ت –الأعوام السّبعون) (240ص.). (وجُمعت نصوص شعريّة لثلاثة وعشرين شاعراً).

ابن خلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمّد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1971.

ابن منظور، لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت، (د.ت).

ابن هشام، جمال الدّين بن يوسف، مغني اللّبيب، عن كتب الأعاريب، تحقيق وطبع محمد محي الدين عبد الحميد، (د.ت).

الإبراهيمي، محمد البشير، مدارس جمعيّة العلماء، في البصائر، ع. 93، الصّادر في 31 أكتوبر 1949.

الإبراهيمي، محمد البشير، معهد عبد الحميد بن باديس، في البصائر الثانية، ع.90، 1949.

الإبراهيمي، محمّد البشير، سجلّ مؤتمر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، (مقدّمة طويلة تقع في سبعين صفحة)، قسنطينة1936.

الإبراهيمي، محمّد البشير، عيون البصائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، 1987.

[64] هناك مراجع لم نحل عليها في الكتاب، ولكنّنا اطّلعنا عليها فأوجبت الأمانةُ العلميّة ذِكرَها.

الأمير محمّد بن عبد القــادر، تحفـة الزّائـر، في تـاريخ الجزائـر والأمير عبد القادر، دار اليقظة العربيّة، 1964.

البخـاري، محمـد بـن إسمـاعيل أبـا عبـد اللّـه البخـاري المتوفّى سـنة 256 للهجرة، الجامع الصّحيـح المختصـر، نشـر دار ابـن كثـير ، بـيروت، 1987، ط.3. تحقيق مصطفى ديب البغا.

البلاغ الجزائريّ، (مستغانم، الجزائر)، أعداد مختلفة.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بــن بحـر، كتـاب الحيـوان، تحقيـق عبد السّلام هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، ط.3، 1968.

الجرجاني، علي بن عبـد العزيـز، الوسـاطة بـين المتنبّـي وخصومـه، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط.4، 1966. (تحقيـق محمـد أبـي الفضـل، وعلي محمد البجاوي).

الجندي، أنور، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، القاهرة، 1965.

الحمداني، أبو فراس، ديوانه، دار بيروت للطّباعة والنّشر، 1979.

«الخبر» اليوميّة الصّادرة في عاشر أكتوبر 2002، ص.7.

الرّشاد، (جريدة أسبوعيّة)، الجزائر، أعداد مختلفة.

الزاهري، محمد السّعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، طبع بدمشق، وصدرت الطّبعة الأولى منـه عـام 1348 للـهجرة، والثانيـة عـام 1352 (1933)، ووزّع بالجزائر.

الزّمخشريّ، جاد اللّه محمود بن عمر، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوه التّأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت).

الزوزني، شرح المعلّقات السّبع، دار بيروت للطّباعة والنّشر، بيروت، 1986.

السّائحي، محمّد الأخضر عبد القادر، روحي لكم (مختارات من الشّعر الجزائريّ المعاصر؛ وفيه نصوص مختارة لخمسة وعشرين شاعراً)، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1986 (231ص.).

السّائحي، محمّد الأخضر (الكبير)، همسات وصرخات، نشر المطبوعات الوطنيّة الجزائريّة، الجزائر، 1965، (165-173ص.). (وليست الشركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، كما زعمت الوثيقة).

السّنّة المحمّديّة، قسنطينة، جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، أعداد مختلفة منها.

السّنوسيّ، محمّد الهادي الزّاهريّ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، جزءان، (مختارات شعريّة): صدر الجزء الأوّل ويشتمل على تراجم ومختارات شعريّة لعشرة شعراء عام 1345هجريّة (وقد وقع وهم في كتابة تاريخ السّنة الهجريّة بين غلاف الكتاب حيث ذكرت السّنة على أنّها 1345، وبين العنوان الدّاخليّ حيث ذكرت السّنة على أنّها 1344). ويشتمل على عشرة شعراء هم: محمّد العيد آل خليفة، ومحمّد اللّقاني بن السّائح، ومحمّد سعيد الزّاهري، والجنيد أحمد مكّي، وإبراهيم أبو اليقظان، والطّيّب العقبي، ومفدي زكرياء بن سليمان، وأحمد كاتب بن الغزالي، وإبراهيم بن نوح امتياز، ومحمّد الهادي السّنوسيّ الزّاهري. ويقع هذا الجزء الأوّل الذي وقع لنا (ولم يقع لنا إلى اليوم الجزء الثاني الذي يقال: إنّه يشتمل على أحد عشر شاعراً، وصدر عام 1927، ولكن ذكر محمّد الهادي السّنوسيّ في الصّفحة الرّابعة التي أعلن فيها عن قرب صدور الجزء الثاني من أنّه يقع في 240 صفحة) الذي يعدّ أهمّ مصدر للشّعر الجزائريّ قبل عهد الاستقلال في 205 ص.

السّياب، بدر شاكر، (الأعمال الكاملة)، دار العودة، بيروت، 1971.

الشّهاب، (الشّهريّة) لعبد الحميد بن باديس، قسنطينة، 1929-1939.

الطّمّار، محمد، تاريخ الأدب الجزائريّ، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 1969، (393ص.).

العاصمي، محمد، صوت المسجد، (مجلّة شهريّة)، الجزائر، أعداد مختلفة منها.

العقبي، مؤيّد صلاح، الثورة في الأدب الجزائري، (مختارات شعريّة)، ش.و.ن.ت.، الجزائر، 1963 (151ص.).

الفاروق، (جريدة) 1913 –1915): أعداد: 5، 6، 7، 9، 10، 11، 14، 59، 60.

الفرزدق، هُمام بن غالب بن صعصعة، ديوانه، (جزءان)، دار بيروت، 1980.

القرآن العظيم (رواية ورش).

المتنبّي، أبو الطيّب أحمد، ديوانه، شرح عبد الرّحمن البرقوقي، المكتبة التجارية الكبرى بمصر (د.ت).

النّجاح، قسنطينة، العدد الصّادر في 23 سبتمبر 1950، ص. 2، عمود 2.

باويه، صالح، أغنيات نضاليّة، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، **1971**.

بخوشة، محمّد بن الحاج الغوثي، مقدّمة ديوان الأخضر بن خلوف، الرّباط (د.ت).

تركي، رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1970

حوطش، عبد الرحمن، شعر الثورة في الأدب العربيّ المعاصر، نشر مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع، الرباط، 1987.

خرفي، صالح، أطلس المعجزات، ش.و.ن.ت.، الجزائر، 1968 (244ص.)

خرفي، صالح، أنت ليلاي، نشر الشّركة الوطنيّة للنّشـر والتّوزيـع، الجزائـر، 1974.

خرفي، صالح، الشّعر الجزائريّ الحديث، الشّركة الوطنيّـة للنّشر والتّوزيـع، الجزائر 1973، 396ص.+ ملحق: 148ص.

خرفي، صالح، حمّود رمضان، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1985.

خرفي، صالح، شعر المقاومـة الجزائريّـة، الشـركة الوطنيّـة للنشـر والتّوزيـع، الجزائر، (د.ت).

خمّار، بلقاسم، ربيعي الجريح، ش.و.ن.ت.، الجزائر، 1970.

خمّار، بلقاسم، ظلال وأصداء، الشـركة الوطنيّـة للنّشر والتوزيـع، الجزائـر، 1969.

دبّوز، محمّد عليّ، نهضة الجزائر الحديثة، وثورتها المباركـة، صـدر الجـزء الأوّل في دمشق، 1965، والثاني بالجزائر في عام 1971.

ركيبي عبد اللّه، الشّاعر جلـواح مـن التّمـرّد إلى الإنتحـار، المؤسّسـة الوطنيّـة للكتاب، الجزائر، 1986.

ركيبي عبد اللّه، دراسات في الشّعر العربيّ الجزائريّ الحديث، الدّار القوميّـة للطّباعة والنّشر، القاهرة، 1961 (81ص.).

رمضان، محمّد الصّالح، رسـالة مطوّلـة كتبـها إليّ مـن الجزائـر (القبّـة) في 6 أكتوبر 1973.

سحنون أحمد، ديوان أحمد سحنون، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1977.

سعد اللّه، أبو القاسم، الحركـة الوطنيّـة الجزائريّـة، دار الآداب، بـيروت، 1969.

سعد اللّه، أبو القاسم، النّصر للجزائر، دار الفكر، القاهرة، 1957.

سعد اللّه، أبو القاسم، محمّد العيد آل خليفة، دار المعـارف، القـاهرة، ط.1، 1961، 241ص.، ط.2، دار النّشر نفسها، 1975.

سكيرج، أحمد، الرّحلـة الحبيبيّـة الوهرانيّـة، الجامعـة للّطـائف العرفانيّـة، طبعت هذه الرّحلة بفاس على المطبعة الحجريّة (أهمل تاريخ الطّبع).

طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف بمصر، 1952.

عباس، فرحات، ليل الاِستعمار، ترجمة أبي بكر رحـال، فضالـة، المغـرب، (د.ت).

عبّود شرّاد، شلتاغ، حركة الشّعر الحـرّ في الجزائـر، الشـركة الوطنيّـة للنشر والتوزيع، الجزائر.

عليوة، أحمد بن مصطفى بن محمد، الموادّ الغيثيّة، النّاشئ (كـذا، والمفـروض أن يقال: «النّاشئة»، لأنّها صفة للمـوادّ...) عـن الحِكَـم الغوثيّـة»، ط.1، مستغانم، 1361 للهجرة.

عليوة، أحمد بن مصطفى بن محمد، رسالة النّاصر معروف، في الرّدّ على مـن أنكر التّصوّف، صدر بدمشق، 1931.

عليوة، أحمد بن مصطفى، ديوانه، (وقصائد صوفية ملحقـة بـهذا الديـوان)، طبع بمطبعة الترقي بدمشق، 1931.

لسان الدين، (جريدة أسبوعية) مستغانم، أعداد مختلفة.

محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس، دار المعارف بمصر، 1968.

مرتـاض، عبـد الملـك، الأدب الجزائـري القديـم، (دراسـة في الجـذور)، دار هومة، الجزائر، 2000.

مرتاض، عبد الملك، التحليل السيمائي للخطاب الشعري، تحليـل مسـتوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2001.

مرتاض، عبد الملك، القصّة في الأدب العربيّ القديم، نشر شركة مرازقة وبوداود، الجزائر، 1968.

مرتاض، عبد الملك، الكتابة من موقع العدم، نشر دار اليمامة، الرياض، 1999.

مرتاض، عبد الملك، بين التناصّ والتكاتب، الماهية والتطور، مجلّة قوافل، الرياض، ع.7، 1996.

مرتاض، عبد الملك، خصائص الخطاب في رواية الثلاثة للإبراهيمي، مجلّة الثقافة، الجزائر، 1984.

مرتاض، عبد الملك، دليل مصطلحات ثورة التّحرير الجزائريّة (1954–1962)، منشورات المركز الوطنيّ للدّراسات والبحث في الحركة الوطنيّة وثورة نوفمبر، ط.2 2001، وصدرت الطّبعة الأولى عن ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1983.

مرتاض، عبد الملك، رواية الثلاثة للشيخ الإبراهيمي، في مجلّة الثقافة، الجزائر، ع. 38، 1977.

مرتاض، عبد الملك، فكرة السرقات الأدبية ونظرية التناص، مجلّة علامات، جدة، ع.1، 1991؛

مرتاض، عبد الملك، قراءة النّص بين محدوديّة الاستعمال ولا نهائيّة التّأويل، كتاب الرّياض، الرياض، 1997.

مرتاض، عبد الملك، نهضة الأدب العربيّ في الجزائر، الجزائر، 1969.

مصايف محمد، محمد ناصر، عبد الملك مرتاض، الشّعر الجزائريّ الحديث (من 1925 إلى 1954) (جمع واختيار)، وحدة الأدب الجزائريّ الحديث والمعاصر،

الجزائر، 1980–1981. (زهاء 85 ص. من القطع الكبير، مسحوب على ورق الحرير، ولم ينشر للجمهور. وقد اشتمل على قريب من سبعين قصيدة).

مفدي زكرياء، اللّهب المقدّس، المكتب التّجاري، بيروت، 1961؛ نشر وزارة التّعليم الأصليّ والشّؤون الدّينيّة، بتقديم مولود قاسم، الجزائر، 1973(353 ص.).

ناصر، محمد، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، وزارة الثقافة، الجزائر، 1984.

ناصر، محمد، رمضان حمّود الشّاعر الثائر، المطبعة العربيّة، غارداية، 1978، (271ص.).

ناصر، محمد، مفدي زكرياء شاعر النّضال والثورة، المطبعة العربيّة، غارداية، 1984، (180 ص.).

يحيى الشّيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، طبع الكتاب على نفقة المؤلّف، قسنطينة، 1987.

مراجع بالفرنسيّة :

A. Augé, Le retour du religieux, in Encyclopœdia universalis.

Berque, Revue Africaine, n°79, 1936.
Paul Reboux,Notre (?)Afrique du nord, Bruxelles.
Grasset, 1992.
Jean Cohen, Structure du langage poétique, Flammarion, Paris, 1966.
Nouschi, La naissance du nationalisme algérien, Paris, 1963.
Umberto Eco, Les limites de l'interprétation, traduit par Myriem Bouzaher, Paris, 1992.

<><><><><><><>

فهـــــــرس

طبع بمطبعة دار هومه– الجزائر 2009
34، حي لابروبار – بوزريعة – الجزائر
الهاتف: 021.94.19.36 /021.94.41.19
الفاكس: 021.79.91.84 / 021.94.17.75
www.editionshouma.com
email : Info@editionshouma.com

ردمك: ISBN 978-9961-65-366-1
9 789961 653661



للطباعة والنشر والتوزيع
34 حي لابروير- بوزريعة- الجزائر

الهاتف: 36 19 94 021   19 41 94 021
الفاكس: 75 17 94 021   84 91 79 021
www.editionshouma.com
e-mail:info@editionshouma.com